المختصر في السيرة النبوية

دراسة محررة

تأليف

موسى بن راشد العازمي

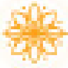
دار ابن الجوزي

المختصر في السيرة النبوية

تأليف

موسى بن راشد العازمي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ المرسَلين ورحمةِ الله للعالَمين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الطيِّبين أجمعين، وبعدُ:

فقد طلب مني الإخوةُ الكرام في دار المختصر تأليفَ كتابٍ مختَصَرٍ جامعٍ في السِّيرة النَّبَوية؛ ليكون ضمن مشروعهم في تقريب السُّنَّة والسِّيرة النَّبَوية لعامة الناس، فاعتذرتُ منهم في بداية الأمر، وذلك لانشغالي في مشروعي في خدمة السِّيرة النَّبَوية ومتطلباتها، ثم عاودوا الاتصال بي مرةً أخرى، وبعد إلحاحٍ منهم قلتُ: سأنظر في ذلك، وبدأتُ بعدها أتفحَّص كتُبَ المختصَرات في السِّيرة النَّبَوية للمتقدِّمين والمتأخِّرين، فوجدتُ جهودًا مباركةً سَطَرَها أولئك الكرام في مختصَراتهم، وكنتُ قد جمعتُ من الفوائد والترجيحات والتحقيقات في هذا العِلم الشريف -السِّيرة النَّبَوية- ما فات أولئك الكرامَ في مختَصَراتهم؛ فانشرح صدري لكتابة مختَصَر متينٍ جامعٍ في السِّيرة النَّبَوية، ولا يتعدَّى الجزءَ الواحِدَ، وشَرْطي في هذا المختصَر ذِكرُ القول الراجح في الحَدَث الواحد، أو ما أجمع عليه أهلُ السِّيَر والمغازي، ولا أذكر الخلاف إلا في المواضع التي وقع فيها خلافٌ قوي، وجمعتُ بين الروايات إن أمكن الجمع، وذكرتُ الراجِحَ في تواريخ الأحداث، وشرحتُ الكلماتِ التي تحتاج شرحًا؛ ليَسهُلَ على



القــارئ الكريم فهمُها، ومن المعلوم أن التســاهل في ذكر أحداث السِّــيرة النَّبَوية جرى عليه العلماء، لكنه بشــروط وليس على إطلاقه، كما قال ابن سَــيِّد الناس في عيون الأثر: والذي ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخُّصُ في الرقائــق، وما لا حُكمَ فيه من أخبــار المغازي، وما يَجري مجرى ذلك، وأنه يُقبَل فيها ما لا يُقبَل في الحلال والحرام؛ لعدمِ تَعلُّق الأحكام بها(١).

وكنــتُ في بداية الأمر عازمًا على ألَّا يَكبُرَ حجـمُ هذا المختَصَر، إلا أنني وقفتُ على ترجيحات وتحقيقات نفيســة جدًّا، رأيتُ أنه من الظلم العلمي أن تُتركَ هذه الترجيحاتُ والتحقيقاتُ دون أن تُدوَّنَ؛ فكَبُرَ حجمُ هــذا المختَصَر قليلًا، وأســألُ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ أن يتقبَّلَ عملــي هذا في تقريب السِّــيرة النَّبَويــة ناصعةً صحيحــةً لأُمة الإســلام، وأن يُبارِكَ فيــه ويجعلَه خالصًــا لوَجْهِهِ الكريمِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وصلَّى اللهُ وســلَّم وبــارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابِه الطيِّبين الطَّاهِرين.

كتبه: موسى بن راشد العازمي
ليلة الأحد
الخامس عشر من شعبان ١٤٤٢هـ
الموافق: السابع والعشرين من مارس ٢٠٢١م
الكويت حفظها الله
mrm3azmi@gmail.com

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ٢١٥).



النَّسَبُ النَّبويُّ الشَّريف

هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

ذكَر هذا النَّسَبَ النبويَّ الشريفَ الإمامُ البخاريُّ في صحيحه[١]، وهذا القدرُ مِن نَسَبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متَّفق عليه بالإجماع، نقَل الإجماعَ على ذلك: الإمامُ النوويُّ[٢]، والحافظُ ابنُ كثير[٣]، والإمامُ ابن القيِّم[٤]، وغيرُهم.

قال الحافظ ابن كَثير: وهذا النَّسَب الذي سُقناه إلى عَدْنَانَ لا مِرْيَةَ فيه ولا نِزاع، وهو ثابت بالتواتُر والإجماع[٥].



(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب مناقب الأنصار - باب: مبعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٢).
(٣) انظر: الفصول في سيرة الرسول (ص ٣٤).
(٤) انظر: زاد المعاد (١/ ٥٣).
(٥) انظر: الفصول في سيرة الرسول (ص ٣٤).





ولادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1] ورضاعه

وُلد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين[2] من شهر رَبيع الأول من عام الفِيل، فقد روى الإمام مُسْلم في صحيحه عن أبي قَتَادة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن صوم الاثنين، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فيه وُلِدْتُ، وفيه أُنْزِلَ عَلَيَّ»[3].

واختُلِف في تحديد يوم الاثنين من شهر رَبيع الأول، الذي وُلِدَ فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالجمهور على أنه يومُ الثاني عشَر من شهر رَبيع الأول[4]، واقتَصَر عليه ابن إسحاق في السيرة[5].

ورَوَى الإمام أحمدُ والتِّرمِذيُّ بسند حسن عن قيس بن مَخْرَمة

---

(١) وُلِدَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتيمَ الأب - كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾.
وروَى الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧١) (٧٠) عن ابن شهاب قال: ولَدَت آمِنَةُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما تُوُفِّيَ أبوه.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٦٦٢): وهذا ما لا خلاف فيه؛ أنه وُلِدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الصيام - رقم الحديث (١١٦٢) (١٩٨).

(٤) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٦٦٣): هذا هو المشهور عند الجمهور، والله أعلم.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٩٥).





رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وُلِدْتُ أنا ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الفِيل[1].

وروَى الحاكم في المستدرَك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: وُلِدَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الفيل[2].

أرضَعَت آمِنَةُ بنتُ وَهْبٍ ولَدَها رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيامًا، وكانت قليلةَ اللبَن، ثم أَرْضَعَتْه ثُوَيبة مَوْلاة أبي لهَب، وذلك قبل أن تَقْدَم حَلِيمة السَّعْدية.

روَى الشيخان في صحيحَيهما عن أم حَبيبة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قالت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّا نُحدَّث أنك تريد أن تَنكِح بنتَ أبي سلَمة! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بنتَ أُمِّ سلمةَ؟» قلت: نعم. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أنها لَمْ تكُنْ رَبيبَتِي[3] في حَجْري مَا حَلَّتْ لِي؛ إنها لَابْنَةُ أَخِي مِن الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ، فَلَا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ»[4].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (رقم ١٧٨٩١) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٩٤٧) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب - وذكره الإمام الذهبي في السيرة النبوية (١/ ٣٣) وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٢٥).

(٣) الربيب: ابن امرأة الرجل من غيره. انظر: لسان العرب (٥/ ٩٨).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥١٠١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٤٩) (١٥).



رَضاعه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في بادِيَة بني سَعد

ثم أَرضَعَت حَلِيمةُ السَّعدية رسولَ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في بادية بني سَعد بن بَكر، وأقام عندها رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سنتَين حتى فَطَمَتْه، ثم إنها طَلَبَت من آمِنَةَ بنت وَهْب أن يَبقى عندها رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك لمَّا رأت البركات التي ظَهَرَت في غنمها وأرضها.

قالت حَلِيمة السَّعدية: فلَم نَزَل نَتعرف من الله الزيادة والخير، حتى مَضَت سَنَتَاه وفَصَلْتُه[1]، فكان يَشِبُّ شبابًا لا يَشِبُّه الغِلمان، فلم يبلُغ سَنَتَيه حتى كان غلامًا جَفْرًا[2].



حادثة شَقِّ صَدره صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الشريف

وبينما رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَلعب مع الغلمان في بادية بني سَعد، إذ جاءه جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومعه ملَك آخر، فشَقَّ عن صدره الشريف، فقد روَى الإمام أحمد في مُسنَده والحاكم في المُستَدرَك -بسند حسن بالشواهد- عن عُتبة بن عبدٍ السُّلَمي قال: إن رجلًا سأل رسول الله

(١) فصَلَت المرأة ولَدَها: فَطَمَته. انظر: لسان العرب (١٠/ ٢٧٣).

(٢) استَجْفَر الصبي: إذا قوي على الأكل. انظر: النهاية (١/ ٢٦٨).

وأخرج ذلك ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٣٣٥) - وابن إسحاق في السيرة (١/ ٢٠١) وإسناده منقطع، وللقصة شواهد كثيرة ثابتة.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كانت حاضنَتي من بني سَعدِ بن بكر، فانطَلَقتُ أنا وابنٌ لها في بَهْمٍ[1] لنا، ولم نأخُذْ معنا زادًا، فقلتُ: يا أخي، اذهَبْ فأْتنَا بزاد من عند أُمِّنا، فانطلَق أخي، ومَكَثتُ عند البَهْم، فأقبَلَ طَيْران أبيَضان كأَنَّهما نَسْرَان، فقال أحدُهما لصاحبه: أهو هو؟ قالَ: نعم، فأَقْبَلا يَبتدرَاني[2] فأخَذاني فبَطَحاني إلى الْقَفَا، فشَقَّا بطني، ثمَّ استَخرَجا قلبي فشَقَّاه، فأخرَجا منه علَقتَيْن[3] سَوْداوَيْن، فقال أحدُهما لصاحبه: حُصْهُ -يعني خطْهُ-، فحاصه وختَم عليه بخاتَم النُّبوَّة... ثمَّ انطَلَقا وترَكاني، وفرِقْتُ فرَقًا شديدًا، ثمَّ انطَلَقتُ إلى أمِّي[4] فأخبرتُها بالَّذي لَقيتُه، فأشفَقَتْ عليَّ أن يكونَ أُلبِسَ بي، فقالت: أُعيذُك بالله! فرَحَلَتْ بعيرًا لها فجَعَلتْني على الرَّحْلِ ورَكِبَتْ خلفي، حتَّى بلَغْنا إلى أمِّي[5] فقالت: أدَّيْتُ أمانتي وذِمَّتي. وحدَّثْتها بالَّذي لقيتُ، فلم يَرُعْها[6] ذلك، وقالت: إنِّي رأيتُ خرَج منِّي نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّامِ»[7].

(١) البَهْم -بفتح الباء وإسكان الهاء- جمع بَهْمة: وهي ولد الضأن؛ الذكر والأنثى. انظر: النهاية (١/ ١٦٥).
(٢) بدَرْتُ إلى الشيء: أَسرَعْت. انظر: لسان العرب (١/ ٣٤٠).
(٣) العَلَقة: الدم الجامد. انظر: جامع الأصول (١٠/ ١١٤).
(٤) هي حَلِيمة السَّعدية.
(٥) هي آمِنَة بنت وَهْب.
(٦) فلم يَرُعْها: يعني لم يُفزِعها. انظر: النهاية (٢/ ٢٥٢).
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٦٤٨) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٧٦) - وذكره الإمام الذهبي في السيرة النبوية (١/ ٥٢) وقال: هو صحيح.



وروَى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ[١] ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ -يَعْنِي ظِئْرَهُ-[٢] فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ! فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ[٣] اللَّوْنِ، قَالَ أَنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ[٤].

وفاة آمِنَةَ بنتِ وهبٍ أُمِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

رجَع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد حادثة شَقِّ الصدر إلى أُمِّه آمِنَةَ بنت وَهْب، فلما بلَغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عُمره المبارَك سِتَّ سِنينَ، ذهَبَت به أُمُّه آمِنَة تَزُور أخوال جدِّه عبد المطَّلِب في يَثْرِب، وهي المدينة النبوية، وفي طريق عودتهم إلى مكة تُوُفِّيَت آمِنَة بنت وَهْب في منطقة الأَبْواء، وهي بين مكة والمدينة[٥].

---

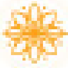
(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ١٨٧): أمَّا لأَمَهُ فبفتح اللام وبعدها همزة، على وزن ضَرَبَه ومعناه: جمَعَه وضَمَّ بعضه على بعض.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ١٨٧): ظِئْرَه: هي بكسر الظاء المعجمة بعدها همزة ساكنة: وهي المُرضِعة.

(٣) منتقِع: متغيِّر. انظر: النهاية (٥/ ٩٥).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٦١).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٤).



قال الإمام ابـن القيم: ولا خلاف أن أُمَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتت بين مكة والمدينـة بالأبْواء، مُنْصَرَفَها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يَسـتكمِل إذ ذاك سَبْع سِنِين[1].



كَفَالةُ جدِّه عبد المطَّلِب

تولَّى عبـد المطَّلِـب جَـدُّ النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَالـةَ رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدمـا تُوُفِّيَـت آمِنَـةُ بنـت وَهْـب أُمُّ النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستمرت كَفَالته لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَنَتَين، وقذَف الله حُبَّ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلب جدِّه عبد المطَّلِب، حتى ما كان يُفارقه.

روَى الحاكـم في المُسـتدرَك بسـند حسـن وصححه عـن كِنْدِير بن سعيد، عن أبيه، قال: حجَجْتُ في الجاهِلِيَّةِ، فإذا أنا برجلٍ يَطُوفُ بالبيتِ، وهو يرتَجِزُ ويقولُ:

ربِّ رُدَّ إليَّ راكِبِي محمـدَا
رُدَّهُ إلـيَّ واصطَـنِعْ عِـنـدِي يَـدَا

فقلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: عبدُ المطَّلِبِ بنُ هاشم، بعَث بابنِ ابنِه محمدٍ في طلَـبِ إبلٍ له، ولـم يَبْعَثه في حاجَةٍ إلَّا أَنجَحَ فيهـا، وقد أبطَأ عليه، فلم يَلْبَـث أن جاءَ محمدٌ والإبـلُ، فاعتنَقَه وقال: يا بُنَيَّ، لقَـدْ جَزِعْتُ عليْك

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٦٠).



جَزَعًا لم أَجْزَعه عَلَى شَيْءٍ قطُّ، واللهِ لا أَبعَثُك في حاجة أبدًا، ولا تُفَارِقُني بعد هذا أَبَدًا(١).



وفاة عبد المطّلب

ولما بلَغ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانِيَ سنواتٍ تُوُفِّيَ جدُّه عبد المطَّلِب، وقَبْلَ وفاته أَوصَى ابنَه أبا طالب بحِفظِ وكَفَالة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسبب في اختياره لأبي طالبٍ؛ لأنه شقيق عبد الله والِدِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

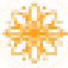


كَفَالة عمِّه أبي طالب

تولَّى أبو طالب كَفَالةَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عُمره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانِيَ سنوات، وظلَّت كَفَالتُه ورعايتُه وحمايتُه له إلى أن بُعِثَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَاطَه أَتَمَّ حِياطة، ونصره حين بعثه الله أعَزَّ نصرٍ.

فلما بلَغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثِنْتَي عَشْرَةَ سَنَةً خرَج به عمُّه أبو طالب إلى الشام، وذلك من تَمَام لُطف أبي طالب برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِعَدَم مَن يقُوم به إذا تركه بمكة.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٢٩).



وفي طريق هذه الرحلة رآه بَحِيرَى الراهب، فعَرَفه بصِفته في التوراة والإنجيل، وظَهَرَت لمَن كان مع أبي طالب من الآيات في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما زاد أبا طالب في الوَصَاة به والحرص عليه، وأمَر بَحِيرَى أبا طالب أن يَرجِع برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئلَّا يَراه يهودُ في الشام، فيَعرِفوه ويَقتُلوه، فرجَع به إلى مكة[١].

شهودُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِلْفَ[٢] الفُضُول

شَهِد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِلْف الفُضُول وهو ابن خمسَ عَشْرَةَ سَنةً، وسبب تَسميتهم هذا الحِلْف بهذا الاسم ما ذكَره ابن إسحاق في سيرته: تَدَاعَت قبائل قريش على حِلْف، فاجتَمَعوا في دار عبد الله بن جُدعان بن عمرٍو؛ لشَرَفه وسِنِّه، فكان حِلْفُهم عنده: بنو هاشم، وبنو المطَّلِب، وأسَد بن عبد العُزَّى، وزُهْرة بن كِلَاب، وتَيْم بن مُرَّة، فتعَاقَدوا وتعَاهَدوا على ألَّا يَجِدُوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرِهم ممَّن دخَلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على مَن ظَلَمَه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلَمَتُه؛ فسَمَّت قريش ذلك الحِلْفَ حِلْفَ الفُضُول[٣].

---

(١) أخرج قصته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع بَحِيرَى الراهب: الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٩٤٨) وحسَّنه - وصحَّحه الحافظ في الإصابة (١/ ٤٧٦) - والحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول (١/ ٤٩-٣٣٨) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٧٥) - والألباني في كتابه دفاع عن الحديث النبوي (ص ٦٢-٧٢).

(٢) أصل الحِلْف: المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق. انظر: النهاية (١/ ٤٠٧).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٧٠).



وروَى ابن إسحاق في السيرة بسند صحيح مُرسَل عن طلحة بن عبدالله بن عوف الزُّهري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، ولَو أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»[(١)].

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده والبخاري في الأدب المُفرَد بسَنَد صحيح عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ[(٢)] مَعَ عُمُومَتِي، وَأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنِّي أَنْكُثُه»[(٣)].



---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/ ١٧١) - وأورده ابن الملقِّن في البدر المنير (٧/ ٣٢٥) وقال: هذا الحديث صحيح - وقال الألباني في تحقيقه لفقه السيرة للغزالي (ص ٧٢): رواه ابن إسحاق في السيرة، وهذا سند صحيح لولا أنه مرسل، ولكن له شواهد تقويه.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٤٠٨): إنما سَمَّى رسولُ الله ﷺ حِلْفَ الفُضُول بالمُطَيَّبين، مع أنه ﷺ لم يَشْهَد حِلْف المُطَيَّبين؛ لأنه كان شبيهًا به في التناصح، والأخذ للضعيف من القوي، وللغريب من القاطن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٥٥) - والبخاري في الأدب المفرد - رقم الحديث (٤٤١).



رَعْيُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغنَم

عَمِلَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شبابه برَعي الغنم، وذلك قبل بعثته.

روَى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أصحابه: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ[1] لِأَهْلِ مَكَّةَ»[2].

وروَى الإمام البخاري في الأدب المُفرَد بسند صحيح عن عَبْدَةَ بن حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: تَفاخَرَ أهلُ الإبل وأصحاب الشَّاءِ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثَ موسَى وهوَ راعِي غَنَمٍ، وبُعِثَ داود وهوَ راعِي غَنَمٍ، وبُعِثْتُ أنا، وأنا أَرْعَى غنمًا لِأَهْلِي بِأَجْيَادٍ»[3].

قال الحافظ في الفتح: قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء مِن رَعْي الغنم قبل النبوة:

١- أن يحصُل لهم التمرُّن برَعْيها على ما يُكَلَّفُونه من القيام بأمر أُمَّتهم.

---

(١) القراريط: جمع قيراط، وهو جُزء من أجزاء الدينار. انظر: النهاية (٤/ ٣٧).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد - رقم الحديث (٤٥٠).



٢- **ولأن في مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة؛** لأنهم إذا صبَروا على رَعيها، وجَمْعها بعد تفرُّقها في المَرعى، ونَقْلِها مِن مَسرَح إلى مَسرَح، ودَفْعِ عدوِّها مِن سَبُع وغيره، وعَلِموا اختلافَ طِباعها وشِدَّةَ تفرُّقها، مع ضَعفها واحتياجها إلى المعاهَدة؛ أَلِفُوا من ذلك الصبرَ على الأُمَّة، وعرَفوا اختلاف طِباعها وتفاوُتَ عقولها، فجَبَروا كَسْرَها، ورَفَقوا بضَعيفها، وأحسَنُوا التعاهُد لها؛ فيكون تحمُّلُهم لِمَشقَّة ذلك أسهَلَ مما لو كُلِّفوا القيامَ بذلك مِن أول وَهْلة؛ لِمَا يحصُلُ لهم من التدريج على ذلك برَعي الغنم.

٣- **وفي ذِكْر النبي ﷺ لذلك،** بعد أن عَلِم كَوْنَه أكرَمَ الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمِنَّته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء[١].



(١) انظر: فتح الباري (٥/ ٢٠٠).



خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تجارة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وزواجه بها

ولما بلَغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسًا وعشرين سنة مِن عُمره المبارك، خرج إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خُوَيلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع غلامها مَيْسَرة، فرأى مَيْسَرةُ ما بَهَرَه من شأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرَجَع وأخبَر سيدته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما رأى، فرَغِبَت في الزواج منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك لِمَا رَجَت في ذلك من الخير الذي جمَعه الله لها، وفوقَ ما يَخطُر ببال بشَر، فتزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله من العُمر خمسٌ وعشرون سنة.

واختُلف في عُمر خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمَّا تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقيل: أربعون سنة[(١)]. وقيل: ثمانٍ وعشرون سنة[(٢)]، وقيل غيرُ ذلك.

والحقُّ أنه لا يثبُتُ شيء في عُمرها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم يتزوَّج عليها غيرَها، ورُزِق منها جميعَ أولاده وبناته، إلا إبراهيم؛ فكان من مارِيَةَ القِبطية.



---

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته (١/ ٦٢) عن الواقدي.

(٢) ذكره الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٨٩٧) عن ابن إسحاق بدون إسناد، ولم يذكر ابن إسحاق في السيرة عُمْرَ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو ذكَره لاشتهَر عنه أيّما اشتهار؛ لشُهْرة كتابه.



تجديد بناء الكعبة

أرادت قريش تجديد بناء الكعبة؛ وذلك بسبب الوَهَن الذي أصاب بناءها، وكان ذلك قبل بَعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بخمس سنين، وكان عُمْر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خمسًا وثلاثين سنة، وشارك النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قومه في بنائها.

روَى الشيخان في صحيحَيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْقُلُ مَعهُمُ الحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ، وَعلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ عَمُّهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: يا بْنَ أَخِي، لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ! قَالَ: فَحلَّهُ، فَجعَلَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ، فَسَقطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. قَالَ: فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرْيَانًا(١).

وفي رواية أخرى في الصحيحين قال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: لَمَّا بُنِيَتِ الكَعْبَةُ ذَهبَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وَعبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الحِجَارَةَ، فَقَالَ العَبَّاسُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: اجْعلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ(٢)، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ، وَطَمَحَتْ(٣) عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «أَرِنِي إِزَارِي»، فَشَدَّهُ عَلَيْهِ(٤).

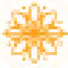
---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٤٠) (٧٧).

(٢) في رواية الإمام مسلم: عاتقك.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٣٤): فطَمَحَت -بفتح المهملة والميم-: أي ارتفعَتا.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٨٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٤٠) (٧٦).



قال الحافظ في الفتح: وفي الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مصونًا عما يُستقبَح قبل البَعثة وبعدها، وفيه النهي عن التعرِّي بحَضرة الناس[1].



وَضْعُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحجَرَ الأسود بيده الشريفة

فلما بلَغَت قريشٌ في بناء الكعبة إلى موضع الحجَر الأسود، تنازَعوا فيمن يَضَعُه، حتى كادت أن تشتعل الحرب بينهم، فاتفقوا على أن يُحكِّموا بينهم أولَ مَن يدخل من باب بني شَيبة، ويُقدِّر الله أن يكون أوَّلَ مَن دخَل عليهم من باب بني شَيبة رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

روَى الإمام أحمد في مُسنَده والحاكم في المُستدرَك بسند صحيح - واللفظ للحاكم - عن عبد الله بن السائب قال: إِنَّ قُرَيْشًا اخْتَلَفُوا فِي الْحَجَرِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوهُ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ بِالسُّيُوفِ، فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ! وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأَمِينَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ رَضِينَا بِكَ، فَدَعَا بِثَوْبٍ فَبَسَطَهُ وَوَضَعَ الْحَجَرَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لِهَذَا الْبَطْنِ وَلِهَذَا الْبَطْنِ: «لِيَأْخُذْ كُلُّ بَطْنٍ مِنْكُمْ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ»، فَفَعَلُوا، ثُمَّ رَفَعُوهُ، وَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ[2].

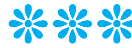
---

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٢٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٥٠٤) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٧٠١).



وفي رواية أخرى في المُستدرَك ودلائل النبوة للبيهقي بسند حسن عن عليِّ بن أبـي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوا الْحَجَرَ تَشَاجَرُوا فِـي وَضْعِهِ، فَقَالَوا: أَوَّلُ مَـنْ يَخْرُجُ[١] مِنْ هَذَا الْبَابِ فَهُـوَ يَضَعُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قِبَلِ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، فَأَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ، فَوَضَعَ الْحَجَـرَ فِي وَسَـطِهِ، ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا مِنْ كُلِّ فَخْذٍ مِـنْ أَفْخَاذِ قُرَيْشٍ أَنْ يَأْخُذَ بِنَاحِيَةِ الثِّيَابِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، فَوَضَعَهُ[٢].



حِفْظُ الله رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البَعثة

صان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسـوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحَمَاه، وطهَّره من دَنَس الجاهليـة ومـن كل عَيْب، ومنَحَه كلَّ خُلُق جميـل، حتى لم يكن يُعرَف بيـن قومـه إلا بالأَمِين؛ لِمَا شـاهَدوا من طهارته، وصِـدْقِ حديثه وأمانته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قـال الإمـام ابن القيم: ثم حَبَّـبَ الله إليه الخَلْوة والتعبـد لربه، وكان يَخْلُـو بغار حِـرَاءٍ يَتعبَّد فيه الليالـيَ ذواتِ العَدَد، وبُغِّضَـت إليه الأوثان ودِينُ قومه، فلم يكن شيء أبغضَ إليه من ذلك[٣].

---

(١) في رواية البيهقي: يدخل.

(٢) أخرجـه الحاكم في المسـتدرك - رقم الحديـث (١٧٠٢) - والبيهقـي في دلائل النبوة (٢/ ٥٧).

(٣) انظر: زاد المعاد (١/ ٦١).



مَبْعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لمَّا بلَغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عُمُره المبارَك أربعين سَنةً[1] -على الصحيح- نزل عليه الوحي، وهو في غار حِرَاءٍ.

روَى الشيخان في صحيحَيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ[2]، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ[3] -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ[4] إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا،

---

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بُعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأربعين سنة، فمكَث بمكة ثلاثَ عشرةَ سنة يُوحَى إليه، ثم أُمر بالهجرة، فهاجر عشرَ سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ٨١): وهذا الذي ذكرناه أنه بُعث على رأس الأربعين سنة، هو الصواب المشهور الذي أطبَق عليه العلماء.

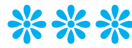
(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٨): وإنما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحب الخَلاء والانفراد عن قومه؛ لِمَا يَرَاهم عليه من الضلال المبين؛ من عبادة الأوثان، والسجود للأصنام، وقَوِيَت محبَّته للخَلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ١٧١): التحنُّث -بالحاء المهملة- فسَّره بالتعبُّد، وهو تفسير صحيح، وأصل الحِنْث: الإثم، فمعنى يتحَنَّث: يتجَنَّب الإثم؛ فإنه بعبادته يَمنَع نَفْسَه من الحِنْث.

(٤) قال الحافظ في الفتح (١/ ٣٤): يَنْزِع -بكسر الزاي- أي: يَرجِع، وزنًا ومعنًى.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٩٢٣): يَرجِع.



حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: «اقْرَأْ» قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي[1] حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[2]»، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: «زَمِّلُونِي[3] زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، فَقَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ[4].



---

(١) في رواية ابن إسحاق في السيرة (١/ ٢٧٣): فغَتَّني.
قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٣٠٨): الغَتُّ والغَطُّ سواءٌ، كأنه أراد: عصَرَني عصرًا شديدًا حتى وجدتُ منه المشقة، كما يجد مَن يُغمَس في الماء قهرًا.

(٢) سورة العلق - الآيات (١ - ٥).
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ١٧٢): هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القرآن ﴿اقْرَأْ﴾، وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف.

(٣) زمِّلوني: يعني: غطُّوني. انظر: النهاية (٢/ ٢٨٣).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٠) (٢٥٢).



فُتُور الوحي[1] ونزوله مرة ثانية

فتَر الوحي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أول مرة مِن نزول جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحكمة من ذلك: ليَشتاقَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه مرة أخرى.

روَى الإمام أحمد في مُسنَده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: حُبِسَ الوحيُ عن رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوَّلِ أَمْرِه، وحُبِّبَ إليه الخَلَاءُ، فجَعَلَ يَخلُو في حِراءٍ، فبَينَما هو مُقبِلٌ مِن حِراءٍ: «إذَا أنَا بِحِسٍّ مِن فَوْقِي، فرَفَعْتُ رَأْسي، فإذا الذي أَتَاني بحِراءٍ فَوقَ رَأْسي على كُرْسيٍّ، فلمَّا رَأيتُه جُئِثْتُ[2] عَلَى الأرْض، فلمَّا أَفَقْتُ أَتَيتُ أَهْلِي مُسرِعًا فقلتُ: دَثِّرُونِي، دَثِّرُونِي، فأتاني جِبريلُ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ[3] ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ

(١) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٠): فتور الوحي: عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجده من الرَّوع، وليحصل له التشوق إلى العود.

(٢) وفي صحيح البخاري رقم الحديث (٣٢٣٨): "فَجُئِثْتُ مِنْهُ، حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ".
وفي مصنف ابن أبي شيبة رقم الحديث (٣٧٧١٣): "جُئِثْتُ إلى الأرض".
قال الحافظ في الفتح (٩/ ٧٤٣): ذكَر عِيَاض أنه وقع للقابِسيِّ بالمهملة، قال: وفسَّره بـ(أَسرَعْت) قال: ولا يصح مع قوله: "حتى هَوَيْت" أي: سَقَطتُ من الفزع.
قلت (القائل ابن حجر): معناها إن كانت محفوظة: سقطت على وجهي حتى صرتُ كمن حُثِيَ عليه التراب.

(٣) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢١/ ٣٥٧): ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب؛ إذ ناداه بحاله، وعبَّر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد، ويا فلان؛ ليستشعر اللِّين والملاطفة من ربه.



فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾»[(١)].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما والإمام أحمد في مُسنَده -واللفظ لأحمد- عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أخبرني جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ثم فتَرَ الوَحيُ عَنِّي فَتْرَةً، فَبيْنَا أنَا أَمْشي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاء، فَرَفَعْتُ بَصَري قِبَلَ السَّماء، فَإذَا المَلَكُ الذي جاءَني بحِرَاءٍ قَاعدٌ على كُرْسيٍّ بيْنَ السَّمَاء والأَرْض، فَجُئِثْتُ منه حتَّى هَوَيْتُ إلى الأَرْض، فَجئْتُ أهْلي، فقُلْتُ: زَمِّلُوني! زَمِّلُوني! زَمِّلُوني! فَزَمَّلُوني، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾ ثُمَّ حَمِيَ الوَحْيُ بَعدُ وتَتَابَعَ»[(٢)].

قال الحافظ ابن كثير: ثم أمَرَ اللهُ رسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية[(٣)] أن يُنذِرَ قومه، ويَدعوَهم إلى الله؛ فشَمَّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ساق التكليف، وقام في طاعة الله سبحانه أتَمَّ قيام، يَدعو إلى اللهِ سبحانه الكبيرَ والصغيرَ، والحُرَّ والعبد، والرجال والنساء، والأسود والأحمر[(٤)].

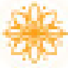
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- رقم الحديث (٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦١) (٢٥٥) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٨٣).

(٣) هي قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

(٤) انظر: كلام الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول (ص ٥٥).



وذلك لعالمية رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾[1]، وكما قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[2].

أقسام الدعوة

■ **تنقسم الدعوة في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قسمين:**

* مكية. * مدنية.

■ **والمكية تنقسم إلى قسمين:**

* سِرِّية: واستمرت ثلاث سنوات.

* وجَهرية: باللسان فقط دون قتال، وكانت من بداية السنة الرابعة للبَعثة حتى الهجرة إلى المدينة.



(١) سورة سبأ - آية (٢٨).

(٢) سورة الأنبياء - آية (١٠٧).



الدعوة السِّرِّيَّة[1]

بـدأ رســول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يدعو ســرًّا من يَثِـق به؛** فأخبَـر زوجته خديجة بنت خُويلـد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وبناتِه، وعليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان في حِجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومولاه زيدَ بنَ حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأولُ مَـن آمَن به من خارج بيتـه أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ودخل في دين الله في هذه الفترة المتقدمة من الدعوة مَن شـرَح الله صدره للإسـلام، فأسلَم عدد قليل من الأوائل من الصحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

أسلَمَ هؤلاء سِرًّا، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجتمع بهم ويُرشِدهم إلى الدِّين متخفيًا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسِرِّية، وكان الوحي قد تتابَع وحَمِيَ نزولُه بعد نزول أوائل ســورة المدثِّر، وبدأ الناس يَتسـامَعون بدعوة الإسلام، فدخَل فيه في هذه الفترة السِّرِّية الفقراءُ والأَرِقَّاءُ.



---

(١) قلت: الأدلة على أن الدعوة كانت في بدايتها سريةً كثيرةٌ، أذكر منها:

١ - قال ابن إسـحاق في السيرة (١/ ٢٨٠): جعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النُّبُوة سرًّا إلى مَن يطمئن إليه من أهله.

٢ - وروى الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٨٣٢) عن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قـال: كُنْتُ وَأَنَـا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُـنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُـوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا.



أول دم أُهرِيق في الإسلام

كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صَلَّوا[١] ذهبوا إلى الشِّعَاب[٢] فاستَخْفَوا بصَلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في نفر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شِعْب من شِعَاب مكة، إذ ظهَر عليهم نفر من المشركين، وهم يُصلُّون، فناكَرُوهم وعابوا عليهم ما يَصنَعون حتى قاتلوهم، فضَرَب سعدُ بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يومئذ رجلًا من المشركين بلَحْيِ[٣] بعير فشَجَّه، فكان أولَ دم هُريق في الإسلام[٤].

ورَوَى الإمام الترمذي في جامعه بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إني لأولُ رَجُلٍ أهرَاق دَمًا في سبيل الله[٥].

---

(١) لم تكن الصلاة فرضًا قبل الإسراء والمعراج، وإنما كانت على الاستحباب، ولم تُفرض الصلاة إلا في الإسراء والمعراج.
قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٧٥): كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الإسراء يُصلي قَطْعًا، وكذلك أصحابه، ولكن اختُلِف: هل افتُرِض قبل الصلوات الخمس شيء من الصلوات أم لا؟ فيصح على هذا قول من قال: إن الفرض أولًا كان صلاةً قبل طلوع الشمس وصلاةً قبل غروبها، والحُجَّة فيه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

(٢) الشِّعْب -بكسر الشين-: ما انفرَج بين جبلَين، وقيل: هو الطريق في الجبل، والجمع: شِعاب. انظر: لسان العرب (٧/ ١٢٨).

(٣) اللَّحْيان: العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم. انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٥٩).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٠).

(٥) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢٠٢٢).



تَرامَت هـذه الأنباء إلى قريش فلَـم تُعِرْها اهتمامًا، ولعلها حَسِـبَت محمـدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحـد أولئـك الدَّيَّانِين الذين يَتكلمـون في الألوهية وحقوقهـا، كمـا صنَع أُمَيَّةُ بن أبـي الصَّلْت، وقُسُّ بن سـاعدة، وزيد بن عمـرو بن نُفَيل، وأشـباههم، إلا أنها توجَّسَـت[1] خِيفَةً مـن ذُيوع خبره وامتداد أَثره، أَخَذَت تُراقب على الأيام مَصيرَه ودعوته[2].

مرَّت ثلاث سِـنين والدعوة لا تَزال سـرِّية فردية، وخلال هذه الفترة تكوَّنت جماعة من المؤمنين تقوم على الأُخُوة والتعاون وتبليغ الرسـالة وتمكينهـا من مقامها، ثم نزل الوحي على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمره بإعلان الدعوة.

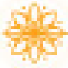


الصَّدْعُ بالدعوة

ثـم نزل على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولـه تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[3]، ونـزل عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[4].

---

(١) الوَجْس: الصوت الخفي. انظر: النهاية (٥/ ١٣٧).
(٢) انظر: فقه السيرة (ص ٩٦) للشيخ محمد الغزالي.
(٣) سورة الشعراء - الآيات (٢١٤ - ٢١٦).
(٤) سورة الحجر - آية (٩٤).



قال الإمام ابن القيم: ثم نزَل عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[١]، فأعلن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة وجاهَر قومَه[٢].

وقال الحافظ ابن كثير: ولم يكُن في بني هاشم إذ ذاك أشدُّ إيمانًا وإيقانًا وتصديقًا لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ولهذا بدَرَهم إلى التزام ما طَلَب منهم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم كان بعدَ هذا -والله أعلم- دعاؤه الناسَ جَهْرةً على الصَّفَا، وإنذاره لبطون قريش عمومًا وخصوصًا، حتى سَمَّى مَن سَمَّى مِن أعمامه وعماته وبناته؛ ليُنبِّهَ بالأدنى على الأعلى، أي: إنما أنا نذير، والله يَهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم[٣].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما -واللفظ لمسلم- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمَّا نزَلَت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[٤]، ﴿ورَهْطَك مِنْهُم المُخْلَصِينَ﴾[٥]، خَرَجَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ[٦]: «يا صَبَاحَاه!» فقالوا: مَن هَذَا الذي يَهتِفُ؟

---

(١) سورة الحجر - آية (٩٤).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٧٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٧٠).

(٤) سورة الشعراء - آية (٢١٤).

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٣/ ٦٩): قوله: ﴿ورَهْطَك منهم المُخْلَصِين﴾: كان قرآنًا أُنزِل، ثم نُسِخَت تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري.
قلت: بل وقعت هذه الزيادة بحروفها في صحيح البخاري رقم الحديث (٤٩٧١).

(٦) هتَف: نادَى. انظر: النهاية (٥/ ٢١١) - وفي رواية الإمام البخاري: فجعل يُنادي.

فقالـوا: مُحَمَّـدٌ، فَاجْتَمَعُـوا إِلَيْهِ، فقال: «يَـا بَنِي فُلَانٍ، يَـا بَنِي فُلَانٍ، يَـا بَنِـي فُلَانٍ، يَا بَنِـي عَبْدِ مَنَافٍ، يَـا بَنِي عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ» فَاجْتَمَعُـوا إِلَيْهِ، فَقـالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخرُجُ بِسَـفْحِ[1] هذا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِـيَّ؟» قالوا[2]: ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»[3].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيـن أنـزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾[4]، قال: «يا مَعْشَـرَ قُرَيْش، اشْتَرُوا أَنْفُسَـكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا، يا بَنِي عبد مَنَافٍ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ، لا أُغني عَنْكَ مِنَ اللهِ شيئًا، ويَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ الله، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شيئًا، ويَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مَالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شيئًا»[5].

أوضَح رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسـالة هو حياة الصِّلَة بينه وبينهم، وأن عَصَبيـة القرابة التي يقوم عليها

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٣/ ٦٩): سفح الجبل -بفتح السين-: هو أسفَلُه.
(٢) زاد الإمام البخاري في صحيحه بعد (قالوا): نعم.
(٣) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٧١) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٨).
(٤) سورة الشعراء - آية (٢١٤).
(٥) أخرجـه البخاري في صحيحه -رقـم الحديث (٤٧٧١) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٦).

العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من الله[١].



حِماية أبي طالب ابنَ أخيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال ابن إسحاق: فلما بادَى[٢] رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومَه بالإسلام، وصدَع به كما أمره الله، لم يَبعُدْ منه قومُه ولم يردُّوا عليه، حتى ذكَر آلهتهم وعابَها، فلما فعل ذلك أعظَموه وناكَروه، وأجمَعوا خِلافَه وعَداوتَه، إلا مَن عَصَم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مُستَخْفُون، وحَدِبَ[٣] على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمُّه أبو طالب ومنَعَه وقام دونَه، ومضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمر الله مُظهِرًا لِأمره، لا يردُّه عنه شيء[٤].

قال الحافظ ابن كثير: وصان اللهُ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحَمَاه بعمِّه أبي طالب؛ لأنه كان شريفًا مُطاعًا فيهم نبيلًا بينهم، لا يَتجاسَرون على مفاجأته بشيء في أمر محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِمَا يَعلمون مِن مَحَبَّته له، وكان من حكمة الله بقاؤه على دينهم؛ لِمَا في ذلك من المصلحة[٥].



(١) انظر: فقه السيرة (ص ٩٧) للشيخ محمد الغزالي.
(٢) بادَى: يعني جاهَر. انظر: لسان العرب (١/ ٣٤٧).
(٣) حَدِب فلان على فلان: تَعطَّف وحنا عليه. انظر: لسان العرب (٣/ ٧٤).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٠ - ٣٠١).
(٥) انظر: الفصول في سيرة الرسول (ص ٥٧).

موقف أبي لهب وزوجته من الدعوة

كان موقف أبي لهب وزوجته أُمِّ جَميل أَرْوَى بنت حَرب، من دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العداوةَ أبَدَ الدهر؛ فإنه لما دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس على جبل الصَّفَا، قام عمُّه أبو لهب فقال: تَبًّا لك سائر اليوم، أَلِهَذا جمَعْتَنا؟! فنزَلَت فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطَّلِب، وكنيته أبو عُتْبَة، وإنما سُمِّي أبا لهب؛ لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والبِغْضة له، والازدراء به، والتنقُّص له ولِدِينه[2].



(١) سورة المسد - آية (١ - ٢). =

= وأخرج ذلك الإمام البخاري في صحيحه -رقم الحديث (٤٧٧٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٨) (٣٥٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٤).



فائدةٌ في تسمية أبي لهب

قال الإمام القرطبي: إنما كَنَاه الله[١] بأبي لَهَب؛ لِمَعانٍ أربعة:

* **الأول:** أنه كان اسمه عبد العُزَّى، والعُزَّى صَنَم، ولم يُضِف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

* **الثاني:** أنه كان بكنيته أشهَرَ منه باسمه؛ فصُرِّح به.

* **الثالث:** أن الاسم أشرف من الكنية؛ فحطَّه الله عَزَّوَجَلَّ عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذ لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكْنِ عن أحد منهم، ويدلُّك على شرف الاسم على الكنية أن الله تعالى يُسَمَّى ولا يُكْنَى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه واستحالة نسبة الكُنية إليه؛ لتقدُّسه عنها.

* **رابعًا:** أن الله تعالى أراد أن يُحقق نسبته بأن يدخله النار، فيكون أبًا لها؛ تحقيقًا للنَّسَب، وإمضاءً للفَأْل والطِّيَرة التي اختارها لنفسه[٢].



(١) في القرآن.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٢/ ٥٤٧).



عداوة أُمِّ جَمِيل العوراء

هي أُمُّ جَمِيل أَرْوَى بنت حرب بن أمية، وتُلقب بالعَوْراء.

روَى ابن حِبَّان في صحيحه بسند صحيح بالشواهد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلَت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1] جاءت امرأةُ أبي لَهَبٍ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أبو بكرٍ، فلمَّا رآها أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّها امرأةٌ بذيئةٌ[2] وأخاف أنْ تُؤذيَك! فلو قُمْتَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّها لَنْ تَرَانِي»، فجاءت فقالت: يا أبا بكرٍ، إنَّ صاحبَك هجَانِي، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا، وما يقولُ الشِّعرَ. قالت: أنتَ عندي مُصَدَّقٌ، وانصرَفَتْ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، لَمْ تَرَكَ!

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ يَسْتُرُنِي عنها بجَنَاحِه»[3].

وفي رواية الحاكم في المُستدرَك بسند صحيح -إن شاء الله- عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[4] أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلِ بِنْتُ حَرْبٍ، وَلَهَا وَلْوَلَةٌ، وَفِي يَدِهَا

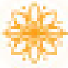
---

(١) سورة المسد - آية (١).

(٢) البذيء: الفاحش من الرجال، والأنثى: بذيئة. انظر: لسان العرب (١/ ٣٥٠).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٥١١) - وذكره الحافظ في الفتح (٩/ ٧٦٥) وعزاه للبزَّار، وحسَّن إسناده - وأورده الحافظ ابن كثير في كتابه مسند الإمام أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص ٥٨٨ - ٥٨٩) وقال: هذا إسناد حسن.

(٤) سورة المسد - آية (١).



فِهْرٌ[(١)] وهـي تقول: مُذَمَّمًا[(٢)] أَبَيْنَـا، ودِينَهُ قَلَيْنَا[(٣)]، وأَمْـرَهُ عَصَيْنَا، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْـجِدِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ!

فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي»، وَقَـرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِـهِ كَمَـا قَـالَ، وَقَـرَأَ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾[(٤)]، فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ تَرَ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَـتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ: لَا، وَرَبِّ هَـذَا الْبَيْتِ مَا هَجَـاكِ، قال: فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا[(٥)].

قال الحافظ ابن كثير: وجَدِير أن يُذكَر هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ

---

(١) الفِهْر -بكسر الفاء-: هـو الحَجَر مِلء الكف، وقيل: هو الحَجَر مُطْلَقًا. انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٤١).

(٢) كانت قريش تُسمِّي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُذمَّمًا، ثم يسبُّونه، فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ألَا تَعْجَبون كيف يَصرف الله عني شَتْمَ قريش ولَعْنَهم؟! يشتمون مذمَّمًا ويلعنون مذمَّمًا، وأنا محمَّد». رواه البخاري - رقم الحديث (٣٥٣٣).

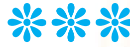
(٣) قلَيْته: أبغَضْته وكَرِهْته. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٩٣).
ومنه قوله تعالى في سورة الضحى - آية (٣): ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٤) سورة الإسراء - آية (٤٥).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٤١٦).



﴿يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، وعند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾[2].



بعث قريشٍ إلى أبي طالب

فلما رأت قريش أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعْتِبُهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعَيْب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدِب عليه، وقام دونه، فلم يُسْلِمه لهم؛ مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عُتبةُ وشَيبة ابنا رَبِيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البَخْتَري العاص بن هشام، والأسود بن المطَّلب، وأبو جهل عمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّهَ أحلامنا[3]، وضَلَّلَ آباءنا، فإما أن تَكُفَّه عنَّا، وإما أن تُخْلِيَ بيننا وبينه؛ فإنك على مِثل ما نحن عليه من خِلافِه، فنكْفِيكَه! فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا، وردَّهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه[4].

---

(١) سورة المائدة - آية (٦٧).

(٢) سورة الإسراء - آية (٤٥).
وانظر: مسند الإمام أبي بكر الصديق (ص ٥٨٩) للحافظ ابن كثير.

(٣) الأحلام: العقول. انظر: لسان العرب (٣/ ٣٠٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٠١).



الوليد بن المغيرة يُحاور الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

روَى الحاكم في مُستدرَكه وصحَّحه والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إنَّ الوليدَ بنَ المغيرةِ جاءَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقرأَ عليهِ القرآنَ، فكأنَّهُ رَقَّ له، فبلَغَ ذلكَ أبا جهلٍ، فأتاهُ فقال: يا عمِّ، إنَّ قومَكَ يريدونَ أن يَجمَعوا لكَ مالًا، قال: لمَ؟

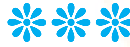
قال: ليُعطُوكَهُ؛ فإنَّكَ أتيتَ محمَّدًا لتَعرِضَ لِمَا قِبلَهُ، قال: قد عَلِمَت قريشُ أني من أكثرِها مالًا، قال: فقُل فيهِ قولًا يبلُغُ قومَكَ أنَّكَ مُنكِرٌ لهُ -أو أنك كارهٌ له-، قال: وماذا أقولُ؟ فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعرَفُ بالأشعارِ منِّي، ولا أعلَمُ برَجَزِه ولا بقَصِيدِهِ منِّي، ولا بأشعارِ الجنِّ، واللهِ ما يُشبِهُ الذي يقولُ شيئًا مِن هذا، وواللهِ إنَّ لقولِهِ الذي يقولُه حلاوةً، وإنَّ عليهِ لَطَلاوةً[1]، وإنهُ لمُثمِرٌ أعلاهُ، مُغدِقٌ أسفلُهُ، وإنهُ لَيَعلُو ولا يُعْلَى، وإنهُ

---

(١) لطَلَاوَة: أي رونقًا وحُسنًا. انظر: النهاية (٣/ ١٢٥).
وفي رواية ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٠٧): والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لَعَذْقٌ.
وقال ابن هشام: ويُقال: لَغَدِقٌ.
قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ١٩١): قوله: لَعَذْقٌ -بفتح العين المهملة وسكون الذال- استعارة من النخلة التي ثبت أصلها، وهو العَذْق، ورواية ابن هشام: لَغَدِق -بغين معجمة وكسر الدالة المهملة- من الغَدَق، وهو الماء الكثير.
قال السهيلي في الروض الأُنُف (٢/ ١٤): ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام؛ لأنها استعارة تامة، تُشبِّه آخر الكلام بأوله.



لَيَحْطِمُ ما تحتَهُ. قال: لا يَرضَى عنكَ قومُكَ حتَّى تقولَ فيهِ، قال: فدَعْنِي حتى أفكِّرَ، فلمَّا فكَّرَ قال: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثِرُهُ عن غيرِهِ، فنَزَلَت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾[1].



وصف النبي ﷺ بالساحر

اتفقت قريش على وصف النبي ﷺ بالساحر، كما وصفه لهم بذلك الوليد بن المغيرة -قبَّحه الله-، فجعلوا يَجلسون بسُبُل[2] الناس حين قَدِمُوا المَوسِم[3] لا يمُرُّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه وذكَروا لهم أمره، وكان من أشد قريش حماسةً لذلك أبو لهب عمُّ النبي ﷺ، وأبو جهل عمرو بن هشام -قبَّحهما الله-.

روَى الإمام أحمد في مُسنَده والحاكم في المُستدرَك بسند حسن

---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢١/ ٣٧١): المفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خُلقوا مثل خَلقه، وإنما خُصَّ بالذكر؛ لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
والخبر أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٩١٤) - وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٩٨ - ١٩٩) من طرق مرسَلة - وأخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٠٦) - قال البيهقي في الدلائل (٢/ ١٩٩): وكل ذلك يؤكد بعضه بعضًا.

(٢) السُّبُل: جمع سبيل: وهو الطريق. انظر: النهاية (٢/ ٣٠٥).

(٣) يعني: موسم الحج.



-واللفظ لأحمد- عن رَبِيعة بن عِبَادٍ الدِّيلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأَيْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَ عَيْنِي بسُوقِ ذي المَجازِ يقولُ: «يا أيُّها الناسُ، قُولوا: لا إلهَ إلا اللهُ تُفلِحوا» ويدخُلُ في فِجاجِها[1]، والناسُ مُتقصِّفون[2] عليه، فما رأَيْتُ أحدًا يقولُ شيئًا، وهو لا يسكُتُ، يقولُ: «أيُّها الناسُ، قُولوا: لا إلهَ إلا اللهُ تُفلِحوا»، إلا أنَّ وراءه رجُلًا أحوَلَ، وَضِيءَ الوجهِ، ذا غَدِيرتَيْنِ، يقولُ: إنَّه صابِئٌ كاذبٌ، فقلتُ: مَن هذا؟! قالوا: محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، وهو يذكُرُ النُّبوَّةَ، قلتُ: مَن هذا الذي يكذِّبُهُ؟! قالوا: عَمُّهُ أبو لَهَبٍ[3].

وفي رواية أخرى: أن الذي كان يَتْبَعُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو جهل، فقد روَى الإمام أحمد في مُسنَده بسند صحيح عن أشعَثَ بن أبي الشَّعْثاء قال: حَدَّثَني شَيخٌ مِن بَني مالكِ بنِ كِنانةَ قال: رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسوقِ ذي المَجازِ، يَتخَلَّلُها، يقولُ: «يا أيُّها النَّاسُ، قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ تُفلِحوا» قال: وأبو جَهلٍ يَحثِي عليه التُّرابَ ويقولُ: أيُّها النَّاسُ، لا يَغُرَّنَّكم هذا عن دِينِكم؛ فإنَّما يُريدُ لِتَترُكوا آلهتَكم، وتَترُكوا اللَّاتَ والعُزَّى، قال: وما يَلتَفِتُ إليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

---

(١) الفِجاج: جمع فَجٍّ: وهو الطريق الواسع. انظر: النهاية (٣/ ٣٧٠).

(٢) مُتقصِّفون: مزدحمون. انظر: النهاية (٤/ ٦٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٠٢٣) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٩٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٦٠٣).



قال الحافظ ابن كثير: كذا في هذا السياق أبو جهل، وقد يكون وَهْمًا، ويَحتمِل أن يكون تارةً يكون ذا، وتارة يكون ذا، وأنهما كانا يَتناوَبان على إيذائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وقال ابن إسحاق: وأدَّى ذلك إلى أن صدَرَت[2] العرب من ذلك المَوْسِم بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانتَشَر ذِكْرُه في بلاد العرب كلها، وخَشِي أبو طالب دَهْمَاءَ[3] العرب أن يَركَبوه مع قومه، فقال قصيدته التي تَعوَّذ فيها بحَرَم مكة وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشرافَ قومه، وهو على ذلك يُخبِرهم أنه غير مُسْلِمٍ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تارِكِه لشيء أبدًا حتى يَهْلِكَ دونه[4].



أساليب قريش في محاربة الدعوة

١- إثارة الشبهات حول مصدر القرآن الكريم، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول تعليمه، وحول شخصيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانوا يقولون كما قال اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٥١).
(٢) صدر: رجع. انظر: النهاية (٣/ ١٥).
(٣) الدهماء: الجماعة من الناس. انظر: لسان العرب (٤/ ٤٣١).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٩).



نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾[1]، وقالوا عن القرآن ما ذكره الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾﴾[2].

٢- **السخرية والاستهزاء والتكذيب**، فرَموا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالجنون ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾﴾[3].

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إذا تَلَا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله تعالى، قالوا يهزؤون به: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾[4].

وقال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[5].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ

---

(١) سورة النحل - آية (١٠٣).
(٢) سورة الفرقان - آية (٤ - ٥).
(٣) سورة الحجر - آية (٦).
(٤) سورة فصلت - آية (٥).
(٥) سورة الأنبياء - آية (٣٦).



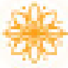
يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[١].

قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[٢] يعني: كفار قريش، كأبي جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[٣] أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[٤] يعنون: أهذا الذي يسبُّ آلهتكم ويُسَفِّهُ أحلامكم؟ قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٥] أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[٦] [٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾[٨].

---

(١) سورة الفرقان - آية (٤١-٤٢).
(٢) سورة الأنبياء - آية (٣٦).
(٣) سورة الأنبياء - آية (٣٦).
(٤) سورة الأنبياء - آية (٣٦).
(٥) سورة الأنبياء - آية (٣٦).
(٦) سورة الفرقان - آية (٤١-٤٢).
(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٢).
(٨) سورة الأنعام - آية (١٠).



قال الإمام القرطبي: قال تعالى مُؤْنِسًا لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومُعَزِّيًا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾[1] أي: نزل بأُمَمِهم من العذاب ما أُهْلِكوا به؛ جزاء استهزائهم بأنبيائهم[2].

٣- معارضة القرآن بأساطير الأولين؛ لشَغْلِ الناس بها عنه، وقد تولَّى ذلك النضرُ بن الحارث، وكان من شياطين قريش، وكان قَدِم الحِيرَة[3] وتَعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس.

قال ابن هشام: وهذا الذي قال، فيما بلغني: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[4].

وقال ابن إسحاق: وكان ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول، فيما بلَغَني: نزل فيه ثمان آيات من القرآن: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾[5]، وكل ما ذُكر فيه من الأساطير من القرآن[6].



(١) سورة الأنعام - آية (١٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٣٢٨).
(٣) الحِيرة -بكسر الحاء-: مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة. انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٠١).
(٤) سورة الأنعام - آية (٩٣) - انظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٧).
(٥) سورة القلم - آية (١٥).
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٧).



تعذيب قريش مَن أسلَم

استمَرَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهرًا، لا يَصْرِفه عن ذلك صارِف، ولا يرُدُّه عن ذلك رادٌّ، ولا يصُدُّه عنه ذلك صادٌّ، يَتْبَع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومَحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو مَن لَقِيَه مِن حُرٍّ وعبدٍ، وضعيفٍ وقويٍّ، وغنيٍّ وفقيرٍ، جميع الخلق في ذلك عنده شَرَعٌ سَواءٌ، وتَسلَّطَ عليه وعلى مَن اتَّبَعه مِن آحادِ الناس مِن ضعفائهم الأشدَّاءُ الأقوياءُ مِن مُشرِكي قريش بالأذية القولية والفعلية[1].

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوا على مَن أَسْلَمَ واتَّبَع رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه، فوَثَبَت كل قبيلة على مَن آمَن فيها من المسلمين، فجعَلوا يَحبِسونهم ويُعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرَمْضَاء[2] مكة إذا اشتد الحَرُّ؛ مَن استُضعِفوا منهم، يَفتِنونهم عن دينهم، فمنهم مَن يُفتَن من شدة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم من يَصلُب لهم ويَعصِمه الله منهم[3].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٤٦).
(٢) الرَّمضاء: شدة وقع الشمس على الرمل وغيره. انظر: لسان العرب (٥/ ٣١٥).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٤).



وقال الإمام ابن القيم: وحَمَى اللهُ رسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعمِّه أبي طالب؛ لأنه كان شريفًا معظَّمًا في قريش، مُطَاعًا في أهل مكة، لا يَتجاسَرون على مُكاشَفته بشيء من الأذى، وكان مِن حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دِين قومه؛ لِمَا في ذلك من المصالح التي تبدو لمَن تأمَّلها، وأما أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فمَن كان له عَشِيرة تَحمِيه امتَنَع بعشيرته، وسائرُهم تَصدَّوا له بالأذى والعذاب[1].

وروَى الإمام أحمد وابن ماجَهْ بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ أوَّلَ مَن أظهَرَ إسلامَه سبعةٌ: رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بَكرٍ، وعمَّارٌ، وأمُّهُ سُميَّةُ، وصُهيبٌ، وبلالٌ، والمِقدادُ، فأمَّا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنَعَه اللهُ بعمِّهِ أبي طالبٍ، وأمَّا أبو بَكرٍ فمنَعَه اللهُ بقومِه، وأمَّا سائرُهم فأخذَهم المُشرِكون، وألبَسُوهم أَدْرَاعَ الحديدِ، وصَهَروهم في الشَّمسِ، فما منهم من أحدٍ إلَّا وقد واتَاهُم[2] علَى ما أرادوا، إلَّا بلالًا؛ فإنَّهُ هانَت عليه نفسُه في اللهِ وَهانَ علَى قومِه! فأَخذوهُ فأَعطَوهُ الوِلْدَانَ، فجَعَلوا يَطُوفونَ بِهِ في شِعابِ مَكةَ، وَهوَ يقولُ: أحدٌ أحدٌ[3].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٦).

(٢) واتاهم: وافقهم. انظر: لسان العرب (١/ ٦٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٨٣٢) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (١٥٠).

وروَى الإمام البخاري في صحيحه عن سعيد بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: واللهِ، لقَدْ رَأَيْتُنِي، وإنَّ عُمَرَ لَمُوثِقِي علَى الإسْلَامِ[1] قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ عُمَرُ[2].

وروَى الإمام التِّرمِذي في جامعه بسند صحيح عن حارثة بن مُضَرِّب قال: دخلتُ على خبَّابٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وقد اكتوى في بطنه، فقال: ما أعلَمُ أحَدًا من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ لَقِيَ مِنَ البَلاءِ ما لَقيتُ؛ لقد كُنتُ وما أجِدُ دِرهَمًا على عَهدِ رَسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ[3].

وروَى الحاكم في المُستدرَك بسند حسن بطُرُقه وشواهده عن أبي عُبَيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه قال: أخَذَ المُشرِكونَ عمَّارَ بنَ ياسِرٍ، فلم يَترُكوه حتَّى سَبَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ وذَكَرَ آلِهَتَهم بخيرٍ، ثمَّ تَرَكوه، فلمَّا أتَى رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: «ما وراءَكَ؟» قال: شرٌّ يا رسولَ اللهِ؛ ما تُرِكْتُ حتَّى نِلْتُ منكَ وذكَرْتُ آلِهَتَهم بخيرٍ! قال: «كيف تجِدُ قلبَكَ؟» قال: مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ. فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «إنْ عادُوا فعُدْ»[4].

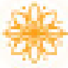
---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٦٩): أي: رَبَطَه بسبب إسلامه؛ إهانة له وإلزامًا بالرجوع عن الحق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٦٢).

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٩٩٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٤٠٢) - وأورده الحافظ في الفتح (١٤/ ٣٢٢) وقال: هو مرسل، ورجاله ثقات - وذكره من عدة طرق مرسلة، ثم قال: وهذه المراسيل يُقوِّي بعضها بعضًا.



ونزل في عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾[1].

قال الحافظ في الفتح: والمشهور أن الآية المذكورة نزلت في عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وقال الحافظ ابن رجب: وأما الإكراه على الأقوال فاتفق العلماء على صِحَّته، وأن مَن أُكْرِهَ على قولِ محرَّمٍ إكراهًا معتبرًا؛ أنَّ له أن يَفتدِيَ نفسه به، ولا إثمَ عليه، وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[3]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَمَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن عادُوا فعُدْ»، وكان المشركون قد عذَّبوه حتى يوافِقهم على ما يُريدونه من الكفر، ففَعَل[4].

شكوى الصحابة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فلما طال العذاب على المسلمين ذهب خَبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلُب منه الدعاء لرفع البلاء، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شَكَوْنَا

---

(١) سورة النحل - آية (١٠٦).
(٢) انظر: فتح الباري (١٤/ ٣٢٢).
(٣) سورة النحل - آية (١٠٦).
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧٢).



إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ[1] قُلْنَا له: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنا! أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنا! فقالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فيُجْعَلُ فِيهِ، فيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ، فيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللهَ، أوِ الذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[2].

قال الحافظ في الفتح: طَلَبُ خبَّابٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الدعاءَ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الكفار دالٌّ على أنهم كانوا قد اعتَدَوا عليهم بالأذى؛ ظلمًا وعدوانًا[3].

وقال الشيخ محمد الغزالي: إن رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- لم يَجْمَع أصحابه على مَغْنَم عاجل أو آجل، إنه أزاح الغِشاوة عن الأعين، فأبصَرَت الحق الذي حُجِبَت عنه دهرًا، ومسَح الرَّان عن القلوب، فعَرَفَت اليقين الذي فُطِرَت عليه وحَرَمَتها الجاهلية منه، إنه وصَل البَشَرَ بربِّهم، فرَبَطَهم بنَسَبِهم العريق وسَبَبِهم الوَثيق، وكانوا قبل

---

(١) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٣٨٥٢): وقد لَقِينا من المشركين شِدَّةً.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦١٢).

(٣) انظر: فتح الباري (١٤/ ٣٢٧).



ذلك حَيَارَى مَحسُورين، إنه وازَن للناس بين الخلود والفناء؛ فآثَرُوا الدار الآخرة على الدار الزائلة، وخيَّرَهم بين أصنام حقيرة، وإلهٍ عظيم؛ فازدَرَوُا الأوثان المنحوتة، وتوجَّهوا للذي فطَر السموات والأرض، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبُثُّ عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويُفِيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده مِن أمل رَحِيب في انتصار الإسلام، وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطُّغاة أمام طلائعه المظَفَّرة في المشارق والمغارب[١].



الهجرة الأولى إلى الحبشة

فلما رأى رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يُصِيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية؛ بمكانه من الله، ومِن عمِّه أبي طالب، وأنه لا يَقدِر على أن يَمنَعَهم مما هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُم فِيهِ!»[٢]، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم؛ فكانت أول هجرة وقَعَت في الإسلام[٣].

---

(١) انظر: فقه السيرة (ص ١٠٥) للشيخ محمد الغزالي.
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة - (٢/ ٣٠١) - وابن إسحاق في السيرة - (١/ ٣٥٨) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣١٩٠) وجوَّد إسناده.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٨).



وكان مِن أسباب أَمْرِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بالهجرة إلى الحبشة أنه نزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾(١).

قال الحافظ ابن كثير: هذا أمرٌ من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يَقدِرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة، حيث يُمكِن إقامة دِينه، بأن يُوحِّدوا الله ويَعبُدوه كما أمَرَهم؛ ولهذا لما ضاق على المستضعَفِين بمكة مقامُهم بها خرَجوا مهاجِرين إلى أرض الحبشة؛ ليَأمَنوا على دينهم هناك، فوجَدوا هناك خَيْرَ المُنْزِلين أَصْحَمَة النجاشي مِلِك الحبشة رَحِمَهُ اللهُ؛ آواهم وأيَّدَهم بنَصره، وجعَلَهم سُيُومًا(٢) ببلاده(٣).

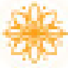
قال الشيخ علي الطنطاوي: ودَعَاهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما هو أشدُّ من هذا كله؛ إلى فراق الوطن وترك الأهل، وأن يَمشُوا فرارًا بدينهم إلى بلاد ليسُوا منها وليسَت منهم، ولا لسانُها لسانُهم ولا دِينُها دِينُهم؛ إلى الحبشة! فخرَجوا من منازلهم وهجَروا أهلِيهم، ومشَوا إلى الحبشة، فلَحِقَهم أذى قريش إلى الحبشة، وأَوْغَلَت قريش في كفرها

---

(١) سورة العنكبوت - آية (٥٦).

(٢) سُيُوم: يعني: آمنين، بلغة الحبشة. كما جاء تفسيرها في رواية أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قصة هجرتهم إلى الحبشة الهجرةَ الثانية.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٠).



وصدِّها وعِنادها، ولكنْ هل تَقدِر قريش أن تُطْفِئ نور الله تعالى؟![1].



عدد المهاجرين إلى الحبشة

خرَج عند ذلك جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **متسلِّلين سرًّا إلى أرض الحبشة؛** مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدِينهم، وهي أول هجرة وقعَت في الإسلام، وذلك في رجب من السنة الخامسة للبَعثة، وكانوا أحَد عشَر رجلًا وأربع نسوة، وكان أميرهم عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأقام المسلمون في الحبشة بخَير دار عند خَير جار بقية رجب وشعبان إلى رمضان، ثم عادوا إلى مكة[2] كما سيأتي.



(١) انظر: كتاب رجال من التاريخ (ص ١٤) للشيخ علي الطنطاوي.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٩) - زاد المعاد (٣/ ٢٨).

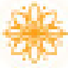


سجود كفار قريش

وفي رمضان من السنة الخامسة للبَعثة خرَج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحَرَم، وفيه عدد كبير من سادات وكُبراء قريش، فقام فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذ يَتلو سورة النجم، فلما باغَتَهم بتلاوة هذه السورة، وقرَع آذانهم كلامٌ إلهي رائع خَلَّاب، لا يُحيط بروعته وجلالته البيان، تَفَانَوا عمَّا هم فيه، وبَقِيَ كل واحد مُصغيًا إليه، لا يَخطُر بباله شيء سواه، حتى إذا تَلَا في خواتيم هذه السورة قَوارعَ تَطير لها القلوب، ثم قرأ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾[1]، ثم سجَد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَتمالَك أحد نَفْسه حتى خَرَّ ساجدًا، وفي الحقيقية كانت روعة الحق قد صَدَعَت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين؛ فما تَمالَكوا أن يَخِرُّوا لله ساجِدِين![2].

روى الشيخان في صحيحَيهما -واللفظ للبخاري- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ[3].

(١) سورة النجم - آية (٦٢).
(٢) انظر: الرحيق المختوم (ص ٩٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث - (٤٨٦٣) - ومسلم في صحيحه - =



وروَى الإمام أحمد في مُسنَده بسند صحيح عن المُطَّلب بن أبي وَدَاعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سجَد في النجم وسجَد الناس معه، ولم أسجُد معهم -وهو يومئذ مُشرِك-؛ فلا أَدَعُ السجود فيها أبدًا[1].



=رقم الحديث (٥٧٦).

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٥٦): ووقع في سيرة ابن إسحاق: أنه الوليد بن المغيرة، وفيه نظر؛ لأنه لم يُقتَل، وفي تفسير سُنيد الوليد بن المغيرة، أو عتبة بن ربيعة بالشك، وفيه نظر؛ لما أخرجه الطبراني من حديث مَخْرَمة بن نَوفل قال: لما أظهَر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلام أسلَمَ أهل مكة، حتى إنه كان لَيَقرأ السجدة فيَسجُدون، فلا يَقدِر بعضهم أن يسجُد من الزحام، حتى قَدِم رؤساء قريش؛ الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وغيرهما، وكانوا بالطائف فرجعوا، وقالوا: تَدَعُون دينَ آبائكم! لكن في ثبوت هذا نظر، وروَى الطبري من طريق أبي بشر، عن سعيد بن جُبير: أن الذي رفَع التراب فسجَد عليه هو سعيد بن العاص بن أُمَيَّة أبو أُحَيْحة، وتبعه النَّحَّاس، وذكر أبو حَيَّان شيخ شيوخنا، في تفسيره: أنه أبو لهب، ولم يذكُر مُستنَده، وفي مصنَّف ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سجَدوا في النجم إلا رجُلَين من قريش أرادا بذلك الشهرة. وللنسائي من حديث المطَّلِب بن أبي وَدَاعة قال: قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النجم، فسجَد وسجَد من معه، فرَفعتُ رأسي وأَبَيتُ أن أسجد، ولم يكُن المُطَّلِب يومئذ أسلَمَ، ومهما ثبت من ذلك فلعل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يَرَهُ، أو خَصَّ واحدًا بذكره؛ لاختصاصه بأخذ الكف من التراب دون غيره.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٤٦٤) - وأورده الحافظ في الإصابة - (٦/ ١٠٤) وصحح إسناده - وذكره في الفتح (٩/ ٥٩٨) وعزاه للنسائي، وصحَّح إسناده.



عودة مهاجري الحبشة إلى مكة

وتَرامَت هذه الأخبار إلى مهاجري الحبشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولكن بصورة مختلفة تمامًا عن صورتها الحقيقية؛ بلَغَهم أن أهل مكة أسلَموا، وقد سجَدوا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال المهاجرون: عشائرنا أحبُّ إلينا! فخرَجوا من الحبشة راجِعِين إلى مكة، وذلك في شوَّال من السنة الخامسة للبَعثة، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة تبَيَّنَت لهم الحقيقة، وعرَفوا أن المشرِكين أشدُّ ما يكونون خصومًا لله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وللمسلمين، فهَمُّوا بالرجوع إلى أرض الحبشة، فقالوا: قد بَلَغْنَا مكة! فدخَلوا مكة، ولم يدخُل أحد منهم إلا مُستخفِيًا، أو في جِوَار رجل من قريش، وعاد بعضهم إلى الحبشة[1].

قال الحافظ البيهقي: وقد رُوِّينا أنها نزَلَت[2] بعد ما هاجَر عثمان بن عفان وعثمان بن مظعون وأصحابهما رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، فلما قرأها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الصلاة وسجَد، وسجَد المسلمون والمشركون، وبلَغَهم الخبر، رجَعوا، ثم هاجَروا الهجرة الثانية مع جعفر بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وذلك كان قبل المَسْرَى بسَنَتَين[3].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد - (١/ ٩٩) - سيرة ابن هشام - (١/ ٤٠٢) - زاد المعاد - (٣/ ٢٩).
(٢) سورة النجم.
(٣) انظر: دلائل النبوة (٢/ ٣٧٠).



مفاوضات قريش مع أبي طالب في أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ولما أيقَنَت قريش أن بَطْشَها بالمستضعَفِين من المسلمين ونَيْلَها من غيرهم لم يَصْرِف الناس عن الاستجابة لدعوة الله تعالى، لجأَت إلى أسلوب المفاوضات مرة أخرى، فذهبوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنَّا قد استَنْهَيْنَاكَ من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنَّا، وإنَّا والله لا نَصبِر على هذا مِن شَتْم آبائنا، وتَسْفِيه أحلامنا، وعَيْب آلهتنا، حتى تَكُفَّه عنَّا، أو نُنازِلَه وإياك في ذلك، حتى يَهْلِكَ أحد الفريقين!

فعظُم على أبي طالب فِراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفسًا بإسلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا خِذلانه، فبعَث إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا -لِلَّذي قالوا له-، فأَبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحَمِّلْني من الأمر ما لا أُطِيق! فظَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قد بَدَا لعمِّه فيه بَدَاءٌ، وأنه خاذِلُه ومُسلِمُه، وأنه قد ضعُف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا عَمِّ، واللهِ لو وضَعُوا الشمسَ في يَمينِي، والقَمَرَ في يَسارِي، على أَنْ أَترُكَ هذا الأَمرَ، حتى يُظهِرَهُ اللهُ أو أَهلِكَ فيه، ما تَركْتُهُ! ثم استَعْبَرَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبكى، ثم قام! فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال، أَقْبِلْ يا بن أخي! فأقبَلَ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: اذهب يا بن أخي فقُلْ ما أَحبَبْتَ،



فوالله لا أُسلِمُك لشيء أبدًا. ثم قال:

والله لـن يَصِلُـوا إليـكَ بجمعِهم
حتى أُوَسَّـدَ في الـتـرابِ دَفِينَا
فاصدَعْ بِأمرِك ما عليكَ غَضاضةٌ
وأَبشِـرْ وَقَـرَّ بـذاكَ منـكَ عُيونَـا[1]

وفي رواية الحاكم في مُستدرَكه بسند حسن عن عَقِيل بن أبي طالب قـال: جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أبي طَالِبٍ فَقَالُـوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا وَفِـي مَجْلِسِـنَا، فَانْهَهُ عَنْ أَذَانَـا. فَقَالَ لِي: يَـا عَقِيلُ، ائْـتِ مُحَمَّدًا. قَالَ: فَانْطَلَقْـتُ إِلَيْهِ، فَأَخْرَجْتُهُ مِنْ حِفْشٍ -قَـالَ طَلْحَةُ: بيت صَغِيرَ- فَجَاءَ فِي الظُّهْرِ مِنْ شِـدَّةِ الْحَرِّ، فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْفَيْءَ، يَمْشِـي فِيهِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْضَاءِ، فَأَتَيْنَاهُـمْ، فَقَالَ أَبُو طَالِـبٍ: إِنَّ بَنِي عَمِّكَ زَعَمُـوا أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ وَفِي مَجْلِسِـهِمْ، فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ! فَحَلَّقَ[2] رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّـمَاءِ، فَقَالَ: «مَا تَرَوْنَ هَذه الشَّمْسَ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَنَـا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تُشْـعَلُوا مِنْهَا شُـعْلَةً»، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي قَطُّ، فَارْجِعُوا[3].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٣).
(٢) حَلَّق ببصره: رفعه. انظر: النهاية (١/ ٤٠٩).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٦٦١٠) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٩٢) وحسَّنه.



إسلام حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أسلَمَ حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الفترة؛ في السنة السادسة للبَعثة، وقيل: في السنة الثانية للبَعثة.

روَى الحاكم في المُستدرَك بسند ضعيف عن ابن إسحاق قال: حَدَّثني رجُل مِن أسلَمَ - وكان واعِيَهُ -: أنَّ أبا جَهلٍ اعترض لرسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الصَّفا، فآذاه وشَتَمه، وقال فيه ما يُكرَهُ من العيَب لِدِينه والتضعيف له، فلم يُكلِّمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَوْلاةٌ لعبد الله بن جُدْعَان التَّيمي في مسكن لها فوق الصفا تَسمَع ذلك، ثم انصَرَف عنه، فعَمَد إلى نادي[1] قريش عند الكعبة فجلَس معهم.

ولم يَلبَث حمزة بن عبد المطلب أن أقبَلَ متوشِّحًا[2] قوسَه، راجعًا مِن قَنْص له، وكان إذا فعَل ذلك لم يمُرَّ على نادي قريش إلا وقَف وسَلَّم وتحدَّث معهم، وكان أعَزَّ قريش وأشَدَّها شَكِيمةً[3]، وكان يومئذ مُشرِكًا على دِين قومه، فجاءته المولاة وقد قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليَرجع إلى بيته، فقالت له: يا أبا عُمارة، لو رأيتَ ما لَقِيَ ابنُ أخيك محمدٌ من أبي الحَكَم[4] آنِفًا! وجَده هاهنا فآذاه وشتَمه وبلَغ ما يُكرَهُ ثم انصَرَف

(١) النادي: مجتمَع القوم وأهل المجلس، يقع على المجلس وأهله. انظر: النهاية (٥/ ٣١).
(٢) توشح الرجل بثوبه وبسيفه: إذا لَبِسَه. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٠٦).
(٣) يُقال: فلان شديد الشكيمة: إذا كان عزيز النفس أبيًّا قويًّا. انظر: النهاية (٢/ ٤٤٤).
(٤) هي كنية أبي جهل -قبَّحه الله-.



عنه، ولم يُكلِّمه محمدٌ!

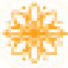
فاحتَمَل حمزةَ الغضبُ؛ لِمَا أراد الله من كرامته، فخرج سريعًا لا يَقف على أحَد كما كان يَصنع، يُريد الطواف بالبيت متعمدًا لأبي جهل أن يَقَع به، فلما دخل المسجد نظَرَ إليه جالسًا في القوم، فأقبَل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفَع القوس فضرَبه على رأسه ضربة مملوءة، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة؛ لينصُروا أبا جهل، فقالوا: ما نَراك يا حمزةُ إلا صَبَأتَ![1] فقال حمزة: وما يَمنعني، وقد استبان لي ذلك منه، أنا أشهَد أنه رسول الله، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أَنزِع، فامنَعوني إن كنتم صادقين. فقال أبو جهل: دَعُوا أبا عُمارة؛ لقد سَبَبتُ ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

وَمَرَّ[2] حمزة على إسلامه، وتابَع رسولَ الله ﷺ، فلما أسلَمَ حمزةُ عَلِمَت قريش أن رسول الله ﷺ قد عَزَّ وامتَنَع، وأن حمزة سيَمنَعه، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا يَتناولونه ويَنالون منه.

---

(١) يُقال: صبأ فلان: إذا خرج من دين إلى دين غيره. وكانت العرب تُسمي النبي ﷺ الصابئ؛ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام. انظر: النهاية (٣/ ٣).
قلتُ: لم يكن رسول الله ﷺ على دين قريش طرفةَ عَين، وإنما كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن من المشركين، فلم يسجد لصنم قط، أو تمسَّح به، أو ذهب إلى عَرَّاف أو كاهن، وذلك من حفظ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ.

(٢) في رواية ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٢٩): وتم.



ثم رجع حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **إلى بيته، فأتاه الشـيطان**[١]، فقال: أنت سـيِّد قريـش، اتبَعتَ هـذا الصابئَ وترَكتَ دِيـنَ آبائك! لَلْمـوتُ خيرٌ لك مما صَنعـتَ! فأقبَلَ على حمزة بَثُّهُ[٢]، فقال: ما صَنَعتُ! اللهمَّ إنْ كان رُشـدًا فاجعَـل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعَل لي مما وقعتُ فيه مَخرجًا! فبات بليلة لم يَبِتْ بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح.

فغَدَا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقال:** ابنَ أخي، إني وقعتُ في أمر لا أعرِف المخرج منه، وإقامةُ مِثْلي على ما لا أدري ما هو؛ أرُشـدٌ هو أم غَيٌّ شـديدٌ! فحدِّثني حديثًا، فقد اشتهيتُ يا بن أخي أن تحدِّثني، فأقبَلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذكَّره ووَعَظه، وخوَّفه وبشَّـره، فألقَى الله في نفسِه الإيمان كما قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أشهد إنك لصادق شهادةَ الصدق والعارف، فأَظهِر يا بن أخي دِينَك، فوالله ما أحِبُّ أن لي ما أَظَلَّت السماء، وإني على ديني الأول! قال: فكان حمزةُ ممن أعزَّ الله به الدِّينَ[٣].

---

(١) أي: بوسوسته التي لا يسْلَم منها إنسان.

(٢) البث: أشد الحزن. انظر: النهاية (١/ ٩٦).

ومنه قوله تعالى في سورة يوسف - آية (٨٦) على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٣) أخرجه الحاكم في المسـتدرك - رقم الحديث (٤٩٣٩) - وابن إسـحاق في السـيرة - (١/ ٣٢٨) - وقد وهمتُ فصححت إسـناد القصة في اللؤلؤ المكنون، فليُسـتدرَكْ من هنا.



دعاء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالهداية وإسلامه

روى الإمام أحمد في مُسنَده والترمذي في جامعه بسند حسن عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ؛ بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ!» فَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ[1].

ورَوى الحاكم في المُستدرَك بسند صحيح عن أُمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً»[2].

ورَوى الحاكم في المُستدرَك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ أَيِّدِ الدِّينَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»[3].

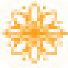
قلت: والذي يظهر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوحى إلى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أبا جهل لن يُسلِم، ولم يُقدِّرِ اللهُ سبحانه هدايته؛ فعند ذلك خَصَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالهداية، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٥٦٩٦) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٠١٣) - وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٥٣٥) - وأورده الحافظ في الفتح (٧/ ٤٠٤) وصحَّح إسناده.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٥٣٣).



تأثير الدعوة النبوية على عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

ظهَرت آثار دعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالهداية في موقفه مع ليلى بنت أبي حَثْمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فكان ليِّن الجانب جدًّا معها وهي ترتحل إلى الحبشة، وهو أمر غير معهود من عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالمسلمين؛ إذ كان من أشد الناس على المسلمين.

روى الإمام أحمد في فضائل الصحابة والحاكم في المُستدرَك بسند حسن عن أم عبد الله بنت أبي حَثْمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: والله إنَّا لنَرْحَلُ إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر[1] في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخَطَّاب حتى وقف عليَّ، وهو على شِرْكِه، وكنا نَلْقَى منه البلاء وشدة علينا، فقال: إنه لَلانطلاقُ يا أمَّ عبد الله؟ فقلت: نعم، واللِه لنَخْرُجَنَّ في أرض الله؛ آذَيْتمونا وقهَرْتُمونا، حتى يَجعَل الله لنا مخرجًا، فقال: صَحِبَكم الله. ورأيتُ له رِقَّةً لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه -فيما أُرَى- خروجُنا، قالت: فجاء عامر من حاجته تلك، فقلت: يا أبا عبد الله، لو رأيتَ عُمَرَ آنفًا ورِقَّته وحُزنَه علينا! قال: فيُطمَع[2] في إسلامه؟ قلت: نعم، قال: لا يُسلِمُ الذي رأيتِ حتى يُسلِمَ حِمارُ الخطَّاب! قال يائسًا منه؛ مما كان يَرَى من غِلظته وقسوته على الإسلام[3].

---

(١) هو زوجها عامر بن ربيعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من السابقين إلى الإسلام. انظر: الإصابة (٣/ ٤٦٩).

(٢) في رواية الإمام أحمد: أَطَمِعْتِ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة - رقم الحديث (٣٧١) - والحاكم =



قصة إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تعدَّدت الروايات في إسلام عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -على ضعفها- ويَظهَر أن الإسـلام وقع في قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى تمكَّن منه شـيئًا فشيئًا، وأول مـا وقـع في قلبه مـا رواه الإمام البخـاري في صحيحه عن عبـد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بيْنما أنا نَائِـمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إذْ جَاءَ رَجُلٌ[(١)] بعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ به صَارِخٌ لَمْ أسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أشَدَّ صَوْتًا منه، يقولُ: يـا جَلِيـحْ! أمْرٌ نَجِيحْ! رَجُلٌ فَصِيـحْ! يقولُ: لا إلَهَ إلَّا أنـتَ! فَوَثَبَ القَوْمُ، قُلتُ: لا أبْرَحُ حتَّى أعْلَمَ ما وراءَ هذا، ثُمَّ نَادَى: يا جَلِيحْ! أمْرٌ نَجِيحْ! رَجُلٌ فَصِيحْ! يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فَقُمْتُ، فَما نَشِبْنَا أنْ قيلَ: هذا نَبِيٌّ![(٢)].

قـال الإمام البيهقي: ظاهر هذه الرواية يُوهِم أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنفسه سَـمِع الصارخ يصرُخ من العِجل الذي ذُبِحَ، وكذلك هو صريح في رواية

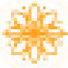
= في المسـتدرك - رقم الحديث (٧٠٦٩) - وذكره الإمام السِّندي في شرحه للمسند - (٢/ ٢١٥) وصحَّح إسناده.

(١) قـال الحافـظ ابن كثيـر في البداية والنهايـة (٢/ ٧٤١): هذا الرجل هو سَـوَاد بن قارِب السدوسي.

وذهب الحافظ في الفتح (٧/ ٥٧٢) إلى ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير.

وقـال الحافظ ابن عبد البر في الاسـتيعاب (٢/ ٢٣٣): سَـوَاد بن قارِب السدوسـي، كان يتكهن في الجاهلية، وكان شاعرًا، ثم أسلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٦٦).



ضعيفة عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إسلامه، وسائر الروايات تدُلُّ على أن هذا الكاهن أخبَرَ بذلك عن رؤيته وسماعه. والله أعلم[١].

ثم ساق الإمام البيهقي حديث سَوَاد بن قارِب فقال: ويُشْبِه أن يكون هذا هو الكاهن[٢] الذي لم يُذكَر اسمه في الحديث الصحيح[٣].

وقال الحافظ في الفتح: لمَّح المصنِّف[٤] بإيراد هذه القصة في باب إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما جاء عن عائشة وطلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥].



عِزَّة المسلمين بإسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما زِلْنَا أَعِزَّةً منذُ أَسْلَمَ عُمَرُ[٦].

قال الحافظ في الفتح: لِمَا كان فيه من الجَلَد والقوة في أمر الله تعالى[٧].

---

(١) انظر: دلائل النبوة (٢/ ٢٤٥).
(٢) هو الرجل المذكور في رواية الإمام البخاري قبل قليل.
(٣) انظر: دلائل النبوة (٢/ ٢٤٨).
(٤) أي: الإمام البخاري.
(٥) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٧٦).
(٦) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٨٤).
(٧) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٠٤).



وروَى الإمام أحمد في فضائل الصحابة بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن إسلام عُمَر كان فتحًا، وإن هِجرته كانت نصرًا، وإن سُلطانه[1] كان رحمة[2].

وروَى الحاكم في المستدرك -بسند لا بأس به- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: والله ما استطعنا أن نُصَلِّيَ عند الكعبة ظاهِرِين، حتى أسلَمَ عُمَر[3].



عُتبة بن ربيعة يُحاور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لمَّا أسلَمَ حمزة وعمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقَوى أمر الإسلام بهما، بعَثَت قريش إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُتبةَ بن ربيعة؛ ليُحاوِرَه فيُعطِيَه ويأخُذَ منه، فقد روَى ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: حُدِّثْتُ أن عُتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس في المسجد وحدَه: يا معشر قريش، ألا أقُومُ إلى محمد فأُكَلِّمَه وأَعْرِضَ عليه أمورًا؛ لعلَّه يَقبَلَ بعضَها، فنُعْطِيَه أيَّها شاء ويَكُفُّ عنا؟ -وذلك حينَ أسلَمَ حمزة، ورأَوا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزيدون ويَكثُرون- فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قُمْ إليه فكَلِّمْه.

---

(١) أي: خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة - رقم الحديث (٣٠٧).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٥٣٧).



فقـام إليه عُتبة، حتى جلس إلى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا بن أخـي، إنـك منَّا حيثُ قـد عَلِمتَ من السِّـطَةِ[1] في العَشـيرة، والمكان في النَّسَـب، وإنك قد أَتيتَ قومك بأمر عظيم؛ فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهْتَ بـه أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهـم ودينهم، وكفَّرْتَ به مَن مضى من آبائهم؛ فاسـمَع منِّي، أَعْرِض عليك أمـورًا تنظُرُ فيها؛ لعلَّـك تَقبَل منها بعضها، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُل يا أبا الوليد أَسْمَعْ».

قـال: يا بن أخي، إن كنتَ إنما تريد بمـا جئتَ به من هذا الأمر مالًا، جَمَعْنـا لك من أموالنـا حتى تكون أكثَرَنا مالًا، وإن كنتَ تريد به شَـرَفًا، سَـوَّدْناك علينا حتى لا نَقْطَع أمرًا دونَك، وإن كنتَ تريد به مُلكًا، ملَّكْناك علينـا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا[2] تَراه لا تَسـتطيع رَدَّه عن نفسـك، طَلَبْنـا لـك الطِّـبَّ، وبذَلْنا فيـه أموالنا حتـى نُبْرِئك منه؛ فإنـه ربما غلَب التابع[3] على الرجل حتى يُداوَى منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستمِع منه، قال رسول الله: «أقد فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم، فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فاسـمَعْ منِّي» قـال: أفعَـلُ، فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿حمٓ ۝١

---

(١) وَسَـطَ فلان في حسَبه سِـطَةً: أي كان من خيار قومه نسـبًا، وأرفعهم مجدًا. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٩٦).

(٢) الرَّئِيُّ: الجِنّي يراه الإنسان. انظر: لسان العرب (٥/ ٨٩).

(٣) التابع من الجن: هو جِنِّيٌّ يَتْبَع الإنسان. انظر: لسان العرب (٢/ ١٥).



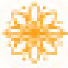
﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾﴾[1]، ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها يَقرؤها عليه، فلما سَمِعها منه عُتبة أنصَت لها وألقَى يدَيه خَلف ظهره معتمدًا عليهما يَسمَع منه، ثم انتَهَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سَمِعْتَ يا أبا الوليد ما سَمِعْتَ، فأنتَ وذاك»".

وفي رواية البيهقي في دلائله: حتى بلغ الرسول: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[2]، فأمسَكَ عُتبة على فِيه وناشَدَه الرَّحِمَ أن يَكُفَّ عنه.

فقام عُتبة بن ربيعة من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذهب إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نَحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهَب به! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءَك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سَمِعتُ قولًا واللهِ ما سَمِعتُ مثلَه قط؛ والله ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكِهانة، يا مَعشر قريش أَطِيعوني واجعَلُوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزِلُوه؛ فواللهِ لَيَكُونَنَّ لقوله الذي سَمِعتُ منه

---

(١) سورة فُصِّلت - الآيات (١-٤).
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٤٨): كل سورة افتُتِحت بالحروف، فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة.
(٢) سورة فصلت - الآية (١٣).



نبأ عظيم، فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُمُوه بغيركم، وإن يَظْهَر على العرب فَمُلْكُه مُلْكُكم وعِزّه عِزُّكم، وكنتم أسعَدَ الناس به، قالوا: سَحَرَك -واللهِ- يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنَعُوا ما بَدَا لكم[1].



طلب قريش الآيات

عند ذلك بدأت قريش بأمر جديد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو طلب المعجزات المادية؛ قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: أي: هو -تعالى- قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تَقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أَنزَلها وَفقَ ما طلَبوه ثم لم يؤمنوا، لَعاجَلهم بالعقوبة، كما فعَل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾[3].

(١) أخرج قصة حوار عتبة بن ربيعة مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابن إسحاق في السيرة - (١/ ٣٣٠) - والبيهقي في دلائل النبوة - (٢/ ٢٠٣ - ٢٠٥) - وأبو يعلى في مسنده - رقم الحديث (١٨١٨) - وحسَّن إسنادها الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص ١٠٨) للشيخ محمد الغزالي.

(٢) سورة الأنعام - آية (٣٧).

(٣) سورة الإسراء - آية (٥٩) - وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٣).



قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾[1]، ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رادًّا عليهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى مرشدًا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهِدٌ عليَّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنتُ كاذبًا عليه انتقَم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾[4] أي: عليم بهم؛ بمَن يَستحقُّ الإنعام والإحسان والهداية، ممَّن يَستحقُّ الشقاء والإضلال

(١) سورة الإسراء - الآيات (٩٠ - ٩٥).
(٢) سورة الإسراء - آية (٩٦).
(٣) سورة الحاقة - الآيات (٤٤ - ٤٦).
(٤) سورة الإسراء - آية (٩٦).



والإزاغة[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: يقول الله تعالى إخبارًا عن المشركين: إنهم أقسَموا بالله جَهدَ أيمانهم، أي: حلَفوا أيمانًا مؤكَّدة ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: معجزة وخارق ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: ليُصَدِّقُنَّها، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قُل -يا محمد- لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تَعَنُّتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مَرجِع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم[3].

وروَى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سأل أهلُ مكةَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يَجعَلَ لهم الصَّفَا[4] ذهبًا، وأنْ يُنَحِّيَ الجبالَ عنهم فيَزْرَعُوا، فقيلَ لَهُ: إنْ شِئْتَ أنْ تَسْتَأْنِيَ[5] بهم، وإنْ شئْتَ أن نُؤْتِيَهُم الذي سألوا، فإنْ كفَروا أُهلِكُوا كما

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٢).
(٢) سورة الأنعام - آية (١٠٩).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٦).
(٤) الصَّفَا: هو أحد جبلَي المَسْعَى، والصفا في الأصل جمع صَفَاة، وهي الصخرة والحجر الأملس. انظر: النهاية (٣/ ٣٨).
(٥) أَسْتَأْنِي بهم: أَنْتَظِر ولا أَعْجَل. انظر: لسان العرب (١/ ٢٥٠).



أَهْلَكْتُ مَنْ قَبلَهُم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، بل أَسْتَأْنِي بهم»، فأنـزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذِه الآيَةَ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾»[1].

قال الحافظ ابن كثير: ولهذا اقتَضَت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألَّا يُجابُوا إلى ما سأَلوا؛ لأن الله عَلِمَ أنهم لا يؤمنون بذلك، فيُعاجِلهم العذاب[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
(٤) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا۟
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم
مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ
(٨) وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾[3].

---

(١) الآية في سورة الإسراء - الآية (٥٩) - والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٣٣) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٤١٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٧).

(٣) سورة الأنعام - الآيات (٤-١١).



قال الإمام ابن القيم: فأما الآية[١] فإن المشركين قالوا تعنتًا في كفرهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يعنُون مَلَكًا نشاهده ونراه، نَشهَد له ونُصدِّقه، وإلا فالمَلَك كان يَنزل عليه بالوحي من الله، فأجاب الله تعالى عن هذا وبيَّن الحكمة في عدم إنزال المَلَك على الوجه الذي اقترَحوه، بأنه لو أنزَل مَلكًا كما اقترَحوا ولم يُؤمنوا به ويُصدِّقوه، لعُوجِلُوا بالعذاب كما استَمَرَّت به سُنَّتُه تعالى مع الكفار في آيات الاقتراح إذا جاءتهم ولم يُؤمنوا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، ثم بيَّن سبحانه أنه لو أنزَل مَلكًا كما اقترَحوا، لَمَا حصَل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزَله في صورته لم يَقدِروا على التلقِّي عنه؛ إذ البشر لا يَقدِر على مخاطبة المَلَك ومباشرته، وقد كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو أقوى الخلق، إذا نزَل عليه المَلَك كُرِبَ لذلك، وأَخَذَتْه البُرَحَاء[٢]، وتَحدَّر منه العَرَق في اليوم الشاتِي![٣]، وإن جعَله في صورة رجُلٍ، حصَل لهم لَبْس: هل هو ملَك أم رجُل؟ فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾، أي: في صورة رجُل، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ في هذا الحال ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ على أنفسهم حينئذ؛ فإنهم يقولون إذا رأَوا الملَك في صورة إنسان: هذا إنسان، وليس بمَلَك. فهذا معنى الآية[٤].

(١) هي الآية رقم (٨) من سورة الأنعام.
(٢) البُرَحاء -بضم الباء-: شدة الكَرْب؛ من ثقل الوحي. انظر: النهاية (١/ ١١٣).
(٣) أخرج ذلك ضمن حديث الإفك الطويل: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦٦١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٧٠) (٥٦).
(٤) انظر: مدارج السالكين (٤/ ٣٦٤).



القرآن العظيم أعظم المعجزات

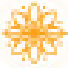
قال الله تعالى حاكيًا عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعنُّتهم وطلبهم آياتٍ تُرشِدهم على أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله، كما جاء صالح بناقته، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أمرُ ذلك إلى الله؛ فإنه لو عَلِم أنكم تَهتدون لَأجابكم على سؤالكم؛ لأن ذلك سهلٌ عليه يسيرٌ لَدَيه، ولكنه يَعلَم منكم أنَّما قَصْدُكم التعنت والامتحان، فلا يُجيبكم إلى ذلك، ثم قال تعالى مبينًا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم؛ حيث طلبوا آيات تدلُّهم على صدق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جاءهم به، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة؛ إذ عجَزت الفُصحاء والبُلَغاء عن معارضته، بل عن معارضة عَشر سُوَر مِن مِثله، بل عن معارضة سورة منه[2].

---

(١) سورة العنكبوت - الآيات (٥٠-٥٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨٧).



وقال الإمام ابن القيم: القرآن العظيم اجتَمع فيه ما لم يَجتمع في غيره؛ فإنه هو الدعوة والحُجَّة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحَكَم والدليل، وهو الدعوى والبيِّنة؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾(١) أي: من ربه، وهو القرآن، وقال تعالى لمن طلَب آية تدُلُّ على صدق رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾(٢)، فأخبَر سبحانه أن الكتاب الذي أنزَلَه يَكفي مِن كل آية؛ ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله سبحانه أرسَل به رسوله، وفيه بيان ما يُوجِب لمَن اتَّبعه السعادةَ، ويُنجِيه من العذاب(٣).



الهجرة الثانية إلى الحبشة

خرج جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومعه جماعات من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وذلك بعدما عادت قريش إلى اضطهاد مَن آمَن، وأَغْرَت سائر القبائل بمضاعفة الأذى للمسلمين،

---

(١) سورة هود - آية (١٧).
(٢) سورة العنكبوت - آية (٥١ - ٥٢).
(٣) انظر: مدارج السالكين (٤/ ٤٧٩).

فكان عدد مَن خرَج مع جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثلاثةً وثمانِين رجلًا، إن كان فيهم عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه يُشَكُّ في هجرته معهم، واثنَين وثمانِين رجلًا، إن لم يكُن فيهم عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن النساء ثماني عَشْرة امرأةً[1].

قال الإمام السُّهيلي: وشَكَّ ابن إسحاق في عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل هاجَر إلى أرض الحبشة أم لا؟ والأصح عند أهل السِّيَر، كالواقدي، وابن عقبة، وغيرهما: أنه لم يكن فيهم[2].



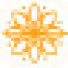
وَهْمٌ في بعض أسماء مهاجري الحبشة

روى الإمام أحمد في مسنده بسند ضعيف عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعَثَنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي، ونحن نحوٌ من ثمانين رجلًا، فيهم عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عُرْفُطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى، فأَتَوا النجاشي... الحديث[3].

وقال ابن إسحاق: ثم خرَج جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتَتابَع المسلمون، حتى اجتَمَعوا بأرض الحبشة فكانوا بها، منهم مَن خرَج

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٨).
(٢) انظر: الروض الأُنف (٢/ ٩٩).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٤٠٠).



بأهله معه، ومنهم مَن خرَج بنفسه لا أَهلَ له معه[١].

ثم ساق ابن إسحاق أسماء الصحابة في هذه الهجرة الثانية، وذكَر منهم عدَدًا ممَّن شهد غزوة بدر الكبرى؛ كعثمان بن عفان، والزُّبَير بن العوام، ومُصعَب بن عُمَير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأصحاب هذه الهجرة الثانية للحبشة إنما قَدِموا المدينة مع جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السنة السابعة للهجرة، وذلك حين افتتَح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر، فوَقَع الوَهْم لِابن إسحاق وغيره في ذكر عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذه الهجرة الثانية ممن شهد غزوة بدر الكبرى.

قال الإمام ابن القيم: قد ذُكر في هذه الهجرة الثانية عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجماعة ممن شهد بدرًا، فإما أن يكون هذا وهْمًا، وإما أن يكون لهم قَدْمَةٌ أخرى قبل بدر، فيكون لهم ثلاث قَدَمات: قَدْمة قبل الهجرة، وقَدْمة قبل بدر، وقَدْمة عام خيبر، وكذلك قال ابن سعد[٢] وغيره: إنهم لمَّا سَمِعوا مُهَاجَر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة رجَع منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا، ومن النساء ثماني نِسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحُبِس بمكة سَبْعةُ نفَرٍ، وشَهِد بدرًا منهم أربعة وعشرون رجلا[٣].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٠).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٠٠).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣١-٣٢).



وَهْم في ذكر أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وعَدَّ ابنُ إسحاق[1] أَبَا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيمن هاجَر إلى الحبشة الهجرةَ الثانية، وهذا من أوهامه على جلالة قَدْرِه.

قال الحافظ ابن كثير: ذكَر محمد بن إسحاق في جملة مَن هاجر إلى أرض الحبشة أبا موسى الأشعري عبد الله بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما أدري ما حَمَله على ذلك؛ فإن هذا أمر ظاهرٌ لا يَخْفَى على مَن هو دونه في هذا الشأن، وقد أنكَر ذلك عليه الواقدي وغيره من أهل المغازي، وقالوا: إن أبا موسى إنما هاجَر من اليمن إلى الحبشة إلى عندِ جعفر، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في الصحيح[2] من روايته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

وقال الإمام ابن القيم: وليس ذلك مما يَخفَى على مَن هو دونَ محمد بن إسحاق فَضلًا عنه، وإنما نشَأ الوَهم أن أبا موسى هاجَر من اليمن إلى أرض الحبشة إلى عند جعفر وأصحابه لمَّا سَمِع بهم، ثم قَدِم معهم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر، كما جاء مصرَّحًا به في الصحيح؛ فعَدَّ ذلك ابنُ إسحاق لأبي موسى هِجرةً، ولم يقُل: إنه هاجر من مكة إلى

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٦١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٧٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث - (٢٥٠٥) (١٦٩).

(٣) انظر: كلام الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول (ص ٥٩).



الحبشة لِيُنْكَرَ عليه[١].

وروَى الإمام البيهقي في دلائل النبوة بسند صحيح عن أبي بُردة، عن أبيه أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَنْطَلِقَ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، قَالَ: فَقَدِمْنَا، فَبُعِثَ إِلَيْنَا، قَالَ لَنَا جَعْفَرٌ: لَا يَتَكَلَّمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، أَنَا خَطِيبُكُمُ الْيَوْمَ، قَالَ: فَانْتَهَيْنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِهِ، فَزَبَرَنَا[٢] مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ: اسْجُدُوا لِلْمَلِكِ، فَقَالَ جَعْفَرٌ: لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ، قَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ؟ قَالَ: لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ، قال: وَمَا ذَاكَ؟ قال: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ، وَهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَنُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ.

فَأَعْجَبَ النَّجَاشِيَّ قَوْلُهُ، قَالَ: فَمَا يَقُولُ صَاحِبُكَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ؟ قَالَ: يَقُولُ فِيهِ: هُوَ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَقْرَبْهَا بَشَرٌ، فَتَنَاوَلَ النَّجَاشِيُّ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ، مَا يَزِيدُ هَؤُلَاءِ عَلَى مَا تَقُولُونَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ مَا تَزِنُ هَذِهِ! مَرْحَبًا بِكُمْ وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّهُ بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَحْمِلَ نَعْلَيْهِ، امْكُثُوا فِي

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٤).

(٢) زَبَرَه: انتهَره. انظر: لسان العرب (٦/ ١٢).



أَرْضِي مَا شِئْتُمْ، وَأَمَرَ لَنَا بِطَعَامٍ وَكِسْوَةٍ.

قال الإمام البيهقي: هذا إسناد صحيح، وظاهِرُه يدُلُّ على أن أبا موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان بمكة، وأنه خرَج مع جعفر بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أرض الحبشة، والصحيح عن يزيد بن عبد الله بن أبي بُردة، عن جده أبي بُردة، عن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه بلَغَهم مَخرَج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهم باليمن، فخرَجوا مهاجِرين في بضعٍ وخمسين رجلًا في سفينة، فألقَتْهُم سفينتهم إلى النجاشي بالحبشة، فوافَقُوا جعفر بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأصحابه عنده، فأمَرَهم جعفر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالإقامة، فأقاموا حتى قَدِموا على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ زمن خيبر[(١)]، فأبو موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شَهِد ما جرَى بين جعفر وبين النجاشي، فأخبر عنه، ولعَلَّ الراويَ وَهِم في قوله: أمَرَنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن نَنْطَلِق، والله أعلم[(٢)].

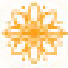


تعقُّب قريش مهاجِري الحبشة

فلما رأت قريش أن أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمِنُون بأرض الحبشة، وأنهم أصابوا بها دارًا واستقرارًا وحُسْنَ جِوار من النجاشي؛ بعَثَت إلى النجاشي رجُلَين، هما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي

(١) هذه رواية البخاري - رقم الحديث (٤٢٣٠) - ومسلم رقم الحديث (٢٥٠٢).

(٢) انظر: دلائل النبوة (٢/ ٣٠٠) للإمام البيهقي.



ربيعة؛ ليُسْلِم لهما أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ؛ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ، لَا نُؤْذَى وَلا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ[١]، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ[٢]، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ[٣] بِطْرِيقًا إِلا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُم إِلَيْكُم قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَخَرَجَا، فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا[٤] إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاؤوا

---

(١) جَلْدًا: أي: قويًّا في نفسه وجسمه. انظر: النهاية (١/ ٢٧٥).

(٢) الأَدَم: الجِلد. انظر: لسان العرب (١/ ٩٦).

(٣) البطارقة: جمع بِطْريق، وهو الحاذق بالحرب وأمورها، بلغة الروم، وهو ذو منصب وتقدُّم عندهم. انظر: النهاية (١/ ١٣٤).

(٤) صبا إلى الشيء: مال. انظر: لسان العرب (٧/ ٢٨٤).



بِدِيـنٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِم أَشْـرَافُ قَوْمِهِمْ؛ لِنَرُدَّهُم إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِـيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُم إِلَيْنَـا وَلا يُكَلِّمُهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعلَى بِهِمْ عَيْنًا(١)، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

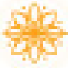
ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُم إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُـفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَـمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاؤوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِم أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ؛ لِتَرُدَّهُم إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ.

قَالَـتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَمْ يَكُنْ شَـيْءٌ أَبْغَـضَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْـنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلامَهُمْ، فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُـوا أَيُّهَـا الْمَلِكُ، قَوْمُهُـمْ أَعلَى بِهِمْ عَيْنًـا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُـوا عَلَيْهِمْ؛ فَأَسْلِمْهُم إِلَيْهِمَا، فَلْيَرُدَّاهُم إِلَى بِلادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ.

قَالَت: فَغَضِبَ النَّجَاشِـيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَا هَيْمُ اللهِ، إِذًا لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلا أُكَادُ قَوْمًـا جَاوَرُونِـي، وَنَزَلُوا بِـلادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِـوَايَ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ

---

(١) قال السُّـهيلي في الروض الأُنُف (٢/ ١١٣): أي أَبْصَرُ بهم، أي: عَيْنُهم وإبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم.



أَسْلَمْتُهُم إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُم إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.

قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ -وَاللهِ- مَا عَلِمْنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا جَاؤوهُ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ[1] فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟

قَالَتْ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ

---

(١) الأسْقُف: هو عالم رئيس من علماء النصارى ورؤسائهم. انظر: النهاية (٢/ ٣٤١).

(٢) روى الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٠٩٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٩٣٥٣) بسند صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما احتَذَى النِّعَال، ولا انتَعَلَ، ولا رَكِبَ المَطَايَا، ولا رَكِبَ الكُورَ بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من جعفر.

زاد الإمام أحمد: يعني في الجود والكرم.

الكُور -بضم الكاف-: هو رَحْل الناقة بأداته، وهو كالسَّرج وآلته للفرس. انظر: النهاية (٤/ ١٨١).

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٦٤٨): وهذا إسناد جيد إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكأنه إنما يُفضِّله في الكرم، فأما الفضيلة الدينية فمعلوم أن الصِّدِّيق والفاروق، بل وعثمان بن عفان، أفضل منه، وأما أخوه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالظاهر أنهما متكافئان، أو عليٌّ أفضل منه.



لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ؛ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ[1] -فعدَّد عليه أمورَ الإسلام-، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ!

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا

(١) هو مُطلَق الصلاة والصدقة والصيام، وليس الفرض؛ لأن الصلاة لم تُفرَض إلا في الإسراء والمعراج، وأما الزكاة والصيام فلم تُفرَض إلا في المدينة بعد الهجرة.



من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، فبكى -والله- النَّجَاشِيُّ حتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ[١] وبكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ[٢]، انْطَلِقَا، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُم إِلَيْكُم أَبَدًا، وَلا أُكَادُ!

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ[٣]. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ -وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا-: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ لَهُم أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا! قَالَ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا؛ فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ.

---

(١) أخضَلَ لحيته: بَلَّها بالدموع. انظر: النهاية (٢/ ٤٤).

(٢) قال الإمام ابن القيم في بدائع الفوائد (٢/ ٥٧٠): يعني: إذا كان موسى صادقًا وكتابه حق، فهذا كذلك؛ إذ من المحال أن يخرج شيئان من مشكاة واحدة، ويكون أحدهما باطلًا محضًا والآخر حقًّا محضًا؛ فإن هذا لا يكون إلا مع غاية التباين والتنافر؛ فالقرآن صَدَّق الكتب المتقدمة، وهي بشرت به وبمن جاء به، فقام الدليل على صدقه من الوجهين معًا؛ من جهة بشارة مَن تقدَّمه به، ومن جهة تصديقه لِما تقدَّمه ومطابقته له. فتأمَّلْ.

(٣) خضراءهم: دهماءهم وسَوَادَهم. انظر: النهاية (٢/ ٤٠).



قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ -وَاللهِ- فِيهِ مَا قَالَ اللهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ.

قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسى بْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ. فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ، اذْهَبُوا، فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي -وَالسُّيُومُ: الْآمِنُونَ-، مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ -وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ-، رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ، فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَ بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ(١).



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٤٠) (٢٢٤٩٨).



بقاء الصحابة في الحبشة

بَقِـيَ جعفر بن أبـي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومَن معه مـن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الحبشــة إلـى الســنة الســابعة للهجرة، وذلـك حين افتتح رســول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خيبر، كما سيأتي عند الحديث عن غزوة خيبر.



المقاطعة الجائرة

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشــي قد منَع مَن لجأ إليه منهم، وأن عُمَـر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد أسـلَمَ، فكان هو وحمـزة بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع رســول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، وجعل الإســلام يفشُو في القبائل؛ اجتَمَعوا وائتَمَروا بينهم أن يكتُبوا كتابًا يَتعاقَدون فيه على بني هاشم وبني المطَّلِب، على أن:

١- لا يُنكِحوا إليهم ولا يُنكِحوهم.

٢- ولا يَبيعوهم شيئًا، ولا يَبتاعوا[(١)] منهم.

فلمـا اجتَمَعـوا لذلك كتَبوه في صحيفـة، ثم تعاهَـدوا وتواثَقوا على ذلك، ثم علَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة؛ توكيدًا على أنفسهم.

---

(١) ابتاع الشيء: اشتراه. انظر: لسان العرب (١/ ٥٥٧).



فلما فعَلَت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطَّلِب إلى أبي طالب بن عبد المُطَّلِب، فدخلوا معه في شِعْبه واجتَمَعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العُزَّى بن عبد المطلب إلى قريش، فظاهَرَهم[(١)].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن بمِنًى[(٢)]: «نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بخَيْفِ[(٣)] بَنِي كِنَانَةَ، حَيْثُ تَقَاسَمُوا علَى الكُفْرِ»[(٤)]، وذلك أنَّ قُرَيْشًا وبني كِنانَةَ

---

(١) ظاهَرهم: عاونَهم وناصرهم. انظر: النهاية (٣/ ١٥٢).
والخبر في سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٨).

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٥٨٩): حين أراد قدوم مكة.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٢٨٢): زمن الفتح.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٢٨٣): في حَجَّته.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٢٨٥): حين أراد حُنَينًا.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٨): قوله: حين أراد حُنَينًا أي: في غزوة الفتح؛ لأن غزوة حُنين عقب الفتح، وقد تقدم في الباب المذكور في الحج من رواية شُعيب عن الزهري بلفظ: حين أراد قدوم مكة، ولا مغايرة بين الروايتين، بطريق الجمع المذكور، لكن ذَكَره هناك أيضًا من رواية الأوزاعي عن الزهري بلفظ: قال وهو بمنًى: نحن نازلون غدًا بخَيف بني كنانة، وهذا يدل على أنه قال ذلك في حجته لا في غزوة الفتح، فهو شبيه بالحديث الذي قبله في الاختلاف في ذلك، ويَحتمِل التعدُّد، والله أعلم.

(٣) الخَيْفُ -بفتح الخاء-: ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غِلَظ الجبل. انظر: النهاية (٢/ ٨٨).

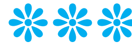
(٤) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٣٥٧): قصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إظهار شِعار=



تَحَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ: أَلَّا يُنَاكِحُوهُمْ ولَا يُبَايِعُوهُمْ[١] حتَّى يُسْلِمُوا[٢] إِلَيْهِمُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

زاد أبو داود في سُنَنه: قال الزهري: والخَيف: الوادي[٤].

قال الإمام النووي: ومعنى (تقاسموا على الكفر): تحالَفوا وتعاهَدوا عليه، وهو تحالُفُهم على إخراج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبني هاشم وبني المُطَّلب من مكة إلى هذا الشِّعْب، وهو خَيف بني كنانة، وكتَبوا بينهم الصحيفة المشهورة، وكتَبوا فيها أنواعًا من الباطل، وقطيعة الرحم، والكفر[٥].



= الإسلام في المكان الذي أظهروا فيه شِعار الكفر والعداوة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه كانت عادته -صلوات الله وسلامه عليه- أن يقيم شعار التوحيد في مواضع شعار الكفر والشرك.

(١) زاد أبو داود في سُنَنه: ولا يُؤوُوهم.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٤٨): يُسْلِموا: بضم أوله، وإسكان المهملة، وكسر اللام.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٩٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣١٤/ ٣٤٤).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٠١٠).

(٥) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٥٢).



نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة

ثم سعى في نَقْض تلك الصحيفة الجائرة بعضُ مَن كان كارهًا لها من رجال قريش، فقام هشام بن عمرو بن الحارث فمشى إلى المُطْعِم بن عَدِيٍّ وجماعة من قريش، فأجابوه إلى ذلك، وقد أَطْلَع الله سبحانه رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمر صحيفتهم، وأنه أرسَلَ عليها الأَرَضَة[1]، فأكَلَت جميع ما فيها مِن جَور وقطيعة وظلم، فأخبَر بذلك عمَّه أبا طالب، فخرَج على قريش وأخبَرهم بما قال ابنُ أخيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخلوا الكعبة وأنزَلوا الصحيفة، فإذا بها كما أخبَر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رجع بنو هاشم وبنو المُطَّلِب إلى مكة[2].



---

(١) قال الدَّمِيرِيُّ في حياة الحيوان (١/ ٣٥): الأَرَضَة -بفتح الهمزة والراء والضاد المعجمة-: دُوَيبَّة صغيرة تأكل الخَشَب.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٨) - زاد المعاد (١/ ٣٦-٣٨).



وفاة أبي طالب

تُوُفِّيَ أبو طالب عمُّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد خروجه من الشِّعْب، وذلك في أواخر العام العاشر للبعثة -واختُلِف في تعيين الشهر-، فلما اشتكى وبلَغ قريشًا ثِقَلُه قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخُذْ لنا على ابن أخيه وليُعطِهِ مِنَّا.

روَى الإمام التِّرمذي في جامعه والحاكم في مستدرَكِه -واللفظ للحاكم- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَ رَأْسِ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ ذَاكَ[1] إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا بْنَ أَخِي، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمِّ، إِنَّمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً تَذِلُّ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا جِزْيَةَ الْعَجَمِ!» قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟! قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَةً وَاحِدَةً» قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قَالَ: فَقَالُوا: أَجَعَلُوا الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ! قَالَ: وَنَزَلَ فِيهِمْ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾[2].

---

(١) يعني: يمنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجلوس فيه.

(٢) سورة ص - الآيات (١-٧) - والخبر أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٥١٢) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٦٥٩) - وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصَحَّحه الحاكم.



وروى الشيخان في صحيحيهما عن المسيَّب بن حَزْن قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[(١)]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاللهِ، لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[(٢)]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[(٣)].

---

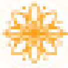
(١) قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٨٩): وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضَرُّ من قُرناء السوء! لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد!

(٢) سورة التوبة - آية (١١٣).

(٣) سورة القصص - آية (٥٦) - أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٧٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث - (٢٤) (٣٩).

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٩٣): أما نزول هذه الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب، وأما نزول التي قبلها ففيه نظر، ويظهر أن المراد أن الآية المعلَّقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامَّة في حقه وفي حق غيره.

وقال في موضع آخر في الفتح (٩/ ٤٥٩): ويُؤيد تأخير النزول -أي الآية الأولى- =



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمِّهِ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ؛ يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ، لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: يقول الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه-: إنك يا محمد ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2] أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يَهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحُجَّة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[4]، وهذه الآية أخص من هذا كله؛ فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[5] أي: هو أعلم بمن يَستحق الهِداية

= ما تقدَّم في تفسير براءة من استغفاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك؛ فإن ذلك يقتضي تأخير النزول وإن تقدَّم السبب، ويُشير إلى ذلك أيضًا قوله في حديث الباب: وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنه يُشعِر أن الآية الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره، والثانية نزلت فيه وحده.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥) (٤٢).

(٢) سورة القصص - آية (٥٦).

(٣) سورة البقرة - آية (٢٧٢).

(٤) سورة يوسف - آية (١٠٣).

(٥) سورة القصص - آية (٥٦).



ممن يَستحق الغَوَاية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عَمِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان يحُوطه وينصُره ويقوم في صفِّه، ويحبُّه حبًّا شديدًا طَبَعيًّا لا شرعيًّا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبَق القدَر فيه، واختُطِف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة البالغة[1].

وقال الإمام ابن القيم: قال الله تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾[3] والهادي: هو الدليل الذي يدُلُّ بهم في الطريق إلى الله والدار الآخرة، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[4]؛ فإن الله سبحانه تكلَّم بهذا وهذا، فرُسُله الهُدَاة هدايةَ الدَّلالة والبيان، وهو الهادي هدايةَ التوفيق والإلهام؛ فالرسل هم الأدلَّاء حقًّا، والله سبحانه هو الموفِّق المُلِهم الخالق للهدى في القلوب[5].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٦).

(٢) سورة الشورى - آية (٥٢).

(٣) سورة الرعد - آية (٧).

(٤) سورة فاطر - آية (٨).

(٥) انظر: مدارج السالكين (٤/ ٥٢٧).



وقال الحافظ ابن كثير: ولم يُقدِّر الله له[1] الإيمان؛ لِمَا له تعالى في ذلك من الحكمة العظيمة، والحُجَّة القاطعة البالغة الدامغة التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لَاستَغْفَرنا لأبي طالب وترَحَّمْنا عليه[2].



شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمِّه أبي طالب

روى الشيخان في صحيحيهما عن العباس بن عبد المُطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أغْنَيْتَ عن عَمِّكَ؟ فوالله كانَ يَحُوطُكَ ويَغْضَبُ لَكَ! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هو في ضَحْضَاحٍ[3] مِن نَارٍ، ولَوْلَا أنَا لَكانَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّار»[4].

ورَوَى الشيخان في صحيحَيهما عن أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكر عنده عمُّه أبو طالب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتي يومَ القِيَامَةِ، فيُجْعَلُ في ضَحْضَاحٍ مِن

---

(١) أي: لأبي طالب.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٣٨).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٩٢): هو استعارة؛ فإن الضَّحْضاح من الماء: ما يبلغ الكعبَ، والمعنى أنه خُفِّف عنه العذاب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٨٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث - (٢٠٩) (٣٥٧).



نارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي منه دِمَاغُهُ»[١].

قال الحافظ في الفتح: والنفع الذي حصل لأبي طالب من خصائصه ببركة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

وفاة خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

تُوفِّيَت أمُّ المؤمنين خديجة بنت خُوَيلِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في نفس العام الذي تُوُفِّيَ فيه أبو طالب، وذلك في العام العاشر للبعثة، قبل الهجرة بثلاث سنين.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خُوَيلد وأبا طالب هلَكا في عام واحد[٣].

ورَوى الإمام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير قال: تُوفِّيَت خديجة قبل مَخْرَج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بثلاث سنين[٤].

قال الحافظ في الفتح: كان موتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل الهجرة بثلاث سنين، وذلك بعد المبعث -على الصواب- بعشر سنين[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٨٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢١٠).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٩٤).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٩٦).

(٥) انظر: فتح الباري (٧/ ٥١٣).



فَضْل أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

روَى الشيخان في صحيحَيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى جبريلُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أَتَت، معها إناء فيه إِدَام، أو طعام، أو شَـرَاب، فـإذا هي أَتَتْكَ فاقْرَأْ عليها السـلام من رَبِّها[١] ومِنِّي، وبشِّرْها ببيت في الجنة من قَصَب[٢] لا صَخَبَ[٣] فيه ولا نَصَبَ[٤].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيرُ نسائها مريم، وخيرُ نسائها خديجة»[٥].

قـال الإمام النووي: الأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نسـاء الأرض في عصرها[٦].

---

(١) قـال الإمـام ابـن القيـم في جَـلاء الأفهـام (ص ٣٤٩): ومـن خصائصهـا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الله سـبحانه بعث إليها السـلام مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبلَّغها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، وهذه -لَعَمْرُ الله- خاصَّةٌ لم تكن لِسِواها!

(٢) قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٦٢): قال جمهور العلماء: المراد به: قصَبُ اللؤلؤ المجوَّف.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥١٨): الصَّخَب: هو الصياح والمنازعة برفع الصوت.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥١٨): النَّصَب: هو التعب.

والحديـث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٢٠) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٣٢).

(٥) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨١٥) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٣٠).

(٦) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٦١).



وروَى الإمام أحمد في مُسنَده وابن حِبَّان في صحيحه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: خَطَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الأرض أربعة خطوط فقال: «أَتَدْرُون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلَمُ. قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خُوَيلد، وفاطمة بنت محمد، وآسِيَة بنت مُزَاحِم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»(١).

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده، والتِّرمِذي في جامعه بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حَسْبُك من نساء العالَمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خُوَيلد، وفاطمةُ بِنْتُ محمد، وآسِيَة امرأة فرعون»(٢).

قال الإمام القرطبي: ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالَم؛ من حَوَّاء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية بنت مُزاحم امرأةُ فرعون(٣).

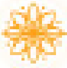


---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٦٨) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠١٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٣٩١) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٢١٦) - وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٢٧).



اشتداد إيذاء قريش للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاة عمه أبي طالب

قال ابن إسحاق: فلما هلَك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لم تكُن تَطْمَع به في حياة أبي طالب![1].

وقال الحاكم في المُستدرَك: تواتَرَت الأخبار أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات عمه أبو طالب لَقِيَ هو والمسلمون أذًى من المشركين بعد موته[2].

وقال الحافظ ابن كثير: وعندي أن غالب ما رُوي من طَرْحِهم سَلا[3] الجَزُور[4] بين كَتِفَيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُصلِّي، وكذلك ما أخبَرَ به عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مِن خَنْقِهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خنقًا شديدًا حتى حال دونه أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكذلك عَزْمُ أبي جهل -لعنه الله- على أن يَطَأَ على عنقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُصلِّي فحِيلَ بينه وبين ذلك، مما أشبَهَ ذلك- كان بعد وفاة أبي طالب، والله أعلم[5].

---

(١) انظر: سيرة بن هشام (٢/ ٣٠).

(٢) انظر: المستدرك (٥/ ٢١٥).

(٣) السَّلاَ: هو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفًا فيه. وهو بالنسبة للآدميات يُسمى المَشِيمة. انظر: النهاية (٢/ ٣٥٧).

(٤) الجَزور: البعير ذكرًا أو أنثى. انظر: النهاية (١/ ٢٥٨).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٦).



وروَى الحاكم في المُستدرَك بسند جيد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما زالت قريش كاعَّةً[1] حتى تُوُفِّيَ أبو طالب»[2].

وروَى ابن إسحاق في السيرة بسند صحيح مرسَل عن عروة بن الزبير قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرَهُه حتى مات أبو طالب»[3].

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده والحاكم في المُستدرَك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلت فاطمة على رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهي تبكي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بُنَيَّة، ما يُبكيك؟» قالت: يا أبتِ، ما لي لا أبكي، وهؤلاء المَلأ من قريش في الحِجْر يَتعاقَدون باللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ الثالثةِ الأخرى، لو قد رَأَوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم رجل إلا وقد عَرَف نَصيبه من دمك! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بُنَيَّة، ائتِني بوَضُوءٍ» فتوضأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم خرج إلى المسجد، فلما رأَوه قالوا: ها هو ذا! فطَأْطَأوا رؤوسَهم، وسقَطَت أذْقَانُهم بين ثُدِيِّهم فلم يَرفَعوا أبصارهم، فتنَاوَل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبضة من

---

(١) كاعَّة: جمع كاعٍّ، وهو الجبان أراد أنهم كانوا يجبُنُون عن أذى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياة أبي طالب، فلما مات اجترؤوا عليه. انظر: النهاية (٤/ ١٥٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٨٩).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٣٠).

تراب فحَصَبَهم[(١)] بها وقال: «شاهَت الوجوهُ!» فما أصاب رجلًا منهم حَصَاةٌ مِن حَصَاته إلا قُتِلَ يوم بدرٍ كافرًا[(٢)].

وروَى الحاكم في المُستدرَك والإمام أحمد في فضائل الصحابة بسند صحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد ضربُوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى غُشي عليه! فقام أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجعل يُنادي ويقول: وَيلَكُم! أَتقتُلون رجلًا أن يقول: رَبِّيَ الله؟! قالوا: مَن هذا؟ قالوا: هذا ابن أبي قُحَافة المَجنونُ[(٣)]!

وروَى الإمام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزُّبَير، قال: سألتُ ابن عمرو بن العاص: أَخْبِرْني بأشَدِّ شيء صنَعه المشركون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبَلَ عُقبة بن أبي مُعَيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخَنَقَه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أخذ بمَنْكِبه ودفَعَه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: أَتقتَلون رجلًا أن يقول: رَبِّيَ الله؟![(٤)].

---

(١) حصَبَهم: أي رماهم بالحصباء، والحصباء: الحصى الصغار. انظر: النهاية (١/ ٣٧٨).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٦٢) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٩٢).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٤٧٣) - والإمام أحمد في فضائل الصحابة - رقم الحديث (٢١٨).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٥٦).

وروَى ابن حِبَّان في صحيحه وأبو يَعْلَى في مُسنَده بسند حسن عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما رأيتُ قريشًا أرادوا قَتْلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا يومًا، رأيتُهم وهم جلوس في ظِلِّ الكعبة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي عند المَقام، فقام إليه عُقبة بن أبي مُعَيط، فجعل رداءه في عُنُقه ثم جَذَبَهُ، حتى وَجَب[1] لِرُكْبَتَيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتَصايَح الناس، فظَنُّوا أنه مقتول، قال: وأقبَل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشتَدُّ، حتى أخَذ بضَبْعَيْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ورائه، وهو يقول: أَتَقتلون رجلًا أن يقول: رَبِّيَ الله؟! ثم انصرَفوا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما -واللفظ لمسلم- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَت جَزُور بالأمس، فقال أبو جهل: أيُّكم يقوم إلى سَلَا جَزُور بني فلان فيأخُذُه فيَضُعُه في[3] كَتِفَيْ محمد إذا سجَد؟ فانبَعَث أَشْقَى القوم[4] فأخَذَه، فلما سجَد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضَعَه بين كَتِفَيه، قال: فاستَضْحَكوا[5] وجعَل بعضُهم يَمِيل على بعض[6] وأنا

---

(١) وَجَبَ: أي: سقط إلى الأرض. انظر: النهاية (٥/ ١٣٥).

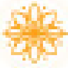
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٥٦٩) - وأبو يعلى في مسنده - رقم الحديث (٧٣٣٩).

(٣) في رواية الإمام البخاري: على.

(٤) هو عقبة بن أبي مُعَيط -قبحه الله- كما جاء مصرَّحًا به في رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٩٤)(١٠٨).

(٥) في رواية الإمام البخاري: فجعلوا يَضحَكون.

(٦) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٦٦): أي: من كثرة الضحك.



قائم أنظُرُ، لو كانت لي مَنَعَة[1] طَرَحْتُه عن ظَهْر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجد ما يَرْفَع رأسه، حتى انطَلَق إنسان فأخبَر فاطمةَ، فجاءت، وهي جُوَيْرِيةٌ[2] فطَرَحَتْه عنه، ثم أقبَلَت عليهم تشتِمُهم، فلما قضى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته رفَع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم عليكَ بقريش» ثلاث مرات، فلما سَمِعوا صوته ذهَب عنهم الضحك وخافُوا دعوته، ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتبة بن رَبيعة، وشَيبة بن رَبيعة، والوليد بن عُقبة[3]، وأُمَيَّة بن خلَف، وعُقبة بن أبي مُعَيط» قال عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فوالذي بعَث محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق، لقد رأيتُ الذين سمَّى صَرْعَى يوم بدرٍ![4].

ورَوى الإمام أحمد في مُسنَده وابن ماجَهْ بسند صحيح عن أنس بن

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٢٨): معناه: لو كان لي قوةٌ تَمنَع أذاهم، أو كان لي عَشِيرة بمكة تَمْنَعُني.

(٢) هو تصغير جارية، يعني صغيرة.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٢٩): هكذا هو في جميع نسخ مسلم: الوليد بن عقبة بالقاف، واتفق العلماء على أنه غلط وصوابه: الوليد بن عتبة بالتاء، كما ذكره مسلم في رواية أبي بكر بن أبي شيبة بعد هذا، وقد ذكره البخاري في صحيحه وغيره من أئمة الحديث على الصواب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٩٤) (١٠٧).



مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، وهو جالسٌ حزينٌ، قد خُضِبَ[(١)] بالدماء، ضرَبه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فعَل بي هؤلاء وفعلوا» فقال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتُحِبُّ أن أُرِيَكَ آيةً؟[(٢)]

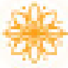
قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، فنظَر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادْعُ بتلك الشجرة. فدعاها، فجاءت تَمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مُرْهَا فَلْتَرْجِع. فأمرها فرجَعَت إلى مكانها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَسْبِي»[(٣)].

قال الشيخ علي الطنطاوي: وانطَلَقوا يُؤذونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويَتوعَّدُونه؛ لعل الترهيب يَفعَل فيه ما لم يَفعَل الترغيب... رمَوا في طريقه الشوك وهو ماشٍ، وألقَوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد، ورمَوه في الطائف بالحجارة وأسَالوا دَمَه، وهَزِئوا به، وسَلَّطوا عليه سفهاءهم، فلم يُثِرْ هذا كلُّه غضَبَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن أثار إشفاقه؛ إشفاقَ الكبير على الأطفال المُؤذِين، والعاقل على المجانين، وكان جوابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اهْدِ قومي؛

(١) خُضِبَ: أي: ابتلَّ. انظر: لسان العرب (٤/ ١١٧).

(٢) قال السِّنْدي في شرح المُسنَد (٧/ ١٤١): وهذا يدل على ما لك عند الله تعالى من الكرامة والشرف الذي تَنْسَى في جنبه ما يَلْحَق بك من التعب في تبليغ الرسالة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢١١٢) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٤٠٢٨).



فإنهم لا يعلمون»(١)، وأوغَلَت قريش في كفرها وصَدِّها وعنادها، ولكن هل تَقدِر قريش أن تُطفئ نور الله؟!(٢).



خروج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف

فلما اشتد البلاء برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بعد وفاة أبي طالب، خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف؛ رجاء أن يُؤْوُوه ويَنصُروه على قومه ويَمنَعُوه منهم، وقصَد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطائف؛ إما لأنها المركز الثاني للقوة والسيادة في الحجاز بعد مكة، أو لأن أخواله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة حَلِيمة السَّعْدية من هوازن، وكانوا يقطنون(٣) الطائف، فرأى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخرُج إلى الطائف ماشيًا على قدَمَيه، ومعه مولاه زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَلتَمِس من ثَقِيفٍ النصر والمَنَعَة له من قومه.

---

(١) أخرج هذا الحديث بهذا اللفظ: البيهقي في شعب الإيمان - رقم الحديث (١٤٤٧)، وقال: مرسل، وذكره الألباني في ضعيف الجامع - رقم الحديث (١٦٣٦)، وقال: ضعيف.

وروَى ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٩٧٣) بسند حسن عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون".

(٢) انظر: كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي (ص ١٣ - ١٤).

(٣) قطن بالمكان: أقام به. انظر: لسان العرب (١١ / ٢٣١).



وصول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف

فلما بلغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطائف عمَد إلى ثلاثة إخوة هم يومئذ سادَة ثَقِيف وأشرافهم، وهم: عَبْدُ ياليلَ ومسعود وحَبيب، أبناء عَمرو بن عُمَير، فجلَس إليهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعاهم إلى الله وإلى نُصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسَلَك! وقال الآخَر: أمَا وجد الله أحدًا يُرسِلُه غيرك؟! وقال الثالث: والله لا أُكلِّمُك أبدًا؛ لئن كنتَ رسولًا من الله كما تقول، لأنت أعظَمُ خطرًا من أن أَرُدَّ عليك الكلام، ولئن كنتُ تَكذِب على الله، ما ينبغي لي أن أُكلِّمَك!

فقام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن عندِهم وقد يَئِس من نُصرة ثَقِيف، وقال لهم: «إذا فعَلتُم ما فعَلتُم فاكتُمُوا عني»، فلم يفعلوا، وأقام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم عشرة أيام، فأَغْرَوا به سفهاءهم وعَبِيدهم يسبُّونه ويَصِيحون به، وآذَوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم يَنَلْه قومه، وقالوا له: اخرُج من بلدنا. ووقف سفهاؤهم صَفَّين وجعلوا يَرمُونه بالحجارة حتى دَمِيَت قدماه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقِيهِ بنفسه، حتى أصابه شِجَاج في رأسه! فانصرف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الطائف إلى مكة محزونًا.



وفي مَرْجِعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك دعا ربه بالدعاء المشهور: «اللَّهمَّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي[١] أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[٢].



نزول جبريل وملك الجبال عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه ملك الجبال عَلَيْهِ السَّلَامُ يستأمره، فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا

---

(١) يتجهَّمني: أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. انظر: النهاية (١/ ٣١١).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢ - ٣٣) - زاد المعاد (٣/ ٣٩).



أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ[١] إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[٢] فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ؛ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟»[٣]، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[٤].

قال الحافظ ابن كثير: فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾[٥]؟

---

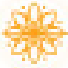
(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٣٠): أي: لم أَفطِن لنفسي وأنتبه لحالي وللموضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه، إلا وأنا عند قَرْن الثعالب؛ لكثرة همي الذي كنتُ فيه.

(٢) اختُلف في تحديد قرن الثعالب؛ فقيل: هو ميقات أهل نجد؛ قَرْن المنازل، وقيل غيره، والله أعلم.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٣): هما جبلا مكة: أبو قُبيس، والذي يُقابله، وكأنه قُعَيقِعان.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٢٣١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٩٥).

(٥) سورة الأنعام - آية (٥٨).



فالجواب -والله أعلم-: أن هذه الآية دلَّت على أنه لو كان إليه وقوع العـذاب الذي يَطلُبونه حال طلَبِهم لـه، لَأَوْقَعَه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سـألوه وقوع العـذاب بهم، بل عَرَض عليه مَلَـك الجبال أنه إن شـاء أطبَقَ عليهم الأَخْشَـبَين، وهما جَبـلَا مكة، اللَّـذَان يَكتَنِفَانها جنوبًا وشمالًا؛ فلهذا استأْنَى بهم، وسأل الرفق لهم[(١)].



دخول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في جوار المُطعِم بن عَدِيٍّ

رجع رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة، وقومُه أشَدُّ ما كانوا عليه من خلافه وعَدائه، ودخَلها في جِوار المُطْعِم بن عَدِيٍّ.

ولم يَنْسَ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المعروف للمُطْعِم بن عَدِيٍّ، فقـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر: «لو كان المُطْعِم بن عَدِيٍّ[(٢)] حيًّا، ثم كلَّمَني في هؤلاء النَّتْنَى[(٣)]، لَتَرَكْتُهم له»[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٤).

(٢) قـال الإمام النووي في تهذيب الأسـماء والصفات (٢/ ٢٠٦): مـات المُطعِم بن عَديٍّ كافرًا قبل يوم بدر بلا خلاف بين أهل التواريخ والسِّيَر وغيرهم.

(٣) النَّتن: الرائحة الكريهة. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٦).
قـال ابـن الأثيـر في النهاية (٥/ ١٢): سـماهم نتنـى؛ لكفرهـم، كقولـه تعالـى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٢٤).



قــال الإمام الذهبــي: وكان المُطْعِم بــن عَدِيٍّ هو الــذي قام في نقض صحيفة القطيعة، وكان يحنُو على أهل الشِّــعْب، ويَصِلُهم في السِّــرِّ، وهو الذي أجار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين رجع من الطائف حتى طاف بعُمرة[1].

وقال الحافظ في الفتح: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَترَكْتُهم له»: أي: بغير فِداء[2].



الإسراء والمعراج

أكرَم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ رســولَه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ برحلة الإســراء والمعراج، وذلك بعد ســنوات طويلة من الدعوة، وكانت هذه الرحلة المباركة بمثابة مكافأة لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ ليُبيِّن الله له مكانته ومنزلته من الله جَلَّجَلَالُهُ.

قال الإمام ابن القيم: كانت كرامة رســول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالإســراء مفاجأة من غير ميعاد؛ ليُحمَل عنه ألم الانتظار، ويُفاجَأ بالكرامة بَغتة[3].

ذكــر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الإســراء في ســورة الإســراء، فقــال تعالــى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾[4]، وذكــر

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٠).

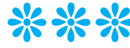
(٣) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١١٦٣).

(٤) سورة الإسراء - آية (١).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعراج في سورة النجم، فقال تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[١].

قال الإمام القرطبي: ثبَت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام؛ فهو من المتواتر بهذا الوجه[٢].

وقال الإمام ابن القيم: تواترت الأحاديث الصحيحة التي أجمعَت الأمة على صحتها وقبولها، بأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِج به إلى ربه، وأنه جاوَز السَّموات السبع، وأنه تردَّد بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين الله عَزَّ وَجَلَّ مرارًا في شأن الصلاة وتخفيفها[٣].



الخلاف في تحديد وقت هذه الرحلة

اختُلف في وقت رحلة الإسراء والمعراج اختلافًا كثيرًا، ولا يثبت شيء في تحديد وقتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يَقُم دليل معلوم لا على شَهْرِها ولا على عَشْرِها ولا على عَينها، بل النقول في ذلك مُنقَطِعة، ليس فيها

---

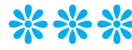
(١) سورة النجم - آية (١٢-١٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٧).

(٣) انظر: تهذيب السنن (٣/ ٢٥٨).

ما يُقطَع به(١).

وقال الحافظ في الفتح: وقد اختُلِف في وقت المعراج، فقيل: كان قبل المبعث. وهو شاذٌّ، إلا إن حُمِلَ على أنه وقع حينئذ في المنام. وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث، ثم اختلفوا؛ فقيل: قبل الهجرة بسَنَة، قاله ابن سعد وغيره، وبه جزَم النووي، وبالَغ ابن حزم فنقَل الإجماع فيه، وهو مردود؛ فإن في ذلك اختلافًا كثيرًا يزيد على عشرة أقوال(٢).



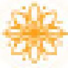
الإسراء والمعراج كان بجسده وروحه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال الحافظ في الفتح: اختلَف السلف بحسب اختلاف الأخبار الواردة؛ فمنهم مَن ذهب إلى أن الإسراء والمعراج وقَعَا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروحه بعد المبعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المُحَدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك؛ إذ ليس في العقل ما يُحِيله حتى يَحتاج إلى تأويل(٣).

وقال الحافظ ابن كثير: الأكثرون من العلماء على أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسرِيَ ببدنه وروحه يقظة لا منامًا، ولا يُنكَر أن يكون رسول الله

---

(١) نقله عنه ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٣٦).
(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٠٢).
(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ١٩٥).



صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى قبل ذلك منامًا ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يَرَى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، والدليل على هذا قوله جَلَّ جَلَالُهُ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[1] فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العِظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكُن مستعظمًا، ولَمَا بادَرَت كفار قريش إلى تكذيبه، ولَمَا ارتَدَّ جماعة ممن كان قد أسلَم.

وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الرُّوح والجسد، وقد قال عَزَّ شأنه: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[3] قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هي رؤيا عَيْن أُرِيَها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة أُسْرِيَ به، والشجرة الملعونة شجرة الزَّقُّوم[4]، وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[5]، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضًا فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمِلَ على البُرَاق، وهو دابَّة بيضاء برَّاقة، لها لَمَعَان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مَرْكَب تَرْكَب عليه، والله أعلم[6].

---

(١) سورة الإسراء - آية (١).
(٢) سورة الإسراء - آية (١).
(٣) سورة الإسراء - آية (٦٠).
(٤) أخرج أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث - (٣٨٨٨).
(٥) سورة النجم، آية (١٧).
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣ - ٤٤).



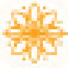
قصة الإسراء والمعراج

عن أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حدَّثهم عن ليلة أُسري به فقال: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ» -وربما قال: «فِي الحِجْرِ[1]- مُضْطَجِعًا، إِذْ أَتَانِي آتٍ[2] فَقَدَّ»[3] -قال: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ-: «فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ» -فقلت للجارُود وهو إلى جَنْبي:

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٠٢): هو شكٌّ من قتادة كما بينه الإمام أحمد في مسنده رقم الحديث (١٧٨٣٥) عن عثمان عن همام، ولفظه: «بينا أنا نائم في الحطيم» وربما قال قتادة: في الحِجر، والمراد بالحطيم هنا الحِجر، وأبعد من قال: المراد به ما بين الركن والمقام، أو بين زمزم والحِجر، وهو إن كان مختَلَفًا في الحطيم: هل هو الحِجر أم لا؟ لكن المراد هنا بيان البقعة التي وقع ذلك فيها، ومعلوم أنه لم تتعدد؛ لأن القصة متحدة لاتحاد مخرجها، وقد وقع في أول بدء الخلق في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٢٠٧) بلفظ: «بينا أنا عند البيت»، وهو أعم، ووقع في رواية الزُّهري في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٤٩) عن أنس عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «فُرِج سَقف بيتي وأنا بمكة»، وفي رواية الواقدي بأسانيده أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أُسري به من شِعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل فقال: «إن جبريل أتاني»، والجمع بين هذه الأقوال: أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نام في بيت أم هانئ، وبيتُها عند شِعب أبي طالب، ففُرِجَ سقفُ بيته، وأضاف البيت إليه؛ لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملَك، فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعًا وبه أثر النعاس، ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد، فأركبه البُراق.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٠٤): هو جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

(٣) القَدُّ: هو القطع طولاً كالشَّقِّ. انظر: النهاية (٤/ ٢٠).



ما يَعني به؟ قال: مِن ثُغْرَة[1] نَحْرِه إلى شِعْرَته[2]- «فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْت مِنْ ذَهَب مَمْلُوءَة إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ[3] ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ، أَبْيَضَ» فقال له الجارود: هو البُرَاق يا أبا حمزة؟

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم «يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ»[4].

وكان البُرَاق مُسْرَجًا[5] مُلْجَمًا[6]، فلما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) الثُّغرة: هي نُقرة النحر فوق الصدر. انظر: النهاية (١/ ٢٠٨).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٠٤): بكسر الشين، أي: شَعر العانة.

وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٤) قال: «إلى أسفل بطنه».

(٣) زاد الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٤): «إيمانًا وحكمة».

في رواية شريك في صحيح البخاري - رقم الحديث (٧٥١٧) قال: «فحشا به صدره ولغاديده». يعني: عروق حَلْقِه.

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٠٦): وقد اشتملت هذه القصة من خوارق العادة على ما يُدهِش سامعه فضلًا عن شاهِده؛ فقد جرت العادة بأن مَن شُقَّ بطنه وأُخرج قلبُه يموت لا محالة، ومع ذلك فلم يُؤثِّر فيه ذلك ضررًا ولا وجعًا، فضلًا عن غير ذلك!

(٤) طَرْفِه -بفتح الطاء وسكون الراء-: أي: بَصَرِه. انظر: لسان العرب (٨/ ١٤٥).

وأخرج ذلك إلى هذا القَدْر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٨٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٤).

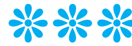
(٥) السَّرْج: هو رَحْل الدابة. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٢٥).

(٦) اللِّجام: هو حبل أو عصا تدخل في فم الدابة، وتُلزَق إلى قفاه. انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٤٢).



أن يَرْكَبه استَصْعَب(١) عليه، فقال له جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أَبِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟! فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ قَطُّ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْهُ! فَارْفَضَّ عَرَقًا(٢).

قال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَرَكِبْتُهُ(٣) حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ»(٤).



إمامته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ

فلما دخل رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد الأقصى بصحبة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى الأنبياء والمرسَلين صفوفًا في المسجد الأقصى، أحياهم الله جلَّت قُدْرَته له، فقَدَّمه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لِيَؤُمَّهم في الصلاة.

فقد روَى الإمام أحمد في مُسنَده بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: فلما دخل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد الأقصى قام يُصلي،

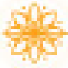
---

(١) قال السهيلي في الروض الأُنُف (٢/ ١٩٤): إنما استصعب عليه؛ لبُعد عهد البراق بركوب الأنبياء قبله، وطول الفترة بين عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومحمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) فارفَضَّ عرقًا: أي جرى عَرَقُه وسال. انظر: جامع الأصول (١١/ ٣٠٥). وأخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٦٧٢) - والإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٣٩٧) وإسناده صحيح.

(٣) أي: البراق.

(٤) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).



ثم التفَت، فإذا النبيون أجمَعُون يُصلُّون معه[1].

وفي روايـة الإمام مسـلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فحانت الصلاة فأَمَمْتُهُم»[2].



عَرْضُ الآنية في بيت المقدس

فلما فرغ رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من صلاته بالأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ أُتِيَ بقَدَحَيـن؛ أحدهمـا فيه لبن، والآخر فيه خمر، فقد روى الإمام مسـلم في صحيحه عـن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ثم دَخَلْتُ المسـجد فصلَّيتُ فيه ركعتين، ثـم خرَجْت، فجاءني جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بإنـاء مـن خمر، وإنـاء من لبن، فاختـرتُ اللبن، فقـال جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: اختَرْتَ الفِطْرَةَ»[3].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٢٣٢٤) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٨) وصَحَّح إسناده.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٢).

(٣) قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (٢/ ١٨٤): فسَّـروا الفِطْرَة هنا بالإسلام والاسـتقامة، ومعناه -والله أعلم-: اخترتَ علامة الإسـلام والاسـتقامة، وجُعِلَ اللبن علامة؛ لكونه سهلًا طيبًا طاهرًا سائغًا للشاربين.
والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).



صعود الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المعراج[1] إلى السَّموات

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي[2] فَعَرَجَ[3] بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا[4]، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قال: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟[5] قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ، عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ[6]، وَعَلَى يَسَارِهِ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٣): المعراج هو كالسُّلَّم، ذو دَرَج يَرْقَى فيها، فصَعِد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع.

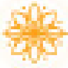
(٢) يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) العروج: الصعود. انظر: النهاية (٣/ ١٨٤).
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٢١): والمقصود أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فرغ من أمر بيت المقدس نُصِبَ له المعراج، وهو السُّلَّم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البُراق كما قد يتوهمه بعض الناس، بل كان البُراق مربوطًا على باب مسجد بيت المقدس؛ ليرجع عليه إلى مكة.

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٨٨٧): قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فانطلق بي جبريل حتى أتى السماءَ الدنيا».

(٥) في رواية أخرى في صحيح البخاري رقم الحديث (٣٨٨٧): وقد أُرسل إليه؟
وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢/ ٢٥٩): وقد بُعث إليه؟
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ١٨٥): مراده: وقد بُعث إليه للإسراء وصعود السموات؟ وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة؛ فإن ذلك لا يخفى عليه إلى هذه المدة، فهذا هو الصحيح. والله أعلم.

(٦) أسوِدَة: جمع قِلَّة لسواد: وهو الشخص. انظر: النهاية (٢/ ٣٧٦).



أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟[1] قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ؛ فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى[2]!



عُرُوجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء الثانية

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ»[3].



---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٧): ظاهره أنه سأل عنه بعد أن قال له آدم: مرحبًا. ورواية مالك بن صعصعة بعكس ذلك، وهي المعتمَدة، فتُحمَل هذه عليها؛ إذ ليس في هذه أداة ترتيب.

(٢) أخرج ذلك إلى هذا القَدْر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٤٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٣).

(٣) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).



﴿ عُرُوجُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء الثالثة ﴾

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيل، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ[(١)]، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»[(٢)].

---

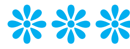
(١) قال الإمام ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/ ١١٦٧): قالت طائفة: المراد منه أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أُوتِيَ شَطْرَ الحسن الذي أوتِيَهُ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغ الغاية في الحُسن، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بلغ شَطْر تلك الغاية، قالوا: ويحقِّق ذلك ما رواه الترمذي من حديث قتادة عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ما بعث الله نبيًّا إلَّا حَسَنَ الوَجهِ، حَسَنَ الصَّوت، وكان نبيُّكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسَنَهم وجهًا، وأحسَنَهم صوتًا.
والظاهر: أن معناه: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اختص عن الناس بشطْر الحُسن، واشترك الناس كلهم في شطره، فانفرد عنهم بشطره وحده، هذا ظاهر اللفظ، فلماذا يُعدل عنه؟ واللام في (الحُسن) للجنس، لا للحسن المعين المعهود المختص بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أدري ما الذي حملهم على العدول عن هذا إلى ما ذكروه!
وحديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يُنافي هذا، بل يدل على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أحسن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وجهًا وأحسنهم صوتًا، ولا يلزم من كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنهم وجهًا ألا يكون يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اختص عن الناس بشطْر الحُسن، واشتركوا هم في الشطر الآخر، ويكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شارك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما اختص به من الشطر، وزاد عليه بحسن آخر من الشطر الثاني. والله أعلم.
قلت: الحديث الذي ذكره الإمام ابن القيم ذكره بالمعنى، وأخرجه الإمام الترمذي في الشمائل - رقم الحديث (٣٢٠) عن قتادة، وليس عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإسناده مُرسَل ضعيف جدًّا.

(٢) أخرج ذلك إلى هذا القدر: مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).



عُرُوجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء الرابعة

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ» ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾[1][2].



عُرُوجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء الخامسة

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»[3].



(١) سورة مريم - آية (٥٧).
(٢) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).
(٣) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).



عُرُوجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء السادسة

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»(١).



عُرُوجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء السابعة

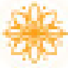
قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ(٢)،

---

(١) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٥٣): أكثر الروايات أنه في السماء السابعة.

وروى الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٧٨٤) بسند صحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة».



وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ(١) لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»(٢).

«فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال جبريل: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»(٣).

وروَى الإمام التِّرمِذي في جامعه بسند حسن بالشواهد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقِيتُ إبراهيم ليلة أُسْرِيَ بي، فقال: يا محمدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السلام، وأَخْبِرْهم أن الجنة طيِّبة التُّربة، عَذْبة الماء، وأنها قِيعَانٌ(٤) وأن غِرَاسَها(٥): سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٦).



(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٧): يعني: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة.

(٢) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).

(٣) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٨٧).

(٤) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ٣٩٨): قيعان -بكسر القاف- جمع قاع: وهي الأرض المستوية الخالية من الشجر.

(٥) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ٣٩٨): غراسها -بكسر الغَين- جمع غَرْس -بالفتح: وهو ما يُغرس، أي: يستره تراب الأرض من نحو البَذْر؛ لينبُتَ بعد ذلك.

(٦) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٧٦٧) - وأخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٥٥٢) من حديث أبي أيوب الأنصاري.



عَرْضُ الآنِيَةِ عند البيت المعمور

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بإِنَاءٍ من خَمْرٍ، وإنَاءٍ من لَبَنٍ، وإِنَاءٍ مِن عَسَلٍ، فأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هي الفِطْرَةُ الَّتي أنت عَلَيْهَا وأُمَّتُكَ»[(١)].

وفي رواية الإمام مسلم: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ، ما هذا؟ قالَ: هذا البَيْتُ المَعْمُورُ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَومٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا منه لَمْ يَعُودُوا فيه آخِرَ ما عَلَيْهِم، ثُمَّ أُتِيتُ بإِناءَيْنِ؛ أَحَدُهُما خَمْرٌ والآخَرُ لَبَنٌ[(٢)] فَعُرِضا عَلَيَّ، فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فقِيلَ: أَصَبْتَ، أَصابَ اللهُ بكَ! أُمَّتُكَ علَى الفِطْرَةِ»[(٣)].

قال الحافظ في الفتح: يَحتمِل أن يكون السِّرُّ فيه[(٤)] ما وقع في بعض طرق الإسراء أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَطِشَ[(٥)] فآثَرَ اللبن دون غيره؛ لِمَا فيه من حصول حاجته، دون الخمر والعسل، فهذا هو السبب الأصلي في إيثار

---

(١) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: المعراج - رقم الحديث (٣٨٨٧).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦١٨): أما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها فيُحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٤) (٢٦٤).

(٤) يعني: اختياره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللبن على غيره.

(٥) الطريق التي أشار إليها الحافظ أخرجها البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٥٦)، وقال: إسناده صحيح.



اللبن، وصادَف مع ذلك رُجحانَه عليهما من عدة جهات[1].



سِدْرةُ المُنتهى

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثم ذَهَبَ بي إلى السِّدْرَةِ[2] المُنْتَهَى[3]، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلَة، وإذا ثَمَرُها كالقِلَال[4]، فلما غشِيَها من أمرِ الله ما غَشِيَ، تغيَّرتْ، فما أحدٌ مِن خلْقِ الله يستطيعُ أن يَنْعَتَها؛ من حُسنِها»[5].

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٢٠٣).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ١٨٥): هكذا وقع في الأصول: "السدرة" بالألف واللام، وفي الروايات بعد هذا: "سدرة المنتهى".

(٣) هي في السماء السابعة، وسبب تسميتها بذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٣) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما أُسري برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيُقبض منها.
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦١٥): ولا يُعارض قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل في السماء السابعة؛ لأنه يُحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها.

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٨٨٧): «قِلال هَجَر».
والقِلَال -بكسر القاف- جمع قُلَّة بضم القاف: وهي الجِرَار التي يُستقى بها. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٨٨).
وقال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٩١): هَجَر: قرية قريبة من المدينة، وليست هَجَر البحرين، وكانت تُعمَل بها القِلال، تأخذ الواحدة منها مزادة من الماء، سُميت قُلَّة؛ لأنها تُقَلُّ، أي: تُرفَع وتُحمَل.

(٥) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).



وفي رواية الإمام البخاري: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثم انطَلَق بي حتى انتَهَى بي إلى سِدْرَة المُنْتَهى، وغَشِيَها ألوانٌ لا أَدْرِي ما هي!»[1].

وفي صحيح مسلم: تلا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾[2] فقال: فَرَاشٌ مِن ذَهَبٍ[3].



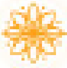
رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على صورته الحقيقية

رأى رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على صورته التي خلَقه الله عليها، عند سِدرة المُنتهى، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صُوَر مختلفة، وأكثر ما يأتيه بصورة دِحْية بن خليفة الكَلْبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾[5] ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾[6] ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٤٩).
(٢) سورة النجم - آية (١٦).
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٣).
(٤) روى الإمام أحمد في مسنده رقم الحديث (٥٨٥٧) بسند صحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة دِحْية.
(٥) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٥١): هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء.
(٦) قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ١٥١): وفي هذه الآية أسرارٌ عجيبة، =



رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

وروَى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[2] قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ؛ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ»[3].

وقال الإمام البيهقي: وقول عائشة، وابن مسعود، وأبي هريرة، في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أصحُّ[4].

= وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر، صلوات الله وسلامه عليه، تواطأ هناك بصَرُه وبصيرتُه، وتوافَقَا وتصادَقَا، فما يشاهده بصره فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر؛ فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة؛ ولهذا كان مركوبُه في مَسراه يسبق خَطْوُهُ الطَّرْفَ، فيضع قدمه عند منتهى طَرْفِه.... مشاكلًا لحال راكبه، وبُعْدِ شَأوِه الذي سبق به العالَم أجمَعَ في سيره، فكان قَدَمُ البراق لا يتخلَّف عن موضع نظره، كما كان قدمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتأخر عن محل معرفته.

(١) سورة النجم - الآيات (١٢-١٨).

(٢) سورة النجم - الآية (١٣).

(٣) التهاويل والدر والياقوت: أي: الأشياء المختلفة الألوان، أراد بالتهاويل تزايين ريشه وما فيه من صُفرة وحُمرة وبياض وخُضرة، مثل تهاويل الرِّياض. انظر: لسان العرب (١٥/ ١٦١).
والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٩١٥) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٥١) وقال: وهذا إسناد جيِّدٌ قويٌّ.

(٤) انظر: دلائل النبوة (٢/ ٣٨٥).



قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة.... وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾[1] إنما هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما ثبت ذلك في الصحيحَين عن عائشة أم المؤمنين[2]، وعن ابن مسعود[3]، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة[4] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا يُعرَف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا[5].



دخول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنة

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ[6] اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ»[7].

ورَوى الإمام أحمد في مُسنَده والتِّرمِذي في جامعه بسند حسن عن

---

(١) سورة النجم - آية (٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٢٣٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث - (١٧٧) (٢٨٧).

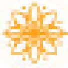
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٥٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٤).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٨).

(٦) الجنابذ: جمع جُنْبُذة، وهي القُبَّة. انظر: النهاية (١/ ٢٩٤).

(٧) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه- رقم الحديث (٣٣٤٢) - ومسلم في صحيحه- رقم الحديث (١٦٣).



حُذيفـة بن اليَمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «وَاللهِ مَا زَايَلَا الْبُرَاقَ[1] حَتَّى فُتِحَتْ لَهُمَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَرَأَيَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَوَعْدَ الآخِرَةِ أَجْمَعَ»[2].



رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهر الكوثر

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: «أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ»[3].

---

(١) في رواية الترمذي: ظَهْرَ البُراق.
ومعناه: ما فارق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ظَهْرَ البُـراق في صعودهما إلى السَّموات، وهذا مخالف لما في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٦٢/ ٢٥٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فربطتُـه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء».
قال الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٥): وأما الربط فقد رُوِّيناه في حديث غيره، والبُـراق: دابة مخلوقة، ورَبْط الدواب عادة معهودة، وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ لقادرًا على حفظها، والخبر المُثبِت أولى من النافي. وبالله التوفيق.
وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢١): وهذا الذي قاله حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفي، وما أثبَتَه غيره عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ربط الدابة بالحلقة، ومن الصلاة بالبيت المقدَّس: مُقدَّم على قوله.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٢٨٥) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٤١٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري - رقم الحديث (٤٩٦٤).

وروَى أبو داود في سُننه بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا عُرِجَ بِنَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَنَّةِ -أَوْ كَمَا قَالَ- عُرِضَ لَهُ نَهْرٌ حَافَتَاهُ الْيَاقُوتُ الْمُجَيَّبُ[1] -أَوْ قَالَ: الْمُجَوَّفُ- فَضَرَبَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعَهُ يَدَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِسْكًا، فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَلَكِ الَّذِي مَعَهُ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[2].



لقاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بربه سبحانه[3] وفرض الصلوات[4]

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ

---

(١) المُجَيَّب -مشددًا- هو من قولهم: جَيَّب يُجيِّب، فهو مُجيَّب، أي: مُقوَّر. وكذلك بالواو. انظر: النهاية (١/ ٣١٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٧٤٨).

(٣) قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ١٥٣): فلم يَزَل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خَفَارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق حُجب السَّموات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محلٍّ من القُرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبَّت إليه هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحُجُب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون. الخَفَر -بالتحريك-: شدَّة الحياء. انظر: لسان العرب (٤/ ١٥٢).

(٤) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٠): ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فُرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة في حين الإسراء حين عُرِج به إلى السماء.



فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلَامِ[1]، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ؛ فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ»[2].

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي! فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ؛ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ».

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً[3]، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[4].

---

(١) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٤٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٣) (٢٦٣).

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٢٠٧): قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنا أعلم الناسَ منك؛ عالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، وإن أمتك لا تُطيق.

(٣) في رواية الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢١١) بسند صحيح: قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم نُودي: يا محمد، إنه لا يُبدَّل القول لديَّ، وإنَّ لك بهذه الخَمْس خمسين.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦١٩): هذا من أقوى ما استُدِلَّ به على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلم نبيه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء بغير واسطة.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٢٢): فحصل له التكليم من الرب=



قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ!»[1].



الراجح أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرَ ربَّه ليلة المعراج

اختلَف السلف والخلف: هل رأى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه ليلة المعراج أم لا؟ على قولَين مشهورَين.

قال الحافظ في الفتح: ذهبت عائشة[2] وابن مسعود[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى إنكارها، واختُلف على أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4] ثم اختَلَفوا: هل رآه بعَينه أو بقَلْبِه؟ فجاءت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أخبار مُطلَقة[5]، وأخرى مقيَّدة[6]،

= سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليلتئذ، وأئمةُ السُّنة كالمُطْبِقين على هذا.

(١) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢) (٢٥٩).

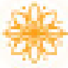
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٥٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧/ ٢٨٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٥٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٤).

(٤) أخرجهما الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨) (٢٩١) (٢٩٢).

(٥) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٥٦٤) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٥٧) وإسناده حسن.

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦) (٢٨٤) (٢٨٥).



فيجب حَمْلُ مُطلَقها على مُقَيَّدِها[١].

وقال الحافظ ابن كثير: ولا يصحُّ في ذلك شيء[٢] عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وقولُ البغوي في تفسيره[٣]: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس، والحسن، وعِكْرمة- فيه نظرٌ، والله أعلم[٤].

وقال الإمام البيهقي: وفي حديث شَرِيك[٥] زيادةٌ[٦] تفرَّد بها على مذهب مَن زعم أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ رأى ربَّه عَزَّوَجَلَّ، وقول عائشة، وابن مسعود، وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُم، في حَمْلِهم هذه الآيات على رؤيته جبريلَ عَلَيهِٱلسَّلَامُ: أصحُّ[٧].

قال الحافظ ابن كثير معلِّقًا على كلام البيهقي: وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة[٨].

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/ ٥٨٩).

(٢) يعني: رُؤية النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ رَبَّه سُبحَانَهُوَتَعَالَى ليلة المعراج.

(٣) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٢٤٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٨).

(٥) حديث شَريك أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٧٥١٧).

(٦) الزيادة هي: «ودنا الجبَّار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى».
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٧): إنَّ شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظُه ولم يضبِطْه.

(٧) انظر: دلائل النبوة (٢/ ٣٨٥).

(٨) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٨).



وقال الإمام ابن القيم: واختَلَف السلف والخلَف: هل حصَل هذا لسيِّد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟

فالأكثرون على أنه لم يَرَهُ سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارِمي إجماعًا من الصحابة، فمَن ادَّعَى كَشْف العِيَان البصري عن الحقيقة الإلهية، فقد وَهِمَ وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشْف العِيَان القلبي، بحيث يصير سبحانه كأنه مَرْئِيٌّ للعبد، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعبُدْ اللهَ كأنك تَرَاه»[1]، فهذا حق، وهو قوة يقين ومزيد علم فقط.

نعم، قد يَظهر له نور عظيم، فيَتوهَّم أن ذلك نور الحقيقة وأنها تجلَّت له، وذلك غلَط أيضًا؛ فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء، ساخ[2] الجبل وتَدَكْدَكَ[3].

وقال الإمام الذهبي: ولم يأتِنا نص جَلِيٌّ بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى اللهَ تعالى بعَينيه، وهذه المسألة مما يَسَع المرءَ المسلمَ في دينه السكوتُ عنها، فأما المنام فجاءت من وجوه متعددة مستفيضة، وأما رُؤية الله عِيَانًا في الآخرة فأمر مُتيقَّن تواتَرَت به النصوص[4].

---

(١) أخرج هذا الحديث: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩).

(٢) ساخ: انخسف. انظر: لسان العرب (٦/ ٤١٩).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٤/ ١١٩).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٧).



رجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة وإخبار الناس بمَسْراه

ثم هبط جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السَّموات إلى المسجد الأقصى، ثم رَكِبَا البُرَاق وعادَا إلى مكة قبل الصبح.

روى الإمام أحمد في مُسنَده بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أُسْرِيَ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدَّثهم بمَسِيره، وبعلامة بيت المقدِس وبِعِيرِهم[1].

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده وابن أبي شيبة في مُصَنَّفِه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ»، فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ» قَالَ: مَا هُوَ؟ فَقَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ» قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟! قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَلَمْ يُرِهِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٥٤٦) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٨) وصَحَّح إسناده - وحسَّنه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤/ ٤٣٩).



الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ».

فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ[1]، حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاؤوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ» قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟! قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ، قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ[2] لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ[3] وَأَنَا أَنْظُرُ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ -أَوْ عُقَيْلٍ-، فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ[4].

---

(١) زاد ابن أبي شيبة في مصنَّفه: هَلُمَّ.

(٢) النَّعت: وَصْفُك الشيء. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٩٧).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٩٩): وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه؛ فقد أُحضِرَ عرش بلقيس في طرفة عين لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يقتضي أنه أُزيل من مكانة حتى أُحضر إليه، وما ذلك في قدرة الله بعزيز!

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٨١٩) - وابن أبي شيبة في مصنَّفه - رقم الحديث (٣٢٣٥٨).



وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ» قَالَ: «فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ!»[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلا[2] اللهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ[3] أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»[4].



تصديق أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَسْرَى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

روَى الحاكم في المُستدرَك بسند ضعيف عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: لما أُسرِيَ بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد الأقصى، أصبَح يتحدَّث الناس بذلك، فارتَدَّ ناس ممَّن كانوا آمَنوا به وصدَّقوه، وسَعَوا بذلك إلى أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقالوا: هل لك إلى صاحبِك؟! يزعُم أنه أُسرِيَ به

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٢).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٩٩): معناه: كُشِفَ الحُجب بيني وبينه حتى رأيتُه.

(٣) طَفِق: أخذ وجعل. انظر: النهاية (٣/ ١١٨).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه- رقم الحديث (٣٨٨٦).



الليلة إلى بيت المقدس! قال: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لَئِن كان قال ذلـك لقد صَدَق، قالوا: وتُصدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبـل أن يُصبِح؟! قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعـم، إني لأُصدِّقه فيما هو أبعَدُ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء في غَدوة أو رَوحة؛ فلذلك سُمِّي أبو بكر الصِّدِّيق[١].

* **وجزم الإمام الطحاوي بأن سبب تسمية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصِّدِّيق؛** لِسَبْقِهِ الناسَ إلى تصديق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإسراء لبيت المقدس، فقال: ولأنَّ السَّبْق إلى المعرفة للأشياء يُوجب الفضيلة للسابِقِين إليها، كما وجب لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسَبْقه الناسَ إلى تصديقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علـى إتيانه بيـتَ المقدس من مكـة ورجوعه منه إلى منزلـه بمكة في تلك الليلـة، حتى سُـمي بذلك الصِّدِّيـقَ، وإن كان المؤمنون جميعًا يَشـهدون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثل ذلك إذا وقَفوا عليه[٢].

وروَى البيهقـي في دلائـل النبـوة بسـند صحيح عن شـدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ أُسْرِيَ بِكَ؟ قَالَ: «صَلَّيْتُ لِأَصْحَابِي صَـلَاةَ الْعَتَمَـةِ بِمَكَّةَ مُعْتِمًـا، وَأَتَانِي جِبْرِيـلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَابَّـةٍ بَيْضَاءَ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ...» وذكَر قصة الإسراء والمعراج، ثم قال: «ثُمَّ أَتَيْتُ

(١) أخرجـه الحاكـم في المسـتدرك - رقـم الحديـث (٤٤٥٥) - وأورد طُرُقَـه الألبانيُّ في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٠٦) ومال إلى تصحيحه.
(٢) انظر: شرح مشكل الآثار (٣/ ٣٩٤).



أَصْحَابِي قَبْلَ الصُّبْحِ بِمَكَّةَ، فَأَتَانِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ كُنْتَ اللَّيْلَةَ؟ فَقَدِ الْتَمَسْتُكَ فِي مَكَانِكَ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلِمْتَ أَنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ اللَّيْلَةَ؟!» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ، فَصِفْهُ لِي، قَالَ: «فَفُتِحَ لِي صِرَاطٌ[1] كَأَنِّي أَنْظُرُ فِيهِ، لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُ عَنْهُ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: انْظُرُوا إِلَى ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[2] يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ اللَّيْلَةَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ آيَةِ مَا أَقُولُ لَكُمْ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ، فَجَمَعَهُ فُلَانٌ، وَإِنَّ مَسِيرَهُمْ يَنْزِلُونَ بِكَذَا ثُمَّ بِكَذَا، وَيَأْتُونَكُمْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَقْدُمُهُمْ جَمَلٌ آدَمُ[3] عَلَيْهِ مِسْحٌ أَسْوَدُ وَغِرَارَتَانِ سَوْدَاوَانِ»، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَشْرَفَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ، حَتَّى كَانَ قَرِيبٌ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، حَتَّى أَقْبَلَتِ الْعِيرُ، يَقْدُمُهُمْ ذَلِكَ الْجَمَلُ الَّذِي وَصَفَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4]!

---

(١) الصراط: الطريق. انظر: لسان العرب (٧/ ٣٢٦).

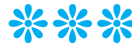
(٢) يعنُون بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) الآدم: الأسمر. انظر: لسان العرب (١/ ٩٧).

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٥٦ - ٣٥٧) وقال: إسناده صحيح.
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٧): ولا شك أن هذا الحديث -أعني الحديث المروي عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مشتمل على أشياء؛ منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو منكَر، كسؤال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. والله أعلم.



قال الحافظ ابن كثير: وقد عايَن رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رآها أو بعضَها غيرُه، لأصبح مندهشًا أو طائش العقل، ولكنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح ساكنًا، يَخشى إن بَدَأ فأخبَرَ قومه بما رأى أن يُبادِروا إلى تكذيبه، فتلطَّف بإخبارهم أولًا بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة[1].



نزول الوحي لبيان المواقيت

قال الإمام القرطبي: ولم يَختلفوا في أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هبَط صَبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلَّم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة ومواقيتها[2].

وقال الحافظ ابن كثير: فلما كان ليلةُ الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف[3] فَرَض الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلوات الخمس، وفَصَّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئًا فشيئًا. والله أعلم[4].

ورَوَى الشيخان في صحيحَيهما عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أَخَّر الصلاة يومًا، فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٢٣).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٤).
(٣) ذكرتُ فيما تقدم أنه لم يثبُتْ شيء في تحديد وقت الإسراء والمعراج.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٦٤).

أَخَّر الصلاة يومًا وهو بالعراق[١]، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة؟! أليس قد عَلِمْتَ أن جبريل -صلوات الله وسلامه عليه- نزَل فصلَّى، فصلَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم صلَّى، فصلَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم صلَّى، فصلَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم صلَّى، فصلَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم صلَّى، فصلَّى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «بِهَذَا أُمِرْتُ»[٢].

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده والحاكم في مُستدرَكه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: «قُمْ يَا مُحَمَّدُ فَصَلِّ الظُّهْرَ» فَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى كَانَ فَيْءُ الرَّجُلِ لِلْعَصْرِ مِثْلَهُ، فَجَاءَ، فَقَالَ: «قُمْ يَا مُحَمَّدُ فَصَلِّ الْعَصْرَ» فَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «قُمْ فَصَلِّ الْمَغْرِبَ» فَقَامَ فَصَلَّاهَا حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ سَوَاءً، ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى ذَهَبَ الشَّفَقُ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: «قُمْ فَصَلِّ الْعِشَاءَ» فَقَامَ فَصَلَّاهَا، ثُمَّ جَاءَهُ حِينَ صَدَعَ الْفَجْرُ بِالصُّبْحِ[٣]،

---

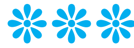
(١) في رواية الإمام مسلم: بالكوفة.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٥/ ٩١): "أُمِرت" رُوي بضم التاء وفتحها، وهما ظاهران.
والحديث أخرجه البخاري - رقم الحديث (٥٢١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦١٠) (١٦٧).

(٣) يعني: انشقَّ عنه الليل. انظر: لسان العرب (٧/ ٣٠٣).

فَقَالَ: «قُمْ يَا مُحَمَّدُ فَصَلِّ» فَقَامَ فَصَلَّى الصُّبْحَ، ثُمَّ جَاءَهُ مِنَ الْغَدِ حِينَ كَانَ فَيْءُ الرَّجُلِ مِثْلَهُ فَقَالَ: «قُمْ يَا مُحَمَّدُ فَصَلِّ الظُّهْرَ» فَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ جَاءَهُ حِينَ كَانَ فَيْءُ الرَّجُلِ مِثْلَيْهِ فَقَالَ: «قُمْ يَا مُحَمَّدُ فَصَلِّ الْعَصْرَ» فَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَغْرِبَ حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ، وَقْتًا وَاحِدًا لَمْ يَزُلْ عَنْهُ، فَقَالَ: «قُمْ فَصَلِّ الْمَغْرِبَ» فَصَلَّى الْمَغْرِبَ، ثُمَّ جَاءَهُ الْعِشَاءَ حِينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ فَقَالَ: «قُمْ فَصَلِّ» فَصَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَهُ الصُّبْحَ حِينَ أَسْفَرَ جِدًّا فَقَالَ: «قُمْ فَصَلِّ الصُّبْحَ» ثُمَّ قَالَ: «مَا بَيْنَ هَذَيْنِ كُلُّهُ وَقْتٌ»(١).

❊❊❊

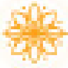
 انشقاق القمر

قال الحافظ ابن كثير: وهذا أمر متفَق عليه بين العلماء؛ أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات(٢).

ورَوى الشيخان في صحيحَيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُريَهُم آيةً، فأَرَاهُم القَمَرَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٥٣٨) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٧٠٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٧٢).



شِقَّيْنِ، حتى رأَوا حِرَاءً[(١)] بَيْنَهُما[(٢)].

وروَى الشيخان في صحيحَيهما عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انشَقَّ القمرُ، ونحن مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمِنًى، فقال: «اشْهَدُوا» وذهَبَت فِرْقةٌ نحوَ الجبَل[(٣)].

قال الحافظ في الفتح: وهذا لا يُعارِض قولَ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ذلك كان بمكة؛ لأنه لم يُصرِّح بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لَيْلَتَئِذٍ بمكة، وعلى تقدير تصريحه فمِنًى من جُملة مكة؛ فلا تعارُضَ[(٤)].

وروَى الطيالسي في مُسنَده بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت قريش: هذا سِحْرُ ابن أبي كَبْشَةَ! وقالوا: انتَظِرُوا ما يأتيكم به السُّفَّار[(٥)]؛ فإن محمدًا لا يستطيع أن يَسْحَرَ الناسَ كلهم! قال: فجاء السُّفَّار فقالوا ذلك[(٦)]،

---

(١) حِراء: جبل معروف بمكة. انظر: النهاية (١/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٦٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٠٢).

(٣) أخرجه البخاري - رقم الحديث (٣٨٦٩)- ومسلم في صحيحه - رقم الحديث - (٢٨٠٠) (٤٤).

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٧٩).

(٥) السُّفَّار: المسافرون. انظر: النهاية (٢/ ٣٣٥).

(٦) أخرجه الطيالسي في مسنده - رقم الحديث (٢٩٣) - وأخرجه مختصَرًا: الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٦٩٧).



وأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[١].



عَرْضُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسَه على قبائل العرب

قال ابن إسحاق: ثم قَدِمَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة[٢]، وقومُه أشدُّ ما كانوا عليه مِن خِلافه وفِراق دِينه، إلا قليلًا مستضعَفِين ممَّن آمن به، فكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعرِض نفسه في المواسم[٣] -إذا كانت- على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله، ويُخبِرهم أنه نبي مُرسَل، ويَسألهم أن يُصدِّقوه ويَمنَعوه حتى يُبيِّنَ عن الله ما بعثه به[٤].

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: مكَث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة عشر سنين يَتَّبَّعُ الناسَ في منازلهم، بعُكَاظَ ومِجَنَّةَ، وفي المواسم بمِنًى، يقول: «مَن يُؤْوِيني، مَن ينصُرُني حتى أُبلِّغَ رسالة ربي، وله الجنة؟»[٥].

---

(١) سورة القمر - الآيتان (١-٢).
(٢) وذلك بعد رجوعه من الطائف.
(٣) أي: مواسم الحج.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٥).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٥٦).



وروَى أبـو داود والترمـذي وابن ماجه، بسـند صحيح، عن جابر بن عبـد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِض نفسَـه على الناس بالموقف، فيقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إلى قَوْمِهِ؛ فإنَّ قريشًا قد مَنَعُونِي أن أُبلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ»(١).



إسلام إيَاس بن مُعاذ الأَشْهَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

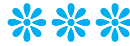
أسلَم إيَاس بن مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أول مَن أسلَم من الأنصار مطلقًا.

وقصة إسـلامه رواها الإمام أحمد في المُسنَد والحاكم في المُستدرَك بسند حسن عن محمود بن لَبيد، أخي بني عبد الأشهَل، قال: لمَّا قَدِم أبو الحَيْسَـر أَنَس بن رافع مكة، ومعه فِتية من بني عبد الأشـهَل، فيهم إيَاس بن مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَلتَمِسـون الحِلْف من قريـش على قومهم من الخزرج، فسَمِع بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتاهم فجلَس إليهم، فقال: «هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟» قالوا: وما ذاك؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا رَسُولُ اللهِ، بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ كِتَابٌ»، ثم ذكَر لهم الإسـلام وتَلَا عليهم القرآن، فقال إيَاس بن مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان غلامًا حَدَثًا: أيْ قومِ، هذا -واللهِ- خير مما جئتم

(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٧٣٤)- والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣١٥٢) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٠١).



له. قال: فأخذ أبو الحَيْسَر حَفنةً من البَطْحاء[1]، فضرَب بها وجه إيَاس بن مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: دَعْنَا منك، فلَعَمْري لقد جئنا لِغَير هذا! فصمَت إيَاس، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانصَرَفوا إلى المدينة، فكانت وقعةُ بُعَاث[2] بين الأوس والخزرج. قال: ثم لم يَلْبَث إيَاس بن مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هلَك. قال محمود بن لَبيد: فأخبَرَني مَن حضَره من قومي عند موته أنهم لم يَزالوا يَسمعونه يُهلّل اللهَ ويُكبّره ويَحمَده ويُسبّحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون أنْ قد مات مُسْلِمًا، لقد كان استَشْعَرَ الإسلام في ذلك المجلس حين سَمِع من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سَمِع[3].



(١) البطحاء: الحصى الصغار. انظر: النهاية (١/ ١٣٤).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٦٠): كان يوم بُعاث -وبُعاث موضع بالمدينة- كانت فيه وقعة عظيمة قُتِلَ فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكُبَرائهم، ولم يبقَ من شيوخهم إلا القليل، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٧٧) - عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان يوم بُعاث يومًا قدَّمه الله لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَدِم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد افترق ملَؤُهم، وقُتلت سَرَواتهم وجُرحوا، فقدَّمه الله لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دخولهم في الإسلام.
سَرَوَاتهم: خِيَارهم. انظر: لسان العرب (٦/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٦١٩)- والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٨٩١).



بَدء إسلام الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

فلما أراد الله عَزَّوَجَلَّ إظهار دينه وإعزاز نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المَوْسِم، كما كان يَصنَع في كل مَوْسِم، فبينما هو عند العَقَبة لَقِيَ رَهْطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمِنْ مَوَالِي[1] يَهُودَ؟» قالوا: نعم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟» قالوا: بلى، فجلَسوا معه، فدعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ وعرَض عليهم الإسلام، وتَلَا عليهم القرآن، وكان مما صنَع الله بهم في الإسلام أن يَهُودَ كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهلَ كتاب وعِلم، وكانوا هُم[2] أهلَ شِرك وأصحابَ أوثان، وكانوا قد عزُّوهم[3] ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظَلَّ زمانُه، نتبِعُه فنقتُلُكم معه قَتْلَ عادٍ وإِرَمَ[4].

---

(١) قال السُّهَيلي في الروض الأُنُف (٢/ ٢٤٦): أي: من حُلفائهم.

(٢) أي: الأوس والخزرج.

(٣) عَزُّوهم: أي: غَلَبوهم. انظر: لسان العرب (٩/ ١٨٧).

(٤) ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم هذا التوعد الذي وقع من اليهود تجاه الأوس والخزرج، فقال تعالى في سورة البقرة، آية (٨٩): ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

يَستفتحون: يعني: يَستنصرون. انظر: النهاية (٣/ ٣٦٥).



فلما كلَّم رسـولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولئك النفَرَ ودعَاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تَعلَمون -واللهِ- إنه لَلنَّبيُّ الذي توعَّدَكم به يَهُودُ! فـلا تَسْـبِقَنَّكُم إليه، فأجابوه فيما دعَاهـم إليه، بأن صَدَّقـوه وقَبِلُوا منه ما عرَض عليهم من الإسلام.

وكان هـؤلاء النفر مـن الخزرج من عُقلاء يَثْـرِب، أنهَكَتْهم الحرب الأهلية التي مضَت من قريب[1]، والتي لا يَزال لَهِيبها مُسـتَعِرًا، فأمَّلُوا أن تكون دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سببًا لوضع الحرب.

فقالوا لرسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّـا قد ترَكْنا قومنـا، ولا قومَ بينَهم من العداوة والشـر ما بينَهم، فعسـى أن يَجمَعهم الله بك، فسنَقْدَم عليهم فنَدْعُوهـم إلى أمرك، ونَعْـرِض عليهم الذي أَجَبْناك إليـه من هذا الدِّين، فـإن يَجْمَعْهم الله عليه، فلا رَجُـلَ أعَزُّ منك، ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُـولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعِينَ إلَى بِلَادِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا[2].



(١) هي حربُ بُعاث.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢).



أسماء رَهْط الخزرج الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وكان هؤلاء الرَّهْط الكِرَام ستةَ نفَر من الخزرج، فيما ذكَره ابن إسحاق، وهُمْ:

من بني النَّجَّار:

١- أسعدُ بن زُرَارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- عوف بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ابن عَفْرَاء، وهي أُمُّه.

ومن بني زُرَيق:

٣- رافع بن مالك بن العَجْلان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني سَلِمَة[1]:

٤- قُطْبَة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني حَرَام بن كعب:

٥- عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني عُبَيد بن عدِيٍّ:

٦- جابر بن عبد الله بن رِئَاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهور، أحد المُكْثِرِين من الحديث

(١) قال ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٤٦): سَلِمة، بلام مكسورة.



عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ[1].



بيعة العَقَبة الأولى

فلما رجَع هؤلاء النفر الستة إلى المدينة ذكَروا لقومهم رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ودعَوهم إلى الإسلام حتى فَشَا[2] فيهم، فلم تَبْقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا ذُكِرَ فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

روى الإمام أحمد في مُسنَده بسند صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: ... حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِب، فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ[3] إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ[4].

حتى إذا كان العامُ المُقبِل وافَى[5] مَوْسِمَ الحج من الأنصار اثنا عشر رجلًا؛ اثنان من الأوس، وعشَرة من الخزرج، فيهم خمسة من الستة الذين اجتمعوا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في العام السابق، وهم:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢).
(٢) فشا: انتشر وذاع. انظر: لسان العرب (١٠/ ٢٦٩).
(٣) الانقلاب: الرجوع. انظر: النهاية (٤/ ٨٥).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٥٦).
(٥) وافَى: أتَى. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٩).



من الخزرج: من بني النجار:

١- أسعد بن زُرارة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٢- عوف بن الحارث. وهو ابن عَفْرَاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٣- معاذ بن الحارث. وهو ابن عَفْرَاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني زُرَيق:

٤- رافع بن مالك بن العَجْلان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٥- ذَكْوَان بن عبدِ قَيْس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني عوف بن الخزرج:

٦- عُبادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٧- يزيد بن ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني سالم بن عوف:

٨- العباس بن عبادة بن نَضْلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني سَلِمة:

٩- قُطْبَة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني حرام بن كعب:

١٠- عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



ومن الأوس: من بني عبد الأشهَل:

١١- أبو الهيثم مالك بن التَّيِّهان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن بني عمرو بن عوف:

١٢- عُوَيم بن ساعدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].



بنود بيعة العَقَبة الأولى

روى الشيخان في صحيحَيهما عن عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ[٢] عَلَيْنَا، وَعَلَى أَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ[٣].

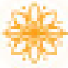
وروَى البيهقي في دلائل النبوة بسند جيد عن عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤-٤٦).

(٢) الأَثَرة -بفتح الهمزة والثاء-: الاسم من: آثر يؤثر إيثارًا: إذا أعطى، أراد أنه يُستأثر عليكم فيُفضَّل غيركم في نصيبه من الفيء، والاستئثار: الانفراد بالشيء. انظر: النهاية (١/ ٢٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٥٥) (٧٠٥٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٠٩).



وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ فِي اللهِ لَا تَأْخُذُنَا فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ نَنْصُرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ عَلَيْنَا يَثْرِبَ بِمَا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَزْوَاجَنَا وَأَبْنَاءَنَا، وَلَنَا الْجَنَّةُ. فَهَذِهِ بَيْعَةُ رَسولِ اللهِ ﷺ بَايَعْنَاهُ عَلَيْهَا[(١)].

وَهْمٌ مشهورٌ:

قلتُ: وأما وصف بيعة العَقَبة الأولى على مثل ما بايَع رسول الله ﷺ النساء، فهو وَهْمٌ من بعض الرواة، فلم يكن في بيعة العقبة الأولى ذِكْرٌ للنساء، ولا في بنودها[(٢)].



بَعْثُ مُصْعَب وابن أُمِّ مَكْتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى المدينة

انتهى مَوْسِم الحج، وانصرف القوم راجِعين إلى بلادهم، وبعَث رسول الله ﷺ معهم مُصْعَب بن عُمَير، وابن أمِّ مَكْتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأمَرَهما أن يُقرِئا الأنصارَ القرآن، ويُعلِّما الإسلام، ويُفقِّها في الدِّين.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البَرَاء بن عازب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أوَّلُ مَن قَدِمَ علينا من أصحاب النبي ﷺ مُصْعَبُ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٥٢) - وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٧٧) وقال: وهذا إسناد جيد قوي.

(٢) ذكرتُ ذلك مفصَّلاً في اللؤلؤ المكنون (١/ ٥٦٠-٥٦٦).



بن عُمَير، وابن أمِّ مَكْتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فجعَلَا يُقرِئَانِنا القرآن[1].

فأسلَم على يَدَيهما بشَرٌ كثير من الأوس والخزرج؛ منهم: سعد بن مُعَاذ، وأُسَيد بن حُضَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وبإسلامهما يومئذ أسلَم جميعُ بني عبدالأشهَلِ؛ الرجال والنساء، إلا الأُصَيْرِمَ عَمرو بن ثابت بن وَقْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحُدٍ، فأسلَمَ حينئذ، وقاتَل، فاستُشهِد يوم أُحُد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يسجُد لله سجدة، فأُخبِر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّه لَمِن أهل الجنة»[2].



بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم بَعَثَنا اللهُ، فَأْتَمَرْنَا، وَاجْتَمَعْنَا؛ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ ويخافُ! فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ[3].

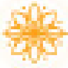
ورَوَى تفاصيلَ هذه البيعة العظيمة التي كانت سببًا في الهجرة إلى

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٤١).

(٢) أخرج قصةَ الأُصَيْرِم عمرو بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٦٣٤) - وأوردها الحافظ في الإصابة (٤/ ٥٠١) وحسَّن إسنادَها.

(٣) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٦٥٣) وإسناده حسن.



المدينة: الإمامُ أحمد في مُسَنده وابن حبان في صحيحه بسند حسن عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: خَرَجْنا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، قال: فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ قَالَ: قُلْنَا: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفَانِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ، كَانَ لَا يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا، قَالَ: فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ[1] فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ، فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ جَالِسٌ، فَسَلَّمْنَا، ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ: «هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟» قَالَ: نَعَمْ، هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشاعِرُ؟» قال: نعم.

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاعَدَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَنَا عبدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ؛ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا

(١) يعني: المسجد الحرام.



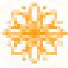
أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا! ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا.

قَالَ: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلا(١)، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ: نُسَيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ؛ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ؛ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ، وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ.

قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقَ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ -وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ؛ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا- إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ

---

(١) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٥٤): ثلاثة وسبعون رجلاً.
قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٢٧٧): وهذه تسمية من شهد العَقَبة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين، هذا هو العدد المعروف، وإن زاد في التفصيل على ذلك، فليس ذلك بزيادة في الجملة، وإنما هو لمحل الخلاف فيمن شهد؛ فبعض الرواة يثبته، وبعضهم يُثبت غيره بدله، وقد وقع ذلك في غير موضع؛ في أهل بدر، وشهداء أُحُد، وغير ذلك.



عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ. فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، فتكلَّمَ رسولُ الله ﷺ فتلا، ودعا إلى الله عزَّ وجلَّ ورغَّب في الإسلام، ثُمَّ قَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ»، فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا[1]، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ[2]، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ[3].

وفي رواية أخرى في مُسنَد الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه بسند حسن، عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: يَا بْنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاؤوكَ! إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ. فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وُجُوهِنَا قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ[4].

---

(١) أُزُرَنا: أي: نساءَنا وأهْلَنا، كنَّى عنهن بالْأُزُر، وقيل أراد: أنفسنا، وقد يُكنَّى عن النفسِ بالإزارِ. انظر: النهاية (١/ ٤٧).

(٢) الحَلْقَة -بسكون اللام-: السلاح عامَّةً. انظر: النهاية (١/ ٤١٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٧٩٨) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠١١).

(٤) حداثة السن كناية عن الشباب وأول العُمُر. انظر: النهاية (١/ ٣٣٨).



فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ»، قال جابرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ[1].

وروَى الإمام أحمد في مُسنَده بسند حسن عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان العباسُ آخِذًا بِيَدِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسولُ الله يُواثِقُنا، فَلَمَّا فَرَغْنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخَذْتُ، وَأَعْطَيْتُ»[2].

وروَى الحاكم في المُستدرَك بسند رجالُه ثقاتٌ، عن ابن شهاب الزُّهْري قال: كان بينَ ليلة العقبة وبينَ مُهاجَر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثةُ أشهر، أو قريبٌ منها، وكانت بيعة الأنصارِ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة العقبة في ذي الحِجَّة، وقَدِم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة في شهر ربيع الأول[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٦٥٣) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠١٢).

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٨/ ١٢١): قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخذتُ وأعطيتُ» على صيغة المتكلم، أي: أخذتُ البيعة عنكم، أي: قَبِلتُها، وأعطيتكم الجنة عليها جزاءً. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٢٥٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٩٨).



الإذن بالهجرة[1] إلى المدينة

قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: لما صَدَر[2] السبعون من عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، طابت نفسه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقد جعل الله له مَنَعَةً وقومًا أهلَ حرب وعُدَّة ونجدة، وجعل البلاءُ يشتد على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من خروجهم إلى المدينة، فضيَّقوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحابُ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٤): الهجرة: الترك، والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه عن غيره، وقد وقَعَت في الإسلام على وجهين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن، كما في هجرتَي الحبشة، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمدينة وهاجر إليه مَن أمكنه ذلك من المسلمين.

وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة، إلى أن فُتحت مكة فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قَدَر عليه باقيًا.

* وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٤٦): المهاجرون: هم مَن هاجر من مكة وغيرها، وقد تظاهرت الآيات والأخبار، والإجماع على فضلهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾، ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾، وحديث: «الهجرة تهدِم ما قبلها».

قلتُ: حديث «الهجرة تهدِمُ ما كان ما قبلها» رواه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١).

(٢) صَدَر: رجع. انظر: النهاية (٣/ ١٥).



رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستأذنوه في الهجرة[١].

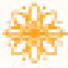
وقال ابن إسحاق: فلما بايعه هذا الحيُّ من الأنصار على الإسلام والنُّصرة له ولمن اتَّبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه من المهاجرين من قومه ومَن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار[٢].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين: «إني أُريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابَتَين»[٣]، وهما الحَرَّتانِ[٤].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي[٥] إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يَثرِبُ»[٦].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٠٨).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٨١).
(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٥٧٦): اللابَة: الحَرَّة، وهي أرض مُلْبَسة حجارة سوداء، والمدينة -زادها الله تعالى شرفًا- بين لابتين، في جانبَي الشرق والغرب.
(٤) قوله: وهما الحرتان: هو من قول الزُّهري، كما جزم بذلك الحافظ في الفتح (٧/ ٦٤١). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).
(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ٢٥): الوَهَل -بفتح الهاء- معناه: وَهْمي واعتقادي.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٢٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٧٢).



ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، فقال لهم: «إن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها»، فخرجوا أرسالًا متخفِّين، وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة[(١)].



تتابُعُ هجرة أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أول مَن قدم علينا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصعَب بن عُمَير وابن أم مكتوم، فجعلا يُقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخَطَّاب في عشرين[(٢)].

وروى ابن إسحاق في السيرة بسند صحيح عن عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اتَّعَدْتُ[(٣)] لما أرَدْنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي؛ التناضُبَ من أضاءةِ[(٤)] بني

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٨١).
(٢) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٣٩٢٥): من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والخبر أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٤١).
(٣) اتَّعَدتُ: تواعَدْتُ. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٤٢).
(٤) الأضاءة: الماء المستنقع من سيل أو غيره. انظر: معجم البلدان (١/ ١٧٣).



غِفـار، فوق سَـرِف(١)، وقلنا: أيُّنا لـم يُصبِحْ عندها فقـد حُبِسَ، فليمض صاحباه، قال: فأصبحتُ أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحُبِسَ عنا هشام، وفُتِنَ فافتُتِنَ(٢).



استئذان أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالهجرة

قال ابن إسـحاق: وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرًا ما يسـتأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجـرة، فيقول له رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تعجَلْ؛ لعلَّ الله يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الصاحب(٣).

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالـت: فهاجر مَن هاجر قِبَلَ المدينـة، ورجع عامة مَن كان هاجر بأرض الحبشـة إلـى المدينة، وتجهـز أبو بكر قِبَـلَ المدينة، فقال له رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على رِسْـلِك(٤)؛ فـإني أرجو أن يُؤذَنَ لـي»، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهـل ترجـو ذلـك بأبي أنـت؟! قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) زاد ابن سعد في طبقاته (٣/ ١٤٤): وكنا إنما نخرج سِرًّا.
(٢) أخرجـه ابـن إسـحاق في السـيرة (٢/ ٨٨) - وأورده الحافـظ في الإصابـة (٦/ ٤٢٣) وصَحَّح إسناده.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩٤).
(٤) الرِّسْل -بكسر الراء-: الرِّفق والتُّؤَدة. انظر: لسان العرب (٥/ ٢١٢).
وقال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٠٤): يُقال ذلك: لمن يتأنَّى ويعمل الشيء على هِينَتِه.

«نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصحَبَه، وعَلَف راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمُرِ[1] -وهو الخَبَطُ-[2] أربعةَ أشهر[3].



اجتماع قريش في دار الندوة

قال ابن إسحاق: ولمَّا رأت قريش أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد صارت له شِيعة[4] وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنَعة؛ فَحَذِرُوا خروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، وعرفوا أنهم قد أُجمِعَ لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين خافوه... فغدَوا في اليوم الذي اتَّعَدوا له، وكان ذلك اليوم يُسمَّى يوم الزحمة... فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنَّا -والله- ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتَّبعه من غيرنا، فقال قائل منهم: احبِسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربَّصوا[5] به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين

(١) السَّمُر: هو نوع من شجر الطلح. انظر: النهاية (٢/ ٣٥٩).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٤٢): هو مُدرَج في الخبر، وهو من تفسير الزُّهْري.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).
(٤) الشيعة: الأتباع والأنصار. انظر: النهاية (٢/ ٤٦٤).
(٥) التربص: الانتظار. انظر: النهاية (٢/ ١٦٩).

كانـوا قبله: زهيرًا والنابغة، ومَن مضى منهم من هذا الموت، حتى يُصيبه ما أصابهم، فرفضوا هذا الرأي.

ثـم قال قائل منهـم: نُخرجه من بيـن أظهُرِنا، فننفيه مـن بلادنا، فإذا أُخـرج عنـا، فوالله ما نُبالـي أين ذهـب، ولا حيث وقع، فأصلحنـا أمْرَنا وأُلْفَتَنا كما كانت. فرفضوا هذا الرأي.

فقـال أبـو جهل قبَّحـه الله: والله إنَّ لي فيه رأيًا ما أراكـم وقعتم عليه بعـدُ، قالـوا: وما هو يا أبـا الحَكَم؟ قال: أرى أن نأخذ مـن كل قبيلة فتًى شـابًّا جليدًا[١] نسيبًا وسـيطًا فينا، ثم نُعطي كل فتًى منهم سيفًا صارمًا[٢]، ثـم يَعمِدوا إليه، فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد، فيقتلوه، فنسـتريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدِرْ بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرَضُوا منا بالعَقْل[٣]، فعَقَلْناه لهم.

فاتَّفقوا على ذلك، وتفرَّق القوم على ذلك وهم مُجمِعون له[٤].



(١) جليدًا: قويًّا. انظر: النهاية (١/ ٢٧٥).
(٢) صارمًا: قاطعًا. انظر: لسان العرب (٧/ ٣٣٢).
(٣) العَقْل: الدِّيَة. انظر: النهاية (٣/ ٢٥٢).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩٦).



إخبارُ الله سبحانه رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكر كُفَّار قريش

أخبر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكر المشركين به، فأنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[(١)].

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: فتأويل الكلام: واذكر -يا محمَّدُ- نعمتي عندك، بمكري بمن حاول المكر بك من مشركي قومك، بإثباتك، أو قتلك، أو إخراجك من وطنك، حتى استنقذْتُك منهم وأهلَكْتُهم؛ فامْضِ لأمري في حرب من حارَبَك من المشركين، وتوَلَّى عن إجابة ما أرسلتُك به من الدِّين القيِّم، ولا يُرعِبَنَّك كثرةُ عَدَدِهم؛ فإنَّ ربك خير الماكرين بمن كفر به، وعَبَد غيره، وخالَفَ أمْرَه ونَهْيَه[(٢)].



مدة إقامة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة قبل الهجرة

روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بُعِثَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه، ثم أُمِر بالهجرة، فهاجر عَشْرَ سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستِّين[(٣)].

---

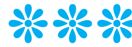
(١) سورة الأنفال - آية (٣٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٢).



قـال الإمام النووي: اتفقوا أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بالمدينة بعد الهجرة عشـر سـنين، وبمكة قبل النبوة أربعين سنة، وإنما الخلاف في قدر إقامته بمكة بعد النبوة، والصحيح أنها ثلاث عشرة، فيكون عمره ثلاثًا وستين، وهذا الذي ذكرناه أنه بُعِث على رأس أربعين سنة، هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء[١].



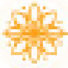
هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ثم أنزل الله على رسـوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولـه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾[٢]، وهي آية الإذن بالهجرة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعـاء، وأن يجعل له مما هو فيـه فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجـلًا، فأَذِنَ له تعالـى في الهجرة إلى المدينـة النبوية حيث الأنصار والأحباب؛ فصارت له دارًا وقرارًا، وأهلُها له أنصارًا[٣].

وروى الإمـام الترمـذي في جامعه والحاكم في مسـتدرَكِه وصححاه

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٨١).
(٢) سورة الإسراء - آية (٨٠).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٨٩).



عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، ثم أُمِرَ بالهجرة، فنزلت عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: استأذن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكرٍ في الخروج[2] حين اشتدَّ عليه الأذى، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقِمْ»[3]، قال: يا رسول الله، أتطمع أن يُؤْذَنَ لك؟ فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إني لأرجو ذلك»، قالت: فانتظره أبو بكر، فأتاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يومٍ ظهرًا فناداه، فقال: «أخرِجْ مَن عندك»، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنما هما ابنتاي[4]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أشَعرْتَ أنه قد أُذِنَ لي في الخروج؟» قال: يا رسول الله، الصُّحْبة؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصُّحْبة»، قال: يا رسول الله، عندي ناقتان قد كُنْتُ أعدَدْتُهما للخروج، فأعطى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٤٠٦) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٠٥) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٤٤): يعني: في الهجرة.

(٣) في رواية ابن حبان: «اصبِرْ».

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٩٠٥): إنما هم أهْلُك.
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٤٣): أشار بذلك إلى عائشة وأسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وقال السهيلي في الروض الأُنُف (٢/ ٣١٢): وذلك أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد كان أبوها أنكَحَها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبلِ ذلك.



إحداهما، وهي الجدعاء[١].



استئجارهما عبدَ الله بن أُرَيقط[٢] دليلا

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: واستأجر رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأبو بكر رجلًا مــن بني الدِّيلِ[٣]، وهو من بني عبد بن عـدي، هاديًا خِرِّيتًا[٤] -والخِرِّيت: الماهِـرُ بالهدايـة- [٥]، وهـو على دين كفار قريـش[٦]، فأَمِنـاه، فدفعا إليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٩٣) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٢٧٩).

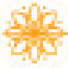
(٢) قـال الحافظ في الإصابة (٤/ ٥): عبد الله بن أُريقـط -ويُقال: أُريقِد، بالدال بدل الطاء، المهملتيـن- دليل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأبـي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لما هاجرا إلـى المدينة، ثبت ذِكْـرُه في الصحيـح، وأنه كان على ديـن قومه، ولم أرَ مَن ذكـره في الصحابة إلا الذهبي في التجريد، وقد جزم عبد الغني المقدسـي في السـيرة له: بأنه لم يُعرَف له إسلامٌ، وتبعه النووي في تهذيب الأسماء (١/ ١٠٠).

(٣) قلتُ: لم يقَع التصريح باسـم عبـد الله بن أُريقط في صحيح البخـاري، ووقع التصريح باسـمه في رواية الحاكم في المسـتدرَك - رقم الحديث (٤٣١٨) (٤٣٢٠) - وإسـناده حسن، وابن إسحاق في السيرة (٢/ ٩٩)، وغيرهما.

(٤) الخِرِّيت -بكسـر الخاء وتشـديد الراء-: الماهر الذي يهتدي لأخـرات المفازةِ، وهي طُرُقُها الخفيَّة ومضايقها. انظر: النهاية (٢/ ١٩).

(٥) قـال الحافظ في الفتـح (٥/ ٢٠١): قوله: الماهر بالهداية، كـذا وقع في نفس الحديث، وهو مُدرَج من قول الزُّهري.

(٦) قـال الإمـام ابن القيـم في بدائع الفوائـد (٣/ ١١٦٩): وفي اسـتئجار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عبدالله بن أُريقِط الدِّيلي هاديًا في وقت الهجرة، وهو كافر: دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطِّبِّ والكُحْل والأدوية، والكتابة والحسـاب، والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولايةً تتضمَّن عدالةً، ولا يلزم من مجرد كونه كافرًا أن لا يُوثَق به في شيء أصلًا؛ فإنه لا شيء أخطر من الدَّلالة في الطريق، ولا سيما في مثال طريق الهِجرة.



راحلتيهما، وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال براحلتيهما صُبْحَ ثلاثٍ[1].



تطويق المشركين بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منزله ينتظر مجيء الليل؛ ليخرُج إلى بيت أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويتوجَّها إلى غار ثَوْر، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على علمٍ تامٍّ بما ائتمرت به قريش من المكر.

واجتمع أولئك النفر من قريش حول بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتطلَّعون مِن صِيرِ[2] الباب ويرصُدونه، يريدون بَياتَه، ويأتمرون أيُّهم يكونُ أشقاها[3].

فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم، وأخذ حَفنةً من تراب في يديه، فجعل يَذُرُّه على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يلتو: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾[4].



(١) أخرج ذلك الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).
(٢) الصِّير: شَقُّ الباب. انظر: لسان العرب (٧/ ٤٥٣).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٣).
(٤) سورة يس، الآية رقم (٩)، والخبر في سيرة ابن هشام (٢/ ٩٧).



توجُّه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى غار ثور

ومضى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلما وصل فإذا بأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد أعدَّ للهجرة عُدَّته؛ قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فجهزناهما أحَثَّ[1] الجهازِ[2].

ثم خرجا وتوجَّها إلى غار ثور، وأخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إلى مكة -شرَّفها الله- نظرةَ الوداع، وهو يقول: «واللهِ، إنَّك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرِجْتُ منك ما خرَجْتُ!»[3].

وروى الإمام الترمذي والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكة: «ما أطيَبَكِ من بلدٍ[4]، وأحَبَّكِ إليَّ! ولولا أنَّ قومي[5] أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرَكِ»[6].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٤٤): من الحث، وهو الإسراع، والجَهَاز -بفتح الجيم وقد تُكسر- وهو: ما يُحتاجُ إليه في السفر.

(٢) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٢٦٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٧١٥) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) في رواية الحاكم: «بلدة».

(٥) في رواية الحاكم: «قومَكِ».

(٦) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٢٦٨) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٨٠٧).



قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثم لحق رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بغارٍ في جَبَل ثَور، فكَمَنا[1] فيه ثلاثَ ليال[2].

وفي رواية أخرى عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: فرَكِبَا فانطلقا حتى أتيا الغار، وهو بثَوْر، فتوارَيا[3] فيه[4].



خدمة آل أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان عبد الله بن أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يبيت عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبيه في فترة وجودِهما في الغار.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يبيتُ عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شابٌّ ثَقِفٌ[5] لَقِنٌ[6]، فيُدلِجُ[7] من عندهما بسَحَر، فيُصبح مع قريش بمكَّة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكتادانِ به إلا وعاه حتى يأتيَهما بخبر ذلك حين يختَلِط الظَّلام[8].

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٤٥): بفتح الميم ويجوز كسرها، أي: اختفيا.
(٢) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).
(٣) تواريا: استترا. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨٣).
(٤) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٩٣).
(٥) ثقف: أي: ذو فطنة وذكاء. انظر: النهاية (١/ ٢١١).
(٦) لَقِن: أي: فَهِمٌ حسن التَّلَقُّن لما يسمعه. انظر: النهاية (٤/ ٢٢٨).
(٧) الدُّلجة: هو سَيْر الليل. انظر: النهاية (٢/ ١٢٠).
(٨) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).



رعي عامر بن فُهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ويرعى عليهما[(١)] عامِرُ بن فُهيرة مولى أبي بكر مِنحةً من غَنَم، فيُريحها عليهما[(٢)] حين تذهب ساعة من العِشاء، فيبيتان[(٣)] في رِسْلٍ[(٤)]، وهو لَبَنُ مِنْحَتِهما ورَضيفِهما، حتى يَنعِقَ[(٥)] بها عامر بن فُهيرة بغَلَس[(٦)]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثَّلاث[(٧)].

وقال ابن إسحاق: فإذا عبد الله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا غدا من عندهما إلى مكة، اتَّبَع عامر بن فُهيرة أثَرَه بالغنم؛ حتى يُعَفِّيَ عليه[(٨)].



---

(١) أي: على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٠٩٣) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكانت لأبي بكر مِنحة، فكان يروح بها ويغدو عليهم ويُصبح فيُدلِج إليهما.

(٣) أي: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) الرِّسل -بكسر الراء-: هو اللبن. انظر: النهاية (٢/ ٢٠٣).

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٦): يَنعِق -بكسر العين- أي: يَصيح بغنمه، والنعيق: صوت الراعي إذا زجر الغنم.

(٦) الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. انظر: النهاية (٣/ ٣٣٩).

(٧) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).

(٨) عفا الأثر: أي دَرَس وامَّحى. انظر: النهاية (٣/ ٢٤٠) - والخبر في سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٠).



حمل أسماء رَضِيَٱللَّهُعَنهَا الطعام إليهما

قالت أسماء رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: صنعتُ[1] سُفرةً[2] رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في بيت أبي بكر حين أراد أن يُهاجِر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسُفرته ولا لسِقائه ما نربطُهما به، فقلت لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: واللهِ ما أجد شيئًا أربطُ به إلَّا نطاقي[3]، قال: فشُقِّيه باثنين فاربطيه؛ بواحدٍ السِّقاءَ، وبالآخرِ السُّفرةَ[4]، ففَعَلْتُ؛ فلذلك سُمِّيَت: ذاتَ النِّطاقينِ[5].

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم، قالت أسماء رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أنا -والله- ذاتُ النطاقينِ؛ أما أحدهما فكنتُ أرفع به طعام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وطعام أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ من الدوابِّ، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه[6].

---

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٩٠٥)، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: وصنَعْنا لهما سُفْرةً.

(٢) السُّفرة: طعام يتخذه المسافر، وأكثر ما يُحمل في جلد مستدير، فنُقِلَ اسم الطعام إلى الجِلد وسُمِّي به. انظر: النهاية (٢/ ٣٣٦).

(٣) النِّطاق -بكسر النون-: هو ما تشدُّ به المرأة وسَطَها؛ ليرتفع به ثوبها من الأرض عند المِهنة. انظر: النهاية (٥/ ٦٥).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦٠): يُستفاد من هذا أن الذي أمرها بشق نطاقها لتربط به السفرة: هو أبوها (رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا).

(٥) أخرج ذلك عنها رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٧٩).

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٤٥).



قال الإمام النووي: والأصح أنها سُميت بذلك؛ لأنها شقَّت نطاقها الواحد نصفين، فجعلت أحدهما نطاقًا صغيرًا واكتفت به، والآخر لسفرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما صَرَّحت به في هذا الحديث هنا[1].



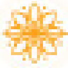
خروج المشركين في طلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه

ظلَّ المشركون عند باب بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتظرون خروجه -وقد خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى أتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيَّبكم الله! قد -والله- خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترَون ما بكم؟!

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلَّعون فيرَون عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الفِراشِ مُتسجِّيًا[2] ببُرد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقولون: واللهِ، إن هذا لمحمَّدٌ نائمًا، عليه بُرْدُه، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الفراش، فقالوا: واللهِ لقد كان صَدَقَنا الذي حدَّثَنا!

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٨١).
(٢) المتسَجِّي: المتغطي. انظر: النهاية (٢/ ٣١٠).



وجَدَّت قريش في طلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخذوا معهم القافَةَ[(١)]، وجعلوا لمن جاء بهما ديةً عظيمةً؛ مائة ناقة، فجَدَّ الناس في الطلب، واللهُ غالِبٌ على أمره[(٢)].

روى الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن سُراقة بن مالك، قال: جاءنا رُسُل كفَّار قريش يجعلون في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ديةَ كلِّ واحد منهما، لمن قتَلَهما أو أسَرَهما[(٣)].

وفي رواية ابن إسحاق في السيرة بسند حسن عن سراقة بن مالك، قال: لما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة مهاجرًا إلى المدينة، جعَلَت قريش فيه مائة ناقة لمن ردَّه عليهم[(٤)].



إذ هما في الغار

انتشر المشركون في كل مكان يبحثون عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى انتهت مجموعة منهم إلى جبل ثَوْر،

---

(١) القافَة: جمع قائف، وهو الذي يتتبع الآثار ويعرفها. انظر: النهاية (٤/ ١٠٦).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩٧) - زاد المعاد (٣/ ٦٥ - ٦٦).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٦) - والإمام أحمد في المسند - رقم الحديث (١٧٥٩١).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٢).



ووصلوا إلى فَمِ الغار، ولم يَبْقَ بينهم وبين العثور على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلا أن ينظروا داخل الغار!

روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حَدَّثه، قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصَرَنا تحت قدميه! فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أبا بكر، ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟!»[١].

وفي لفظ آخر في صحيح البخاري، قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ[٢] بَصَره رآنا! فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسكُتْ يا أبا بكر، اثنانِ اللهُ ثالثُهما»[٣].

قال الحافظ في الفتح: ومعنى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الله ثالثهما: أي: مُعاوِنُهما وناصِرُهما، وإلا فهو مع كل اثنينِ بعِلْمِه، كما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾[٤].

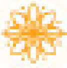
---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٥٣) (٣٩٢٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٨١).

(٢) طأطأ: خفض. انظر: لسان العرب (٨/ ١١٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٢٢).

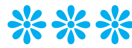
(٤) سورة المجادلة - آية (٧) - وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٧٥).



وفي هذا الموقف العظيم يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(١).

قال الإمام ابن جرير الطبري: هذا إعلامٌ من الله أصحابَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه المتوكل بنصر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يُعينوه، وتذكيرٌ منه لهم فِعْلَ ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟(٢).

قلتُ: صَرَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قلوب وأبصار المشركين عن النظر داخل الغار، فحفظ الله سبحانه بذلك رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين.



مغادرة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الغار

أقام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الغار ثلاث ليال، حتى إذا خمدت عنهما نار الطلب، وسكن عنهما الناس، جاءهما عبد الله بن أُريقِط بالراحلتين، فارتحلا، وانطلق معهما عامر بن فُهيرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) سورة التوبة - آية (٤٠).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٦/ ٣٧٤).



قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وانطلق معهما عامر بن فُهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السَّاحل[1].

وقال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن بين خروجه عَلَيْهِ السَّلَامُ من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يومًا؛ لأنه أقام بغار ثَوْر ثلاثة أيام، ثم سلك طريق الساحل، وهي أبعد من الطريق الجادَّة[2].



الطريق إلى المدينة

روى الحاكم في المُستدرَك بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغار إلى الله تعالى مهاجرًا، ومعه أبو بكر، وعامر بن فُهيرة مُردفه أبو بكر خَلْفَه، وعبد الله بن أُريقط الليثي، فسلك بهما أسفلَ من مكة، ثم مضى بهما حتى هبط بهما على الساحل أسفل من عُسْفان، ثم استجاز بهما على أسفل أَمَج، ثم عارَضَ الطريق بعد أن أجاز قُدَيدًا، ثم سَلَك بهما الخزار، ثم أجازهما ثَنيَّة المَرَة، ثم سَلَك لِفتًا، ثم أجاز بهما مَدلجة لِقفٍ، ثم استبطن بهما مَدلجة مَجاح، ثم سلك بهما مَرْجح، ثم ببطن مَرْجح من ذي الغَضَوَين، ثم ببطن ذي كَشْدٍ، ثم أخذ الجداجد، ثم سلك ذِي سَلَم من بطن أعداء مَدْلجة، ثم

---

(١) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٠٤)



أحدر القاحة، ثم هبط العَرْج، ثم سلك ثَنية الغائر عن يمين رَكُوبة، ثم هبط بطن رِئم، فقدم قُباء على بني عمرو بن عوف[1].



أحداث جرت في الطريق

حدثت لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومَن معه أحداث وهم في طريق هجرتهم إلى المدينة النبوية؛ فمن ذلك:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: أقبل نبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى المدينة وهو مُردفٌ أبا بكر[2]، وأبو بكر شيخ[3] يُعرَف[4]، ونبيُّ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ شابٌّ[5] لا يُعرَف، قال: فيلقى

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣١٨).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٩١): كأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أردفه؛ تشريفًا له وتنويهًا بقَدْره، وإلا فقد كان لأبي بكر ناقةٌ هاجر عليها.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦٤): يريد أنَّه قد شاب.

(٤) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٣٤) - قال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وكان أبو بكر يُعرَف في الطريق؛ لاختلافه إلى الشام.
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦٤): قوله: يُعرف؛ لأن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ كان يمر على أهل المدينة في سفر التجارة، بخلاف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فإنه كان بعيد العهد بالسفر من مكة.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦٤). ظاهره أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ كان أسنَّ من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وليس كذلك؛ فقد ثبت في صحيح مسلم - رقم الحديث (٢٣٥٢)=



الرَّجُلُ أبا بكر، فيقول: يا أبا بكر مَن هذا الرجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هـذا الرجل يَهديني السـبيل[١]، قال: فيحسَـب الحاسِـبُ أنـه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير[٢].



الراعي وسُقْيا اللبن

روى الشـيخان في صحيحيهمـا -واللفـظ للبخاري- عـن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: اشـترى أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من عـازبٍ رحلا[٣] بثلاثة عشر دِرهمًا، فقال أبو بكر لعازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: مُرِ البراءَ فليحمل إليَّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تُحَدِّثَنا كيف صنعت أنت ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين خرجتُما من مكة، والمشـركون يطلبونكم؟! فقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ارتحَلْنا

= عـن معاويـة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: مات أبو بكر وهو ابن ثلاث وسـتين، وكان قد عاش بعد النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سـنتين وأشـهرًا، فيلزم على الصحيح في سـنِّ أبـي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يكون أصغر من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأكثر من سنتين.

(١) قلت: وهذا فيه تورية من أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
قال الإمـام النووي في الأذكار، ص (٦١٢): واعلم: أن التورية والتعريض معناهما: أن تُطلِـق لفظًـا هو ظاهر في معنًى، وتريد بـه معنًى آخر يتناوله ذلـك اللفظ، ولكنه خلاف ظاهره.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩١١) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٣٤) (١٤٠٦٣).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٣٠): الرَّحْل -بفتح، وسكون المهملة- هو للناقة كالسَّرْج للفَرَس.



من مكة فأحيينا -أو سَرَينا- ليلتنا ويومنا حتى أظهَرْنا[١] وقام قائمُ الظهيرة[٢]، فرميتُ ببصري هل أرى من ظِلٍّ فآوي إليه، فإذا صَخرةٌ[٣] أتيتها، فنظرتُ بقيَّة ظِلٍّ لها فسويتُه، ثم فرشتُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه[٤]، ثم قلتُ له: اضطجِعْ يا نبي الله، فاضطجعَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم انطلقتُ أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحدًا؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا[٥]، فسألته، فقلتُ له، لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش، سَمَّاه فعرفته، فقلت، هل في غنمك من لبن؟

قال: نعم. قلت: فهل أنت حالبٌ لنا؟ قال: نعم، فأَمَرْتُه فاعتقل شاةً من غنمه، ثم أَمَرْتُه أن يَنفُضَ ضَرْعَها من الغبار، ثم أمرته أن يَنفُض كَفَّيه، فقال: هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأُخرى، فحلب لي[٦] كُثبة[٧] من لبن،

---

(١) أظهَرْنا: إذا دخلنا في وقت الظهر. انظر: النهاية (٣/ ١٥٠).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٣١): أي: نصف النهار، وسُمي قائمًا؛ لأن الظل لا يظهر حينئذ، فكأنه واقف.
(٣) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦١٥): فَرُفِعَت لنا صخرة: أي ظَهَرت.
(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦١٥): وبسَطْتُ عليه فروة، وقلتُ له: نَمْ يا رسول الله.
(٥) أراد الظِّلَّ.
(٦) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦١٥): فحلب في قَعْب. القَعْب -بفتح القاف- هو القَدَح الضَّخم. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٣٥).
(٧) أي: القليل من اللبن، والكُثبة: كل قليل جمعتَه من طعام أو لبن أو غير ذلك. انظر: النهاية (٤/ ١٣٢).



وقد جعلتُ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إداوةً[١] على فمها خِرقةٌ، فصببتُ على اللبن[٢] حتى برد أسفله، فانطلقتُ به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشَرِبَ حتى رضيتُ[٣]! ثم قلت: قد آن الرحيلُ يا رسول الله؟ قال: بلى، فارتحَلْنا والقومُ يطلُبوننا[٤].



مطاردة سُراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أسلم سُراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجِعْرَانة، حين انصرف من حُنَين والطائف، وحَسُن إسلامُه، وقصَّتُه في خروجه وراء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة مشهورة؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن سُراقة بن مالك

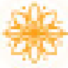
---

(١) الإداوة: بالكسر هي إناء صغير من جلد يُتَّخذ للماء. انظر: النهاية (١/ ٣٦).
وهذه الإداوة كان فيها ماء، فقد جاء في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦١٥) قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعي إداوة حملتها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرتوي منها، يشرب ويتوضأ.

(٢) أي: صببْتُ الماء الذي في الإداوة على اللَّبن.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٣/ ١٥٢): معناه: شَرِبَ حتى علمتُ أنه شرب حاجتَه وكفايتَه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦١٥) (٣٦٥٢) - ومسلم في صحيحه -في موضعين، مطوَّلًا ومختصَرًا- فالمطول أخرجه في كتاب الزهد والرقائق - باب في حديث الهجرة - رقم الحديث (٢٠٠٩) (٧٥) - والمختصَر أخرجه في كتاب الأشربة - باب جواز شرب اللبن - رقم الحديث (٢٠٠٩) (٩٠).



رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جاءنا رُسُلُ كفار قريش، يجعلون في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفي أبي بكر دية كُلِّ واحد منهما، لمن قتلهما، أو أسَرَهما(١)، فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، فقال: يا سُراقةُ، إني رأيتُ آنفًا أسوِدَةً(٢) بالساحل، إني أُراها محمدًا وأصحابَه!

قال سراقة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فعرفتُ أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكن رأيت فلانًا وفلانًا انطلقا آنفًا(٣)، قال: ثم لبثتُ في المجلس ساعة، حتى قمتُ، فدخلتُ بيتي، فأمرتُ جاريتي أن تُخرِجَ لي فرسي، وهي من وراء أَكَمَةٍ(٤)، فتحبسها عليَّ، وأخذتُ رُمحي، فخرجتُ به من ظَهْر البيت، فخططتُ برمحي الأرض، وخفضتُ عاليةَ الرُّمح حتى أتيتُ فرسي فركِبْتُها، فرفعتُها(٥) تُقَرِّبُ بي، حتى رأيتُ أسوِدَتَهما، فلما دنوتُ منهم حيث يُسمِعُهم الصوت، عَثَرَت بي فرسي، فخرَرْتُ عنها، فقمتُ،

(١) قدر الدية: مئة ناقة، كما في رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٠٣).

(٢) أسوِدَةً: أي: أشخاصًا. انظر: النهاية (٢/ ٣٧٧).

(٣) قلت: في إنكار سراقة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما يدل على أنه أراد الدِّيَة لنفسه، كما في رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٠٣)، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وكنتُ أرجو أن أردّه على قريش، فآخُذَ المائةَ الناقةِ.

(٤) الأَكَمَة: التَّلُّ الصغير، أو هو الموضع الذي هو أشد ارتفاعًا مما حوله. انظر: لسان العرب (١/ ١٧٣).

وفي رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٠٣): ثم أمرتُ بفرسي، فقُيِّد لي إلى بطن الوادي.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٥١): أي: أسرعتُ بها السير.



فأهوَيْتُ بيدي إلى كنانتي[1]، فاستخرَجْتُ منها الأزلام[2]، فاستقسمتُ بها: أضُرُّهم أم لا؟

فخرج الذي أكره: أن لا أضُرَّهم، فركبتُ فرسي، وعصيتُ الأزلام، فرفعتُها تُقَرِّبُ بي، حتى إذا دنوتُ منهم عَثَرَت بي فرسي، فخررتُ عنها، فقُمتُ، فأهويتُ بيدي إلى كنانتي، فأخرجتُ الأزلام، فاستقسمتُ بها، فخرج الذي أكره: أن لا أضُرَّهم، فعصيتُ الأزلام، وركبتُ فرسي، فرفعتُها تُقرب بي، حتى إذا سمعتُ قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو لا يلتفتُ، وأبو بكر يُكثِر الالتفات، ساخت[3] يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الرُّكبَتَين[4]، فخررتُ عنها، فزجَرْتُها[5]، فنهَضَت، فلم تكَدْ تُخرج

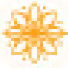
(١) الكِنانة: هي التي يُجعَل فيها السِّهام. انظر: النهاية (١/ ٢٦٥).

(٢) الزُّلَم والزَّلَم: واحدة الأزلام، وهي القِدَاح التي كانت في الجاهلية عليها مكتوب: الأمر والنهي، افعل، ولا تفعَلْ، كان الرجل منهم يضعها في وعاء له، فإذا أراد سفرًا أو زواجًا أو أمرًا مهمًّا، أدخل يده فأخرج منها زلَمًا، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عنه ولم يفعله. انظر: النهاية (٢/ ٢٨١).

(٣) ساخت: أي: غاصت. انظر: النهاية (٢/ ٣٧٤).

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦١٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٠٩) عن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: فدعا عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فارتطمَت به فرسه إلى بطنها -أُرَى- في جَلَدٍ من الأرض.
فارتطمت: أي: ساخت قوائمها. انظر: النهاية (٢/ ٢١٢).
جَلَد من الأرض: أي: صُلْبَة. انظر: النهاية (١/ ٢٧٥).

(٥) زجرها: حثها. انظر: النهاية (٢/ ٢٦٨).



يديهـا، فلما اسـتوت قائمة إذا لِأَثَرِ يديها عُثانٌ[١] سـاطع في السـماء مثل الدخان، فاستقسمتُ بالأزلام، فخرج الذي أكره: أن لا أَضُرَّهم، فناديتُهما بالأمان، فوقفا، فركبتُ فرسـي حتى جئتهم، فوقع في نفسي -حين لقيتُ مـن الحبـس عنهم- أنه سـيظهر أمر رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ له: إنَّ قومَـك قد جعلوا فيك الدِّيَةَ، وأخبَرْتُهم من أخبار سَـفَرِهم، وما يريد النـاس بهم، وعرضْتُ عليهم الـزاد والمتاع، فلم يَرْزَؤُوني[٢] شـيئًا، ولم يسـألوني إلا أن: أَخْـفِ عَنَّا، فسـألته أن يكتب لي كتاب موادعـةٍ آمَنُ به، فأمـر عامر بن فُهيرة، فكتب لي في رقعة من أديم[٣]، ثم مضى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

وفي حديـث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيح البخاري، قال: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسُـراقة: «لا تتركَنَّ أحدًا يَلحَـقُ بنا»، قال: فكان أوَّلَ النهار جاهدًا على نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان آخر النهار مَسْلَحَةً له![٥].

---

(١) العُثَان: جاء تفسيره في الحديث: الدُّخَان من غير نار.

(٢) في رواية الإمام البخاري: فلم يَرْزَآني.
أي: لم يسألاني، ولم يأخذا مني شيئًا. انظر: النهاية (٢/ ١٩٩).

(٣) الأديم: الجِلْد. انظر: لسان العرب (١/ ٩٦).

(٤) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٦) - والإمام أحمد في المسـند - رقـم الحديث (١٧٥٩١) - وأخرجه من طريق البـراء به عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦١٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٠٩).

(٥) قال السندي في شرحه للمسند (٧/ ٣٨٥): مَسْلَحة له -بفتح الميم- أي: حافظًا له من العدو.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩١١).



قصة الأعرابي وإسلامه

روى الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن قيس بن النعمان، قال: لما انطلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر مستخفين، مرُّوا بعبدٍ يَرعى غنمًا، فاستسقاه من اللبن، فقال: ما عندي شاةٌ تُحلَب غير أن هاهنا عَناقًا[1] حَمَلت أوَّلَ الشتاء، وقد أخرجت[2]، وما بقي لها لبن، فقال: ادعُ بها، فدعا بها، فاعتقلها[3] النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومسح ضَرعها، ودعا حتى أنزلت، قال: وجاء أبو بكر بمِجْحَن[4]، فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله مَن أنت؟! فوالله ما رأيتُ مثلك قط! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أوَتُراك تكتُمُ عليَّ حتى أخبِرَك؟» قال: نعم. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإني محمد رسول الله». فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) العَناق: هي الأنثى من أولاد المَعْز ما لم يتمَّ له سنة. انظر: النهاية (٣/ ٢٨١).
(٢) أخرجت: ولدت ولدها ناقِصَ الخَلْق. انظر: النهاية (٢/ ١٣).
(٣) اعتقل الشاة: هو أن يضع رِجْلها بين ساقه وفخده، ثم يحلبها. انظر: النهاية (٣/ ٢٥٥).
(٤) أصل الحَجن: اعوجاج الشيء. انظر: لسان العرب (٣/ ٦٨).
ويظهر أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء بحجر أو خشب مُنقعِر -يعني: ذات قعر، أي: عُمق- فحلب فيها.
ووقع في مسند الإمام أحمد - رقم الحديث (٤٤١٢) بسند حسن - في قصة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما مر عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر، قال: ثم أتاه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بصخرة منقعرة، فاحتلب فيها، فشرب.



«إنهم ليقولون ذلك»، قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئتَ به حق، وأنه لا يفعل ما فعلتَ إلا نبي، وأنا متَّبِعُك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنك لن تستطيع ذلك يومَك، فإذا بلغك أني قد ظهرتُ فأْتِنا»[1].



مرور الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أم مَعْبَد الخُزاعيَّة

روى الحاكم في المستدرك والبغوي في شرح السنة بسند حسن، عن هشام بن حُبيش بن خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة، وأبو بكر ومولى أبي بكر؛ عامر بن فُهيرة، ودليلهما الليثي عبد الله بن أُريقِط، مروا على خيمةِ أم مَعبَد الخزاعية، وكانت امرأةً بَرْزةً[2] جَلْدَةً[3]، تحتبي[4] بفِناء[5] الخيمة، ثم تسقي وتُطعِم، فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروا منها، فلم يُصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مُرملين[6] مُسنِتين، فنظر

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣١٩).

(٢) يُقال: امرأة بَرْزة: إذا كانت كَهْلة لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتُحدِّثهم، من البروز، وهو الظهور والخروج. انظر: النهاية (١/ ١١٨).

(٣) جَلْدَة: أي: قوية في نفسها وجسمها. انظر: النهاية (١/ ٢٧٥).

(٤) الاحتباء: هو أن يضُمَّ الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشدَّه عليها، وقد يكون الاحتباء باليدين عِوَضَ الثوب. انظر: النهاية (١/ ٣٢٤).

(٥) الفِناء -بكسر الفاء- هو المتسَع أمام الدار. انظر: النهاية (٣/ ٤٢٨).

(٦) مُرمِلين: أي: نَفِد زادهم. انظر: النهاية (٢/ ٢٤٠).



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى شاة في كِسْر[1] الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم مَعْبَد؟» قالت: شاة خَلَّفَها الجَهدُ[2] عن الغنم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل بها من لبن؟» قالت: هي أجهَدُ من ذلك. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: بأبي وأمي، إن رأيتَ بها حَلْبًا فاحلُبْها، فدعا بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمسح بيده ضرعها وسَمَّى الله تعالى، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت[3] عليه ودرَّت فاجترَّت، فدعا بإناء يُربِضُ[4] الرَّهْطَ[5]، فحلب فيه ثجًّا[6] حتى علاه البهاء[7]، ثم سقاها حتى رَوِيَت، وسقى أصحابه حتى رَوُوا حتى أراضُوا[8] وشرب آخرهم، ثم حلب فيه الثانية على بَدْءٍ[9]، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها وارتحلوا عنها[10].

---

(١) الكِسر: الجانب. انظر: النهاية (٤/ ١٤٩).

(٢) الجَهد -بفتح الجيم- أي: المشقة. انظر: النهاية (١/ ٣٠٨).

(٣) التفاجُّ: المبالغة في تفريج ما بين الرجلين. انظر: النهاية (٣/ ٢٧٠).

(٤) يُربض: أي يرويهم ويثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض. انظر: النهاية (٢/ ١٦٩).

(٥) الرهط من الرجال: ما دون العشرة. انظر: النهاية (٢/ ٢٥٧).

(٦) أي: لبنًا سائلاً كثيرًا. انظر: النهاية (١/ ٢٠٢).

(٧) أراد بهاء اللبن، وهو بريق رغوته. انظر: النهاية (١/ ١٦٦).

(٨) أراضوا: أي شربوا حتى روُوا. انظر: النهاية (١/ ٤٢).

(٩) بَدْءٍ: أي: بعد ابتداء بلا مكث. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٢).

(١٠) أخرجه الحاكم في المستدرك -رقم الحديث (٤٣٢٠)- والبغوي في شرح السنة -رقم الحديث (٣٧٠٤)- وقال محقِّقه الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث حسن قوي، وأورد قصة أم مَعْبَد: الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٠٤) وقال: وقصتها مشهورة مروية من طرق يشُدُّ بعضها بعضًا. =



وصول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه إلى قُباء

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير، قال: وسمع المسلمون بالمدينة مَخرَج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، فكانوا يَغدُون كلَّ غداة إلى الحَرَّة[1] فينتظرونه، حتى يرُدَّهم حر الظهيرة، فانقلبوا[2] يومًا بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوا إلى بيوتهم أوفى[3] رجل من يهود على أُطُمٍ[4] من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه، فبَصُرَ برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه مُبَيَّضِين يزول بهم السَّرابُ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب[5]، هذا جَدُّكم[6] الذي تنتظرون؛ فثار المسلمون

= قلت: ذكر الحافظ البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٩١ - ٤٩٢) في مَعرِض حديثه عن هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصة شبيهة بقصة أم مَعبَد، ثم قال: وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا في قصة أم مَعبَد ويزيد في بعضها، فهي قريبة منها، ويُشبه أن يكونا واحدة. وذكرها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٠٦) وعزاها للبيهقي في دلائل النبوة، وحسَّن إسنادها.

(١) الحَرَّة: هي أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة. انظر: النهاية (١/ ٣٥١).

(٢) الانقلاب: الرجوع. انظر: النهاية (٤/ ٨٥).

(٣) أوفى: طلع إلى مكان عالٍ، فأشرف منه. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٩).

(٤) الأُطُم: هو الحصن. انظر: النهاية (١/ ٥٧).

(٥) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٠٦): يا بني قَيلة.
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٥٤): قَيْلة -بفتح القاف وسكون الياء- هي الجَدَّة الكبرى للأنصار، والدة الأوس والخزرج، وهي قَيلة بنت كاهل.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٥٤): جَدُّكم -بفتح الجيم- أي: حظُّكم، وصاحب دولتكم الذي تتوقَّعونه.



إلى السـلاح، فتلقَّوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظهر الحَرَّة، فعدل بهم ذاتَ اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شـهر ربيـع الأول(١)، فقـام أبـو بكر للنـاس، وجلس رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صامتًا، فطَفِق(٢) مَن جاء من الأنصار ممن لم يَرَ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشـمسُ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل أبو بكـر حتى ظَلَّلَ عليـه بردائه، فعرف النَّاسُ رسـولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك، فلبث رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بني عمرو بن عوف بضع عشـرة ليلة(٣)، وأسَّـس المسجد الذي أُسِّـس على التقوى(٤)، وصلى فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥).



---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٥٥): هذا هو المعتمد، وشَذَّ مَن قال يوم الجمعة.
وفي رواية ابن إسـحاق في السـيرة (٢/ ١٠٥): لاثنتي عشـرة ليلة خلت من شـهر ربيع الأول يوم الاثنين.

(٢) طفق: جعل. انظر: لسان العرب (٨/ ١٧٤).

(٣) في رواية ابن إسـحاق في السـيرة (٢/ ١٠٨): فأقام رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقباء في بني عمـرو بن عـوف يوم الاثنين، ويـوم الثلاثاء، ويـوم الأربعاء، ويوم الخميس، وأسَّـس مسجده، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك.

(٤) هو مسجد قُباء.
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٢٣): فكان هذا المسجد أول مسجد بُني في الإسلام بالمدينة، بل أول مسجد جُعِلَ لعموم الناس في هذه المِلَّة.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٦) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٢٣) - وابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٠٦).



بناء مسجد قباء وفضله

وبنى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلال إقامته في قُباء: مسجد قُباء، وهو أول مسـجد بُني في الإسلام لجماعة المسـلمين، وقال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[1].

قـال الحافـظ في الفتـح: وهـو في التحقيق أول مسـجد صلـى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيـه بأصحابـه جماعـةً ظاهرًا، وأول مسـجد بُنـي لجماعة المسلمين[2].

وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزور مسجد قباء بعدما أقام في المدينة، ويُصلي فيه، فروى الشـيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسـلم- عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي مسـجد قُباء راكبًا وماشيًا، فيُصلي فيه ركعتين[3].

---

(١) سورة التوبة - الآية (١٠٨).
قـال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٥٦): الجمهور على أن المراد به مسـجد قباء، وهو ظاهر الآية.

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٦٥٦).

(٣) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (١١٩٤) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٩٩) (٥١٦).



وفي لفظ آخر في الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي مسجد قُباء كلَّ سبت ماشيًا وراكبًا[1].

وروى الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثر الاختلاف[2] إلى قُباء ماشيًا وراكبًا[3].

وروى ابن ماجه والحاكم -واللفظ للحاكم- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجد بني عمرو بن عوف، وهو مسجد قُباء، يُصلي فيه، فدخل عليه رجال من الأنصار يُسلِّمون عليه[4].

* وأما ما جاء في فضل الصلاة في مسجد قباء، فروى الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه، بسند حسن -واللفظ لابن ماجه- عن سهل بن حُنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلَّى فيه صلاة، كان له كأجر عُمْرة»[5].

---

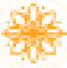
(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١١٩٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٩٩) (٥٢١).

(٢) اختلف إلى المكان: تردَّد. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٢٥١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٨١٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه - رقم الحديث (١٠١٧) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٢٤).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٩٨١) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (١٤١٢).



ارتحال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قُباء ودخوله المدينة

فلما كان يوم الجمعة ركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راحلته، وأردف خلفه أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرخى لراحلته الزمام حتى دخلت المدينة النبوية في جو مشحون بالفرح والسرور، ولم تَزَل ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائرة به وبأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجَّار -وهو موضع المسجد النبوي اليوم- بَرَكت، وذلك في بني النجار أمام دار أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

روى الإمام البخاري والإمام أحمد -واللفظ لأحمد- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ثم بَعَث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأنصار فجاؤوا نبيَّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسلَّموا عليهما[1]، وقالوا: اركبَا آمنينِ مطاعَينِ، قال: فركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وحَفُّوا حولهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله، فاستشرفوا[2] نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظرون إليه، ويقولون: جاء نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيُّ بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا يا نبيَّ الله، هذه داري، وهذا بابي،

---

(١) على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) استشرفوا: أي خرجوا إليه. انظر: النهاية (٢/ ٤١٤).



فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «فانطَلِقْ فهَيِّئْ لنا مَقيلًا»[١]، فذهب فهيَّأَ لهما مقيلًا، ثم جاء، فقال: يا نبي الله، قد هيأتُ لكما مَقِيلًا، فقوما على بركة الله فقِيلا[٢].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير، قال: ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمدينة، وهو يُصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا[٣] للتمر لسُهيل وسَهل؛ غلامينِ يتيمينِ في حِجر أسعَدَ بنِ زُرارة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين بَرَكت به راحلته: «هذا -إن شاء الله- المَنزِل»[٤].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: ومضى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنا معه حتى قدمنا المدينة، فتلقاه الناس، فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير[٥]: فاشتَدَّ

---

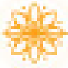
(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦٦): أي: مكانًا تقع فيه القيلولة، والقيلولة هي الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩١١) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٢٠٥).

(٣) المِرْبَد -بكسر الميم- هو المكان الذي يُجعل فيه التمر لينشف. انظر: النهاية (٢/ ١٦٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٦).

(٥) الأجاجير: يعني السطوح. انظر: النهاية (١/ ٣٠).



الخَدَم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء محمد، وتنازع القوم أيُّهم ينزل عليه، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنزِلُ الليلةَ على بني النجار؛ أخوالِ عبد المُطَّلِب؛ لأُكرِمَهم بذلك»[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: فهذه منقبة عظيمة لأبي أيوب خالد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ حيث نزل في داره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك نزوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار بني النجار، واختيار الله له ذلك منقبة عظيمة، وقد كان في المدينة دُورٌ كثيرة تبلغ تسعًا، كُلُّ دار مَحَلَّة مستقلَّة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار بني مالك بن النجار[(٢)].



كانت المدينة قُرًى مُفرَّقة

كانت المدينة النبوية قبل قدوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبارة عن قُرًى متفرقة، وكل فَخذ من الأنصار مع بعضهم البعض.

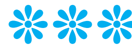
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣) - وأخرج منه: أنزل الليلة على بني النجار... إلخ: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٠٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٦).



قال الإمام الذهبي: كانت يثرب[1] لم تُمصَّرْ[2]، وإنما كانت قُرًى مفرقة: بنو مالك بن النجار في قرية، وهي مثل المَحَلَّة[3]، وهي دار بني فلان، كما في الحديث، «خير دُور الأنصار دار بني النجَّار»[4]، وكانت بنو عَدِيٍّ بن النجار لهم دار، وبنو مازن بن النجار كذلك، وبنو سالم كذلك، وبنو ساعدة كذلك، وبنو الحارث بن الخزرج كذلك، وبنو عمرو بن عوف كذلك، وبنو عبد الأشهل كذلك، وسائر بطون الأنصار كذلك، قال النبي ﷺ: «وفي كل دُور الأنصارِ خَير»[5].



فضائل المدينة النبوية

قال الحافظ ابن كثير: شَرُفَت المدينة بهجرته ﷺ إليها، وصارت كهفًا لأولياء الله وعباده الصالحين، ومَعقِلًا وحِصنًا منيعًا للمسلمين، ودار هدًى للعالَمين، والأحاديث في فضلها كثيرة جدًّا[6].

---

(١) يثرب: هي المدينة النبوية، وكان هذا اسمها في الجاهلية.
(٢) مَصَّرَها: بناها. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٨٧٣).
(٣) المَحَلَّة: منزل القوم. انظر: لسان العرب (٣/ ٢٩٦).
(٤) أخرج هذا الحديث: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٨٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥١١) (١١٧).
(٥) أخرج هذا الحديث: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٨٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥١١) (١١٧).
وانظر: كلام الإمام الذهبي في السيرة النبوية (١/ ٢٨٦).
(٦) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٨).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن الإيمان لَيَأْرِزُ[1] إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها[2].



بناء المسجد النبوي

أول عمل قام به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد استقراره في المدينة النبوية هو بناء المسجد النبوي؛ فروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ثم إنه أمر[3] ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار، فجاؤوا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بني النجَّار ثامِنوني حائِطَكم[4] هذا»، فقالوا: لا واللهِ، لا نطلُبُ ثَمَنَه إلَّا إلى الله تعالى[5].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٥٨٠): يَأْرِزُ -بفتح أوله، وسكون الهمزة، وكسر الراء وقد تُضم، بعدها زاي.
وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٤١): يأرِزُ، أي: ينضَمُّ إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٨٧٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٧).

(٣) يعني: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤) الحائط: هو البستان من النخيل إذا كان عليه حائطٌ، وهو الجدار. انظر: النهاية (١/ ٤٤٤).
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٨٣): تقدَّم أنه كان مِرْبدًا، فلعله كان أولًا حائطًا، ثم خرب فصار مِرْبدًا.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٣٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٥٢٤) (٩).



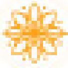
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري، قال عُروة بن الزُّبَير: بَرَكت[1] عند مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وهو يُصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا للتمر لسُهَيل وسهل؛ غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بركت به راحلته: «هذا -إن شاء الله- المنزل»، ثم دعا رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغلامين، فساومهما بالمِرْبَد ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نَهَبُه لك يا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه[2] منهما، ثم بناه مَسجِدًا[3].

ثم شرع[4] رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في بناء المسجد النبوي؛ فروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كان موضِعُ مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبني النجَّار، وكان فيه نخل وحَرْث وقبور من قبور الجاهلية... فأمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنخل فَقُطِعَ، وبالحرث فأُفسِد، وبالقبور فَنُبِشَت[5].

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أمر

---

(١) يعني: ناقة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٢) ابتاع الشيء: اشتراه. انظر: لسان العرب (١/ ٥٥٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٦).
(٤) شرع فلان في كذا: إذا أخذ فيه. انظر: لسان العرب (٧/ ٨٧).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٤٢).



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبور المشركين فَنُبِشت، وبالخِرَبِ[1] فسُوِّيَت، وبالنخل فقُطِعَ، فصفُّوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عِضادَتَيه[2] حجارةً، وجعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجِزون، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم[3]، يقولون:

اللهمَّ إنَّه لا خيرَ إلَّا خيرُ الآخِرَهْ
فانصُرِ الأنصارَ والمُهاجِرَهْ[4]

وبُنِي المسجد النبوي في أبسط صورة؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن نافع أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبره: أن المسجد كان على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبنيًّا باللَّبِن[5] وسَقفُه الجريد، وعُمُدُه خَشَب النخل[6].

---

(١) الخِرَب -بكسر الخاء، وفتح الراء- هو الموضع المحروث للزراعة. انظر: النهاية (٢/ ١٨).

(٢) عِضادتا الباب: الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله. انظر: لسان العرب (٩/ ٢٥٤).

(٣) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٩٠٦) - قال عروة بن الزبير: وطَفِقَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل معهم اللَّبِنَ في بُنيانه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨) (٣٩٣٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٥٢٤) (٩).

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٥٨): اللَّبِنُ -بفتح اللام، وكسر الباء- هو الطوب المعمول من الطين.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٦).

بناء حُجُرات أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وبنى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حول مسجده الشريف حُجَرًا؛ لتكون مساكِنَ له ولأهله، وكانت في أبسط صورة؛ فكان لسَودة بنت زَمْعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيت، وآخَرُ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن تزوج في ذلك الوقت غيرَهما.

روى الإمام البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح عن داود بن قيس، قال: رأيت الحُجُرات من جريد النخل، مَغشيًّا من خارج بمُسوح الشَّعْر[١]، وأظنُّ عَرْض البيت من باب الحُجرة إلى باب البيت نحوًا من ستٍّ أو سبعِ أذرُع، وأَحزِرُ البيت الداخل عشر أذرُع، وأظن سُمْكَه بين الثمان والسبع نحو ذلك، ووقفت عند باب عائشة، فإذا هو مستقبِل المغرِب[٢].

وروى الإمام البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح عن محمد بن هلال، أنه رأى حُجَر أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جريد مستور بمُسوح الشَّعْر، فسألته عن بيت عائشة؟ فقال: كان بابه من وِجهة الشام، فقلت: مِصراعًا كان أو مِصراعين؟ قال: كان بابًا واحدًا. قلت: من أي شيء كان؟

(١) مُسوح الشَّعر: جمع مِسْح -بكسر الميم-، وهو الكِساء من الشَّعر. انظر: لسان العرب (١٣/ ١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد - رقم الحديث (٤٥١).

قال: من عَرْعَر[١] أو ساج[٢].



المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

ثم آخى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعُقِدَت المؤاخاة في دار أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حالف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار في دارنا. قال سفيان: كأنه يقول: آخى[٣].

قال الحافظ في الفتح: كان ابتداء المؤاخاة أوائِلَ قدوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، واستمر يُجددها بحسب مَن يدخل في الإسلام أو يحضر إلى المدينة[٤].

وقال الإمام ابن القيم: آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد

---

(١) العَرْعَر: جنس أشجار الصَّنَوْبَر. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٥٩٥).

(٢) السَّاج: خشب يُجلَب من الهند، واحدتها: ساجة. انظر: لسان العرب (٦/ ٤١٩).
والخبر أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد - رقم الحديث (٧٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٩٤) (٧٣٤٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٢٩) (٢٠٤) (٢٠٥) - والإمام أحمد في المسند - رقم الحديث (١٢٠٨٩).

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٦٩٠).

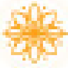
الموت دون ذوي الأرحام إلى حينِ وقعة بدْر، فلما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1]، ردَّ التوارث على الرَّحِم دون عَقْد الأُخُوة[2].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن الزُّبير بن العوَّام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: فينا نزلت هذه الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، قال: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد آخى بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فلم أشكَّ أنَّا نتوارث لو هلك كعبٌ[3]، وليس له مَن يَرِثُه، فظننتُ أني أرِثُه، ولو هلكتُ كذلك يرِثُني، حتى نزلَت هذه الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[4].

وروى الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إنما كان المهاجرون يتوارثون دون الأعراب، فنزلت، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[5].

وفي لفظ آخر في سُنن أبي داود بسند حسن عنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان الرجل يُحالِفُ الرجل، ليس بينهما نَسَب، فيرثُ أحدهما الآخر، فنَسَخ

(١) سورة الأنفال - آية (٧٥).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٧٧).
(٣) هو كعب بن مالك الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٨٢٠٤).
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٨٢٠٠).



ذلك الأنفالُ؛ فقال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1].



تشريع الأذان[2]

شُرِعَ الأذان في السنة الأولى من الهجرة[3]، روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحيَّنون[4] الصلاةَ؛ ليس يُنادَى لها[5]، فتكلموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتَّخِذوا ناقوسًا[6] مثلَ ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بُوقًا[7] مثلَ بُوق اليهود، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَوَلَا تبعثون رجلًا

(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٩٢١).

(٢) الأذان لغةً: الإعلام. انظر: لسان العرب (١/ ١٠٥).
قال الله تعالى في سورة التوبة، آية (٣): ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾.
وشرعًا: هو الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة. انظر: النهاية (١/ ٣٧).
وقال الإمام القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٤٤): قوله جل وعز: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ليس للأذان ذكرٌ في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٧٨): الراجح أن ذلك كان في السنة الأولى للهجرة.

(٤) قال السندي في شرحه للمسند (٤/ ٢٧٠): من الحين، بمعنى: الوقت، والمعنى: يجتمعون للصلاة، فيُقَدِّرون حينها في أنفسهم؛ ليأتوا إليها فيه.

(٥) في رواية الإمام مسلم: بها.

(٦) الناقوس: هي خشبة طويلة تُضرَب بخشبة أصغر منها، والنصارى يُعْلِمون بها أوقاتَ صلاتهم. انظر: النهاية (٥/ ٩٢).

(٧) البُوقُ: أداة مُجَوَّفة يُنفخ فيها. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٧٧).



يُنادي بالصلاة[1]؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بلال، قُمْ فنادِ بالصلاة»[2].

وفي لفظ آخر في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: لما كَثُر الناس ذكروا أن يُعلِموا وقت الصلاة بشيء يعرفونه، فذكروا أن يُورُوا[3] نارًا أو يَضرِبوا ناقوسًا[4].

وروى أبو داود في سننه بسند صحيح عن أبي عمير بن أنس عن عُمومة له من الأنصار، قال: اهتمَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصلاة، كيف يجمع الناسَ لها؟ فقيل له: انصِبْ راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن[5] بعضُهم بعضًا، فلم يُعجِبْه ذلك[6].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٨٢): الظاهر أن إشارة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإرسال رجل يُنادي للصلاة كانت عَقِبَ المشاورة فيما يفعلونه، وأنَّ رؤيا عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت بعد ذلك. والله أعلم.
وقال السندي في شرحه للمسند (٤/ ٢٧١): حُمِلَ النداء هاهنا على نحو: الصلاةَ جامِعةً، لا على الأذان المعهود؛ لأن ظاهر الحديث أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ذلك وقت المذاكرة، والأذان المعهود إنما كان بعد الرؤيا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٦٠٤) -ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٧).

(٣) يُوروا: يعني يُوقدوا. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٦٠٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٨) (٣).

(٥) آذن: أعلَمَ. انظر: لسان العرب (١/ ١٠٦).

(٦) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٩٨).



رؤيا عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]

روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، وابن ماجه -واللفظ لأحمد- بسند حسن عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما أجمع[2] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَضربَ بالنَّاقوس، يجمع للصلاة النَّاسَ، وهو له كارهٌ؛ لموافقة النصارى، طاف بي من الليل طائفٌ[3] وأنا نائم، رجلٌ عليه ثوبان أخضران، وفي يده ناقوس يحمله، فقلت له: يا عبدالله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلُّك على خير من ذلك؟ فقلت: بلى، قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أنْ لا إله إلا الله، أشهد أنْ لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حَيَّ على الصلاة حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح حَيَّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. ثم استأخر غير بعيد، فقال: ثم تقول إذا أقمتَ الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أنْ لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حَيَّ على

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٦٢٠): عبد الله بن زيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو الذي أُرِيَ الأذانَ، وكانت رُؤياه في السنة الأولى من الهجرة، بعد أن بنى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجده.

(٢) أَجمع: عزم. انظر: لسان العرب (٢/ ٣٥٨).

وفي رواية ابن ماجه: هَمَّ

(٣) هو الخيال الذي يراه النائم. انظر: النهاية (٣/ ١٣٩).



الصلاة، حَيَّ على الفلاح، قد قامتِ الصلاةُ قد قامتِ الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: فلما أصبحتُ أتيتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته بما رأيت، فقال رسول الله: إن هذه لرؤيا حق إن شاء الله، ثم أمر بالتأذين، فكان بلال مولى أبي بكر يُؤذِّن بذلك.

وفي رواية ابن ماجه، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فاخرج مع بلال إلى المسجد، فألْقِها عليه، ولْيُنادِ بلالٌ؛ فإنه أندى صوتًا منك»[1]، قال: فخرجتُ مع بلال إلى المسجد، فجعلتُ أُلقيها عليه وهو يُنادي بها، فسمع عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالصوت، فخرج، فقال: يا رسول الله، والله لقد رأيتُ مثل الذي رأى.

زاد أبو داود، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فلله الحمدُ!»[2].



---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ٦٧): وأما السبب في تخصيص بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالنداء والإعلام؛ فلأنه أندى صوتًا، فقيل معناه: أرفع صوتًا، وقيل أطيب، فيُؤخذ منه: استحباب كون المؤذن رفيعَ الصوت وحَسَنَه، وهذا متَّفَق عليه، قال أصحابنا: فلو وجدنا مؤذنًا حسَن الصوت يطلب على أذانه رزقًا، وآخر يتبرع بالأذان، لكنه غير حسن الصوت، فأيُّما يُؤخذ؟ فيه وجهان: أصحُّهما يُرزق حَسَن الصوت.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٤٧٧) (١٦٤٧٨) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٩٩) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٧٠٦).



أمْرُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببناء المساجد في القرى

روى الإمام الترمذي، وأبو داود بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببناء المساجد في الدُّور، وأن تُنظَّف وتُطيَّب.

قال الإمام الترمذي: قال سفيان: قوله: ببناء المساجد في الدُّور، يعني القبائل[١].

وقال الإمام الذهبي: الدار هي القرية، ودار بني عوف هي قُباء، فوقع بناء مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بني مالك بن النجَّار، وكانت قرية صغيرة[٢].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عروة بن الزبير عَمَّن حدَّثه من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرنا أن نصنع المساجد في دُورنا، وأن نُصلِحَ صنعتَها ونُطَهِّرَها[٣].

قال السندي: قوله: وأن نصلح صنعتها: بالإحكام، وصَرْف المال الحلال، لا بالتزيين[٤].

قلتُ: وكان الأمر بذلك في السنة الأولى للهجرة.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٦٠٠) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٥٥) - وأورده الحافظ في الفتح (١/ ٤٥٥) وصحَّحه.

(٢) انظر: السيرة النبوية للإمام الذهبي (١/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣١٤٦).

(٤) انظر: شرح السندي للمسند (١٣/ ٣٨٢).



كتابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيفة وموادعة[(١)] اليهود

قال ابن إسـحاق: كتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا بين المهاجرين والأنصـار، وادَعَ فيـه يهـودَ وعاهدهـم، وأقرَّهم على دينهـم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم[(٢)].

وقال الإمام ابن القيم: ووادع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابًا[(٣)].

وروى الإمام مسـلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كل بطن[(٤)] عُقُولَه[(٥)].

قلت: ذكر ابن إسـحاق بنود هذه الصحيفة، وهـي وإن كان لا يَثْبُت إسنادها[(٦)]، فإنه ثبت في أحداث السيرة النبوية ما يُصدِّق بنودها.



---

(١) أي: صالحهم وسـالمهم على ترك الحـرب والأذى، وحقيقة الموادعة: المتاركة، أي: يَدَعُ كل واحد منها ما هو فيه. انظر: النهاية (٥/ ١٤٦).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١١٥ - ١١٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٧٩).

(٤) البطن: هو ما دون القبيلة وفوق الفخذ. انظر: النهاية (١/ ١٣٧).

(٥) العُقُول: هي الدِّيَات. انظر: النهاية (٣/ ٢٥٢).

(٦) ذكرها ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١١٥ - ١١٨) بدون إسناد.



المغازي[1] النبوية

فلما استقرَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وأيَّده الله بنصره وبعباده المؤمنين، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحَن[2] التي كانت بينهم، فمنعَتْه أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدَّموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم؛ رَمَتْهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشَمَّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله تعالى يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجَناح، فأذِن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[3]، ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون مَن لم يُقاتلهم، فقال تعالى:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣): المراد بالمغازي هنا: ما وقع من قصد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكفَّارَ بنفسه، أو بجيش من قِبَله، وقَصْدُهم أعم من أن يكون إلى بلادهم، أو إلى الأماكن التي حلُّوها، حتى دخل مثل أُحُد والخندق.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٨/ ١١٧): وبالجملة مغازي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لا سيما غزوات القتال- معروفة مشهورة مضبوطة متواترة عند أهل العلم بأحواله، مذكورة في كتب الحديث والفقه والتفسير والمغازي والسِّيَر ونحو ذلك.

(٢) الإِحَن: الحقد في الصدر. انظر: لسان العرب (١/ ٨٣).

(٣) سورة الحج - آية (٣٩).



﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[1]، ثـم فرض عليهم قتال المشـركين كافَّـةً، وكان مُحرَّمًـا، ثم مأذونًا فيه، ثم مأمورًا بـه لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشـركين، إمَّا فَرْضَ عين على أحد القولين، أو فَرْضَ كفاية على المشهور[2].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: إن عبـد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وأصحابًـا له أتوا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنَّا صرنا أذلَّة!

فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إني أُمرتُ بالعفو؛ فلا تُقاتلوا القوم»، فلما حَوَّله إلى المدينة أمره بالقتال[3].

وروى الإمام أحمد في مسـنده والترمذي في جامعه بسند صحيح عن ابـن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: لما أُخـرج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من مكة، قال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أخرجوا نبيَّهـم! لَيَهلِكُنَّ، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾[4].

فقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: لقد علمتُ أنه سيكون قتال[5].

---

(١) سورة البقرة - آية (١٩٠).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٨٤ - ٨٦).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٤٠٨).
(٤) سورة الحج - آية (٣٩).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (١٨٦٥) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٤٤٤) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن.



سَرِيَّة سِيفِ البحرِ[1]

بعث رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية سِيفِ البحر في رمضان من السنة الأولى للهجرة على رأس سـبعة أشهر من مُهاجَرِه، وكانت بقيادة حمزة بـن عبد المطلـب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومعه ثلاثون راكبًا مـن المهاجرين[2]، وعقد له رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لواءً أبيـض، والهدف اعتراض عِير[3] لقريش قادمة من الشـام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سِيفَ البحر، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشـى مجدي بن عمرو الجُهَني، وكان حليفًا للفريقين جميعًا، حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا[4].



سَرِيَّة عُبيدة بن الحارث بن المُطَّلِب إلى رابغ

ثـم بعث رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُبيدة بـن الحارث بـن المُطَّلِب في ستين رجلًا من المهاجرين إلى بطن رابغ، وذلك في شوال على رأس ثمانية أشهر من مُهاجَرِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعقد له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) سِيف البحر -بكسر السين-: ساحِلُه. انظر: النهاية (٢/ ٣٩٠).

(٢) قـال ابن سـعد في طبقاته (٢/ ١): لم يَبعَثْ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحـدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بدرًا، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم، وهذا الثَّبْتُ عندنا.

(٣) العِير: الإبل بأحمالها. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٧).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٧)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١-٢).



راية بيضاء، حملها مِسطَح بن أُثاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلقي أبا سفيان بن حرب في مائتَيْ رجل، على بطن رابغ؛ على عشرة أميال من الجُحْفةِ، فلم يكن بينهم قتال، وإنما كانت مناوشة[1]، فرمى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذ بسهم، فكان أوَّلَ سهم رُمِي به في الإسلام، ثم انصرف الفريقان[2].

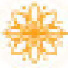
وروى الإمام البخاري عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله[3].



سَرِيَّة سعد بن أبي وقَّاص على الخَرَّار[4]

ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الخرَّار، وذلك في ذي القَعدة على رأس تسعة أشهر من مُهاجَر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعقد له لواءً أبيضَ، حمله المِقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبعث معه عشرين[5] رجلًا من المهاجرين؛ ليعترض عِيرًا لقريش، وعَهِد

(١) المناوشة في القتال: تداني الفريقين، وأخْذ بعضهم بعضًا. انظر: النهاية (٥/ ١١٢).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٣) - الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٢٨).
(٤) الخَرَّار -بفتح الخاء وتشديد الراء الأولى-: موضع قُرب الجُحْفة. انظر: النهاية (٢/ ٢١).
(٥) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (١/ ٢٥٢) - وذكر ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢١٢) أنهم كانوا ثمانية رهط، فالله أعلم.



إليه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يجاوِزَ الخرَّار، فخرجوا على أقدامهم يَكمُنون[١] بالنهار ويسـيرون بالليل، حتى صَبَّحوا المكان، فوجدوا العِير قد مرت بالأمس، فانصرفوا إلى المدينة، ولم يَلْقَوا كيدًا[٢].



(١) كَمَن: اختفى. انظر: لسان العرب (١٢/ ١٦٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٢) - الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٢).



السنة الثانية للهجرة

غزوة الأبواء أو وَدَّان[1]

وهي أول غزوة يغزوها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الإمام البخاري: وقال ابن إسحاق: أوَّلُ ما غزا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الأبواء، ثم بُواط، ثم العُشَيرة[2].

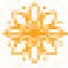
وكانت في صَفَر على رأس اثني عشر شهرًا من مَقدَم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وحَمَل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواءً أبيضَ، واستخلف على المدينة سعد بن عُبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبعين رجلًا من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، حتى بلغ الأبواء، يعترض عِيرًا لقريش، فلم يَلْقَ كيدًا.

ووادع رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة مَخْشيَّ بن عمرو الضَّمري -وكان سَيِّدَ بني ضَمْرة في زمانه- على أن لا يغزوا بني ضمرة ولا يغزوه ويُكثِّروا عليه جمعًا، ولا يُعينوا عليه عدوًّا، وكتب بينه وبينهم

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤): الأبواء ودَّان: مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية؛ ولهذا وقع في حديث الصعب بن جَثَّامة، قال: وهو بالأبواء أو ودَّان.
حديث الصعب بن جثَّامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخرجه: البخاري في صحيحه رقم الحديث (١٨٢٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٩٣) (٥٠).

(٢) علَّقه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب المغازي - باب غزوة العُشيرة، أو العُسَيرة.

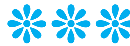


كتابًا، وكانت غَيبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة خمس عشرة ليلة[١].



غزوة بُوَاط[٢]

وهي الغزوة الثانية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرًا من مُهاجَرِه، وحمل لواءه سعدُ بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واستخلف على المدينة سَعْدَ بنَ معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]، وخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مائتين من أصحابه المهاجرين يعترض عِيرًا لقريش، فيها: أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحي[٤] ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بُواطًا من ناحية رَضْوى[٥]، فلم يَلْقَ كيدًا ورجع إلى المدينة[٦].



---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٣)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٥٢).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤): بواط: بفتح الباء، وقد تُضم، وتخفيف الواو: هو جبل من جبال جُهينة بقرب ينبع.

(٣) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٥٣) - وذكر ابن هشام في السيرة (٢/ ٢١٠): السائب بن عثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فالله أعلم.

(٤) قُتِلَ هذا الرجل كافرًا في غزوة بدر الكبرى.

(٥) رَضْوى -بفتح الراء وسكون الضاد-: جبل مشهور عظيم بينبع. انظر: معجم البلدان (٤/ ٤٠٩).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٠) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٥٣).

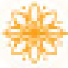
غزوة العُشَيرة[1]

وهي الغـزوة الثالثة[2] لرسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت في جُمادى الآخرة على رأس ستة عشر شـهرًا من مُهاجَرِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان لواءً أبيضَ، واستخلف على المدينة أبا سـلمة بن عبد الأسـد المخزومي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وخرج رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خمسين ومائة، ويُقال: في مائتين من المهاجرين، ولم يُكْرِه أحـدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيـرًا يَعتَقِبونها[3]، يعترضون عِيـرًا لقريـش ذاهبةً إلـى الشـام، وكان قد جاء رسـولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٢١٧): العُشيرة: موضع من بطن ينبع.
ووقع في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٩٤٩) عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سَمَّاها بلفظ: العُسَيرة أو العُشير، فذكر شعبة ذلك لقتادة، فقال قتادة: العُشَيرة.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦): وقول قتادة هو الذي اتفق عليه أهل السِّيَر، وهو الصواب.

(٢) قلـت: وكونها الغزوة الثالثة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعـارِض ما وقع في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٩٤٩) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٤) عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سُئِل: ما أول غزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ذاتُ العُسير أو العُشير.
لأنَّ مـراده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الغزوة الأولى التي شـارك هـو معه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويُؤَيِّـد ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٩٢٨٢) بسند صحيح عن أبي إسحاق، قال: سألتُ زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كم غزا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
قال: تسع عشرة، وغزوتُ معه سبع عشرة، وسبقني بغزاتين.

(٣) اعتقب فلانًا من الركوب: أي: نزلتُ فرَكِب. انظر: لسان العرب (٩/ ٣٠٤).



الخبرُ بخروجها من مكة فيها أموال قريش، فبلغ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العُشيرة، فوجد العير قد مضت قبل ذلك بأيام، وهذه العير هي التي خرج في طلبها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رجعت من الشام، وهي التي وعده الله إيَّاها، أو المقاتلة وذات الشَّوكة، وذلك في غزوة بدرٍ الكُبرى[١].



غزوة سَفَوَان[٢] أو بدر الأولى

لم يُقِمْ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة حين قدم من غزوة العُشيرة إلا لياليَ، لا تبلغ العشرة، حتى أغار كُرز بن جابر الفِهري[٣] على سَرْح[٤] المدينة، فاستاقه، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبعين رجلًا من أصحابه المهاجرين، وحمل لواءه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان لواءً أبيضَ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فطلبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ واديًا يُقال له: سَفَوَان من ناحية بدر، وفاته كُرز بن جابر الفهري فلم يلحقه، ورجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة[٥].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٠) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٥٣).
(٢) سَفَوَان -بفتح السين والفاء-: واد من ناحية بدر. انظر: النهاية (٢/ ٣٣٨).
(٣) ثم أسلم كُرز بن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدُ، وحَسُن إسلامه.
(٤) السَّرْح -بفتح السين، وسكون الراء-: هي الإبل والمواشي التي تَسْرَح للرعي. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٢).
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٣) - والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٥٣).



سَرِيَّة عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نخلة[1]

ثم بعث رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن جحش الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نخلة، وبعث معه ثمانية[2] من المهاجرين، ليس فيهم أنصاري، وذلك في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، فكانوا كلُّ اثنين يعتقبان بعيرًا، وكتب له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يَستكْرِه أحدًا من أصحابه.

مضى عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبعد مسيرة يومين، فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا، فامْضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد[3] بها قُريشًا، وتَعْلَم لنا من أخبارهم».

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعًا وطاعة، ثم أخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومَن كره الموت فليرجع، وأمَّا أنا فناهض، فمضَوا كلُّهم.

---

(١) نَخْلة: هو موضع بالحجاز قريب من مكة، فيه نخل وزرع. انظر: معجم البلدان (٨/ ٣٨١).

(٢) هذه رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢١٣) - وعند ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٥٣): اثنا عشر.

(٣) الترصُّد: الترقب. انظر: لسان العرب (٥/ ٢٢٣).



فلما كان في أثناء الطريق أضلَّ سعدُ بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلَّفا في طلبه، وأكمل عبد الله بن جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمَرَّت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأُدمًا وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم مِن رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحَرَم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عمرَو بن الحضرمي بسهمٍ فقتله، وشَدَّ المسلمون عليهم، فأسَروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلَت نوفل بن عبد الله.

ثم قَدِموا بالعِير والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخُمُس، فكان في هذه السَرِيَّة: أوَّلُ خُمُس في الإسلام، وأول قتيل من الكُفَّار في الإسلام، وأوَّلُ أسيرين في الإسلام، فلما وصلوا إلى المدينة أنكر عليهم رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعلوا، وقد كانوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مجتهدين فيما صنعوا، فسُقِطَ ذلك في أيدي القوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وظنوا أنهم قد هلكوا، واشتد تعنُّت قريش وإنكارهم ذلك، وقالوا: قد أَحلَّ محمَّدٌ الشهر الحرام؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن

﴿...يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: يقول سبحانه: هذا الذي وقع وإن كان خطأ؛ لأن القتال في الشهر الحرام كبير عند الله، إلا أن ما أنتم عليه -أيها المشركون- من الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، وإخراج محمد وأصحابه الذين هم أهل المسجد الحرام في الحقيقة أكبرُ عند الله من القتال في الشهر الحرام[(٢)].



---

(١) سورة البقرة، آية (٢١٧).

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول، ص (٨٨).
وأخرج قصة هذه السَّرية: أبو يعلى في مسنده - رقم الحديث (١٥٣٤) - والطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٤٨٨٠) (٤٨٨١) - وابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢١٣) - وأورد طُرُقَه الحافظ في الفتح (١/ ٢٠٩) وختم قوله: فبمجموع هذه الطرق يكون صحيحًا.



تحويل القبلة[1]

حُوِّلَـت القبلة من بيت المَقدِس إلى المسـجد الحرام في النصف من شـعبان من السـنة الثانية للهجرة[2]، فأنزل الله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾[3].

وروى الإمام البخاري ومسـلم في صحيحيهمـا عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: صلينا مع رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو بيت المَقدِس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم صُرِفْنا نحو الكعبة[4].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال:

(١) قـال ابن سـيد الناس في عيـون الأثـر - ص (٢٦٤): اتفق العلماء علـى أن صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة كانت إلـى بيت المَقدِس، وأن تحويل القبلة إلى الكعبة كان بها، واختلفوا كم أقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي إلى بيت المقدس بعد مُقامه المدينة؟ وفي أي صلاة كان التحويل؟ وفي صلاته عليه الصلاة والسلام قبل ذلك بمكة كيف كانت؟

(٢) قـال الحافـظ في الفتح (١/ ١٣٤): كان تحويل القبلة في نصف شـهر رجب من السـنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور.

(٣) سورة البقرة - الآية (١٤٤).

(٤) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٩٢) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٥٢٥) (١٢).



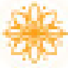
أَوَّلُ ما نُسِخ من القرآن -فيما ذُكِر لنا- شأنُ القبلة؛ قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾، فاستقبل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، يعنون بيت المقدس، فنسخها وصرفه الله إلى البيت العتيق، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[١].

قال الإمام ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، قال: يُفيد الأمرَ باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يُقيِّد الخروج بغاية، بل أطلق غايته كما عمَّم مبدأه، فمن حيث خَرَج إلى أي مَخرَج كان؛ من صلاة، أو غزو، أو حج، أو غير ذلك؛ فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمَّة، وفي أي بقعة كانوا في الأرض، فهو مأمور هو والأمة باستقباله؛ فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها في مبدإِ تَنقُّلِهم من حيث خرجوا، وفي غايته إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاثة التي لا ينفكُّ منها العبد[٢].

* وقال الإمام السُّهيلي: كرَّر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٠٩٧).
(٢) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ١٦٠٢ - ١٦٠٣).



الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس:

١- **اليهود؛** لأنهم لا يقولون بالنَّسْخ في أصل مذهبهم.

٢- **وأهل الرَّيب والنفاق،** اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل.

٣- **وكفار قريش؛** لأنهم قالوا: نَدِم محمد على فراق ديننا، فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا[١].



فَرْضُ صيام رمضان

فُرِضَ صيام شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، وتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[٢].

وكان من هَدْيِ رسول الله ﷺ في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات، وكان جبريل يُدارِسُه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجوَدَ بالخير من الريح المُرسَلة، وكان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، يُكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن، والصلاة والذِّكر والاعتكاف[٣].

(١) انظر: الروض الأُنُف (٢/ ٢٦٤).

(٢) سورة البقرة - آية (١٨٣).

(٣) انظر: زاد المعاد (٢/ ٣٦-٣٧).



قال الحافظ ابن كثير: يقول الله تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة، وآمِرًا لهم بالصيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوِقاع بنية خالصة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لما فيه من زكاة النفس وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة.[1]



غزوة بَدْر الكبرى

وقعت غزوة بدر الكبرى في صبيحة يوم الجمعة السابعَ عَشَرَ من رمضان، من السنة الثانية للهجرة[2].

قال الحافظ ابن عبد البر: كانت أشرفَ غزواته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعظَمَها حرمةً عند الله وعند رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند المسلمين: غزوةُ بدر الكبرى؛ حيث قتل اللهُ صناديدَ قريش، وأظهر دينه، وأعزه الله من يومئذ، وكانت بدر في السنة الثانية من الهجرة لسبع عشرة من رمضان صبيحة يوم الجمعة، وليس في غزواته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعدل بها في الفضل، ويَقرُب منها، إلا غزوةُ الحُديبيَة؛ حيث كانت بيعة الرِّضوان، وذلك سنة ستٍّ من الهجرة[3].

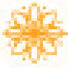
سبب الغزوة

بلغ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن عِيرًا لقريش مُقبِلة من الشام، على

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٧).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٦): وهو الصحيح عند أهل المغازي والسِّيَر.

(٣) انظر: الاستيعاب (١/ ١٤٥).



رأسها أبو سفيان صخر بن حرب، في ثلاثين أو أربعين رجلًا من قريش، وفيها أموال عظيمة، وهي العِير التي خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلبها في غزوة العُشيرة حين خرجت من مكة[1].



نَدْب[2] النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه للخروج

نَدَب رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابه إلى الخروج، فقال لهم: «هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله يُنفِلُكموها»[3].

وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن كان ظَهْرُه[4] حاضرًا بالنهوض، ولم يحتفِلْ[5] لها احتفالًا بليغًا؛ لأنه خرج مسرعًا؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٨).

(٢) يُقال: ندبته فانتدب: أي بعثته ودعوته فأجاب. انظر: النهاية (٥/ ٢٩).

(٣) أخرج ذلك ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢١٩) وإسناده صحيح.

(٤) الظَّهر: الإبل التي يُحمَل عليها وتُركب. انظر: النهاية (٣/ ١٥٢) - جامع الأصول (٨/ ١٨٢).

(٥) يحتفل: أي: يجتمع. انظر: النهاية (١/ ٣٩٣).



بُسَيْسَة[1] عَينًا[2] ينظر ما صنعَت عِيرُ أبي سُفيان، فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فحدَّثه الحديثَ، فخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتكلم، فقال: «إنَّ لنا طَلِبةً[3]، فمن كان ظَهْرُه حاضرًا فليركب معنا»، فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانيهم في عُلوِ المدينة، فقال: «لا، إلَّا مَن كان ظَهْرُه حاضرًا»، فانطلق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه[4].



---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٣/ ٣٩): هكذا هو في جميع النُّسخ، بُسَيْسَة -بباء موحدة مضمومة، وبسينين مهملتين مفتوحتين، بينهما ياء مثنَّاة تحت ساكنة.

ووقع في سيرة ابن إسحاق (٢/ ٢٢٩) بلفظ: بَسبس.

قال الحافظ في الإصابة (١/ ٤٢٠): بَسْبَسَة بن عمرو: هو بموحدتين مفتوحتين، بينهما مهملة ساكنة، ثم مهملة مفتوحة... وحكى عياض أنه في مسلم بموحدة مُصَغَّرًا، ورواه أبو داود ووقع عنده: بُسَيْسَة -بصيغة التصغير-، وكذا قال ابن الأثير: إنه رآه في أصل ابن منده، لكن بغير هاء، والصواب الأول.

(٢) عينًا: أي: جاسوسًا. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٩).

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٣/ ٤٠): طَلِبَة -بفتح الطاء، وكسر اللام- أي: شيئًا نطلُبُه.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٠١) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٣٩٨) - وأخرجه مختصرًا أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٦١٨).



خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعِدَّةُ من أصحابه

خرج رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة يوم السـبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شــهر رمضان(١) **على رأس تسـعة عشر شهرًا من مُهاجَرِه،** واســتخلف رســولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنَ أم مكتوم على الصـلاة بالناس في المدينــة، ثم ردَّ أبا لُبابة بشــير بن عبد المنـذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الرَّوْحاء(٢)، واستعمله على المدينة(٣).

خرج مع رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مــن المهاجرين والأنصــار ثلاثُمائة وبِضعةَ(٤) **عشــر رجلًا؛** فقد روى الإمـام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثُمائة وبضعةَ عَشَرَ(٥) بعِدَّةِ أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمنٌ(٦).

---

(١) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٥٤) - ولم يُحدد ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٢٤) يوم خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: وخرج رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليالٍ مضت من شهر رمضان في أصحابه.
وذكر ابن هشام في تهذيبه لسيرة ابن إسحاق يوم خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: لثمانِ ليالٍ خلَوْنَ من شهر رمضان.

(٢) الرَّوحاء: موضع بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً. انظر: جامع الأصول (٩/ ٣٧٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٤)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٤).

(٤) البضع في العدد: ما بين الثلاث إلى التسع. انظر: النهاية (١/ ١٣٣).

(٥) في رواية الإمام الترمذي: وثلاثة عشر.

(٦) أخرجـه البخـاري في صحيحـه - رقـم الحديـث (٣٩٥٩)، والترمـذي في جامعه - =



وكان مع المسلمين سبعون بعيرًا يتعاقبون عليها، كل ثلاثة على بعير، وعامَّتُهم مُشاة على أقدامهم، وفرس واحد للمقداد بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا يوم بدر كلُّ ثلاثة على بعير، كان أبو لُبابة وعليٌّ بن أبي طالب زميلَيْ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: وكانت عُقْبَةُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالا: نحن نمشي عنك، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجرِ منكما»[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غيرُ المِقداد[2].

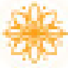
وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لقد شهدتُ من المقداد مَشْهدًا لأَنْ أكونَ أنا صاحِبَه أحبُّ إليَّ ممَّا على الأرض من شيءٍ، قال: أتى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان رجُلًا

= رقم الحديث (١٦٨٨).

* قلت: وقع خلاف في عدد مَن شهد غزوة بدر الكبرى من المسلمين، وممن تتبَّعهم: ابن سيِّد الناس في كتابه عيون الأثر (١/ ٤٣١ - ٤٣٢)، فقال بعد أن سرد أسماءهم: فجملة مَن ذكرنا: من الخزرج: مائة وخمسة وتسعون، ومن الأوس: أربعة وسبعون، ومن المهاجرين: أربعة وتسعون، فذلك ثلاثمائة وثلاثة وستون، وهذا العدد أكثر من عدد أهل بدر، وإنما جاء ذلك من جهة الخلاف في بعض من ذكرنا، وقد تقدم نظير ذلك في أهل العَقَبة، والله أعلم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٩٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٠٢٣).



فارسًا[١]... ثم ذكر موقفه يوم استشار رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ.

وقال الحافظ في الإصابة والتهذيب: المِقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلم قديمًا، وشـهد بدرًا والمَشاهد، وكان فارسًا يوم بدر، ولم يَثبُت أنَّه ممن شَهِدَها فارِسًا غيره[٢].



توزيع الرايات

دفع رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللواءَ إلى مُصعَب بن عُمَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وراية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وراية الأنصار إلى سعد بن مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعل على الساقة[٣] قيسَ بن أبي صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٣٧٦).
(٢) انظر: الإصابة (٦/ ١٦٠) - وتهذيب التهذيب (٤/ ١٤٦).
(٣) الساقة: جمع سائق، وهم الذين يسوقون جيش الغزاة، ويكونون من ورائه يحفظونه. انظر: النهاية (٢/ ٣٨١).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٤) - الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٥ - ٢٥٦).



طريق المسلمين إلى بدر

سـار رسولُ الله ﷺ بجيشه حتى بلغ الرَّوْحاء، فنزل بها، ثم ارتحل وسـار، فلما قَرُب من الصفراء بعث بَسبسـة بـن عمرو الجُهَني، وعَدِي بن أبي الزغباء رضي الله عنهما إلى بدر يتحسَّسان أخبار العِير، ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى بلغ واديَ ذِفْران[١]، فنزل به[٢].



استنفار أهل مكة وخروجهم

فلمـا بلغ أبا سـفيان -قائدَ العِيـر- مَخْرَجُ رسـول الله ﷺ وقَصْـدُه إياها، اسـتأجر ضمضم بن عمرو الغِفاري إلى مكة مسـتصرِخًا لقريـش بالنفير إلى عِيرهم؛ ليمنعـوه من محمد ﷺ وأصحابه، وبلـغ الصريـخُ أهل مكة، فنهضوا مسـرعين، وأوعبـوا في الخروج، ولم يتخلف من أشرافهم أحدٌ سوى أبي لهب، وبعث مكانَه العاص بن هشام بـن المغيـرة، كان له عليـه دَيـنٌ، وكان عِدَّتُهم ألف مقاتـل، ومعهم مائة فرس، وجمال كثيرة لا يُعرَفُ عَدَدُها[٣].

---

(١) ذِفْران -بكسر الذال-: هو وادٍ قُرب وادي الصفراء. انظر: النهاية (٢/ ١٤٩).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٦).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٩ - ٢٢٢).



خوف أُمَيَّةَ بن خَلَف من القتل

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّث عن سعد بن مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: كان صديقًا لأُمَيَّة بن خلف، وكان أُمَيَّة إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أُمَيَّة، فلما قَدِمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ انطلق سعد معتَمِرًا، فنزل على أُمَيَّة بمكة، فقال لأُمَيَّة: انظُرْ لي ساعةَ خَلوة؛ لعلِّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوانَ[1] مَن هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمِنًا، وقد آويتم الصُّبَاةَ[2]! وزعمتم أنكم تنصرونهم وتُعينونهم، أما والله لولا أنَّك مع أبي صفوان ما رجَعْتَ إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أمَا والله لئن منعتَني هذا لأمنعَنَّك ما هو أشَدُّ عليك منه؛ طريقَك على المدينةِ[3]، فقال له أُمَيَّةُ: لا ترفَعْ صوتَك يا سعد على أبي الحكم؛ سَيِّدِ أهل الوادي، فقال سعد: دَعْنا عنك يا أُمَية، فوالله لقد سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنهم قاتِلُوك»[4]، قال: بمكَّة، قال:

---

(١) هي كُنْيةُ أميَّة بن خلف.

(٢) يُقال: صبأ فلان: إذا خرج من دين إلى دين غيره. انظر: النهاية (٣/ ٣).

(٣) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦٣٢): والله لئن منعتَني أن أطوف بالبيت لأقطعَنَّ متجَرَك بالشام.

(٤) قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٣٨١-٣٨٢): المشهور عند أرباب السِّيَر =



لا أدري، ففزع لذلك أُمَيَّة فَزَعًا شـديدًا. فلمَّا رجع أمية إلى أهله، قال: يا أمَّ صفوان، ألم تَرَيْ ما قال لي سـعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمـدًا أخبرهم أنهم قاتِلِـيَّ، فقلتُ له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخـرج من مكة، فلما كان يومُ بدر اسـتنفر أبو جهل الناس، قال: أدرِكوا عِيرَكم، فكَرِهَ أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنَّك متى يراك الناس قد تخلَّفْتَ وأنت سـيد أهل الوادي، تخلَّفوا معك، فلـم يَزَلْ به أبو جهل حتى قال: أمَا إذ غلبتَني، فوالله لأشـترِيَنَّ أجود بعيرٍ بمكـة، ثم قال أُمَية: يا أمَّ صفـوان جهِّزيني، فقالت له: يا أبا صفوانَ، وقد نَسِـيتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ[١]؟! قال: لا، ما أريد أن أجوزَ معهم إلا قريبًا، فلما خرج أُمَية أخذ لا ينزل منزلًا إلَّا عَقَلَ[٢] بعيرَه، فلم يَزَل بذلك حتى قتله الله عَزَّوَجَلَّ ببدرٍ[٣]!

قـال الحافظ في الفتـح: وفي الحديث معجـزات للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرة، وفيه ما كان عليه سـعد بن معـاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من قوة النفس واليقين، وفيه أن شأن العمرة كان قديمًا، وأن الصحابة كان مأذونًا لهم في الاعتمار من قبل أن يَعتَمِرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخلاف الحج، والله أعلم[٤].

= أن النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما قـال ذلك لأخيه أُبَي بن خَلَف بمكة قبـل الهجرة، وهو الذي قتله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك يوم أُحُدٍ بحَرْبَته، وهذا أيضًا لا يُنافي خبر سعد، والله أعلم.

(١) تعني بذلك: سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) عَقَل البعير: شده في عُقُلِه، أي: بحَبْلِه. انظر: النهاية (٣/ ٢٥٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٥٠) (٣٦٣٢).
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ١٠).



بلوغ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خروج قريش ومشاورته

بلغ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خروجُ قريش ليمنعوا عِيرَهم، فاستشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم مرة ثانية؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاور حين بلغه إقبالُ أبي سفيان[1]، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلَّم عمر فأعرض عنه[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال المِقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولكن امْضِ ونحن معك، فكأنَّه سُرِّيَ[3] عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

وفي لفظ آخر للبخاري والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد شَهِدْتُ من المقداد مشهدًا لأَنْ أكونَ أنا صاحِبَه أحَبُّ إليَّ مما على الأرض من شيء؛ قال: أتى النبيَّ

(١) في رواية الإمام أحمد في مسنده - قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاور الناس يوم بدر.
(٢) أخرجه الإمام مسلم - رقم الحديث (١٧٧٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٢٩٦).
(٣) سُرِّي: أي: كُشِفَ عنه الخوفُ. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٨).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٦٠٩).



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان رجُلًا فارسًا، فقال: أبشِرْ يا نبي الله، واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولكن والذي بعثك بالحق لنكونَنَّ بين يديك، وعن يمينك وعن شمالك، ومن خَلْفِك، حتى يفتحَ اللهُ عليك[1].

ثم استشار رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «أشيروا عليَّ أيُّها الناس»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عَدَدُ الناس، وأنهم حين بايعوه بالعَقَبة قالوا: يا رسول الله، إنا بُرآءُ من ذمامِك[2] حتى تَصِلَ إلى ديارنا، فإذا وصَلْتَ إلينا فأنت في ذِمَّتِنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخوَّف ألا تكونَ الأنصار ترى عليها نَصْرَه إلَّا ممن دَهَمه[3] بالمدينة من عدوِّه، وأنْ ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم[4].

فقام سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: والله لكأنَّك تريدُنا يا رسول الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجل»، فقال سعد[5] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آمنَّا بك

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٥٢) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٣٧٦).

(٢) الذِّمَّة: بمعنى العهد والضمان. انظر: النهاية (٢/ ١٥٥).

(٣) دَهَمَه: غشيه. انظر: لسان العرب (٤/ ٤٣١).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٧).

(٥) هكذا ذكر ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٢٧) أن المتكلم نيابة عن الأنصار هو سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووقع في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٧٩) أن المتكلم نيابة =



وصدَّقْناك، وشَهِدْنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامْضِ يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِما أردتَ؛ فنحن معك، فوالذي بعَثَك بالحقِّ لو استعرَضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه، لخُضْناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يُريك منا ما تَقَرُّ به عينُك؛ فسِرْ بنا على بركة الله. فسُرَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قال: «سيروا وأبشِروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم!»[١].



= عن الأنصار هو سعد بن عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٤): وقع في مسلم أن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي قال ذلك، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة من مُرسَل عكرمة، وفيه نظر؛ لأن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يشهَدْ بدرًا، وإن كان يُعَدُّ فيهم؛ لكونه ممن ضرب له بسهمه، ويمكن الجمع بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشارهم في غزوة بدر مرتين؛ الأولى: وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العِير مع أبي سفيان، وذلك بيِّنٌ في رواية مسلم، ولفظه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، والثانية: كانت بعد أن خرج كما في حديث الباب.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٧).

نزول المسلمين بالعُدْوة الدُّنيا والكُفَّار بالعُدوة القصوى

ثم سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزل بجيشه بالعُدوة الدنيا، قريبًا من بدر، ونزل كُفَّار قريش بالعدوة القصوى، ولا أحد يعلم مكان الآخر، وأمَّا أبو سفيان فلَحِقَ بساحل البحر، ونجا بالقافلة.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1].

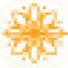
قال ابن إسحاق في تفسير الآية: أي: لِيكفُرَ من كفر بعد الحُجَّة؛ لِمَا رأى من الآية والعبرة، ويُؤمِنَ مَن آمن على مِثْلِ ذلك[2].

وقال الحافظ ابن كثير معلِّقًا على تفسير ابن إسحاق: وهذا تفسير جيد، وبَسْطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جَمَعَكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد؛ لينصُرَكم عليهم، ويرفَعَ كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمرُ ظاهرًا، والحُجَّةُ قاطعةً، والبراهينُ ساطعةً، ولا يبقى لأحد حُجَّةٌ ولا شبهة، فحينئذ: يَهلِك مَن هلك، أي: يستمِر في الكفر مَن استمرَّ

---

(١) سورة الأنفال - الآية رقم (٤٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٨٤).



فيه على بصيرةٍ من أمرِه أنه مبطِلٌ؛ لقيام الحُجَّة عليه، ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ﴾، أي: يُؤمِن مَن آمن: ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، أي: حُجَّةٍ وبصيرةٍ[1].



بَعْثُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه إلى بدر

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب، والزُّبَير بن العَوَّام وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، في نفرٍ من الصحابة إلى ماءِ بَدْرٍ يلتَمِسون خبر قريش؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: فوجَدْنا فيها[2] رجلين منهم، رجلًا من قريش، ومولًى لعُقبة بي أبي مُعَيط، فأما القرشي فانفلت، وأما مولى عقبة فأخَذْناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم -واللهِ- كثيرٌ عَدَدُهم، شديدٌ بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: «كم القوم؟» قال: هم -واللهِ- كثيرٌ عَدَدُهم، شديدٌ بأسهم، فجَهَدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُخبره كم هم، فأبى، ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله: «كم ينحَرون من الجُزُرِ؟»[3]

فقال: عَشْرًا كل يوم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «القوم ألفٌ، كُلُّ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩).

(٢) يعني: حول ماء بدر.

(٣) الجُزُر: جمع جَزور، وهو البعير ذكرًا كان أو أنثى. انظر: النهاية (١/ ٢٥٨).



جزور لمئةٍ وتَبَعِها»[١].

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وسُنَن أبي داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فإذا هم برَوَايا[٢] قريش فيها عبدٌ أسودُ لبني الحَجَّاج، فأخذه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعلوا يسألونه: أين أبو سفيان؟ فيقول: والله ما لي بشيءٍ من أمره علم[٣]، ولكن هذه قريش قد جاءت؛ فيهم: أبو جهل، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُمَية بن خلف، فإذا قال لهم ذلك ضربوه، فيقول: دعوني دعوني أُخبِرْكم، فإذا تركوه، قال: واللهِ مالي بأبي سفيان علم، ولكن هذه قريش قد أقبلت؛ فيهم: أبو جهل، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُمَية بن خلف، قد أقبلوا، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلِّي، وهو يسمع ذلك، فلما انصرف، قال: «والذي نفسي بيده، إنكم لتضربونه إذا صَدَقَكم، وتَدَعونه إذا كَذَبَكم! هذه قريش قد أقبلت لتمنعَ أبا سفيان»[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٩٤٨).

(٢) الرَّوايا من الإبل: هي الحوامل للماء، واحدتها راوية، وراوية قريش: أي إبلهم التي كانوا يَسْتقون عليها. انظر: النهاية (٢/ ٢٥٤).

(٣) في رواية الإمام أحمد: أما أبو سفيان فليس لي به علم.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٢٩٦) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٦٨١).



قلت: وفي ضرب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لعبد بني الحَجَّاج دليل على كراهيتهم للقتال، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ[(١)] أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ[(٢)] وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾[(٣)].

قال الحافظ ابن كثير: فكَرِهَ ذلك أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووَدُّوا أنْ لو كان العِير أبي سفيان، وأنه منهم قريب؛ ليفوزوا به، لأنه أخفُّ مَؤونة من قتال النفير من قريش؛ لشدة بأسهم واستعدادهم لذلك، فجعلوا يضربونهما[(٤)]، فإذا آذاهما الضرب، قالا: نحن لأبي سفيان، فإذا سكتوا عنهما وسألوهما، قالا: نحن لقريش[(٥)].



---

(١) قال الإمام ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٨٣): يعني إحدى الفرقتين: فرقة أبي سفيان بن حرب والعِير، وفرقة المشركين الذين نفروا من مكة لمَنْع عِيرِهم.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦): أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال؛ ليُظفِرَكم بهم ويُظهِرَكم عليهم، ويُظهِر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبًا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبَّركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يُحبون خلاف ذلك فيما يظهرُ لهم.

(٣) سورة الأنفال - آية (٧).

(٤) أي: يضربون أسْلَم غلامَ بني الحجاج، وعَريضًا أبا يَسارٍ غلامَ بني العاص بن سعيد، وهذه رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٢٨).

(٥) انظر: الفصول في سيرة الرسول، ص (٩٤).



نزول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ماء بدر

سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه نحو ماء بدر؛ ليسبق المشركين إليه، ويَحُول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على أفضل بئر من آبار بدر؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بدر، وبدرٌ بِئرٌ، فسَبَقْنا المشركين إليها[(١)].



نزول المطر على الفريقين

وحال اللهُ سبحانه بين قريش وبين الماء بمطرٍ عظيم أرسله، فكان نقمةً على الكفار، ونعمةً على المسلمين؛ مهَّد لهم الأرض ولَبَّدها[(٢)]؛ قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[(٣)].

قال الإمام ابن القيم: وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدُّم، وكان على المسلمين طَلًّا[(٤)]

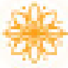
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٩٤٨).

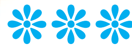
(٢) لبَّدَت الأرض: أي: جعلَتْها قوية لا تَسُوخ فيها الأرجل. انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٢٢).

(٣) سورة الأنفال - آية (١١).

(٤) الطَّلُّ: المطر الصِّغار القَطْر الدَّائم. انظر: لسان العرب (٨/ ١٩١).



طهَّرهم به وأذهب عنهم رِجْز الشيطان، ووطَّأ به الأرض، وصَلَّب الرَّمْلَ، وثبَّت الأقدام، ومَهَّد به المنزل، وربط به على قلوبهم؛ فسبق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون إلى الماء، فنزلوا عليه شَطْرَ الليل وصنعوا الحِياضَ، ثم غَوَّروا[1] ما عداها من المياه، ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على الحياض[2].



بناء العريش[3] وتَعْبئة جيش المسلمين

وبُنِيَ لرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عريشٌ يكون فيه على تلٍّ يُشرف على المعركة، فكان فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان، وهي ليلة المعركة، أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعبِّئُ[4] جيشه، ثم جعل يمشي في أرض المعركة، وجعل يُشير بيده: هذا مَصرَعُ[5] فلان غدًا، وهذا مَصرَعُ فلان

(١) غَوْرُ كُلِّ شيء: عُمقُه وبُعده. انظر: لسان العرب (١٠/ ١٤٠).
والمعنى: أنهم وسَّعوا في حفر الآبار؛ ليذهب الماء في الأرض.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٦).
(٣) العريش: هو خيمة من خشب أو عيدان تُنصَب ويُظلَّل عليها. انظر: لسان العرب (٩/ ١٣٤).
جاء ذكر العريش في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٨٧٧) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال، وهو في قبة له يوم بدر:... وساق الحديث.
(٤) عَبَّأْتُ الجيش: أي: رتَّبْتُهم في مواضعهم وهيَّأْتُهم للحرب. انظر: النهاية (٣/ ١٥٣).
(٥) المصرع: هو موضع القتل. انظر: جامع الأصول (٨/ ١٨١).



غدًا إن شاء الله، ويضع يده على الأرض، ههنا وههنا!.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فوالله ما أماط[1] رجلٌ منهم عن موضِعِ كَفَّيْ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ![2]

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: فوالذي بعثه بالحق، ما أخطؤوا الحدود التي حَدَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].



نزول النُّعَاس وصلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

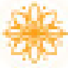
أصاب المسلمين ليلة الجمعة النعاسُ؛ أَمَنَةً من الله، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، فناموا جميعًا.

قال الحافظ ابن كثير: يُذَكِّرُهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النُّعاسَ عليهم؛ أمانًا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم، وقلة عددهم[4].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أنس بن مالك

---

(١) ما أماط: أي: ما زال وما بَعُدَ. انظر: جامع الأصول (٨/ ١٨١).
(٢) أخرج ذلك الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٢٩٦).
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٧٣).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢).



رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: إن أبا طلحة الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: غَشِيَنا النُّعاسُ ونحن في مصافِّنا يوم بدر، قال أبو طلحة: كنتُ فيمن غَشِيَه النعاسُ يومئذ، فجعل سيفي يسقُطُ من يدي وآخُذُه، ويسقُطُ وآخُذُه[1]!

وبات رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تلك الليلة -ليلة الفرقان- يُصلي تحت شجرة، يتضرَّع إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غيرُ المِقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلَّا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تحت شجرة يُصلِّي، ويبكي حتى أصبح[2]!

وروى ابن حِبَّان في صحيحه بسند حسن عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أصبح ببدر من الغدِ، أحيا تلك الليلة كلَّها[3].



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٣٥٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٠٢٣).

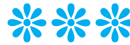
(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٥٩).



نزولُ جيشِ المشركين واديَ بدر

فلما أصبح رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وذلك يومَ الجمعة السابع عشر من رمضان من السـنة الثانية للهجرة -وهو يوم الفرقان- صَفَّ أصحابَه، وعـدَّل صفوفهم، وقـال لهـم: «لا يتقدمَنَّ أحد منكم على شـيء، حتى أكونَ أنا أُوذِنُهُ»[1].

وأقبلت قريش في كتائبها، وبدأت تأخذ موضعها في أرض المعركة، فلمـا رآها رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قـال: «اللهمَّ هذه قُرَيش قـد أقبَلَت بخُيَلائهـا وفَخْرِهـا، تُحـادُّك[2] وتُكذِّبُ رسـولَك، اللهُـمَّ فنَصْرَك الذي وعَدْتَني»[3].



---

(١) هذه رواية الإمام أحمد في مسنده - وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه: «دونه».
قال السـندي في شرحه للمسـند (٧/ ٢٢٨): أُوذنه: من الإيذان، أي: أُخبِرُه بحاله، وأنَّ فيـه مصلحـة أم لا، ولفظ مسـلم: حتى أكـون أنا دونَـه، أي: قُدَّامه، أرشِـدُه إلى ما فيه المصلحة مما فيه المفسدة.
والخبر أخرجه الإمام مسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٠١) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٣٩٨).

(٢) المحادَّة: المعاداة والمخالفة والمنازعة. انظر: النهاية (١/ ٣٤٠).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).



المبارزة

فلمَّا استقرَّت قريش في أرض المعركة، طلبت المبارزة؛ فقد روى الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: فبرز عُتبة وأخوه شيبة وابنُه الوليد، فقالوا: مَن يُبارِزُ؟

فخرج فتيةٌ من الأنصار شَبَبَةٌ، فقال عُتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن يُبارِزُنا مِن أعمام بني عبد المطَّلِب؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُمْ يا حمزةُ، قم يا عُبَيدةُ، قم يا عَلِيُّ»، فبرز حمزة لعُتبة، وعُبَيدة لشَيبة، وعليٌّ للوليدِ؛ فقتَل حمزةُ عُتبة، وقَتَل عليٌّ الوليدَ، وقَتَل عُبَيدة شيبةَ، وضَرَب شيبةُ رِجْلَ عُبَيدةَ فقطَعها، فاستنقَذَه حمزةُ وعليٌّ، حتى تُوفِّيَ بالصفراء[1].

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح، قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقتَل اللهُ تعالى عُتبةَ وشَيبةَ ابنَيْ ربيعة، والوليدَ بن عتبة، وجُرِحَ عُبَيدة[2].

قال الإمام الذهبي: الصحيح أنما بارز حمزةُ عُتبة، وعليٌّ شَيبة[3]، والله أعلم[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٤٩٤٣).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٩٤٨).
(٣) وهي رواية أبي داود في سننه - رقم الحديث (٢٦٦٥) وإسناده صحيح.
(٤) انظر: السيرة النبوية (١/ ٣٠٦) للإمام الذهبي.



وقال الحافظ في الفتح: وهذا أصحُّ الروايات[١]، لكِنَّ الذي في السيرة من أن الذي بارزه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الوليد هو المشهور، وهو اللائق بالمقام[٢]؛ لأن عُبَيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشَيبة كانا شيخين كعُتبةَ وحمزةَ، بخلاف عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والوليدِ؛ فكانا شابَّين[٣].

وقال ابن سعد في طبقاته: الثَّبْتُ: أن حمزة قَتَل عُتبة، وأن عليًّا قتل الوليدَ، وأنَّ عُبَيدة بارز شَيبةَ[٤].

وروى الشيخان في صحيحيهما وابن ماجه -واللفظ لابن ماجه- عن قيس بن عُبَاد، قال: سمعتُ أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقسِمُ لَنزَلَت هذه الآيات في هؤلاء الرَّهط الستة يوم بدر: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾[٥]؛ في حمزة بن عبد المُطَّلِب، وعليِّ بن أبي طالب، وعُبيدة بن الحارث، وعُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة، يومَ بدر اختصموا في الحُجَجِ[٦].

---

(١) يعني رواية أبي داود في سننه.

(٢) وهي موافقة لرواية الحاكم في مستدركه.

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٧).

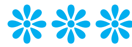
(٤) قلتُ: وهي رواية الحاكم في مستدركه بسند صحيح - رقم الحديث (٤٩٤٣) - وهي الأكثر والأشهر، وانظر: كلام ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٦١).

(٥) سورة الحج - آية (١٩).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٦٦) (٣٩٦٨) (٣٩٦٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٣) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٨٣٥).



قال الإمام ابن جرير الطبري: وأَولى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية: قول مَن قال: عُنِيَ بالخصمين جميعُ الكفار من أي أصناف الكفر كانوا، وجميع المؤمنين، وإنما قلت: ذلك أولى بالصواب؛ لأنه -تعالى ذِكْرُه- ذكر قَبْلَ ذلك صِنْفَين من خَلْقِه؛ أحدهما: أهل طاعة له بالسجود له، والآخر: أهل معصية له، قد حَقَّ عليه العذاب... ثم أتبع ذلك صفةَ الصِّنفَين كليهما، وما هو فاعل بهما... فإن قال قائل: فما أنت قائل فيما رُوي عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: إنَّ ذلك نزل في الذين بارزوا يومَ بدر؟ قيل: ذلك إن شاء الله كما رُوي عنه، ولكن الآية قد تَنزِل بسَبَبٍ من الأسباب، ثم تكون عامَّةً في كل ما كان نظيرَ ذلك السبب، وهذه من تلك[1].



نشوب القتال ومناشدة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه

ثم حَمِيَ الوطيس، وتزاحف الناسُ ودنا بعضهم من بعض، واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعاء والابتهال ومناشدة ربه عَزَّ وَجَلَّ؛ فروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال، وهو في قُبَّةٍ يومَ بدر: «اللهم إني أَنشُدك عَهْدَك ووَعْدَك، اللهم إن تشَأْ لا تُعبَدْ بعد

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٢٤).



اليومِ»، فأخذ أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بيده، فقال: حَسْبُك يا رسول اللهِ، ألحَحْتَ[١] على ربِّك[٢].

وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه عن عمر بن الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: فاستقبل نبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف[٣] بربه: «اللهم أنجِزْ لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تُهلِكْ هذه العِصابةَ[٤] من أهل الإسلام لا تُعبَدْ في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبِلَ القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبيَّ الله، كذاك[٥] مناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعدك[٦].



(١) قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٥٧٨): فهذا الإلحاح عين العبودية.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٧٥).
(٣) يهتف: أي: يدعوه ويُناشده. انظر: النهاية (٥/ ٢١١).
(٤) العصابة: هم الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين. انظر: النهاية (٣/ ٢٢٠).
(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٧٣): هكذا وقع لجماهير رواة مسلم: كذاك، بالذال، ولبعضهم: كفاك، بالفاء.
(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٣).



نزول الملائكة

ثم أغفى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إغفاءةً، ثم رفع رأسه، وهو يقول: «أبشِرْ يا أبا بكر، هذا جِبريلُ على ثناياه[1] النَّقعُ»[2].

وروى الإمـام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه، عليه أداة الحرب»[3].

قال الله تعالـى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[4].

وقال تعالـى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[5].

---

(١) ثناياه: أراد قوائم فرسه ورأسه. انظر: النهاية (١/ ٢١٨).

(٢) النَّقْع: الغبار. انظر: النهاية (٥/ ٩٥).

والخبر أخرجه الأموي في المغازي -كما في البداية والنهاية-، وحسَّن إسناده الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالي، ص (٢٢٦).

(٣) أداة الحرب: يعني: كامل السلاح. انظر: لسان العرب (١/ ١٠٠).

والخبر أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٩٥).

(٤) سورة الأنفال - آية (٩-١٠).

(٥) سورة الأنفال - آية (١٢).



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثَرِ رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسَّوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدِمْ حَيزومُ، فنظر إلى المُشرِك أمامه فخَرَّ مُستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ[1] أنفُه، وشُقَّ وَجهُه، كضَرْبِهِ بالسوط، فاخضرَّ ذلك أجمَعَ، فجاء الأنصاري فحَدَّث بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صدَقْتَ، ذلك من مَدَدِ السماء الثالثة»[2].

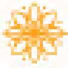


رميُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين بالحصباء[3]

فلما أنزل الله سبحانه ملائكته، خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العريش، وهو يقول: «﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾[4]»، ثم أخذ حَفْنةً[5] من الحصباء، فاستقبل بها الكفار، وقال: «شاهت الوجوهُ» ثم رمى بها في وجوههم، فما بقي أحد منهم إلا وامتلأت عيناه من الحصباء، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٧٤): الخَطْمُ: الأثَرُ على الأنف.
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٣).
(٣) الحصباء: الحصى الصغار. انظر: النهاية (١/ ٣٧٨).
(٤) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٥٣).
(٥) الحفنة: هي ملء الكف. انظر: النهاية (١/ ٣٩٣).



رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].

قال الإمام ابن القيم: الآية من أكبر معجزات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخطاب بها خاصٌّ لأهل بدر، وكذلك القبضة التي رمى بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأوصلها الله سبحانه إلى جميع وجوه المشركين، وذلك خارج عن قدرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الرمي الذي نفاه عنه، وأثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته، وهو الحذف، وكذلك القتل الذي نفاه عنهم هو قتل لم تُباشِرْه أيديهم، وإنما باشرته أيدي الملائكة، فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس، وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة المَلَك![2].

وقال في مدارج السالكين: وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسبابًا ظاهرة لدفع المشركين، وتولَّى دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس؛ فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافًا إليه وبه، وهو خير الناصرين[3].



(١) سورة الأنفال - آية (١٧).
(٢) انظر: إعلام الموقعين (٤/ ٦٣-٦٤).
(٣) انظر: مدارج السالكين (٤/ ٤١٠).



هزيمة الكفار

وأنزل الله سبحانه نصره على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، ومنحهم أكتاف المشركين أسْرًا وقتلًا، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، قال: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة؛ سبعين أسيرًا، وسبعين قتيلا[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، قال: فقَتَلوا يومئذ سبعين، وأَسَروا سبعين[2].

قال الحافظ في الفتح: هذا هو الحق في عدد القتلى[3].

فكان من جملة من قُتِلَ من المشركين ممن سمَّى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: أبو جهل، وهو أبو الحكم عمرو بن هشام، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عُتبة، وأُميَّة بن خلف، وغيرهم من سادات الكُفر.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٨٦).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٣).
(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٩).



وقوف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتلى الكفار

ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتلى الكفار فسُحِبوا إلى قليبٍ من قُلُبِ بدر، فَطُرِحوا فيه؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش[(١)]، فقُذِفوا في طَوِيٍّ[(٢)] من أطواء بدر خبيثٍ مُخبِث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة[(٣)] ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فَشُدَّ عليها رَحْلُها، ثم مشى وتبعه أصحابه، وقالوا: ما نُرى ينطلِقُ إلا لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكِيِّ[(٤)]، فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلانُ بنَ فلان، ويا فلان بن فلان، أيسُرُّكم أنَّكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجَدْنا ما وعدَنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتُم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجساد لا أرواح لها؟! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم!».

---

(١) صناديد قريش: هم أشرافهم وعظماؤهم ورُؤساؤهم، الواحد: صِنديد. انظر: النهاية (٣/ ٥١).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢): الطَّوِيُّ: هي البئر التي طُوِيَت وبُنِيَت بالحجارة؛ لتثبُتَ ولا تنهار.

(٣) العَرْصة: كل موضع واسع لا بناء فيه. انظر: النهاية (٣/ ١٨٨).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢): شَفَة الرَّكِيِّ: أي: طَرَف البئر.



قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه؛ توبيخًا وتصغيرًا ونِقمةً وحسرةً ونَدَمًا[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم، فقام عليهم فناداهم، فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أُمَيَّة بن خلف، يا عُتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتُم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا» فسمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنَّى يُجيبوا وقد جَيَّفوا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يُجيبوا»[2].



عدد شهداء المسلمين

استُشهِد من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في غزوة بدر الكبرى: أربعة عشر رجلًا؛ ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس[3].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٧٦).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٧٤).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٩ - ٣٢٠).



تبشير أهل المدينة

بعث رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مولاه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعبد الله بن رَواحة بالبشرى لأهل المدينة؛ فقد روى الحاكم في المستدرك، والبيهقي في دلائل النبوة بسند حسن لغيره، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وصالح بن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف، قالا: لما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بدر، بعث بشيرين إلى أهل المدينة؛ بعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، وبعث عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل العالية، يُبشرونهم بفتح الله على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوافق زيدُ بن حارثة ابنَه أسامة حين سَوَّى على رُقيَّة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، فقيل له: ذاك أبوك حين قَدِم، قال أسامة: فجئتُ وهو واقف للناس، يقول: قُتِلَ عُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، ونُبَيه ومُنبِّه، وأمية بن خلف، فقلت: يا أبَهْ، أحَقٌّ؟ قال: نعم والله يا بُنيَّ[2].



(١) يعني: بعد ما دُفِنَت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

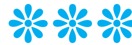
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٠٢٥) - والبيهقي في دلائل النبوة - (٣/ ١٨٧).



رجوع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بالأُسارى

ثم ارتحل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام إلى المدينة النبوية مؤيَّدًا منصورًا، قرير العين بنصر الله له، ومعه الأُسارى والمغانم، ودخل المدينة وقد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشرٌ كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أُبيٍّ المنافق وأصحابه في الإسلام ظاهرًا، وفرغ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شأن بدر والأُسارى في شوال[1].

قال موسى بن عقبة: وأذلَّ الله بوقعة بدر رقابَ المشركين والمنافقين، فلم يَبْقَ بالمدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضع عنُقُه؛ لوقعة بدر، وكان ذلك يومَ الفرقان؛ يومَ فَرَّق الله بين الشرك والإيمان[2].



(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٩).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١١٦ - ١١٧).



نزول سورة الأنفال

قال ابن إسـحاق: فلما انقضى أمر بدر، أنزل الله عَزَّوَجَلَّ فيه من القرآن الأنفالَ بأَسْرِها[١].

وروى الإمـام البخاري في صحيحه عن سـعيد بـن جُبير، قال: قلت لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر[٢].

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم، قال سعيد بن جُبير، قلت لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر[٣].

وقال الإمام السُّهيلي: الأنفال: هي الغنائم[٤].



(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٦٤٥).
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣١).
(٤) انظر: الروض الأُنف (٣/ ١١٩).



فضل أهل بدر

روى الإمام البخاري في صحيحه عن معاذ بن رِفاعة بن رافع الزُّرَقيِّ عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «ما تعدُّون أهلَ بدر فيكم؟ قال: مِن أفضَلِ المسلمين -أو كلمةً نحوها- قال: وكذلك مَن شهد بدرًا من الملائكة»[(١)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه قد شهد بدرًا[(٢)]، وما يُدريك[(٣)] لعلَّ الله اطَّلع على مَن شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم؟!»[(٤)].

قال الحافظ في الفتح: هي بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم[(٥)].

وقال الإمام ابن القيم: والذي نظن في ذلك -والله أعلم- أن هذا الخطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يُفارقون دينهم، بل يموتون على

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٩٢).

(٢) يعني: حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذلك عندما بعث رسالةً إلى أهل مكة ضمَّنها غزو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكة ليفتحها.

(٣) الخطاب مُوجَّه لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأنه استأذن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتل حاطب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسبب رسالته لمكة.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٧٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٩٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٧).



الإسلام، وأنهم قد يُقارِفون بعض ما يُقارِفه غيرهم من الذنوب، ولكنْ لا يتركهم سبحانه مصرِّين عليها، بل يوفِّقهم لتوبة نصوح واستغفار، وحسنات تمحو أثر ذلك، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنه قد تحقَّق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضي ذلك أن يُعطِّلوا الفرائض وُثوقًا بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج، ولا زكاة ولا جهاد، وهذا مُحال، ومِن أوجَبِ الواجبات التوبة بعد ذلك، فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة... وكذلك مَن بشَّره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة، أو أخبره بأنه مغفور له، لم يَفهَمْ منه ولا غيرُه من الصحابة إطلاقَ الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشدَّ اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها، كالعَشَرة المشهود لهم بالجنة[١].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن عبدًا لحاطب جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله، ليَدخُلَنَّ حاطِبٌ النار! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كذَبْتَ، لا يدخُلُها؛ فإنَّه شهد بدرًا والحُديبيَة»[٢].

---

(١) انظر: كتاب الفوائد - ص (٣٩).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٩٥).



وروى الإمـام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: إن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سُراقة، أتت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالـت: يا نبيَّ الله، ألا تحدِّثُني عن حارثـة؟ -وكان قُتِلَ يوم بدر، أصابه سـهم غَرْبٌ[(١)]- فإن كان في الجنة صبَـرْتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتهدتُ عليه في البكاء، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يا أمَّ حارثةَ، إنَّها جنانٌ في الجنَّةِ، وإن ابنَكِ أصاب الفردوسَ الأعلى!»[(٢)].

قال الحافظ ابن كثير: وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر[(٣)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن معاذ بن رفاعة بن رافع، وكان رفاعة من أهل بدر، وكان رافع من أهل العَقَبة، فكان يقول لابنه: ما يسُرُّني أني شهدتُ بدرًا بالعَقَبة[(٤)].

قـال الحافـظ في الفتح: والذي يظهر أن رافع بن مالك لم يسـمع من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التصريح بتفضيـل أهل بدر على غيرهم، فقال ما قال باجتهاد منه، وشُـبهتُه أن العَقَبة كانت منشأ نصرة الإسلام وسبب الهجرة التي نشـأ منها الاسـتعداد للغزوات كلها، لكِنَّ الفضلَ بيـد الله يؤتيه من يشاء. والله أعلم[(٥)].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٠٧): أي: لا يُعرَف راميه، أو لا يُعرَف من أين أتى.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٠٩).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٤٨).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٩٣).
(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٦).



غزوة بني سُلَيم

لما قَدِمَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ مَرجِعَه من بدر، وكان فراغُه منها في عقب شهر رمضان، لم يُقِمْ بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريدُ بني سُليم، حتى بلغ ماء من مياههم يُقال له: الكُدْر، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة، ولم يَلْقَ كيدًا[(١)].



غزوة بني قَينُقاع

قال ابن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نَقَضوا ما بينهم وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحاربوا فيما بين بدرٍ وأُحُدٍ[(٢)].

لما رأى يهود بني قينقاع أن الله سبحانه نصر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين نصرًا مؤزَّرًا في ميدان بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٤٩)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٦٣).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).
لم يُحدِّد ابن إسحاق تاريخ هذه الغزوة، وجعلها بين بدر وأُحُد، بينما يرى ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٦٣) أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مُهاجَرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَبِعَه على ذلك الإمامُ ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٤٩).



وهيبة في قلب القاصي والداني؛ ظهر غيظهم، وكاشفوا بالعداوة والشر، وجاهروا بالبغي والأذى.

قال الحافظ في الفتح: فكان أوَّلَ مَن نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر [(١)].

وروى أبو داود في سننه وابن إسحاق في السيرة بسند حسن بالشواهد -واللفظ لأبي داود- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما أصاب رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشًا يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهودَ في سوق بني قينقاع، فقال: يا معشر يهود، أسلِموا قبل أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصاب قريشًا، قالوا: يا محمد، لا يَغُرَّنَّك من نفسِك أنَّك قتلتَ نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يَعرِفون القتالَ، إنَّك لو قاتلْتَنا لعَرَفْتَ أنَّنا نحن الناس، وأنَّك لم تَلْقَ مثلنا! فأنزل الله في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ [(٢)] إلى قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ببدرٌ ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [(٣)].



(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٨).
(٢) سورة آل عمران - آية (١٢).
(٣) سورة آل عمران - آية (١٣) - والخبر أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠٠١) - وابن إسحاق في السيرة - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ٧١) وحسَّن إسناده.



حِصار بني قينقاع ثم جلاؤهم

فلمَّا نَقَض بنو قينقاع العهد[١] مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خرج إليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستعمل على المدينة أبا لُبابة بشير بن عبد المنذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ودفع لواء المسلمين إلى حمزة بن عبد المُطَّلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى قذف الله الرعب في قلوبهم، فنزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بهم رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكُتِفُوا، فقام عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، وكلَّم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم وألَحَّ عليه؛ لأنهم حُلَفاؤه، فوهبهم له، فأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخرجوا من المدينة، ولا يُجاوروه بها؛ فخرجوا إلى أذرِعات الشام[٢].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: إن يهود بني النَّضير وقُرَيظة حاربوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأجلى[٣] رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النضير، وأقَرَّ قُريظة ومَنَّ عليهم، حتى حاربت

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٧٨): في هذا أن المعاهَد والذِّمِّي إذا نقض العهد صار حربيًّا، وجرت عليه أحكام أهل الحرب، وللإمام سَبْيُ مَن أراد منهم، وله المَنُّ على مَن أراد.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤ – ٥٥) – زاد المعاد (٣/ ١٤٩).

(٣) قال الإمام السندي في شرحه للمسند (٤/ ٢٧٣): أي: أخرجهم من المدينة.



قُرَيظة بعد ذلك، فقتَل[1] رجالهم، وقسَّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فآمنَهم وأسلَموا، وأجلى رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهود المدينة كُلَّهم: بني قَينُقاع وهم قوم عبد الله بن سَلَام، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة[2].



غزوةُ السَّويق[3] أو قَرْقَرة الكُدْرِ[4]

وقعت غزوةُ السَّويق في شهر ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة.



(١) قال الإمام السندي في شرحه للمسند (٤/ ٢٧٣): أي: حين نقضوا العهد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٢٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٦).

(٣) السَّويق: طعام يُتَّخَذ من مدقوق الحنطة والشعير، سُمي بذلك لانسياقه في الحلق. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٦٥).
قال ابن هشام في السيرة (٣/ ٥١): وإنما سُمِّيت غزوة السَّويق، فيما حدثني أبو عبيدة: أن أكثر ما طرح القومُ من أزوادهم السَّويق، فهجم المسلمون على سَويقٍ كثير، فسُمِّيَت غزوةَ السَّويق.

(٤) القَرْقَر: الأرض المستوية، والكُدْر: ماء لبني سُليم. انظر: النهاية (٤/ ٤٣).



سبب الغزوة

لما رجع فَلُّ[1] المشركين من بدر موتورين، نَذَر أبو سفيان أن لا يُمِسَ رأسَه ماءً من جنابة حتى يغزوَ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج في مئتي راكب من قريش حتى أتى بني النضير تحت الليل، وبات ليلةً واحدة عند سلام بن مِشكَم اليهودي، فسقاه الخمر، وبَطَنَ له[2] من خبر الناس، ثم خرج في عَقِبِ ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالًا من قريش، فأتوا ناحية من المدينة، يُقال لها: العُرَيض[3]، فحرقوا في أصوار[4] من نخل بها، ووجدوا بها رجلًا من الأنصار وحليفًا له، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين.



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلبه

فبلغ ذلك رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فندب أصحابه، وخرج في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار في أثرهم يطلبهم، وجعل أبو سفيان

---

(١) الفَل: القوم المنهزمون. انظر: النهاية (٣/ ٤٢٥).

(٢) بَطَن له: أي: أعلَمَه. انظر: لسان العرب (١/ ٤٣٥).

(٣) العُرَيض -بضم العين مُصَغَّرًا-: واد بالمدينة به أموال لأهلها. انظر: النهاية (٣/ ١٩٣).

(٤) الأصوار: جمع صَور، وهي الجماعة من النخل. انظر: النهاية (٣/ ٥٥).



وأصحابه يتخفَّفون، فيُلْقُون جُرُب[1] السَّويق، وهي عامة أزوادهم، فجعل المسلمون يأخذونها، فسُمِّيَت غزوة السَّويق، وبلغ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرقرةَ الكُدْر، ولم يُدرك أبا سفيان، ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، وكان غاب خمسة أيام[2].



(١) الجُرُب: جمع جِراب، وهو وعاء من جِلد. انظر: لسان العرب (٢/ ٢٢٨).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٠-٥١) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٦٤).



السنة الثالثة للهجرة

غزوة ذي أَمْر(١) أو غطَفان(٢)

لما رجع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة السَّويق، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبًا منها، ثم غزا نجدًا يُريد غَطَفان، وسبب ذلك ما بلغ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ جمعًا من بني ثعلبة ومحارب بذي أمر قد تجمَّعوا يريدون أن يُصيبوا من أطراف المدينة.

خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أربعمائة وخمسون رجلًا، وفي أثناء الطريق أصابوا رجلًا منهم، يُقال له: جَبَّار، من بني ثعلبة، فأُدخل على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره مِن خَبَرِهم، وقال: لن يلاقوك، لو سمعوا بمسيرك لهَرَبوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام، فأسلم.

سار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ ماءً يُقال له: ذو أمر، فعسكر به، وتفرَّقت غَطَفان في رؤوس الجبال، ثم رجع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، ولم يَلْقَ كيدًا، وكانت غَيبته إحدى عشرة ليلة(٣).

---

(١) سماها بذلك ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٥٢).

(٢) سماها بذلك ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٦٦).
وسماها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٣٧٥) غزوة نجد.

(٣) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٦٧) - وذكر ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٥٢) أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بنجدٍ شهر صَفَر كُلَّه، أو قريبًا من ذلك. =



غزوة أُحد [1]

وقعت غزوة أُحد يوم السبت للنصف[2] من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة.

قال الحافظ في الفتح: وكانت عنده[3] الوقعةُ المشهورة في شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور[4].

ونزل في هذه الغزوة العظيمة آيات كثيرة من سورة آل عمران، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[5].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات: المراد بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسُّدي، وغير

= وانظر: تفاصيل هذه الغزوة في: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٢) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧)،

(١) قال ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١١٧): كان يوم أُحُد يومَ بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومَحَن به المنافقين، ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه، وهو مُستَخْفٍ بالكفر في قلبه، ويومًا أكرم الله فيه مَن أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته.

(٢) هذا ما ذهب إليه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١١٢) - وذهب ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٦٧) إلى أنها وقعت لسبع ليال خلون من شوال.

(٣) يعني: عند جبل أُحُد.

(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٨٨).

(٥) سورة آل عمران - الآيات (١٢١ - ١٢٣).



واحد، وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب، رواه ابن جرير، وهو غريب لا يُعوَّل عليه [(١)].

***



سبب الغزوة

قال ابن إسحاق: لما أُصيب يومَ بدر من كفَّار قريش أصحاب القليب، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بِعِيرِه؛ مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُمَيَّة، في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلَّموا أبا سفيان بن حرب، ومَن كانت له في تلك العِير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وَتَرَكم [(٢)]، وقَتَل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلَّنا نُدرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا، ففيهم -كما ذكر لي بعض أهل العلم- أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [(٣)].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: كذا رُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبير، والحكم بن عتيبة، وقتادة، والسُّدِّي، وابن أبزى: أنها

---

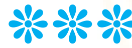
(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٩).

(٢) الموتور: الذي قُتِلَ له قتيلٌ، فلم يُدرِكْ بدَمِه. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٠٥).

(٣) سورة الأنفال - آية (٣٦) - والخبر في سيرة ابن هشام (٣/ ٦٨).



نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحُد لقتال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقـال الضَّحَّـاك: نزلت في أهل بدر، وعلى محل تقديـر، فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصًّا [(١)].



تحريض القبائل وعدد جيش الكفار

تجهَّزت قريش لحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعثت نفرًا يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرتهم، ويُؤلِّبون على رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلـى المسـلمين، فاجتمـع إليهـم ثلاثـة آلاف مـن قريـش وحلفائها والأحابيش، وجاؤوا بنسائهم؛ لئلا يفرُّوا، وانضم إليهم أبو عامر الفاسق، وهو والِدُ حنظلةَ غسـيلِ الملائكةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، في خمسـين رجلًا من قومه، وكان دوره حَفْر الحُفَر في أرض المعركة؛ ليسـقط بها المسلمون، فخرج أبو سـفيان بـن حرب، وهو قائد النـاس، وأقبل بهم نحـو المدينة، فنزل قريبًا من جبل أُحُد بمكان يُقال له: عينين [(٢)].

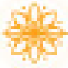
---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣).

(٢) جبـل عينيـن: هو جبل بأُحُد، وهـو الجبل الذي أقـام عليه الرماة يومئـذ. انظر: النهاية (٣/ ٣٠١).

وفي صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٠٧٢)، قال وَحشِـيٌّ: فلما أن خرج الناس عامَ عينين، وعينين: جبل بحيال أُحُد بينه وبينه واد.

وفي رواية الإمام أحمد - رقم الحديث (١٦٠٧٧) قال: وعينين: جُبيل تحت أُحُد. =



قال ابن إسحاق: فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب، وأصحاب العِير بأحابيشها، ومن أطاعها من قبائل كِنانة وأهل تِهامة، وخرجوا معهم بالظُّعُن[1] التماسَ الحفيظة[2]، وألا يفروا، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين، بجبل ببطن السبخة، من قناة[3] على شفير الوادي، مقابل المدينة[4].



جُبَير بن مُطعِم وقَتْل حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

ودعا جُبَيرُ بن مُطعِم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وكان مشركًا- غلامًا له حبشيًّا، يُقال له وَحْشي، يقذف بحربة له قَذْفَ الحبشة، قَلَّما يُخطئُ بها، فقال له: اخرج من الناس، فإن أنت قتلْتَ حمزة عمَّ محمد بعمِّي طُعيمة بن عَدي، فأنت عَتيق[5].

= قال الحافظ في الفتح (٨/ ١١٧): قوله: عينين جبل بحيال أُحُد: أي: من ناحية أُحُد، يُقال: فلان حيالَ كذا، أي: مُقابِلَه، وهو تفسير من بعض رواته، والسبب في نسبة وحشي العام إليه دون أُحُد: أن قريشًا كانوا نزلوا عنده.

(١) الظُّعُنُ: النساء، واحدتها: ظعينة. انظر: النهاية (٣/ ١٤٣).

(٢) الحفيظة: يعني: الغضب. انظر: النهاية (١/ ٣٩٢).

(٣) قناة: وادي من أودية المدينة عليه حرث ومال وزرع. انظر: النهاية (٤/ ١٠٣).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٦٨ - ٧٠).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٦٩).



وروى الإمام البخاري في صحيحه عن جعفر بن عمرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْريِّ، قال: قال وحشيٌّ: إن حمزة قَتَل طُعَيمة بن عَدِي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جُبَير بن مُطعِم: إن قتَلْتَ حمزة بعمِّي، فأنت حرٌّ[(١)].

قال وحشيٌّ: ولم تكن لي بشيءٍ حاجةٌ غيره[(٢)].



رسالة العباس[(٣)] بن عبد المُطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكان العباس بن عبد المُطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرقُبُ حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسالة مُستعجَلة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضَمَّنها جميع تفاصيل الجيش[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٧٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٧٨).

(٣) قال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٣٥٩): كان العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان المسلمون يتقوَّون به بمكة.
وقال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٩٦): لم يزل العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشفقًا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، محبًّا له، صابرًا على الأذى، ولمَّا يُسلِمْ بَعْدُ، بحيث إنه ليلة العَقَبة عرف وقام مع ابن أخيه في الليل، وتوثق له من السبعين، ثم خرج إلى بدر مع قومه مُكرَهًا، فأُسِرَ، فأبدى لهم أنه كان أسلم، ثم رجع إلى مكة، فما أدري لماذا أقام بها، ثم لا ذِكْرَ له يوم أُحُد، ولا يوم الخندق، ولا خرج مع أبي سفيان، ولا قالت له قريش في ذلك شيئًا -فيما علمت-، ثم جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهاجِرًا قُبيلَ فتح مكة، فلم يتحرَّرْ لنا قدومُه.

(٤) انظر: الرحيق المختوم، ص (٢٥٠).



استشارة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه

وبعدما تأكَّد رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـن خبر قريش، جمع أصحابه واستشـارهم: أيخـرج إليهم أم يمكث في المدينة؟ وكان رأي رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يخرجـوا من المدينـة، وأن يتحصَّنوا بهـا، فإن دخلها المشركون قاتلهم المسلمون على أفواه الأزِقَّة، والنساء من فوق البيوت، ثم أخبرهم رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برؤيا رآهـا في منامه؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: تَنفَّل رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـيفَه ذا الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحُدٍ، فقال: «رأيتُ في سيفي ذي الفَقَار فلا[1]، فأوَّلْتُه: فَلًّا يكون فيكم! ورأيتُ أني مُرِدفٌ كبشًا، فأوَّلْتُه: كَبْشَ الكتيبة[2]، ورأيتُ أني في دِرعٍ حصينة، فأوَّلْتُها: المدينة، ورأيتُ بَقرًا تُذبَحُ، فبَقَرٌ[3]، واللهُ خَيرٌ[4]، فبَقَرٌ، واللهُ خَيرٌ»[5].

---

(١) الفَلُّ: الثَّلْم في السيف، والفَلُّ: الكسر. انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٢٤).

(٢) كبش القوم: رئيسُهم وسَيِّدهم، وقيل: كبش القوم: حاميتُهم والمنظور إليه فيهم. انظر: لسان العرب (١٢/ ١٨).
والكتيبة: القطعة العظيمة من الجيش. انظر: النهاية (٤/ ١٢٩).

(٣) قال السـندي في شرحه للمسـند (٢/ ٤٩٠): قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فبَقَر": أي: فيُذبَح بَقرٌ بعد ذلك، كأن المراد: بيان كثرة البقر المذبوحة، وأنه يُذبَح بعضُها بعد بعض.

(٤) قـال الحافظ في الفتح (٨/ ١٢٨): قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والله خير"، هذا من جملة الرؤيا كمـا جزم به عياض وغيره، كذا بالرفع فيهمـا على أنه مبتدأ وخبر، وفيه حذف تقديره: وصُنعُ اللهِ خيرٌ.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٤٤٥).



وروى الإمام النَّسائي في السنن الكبرى بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: استشار رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس يوم أُحُد، فقال: «إني رأيتُ فيما يرى النائم كأني لَفِي دِرع حصينة، وكأنَّ بَقَرًا تُنحَر وتُباع، ففسَّرتُ الدِّرعَ: المدينة، والبَقَرَ: نَفرًا، والله خيرٌ، فلو قاتلتُموهم في السِّكَك[1]، فرماهم النِّساءُ من فوق الحيطانِ!»[2].

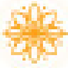
وفي رواية الإمام أحمد بسند صحيح عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أنَّا أقَمْنا بالمدينة، فإن دخلوا علينا فيها قاتَلْناهم»[3].



رأي مَن لم يشهد بدرًا

فبادر جماعة من فضلاء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ممن فاته الخروجُ يوم بدر إلى الإشارة بالخروج إليهم، وألحُّوا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، فقالوا: يا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللهِ ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهليَّة، فكيف يُدخَل علينا فيها في الإسلام؟! فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شأنكم إذًا»[4].

(١) السِّكَّة: الطريق. انظر: النهاية (٢/ ٣٤٥).
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (٧٦٠٠).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٨٧).
(٤) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٨٧) وإسناده صحيح.



وفي رواية النَّسائي في السنن الكبرى بسند صحيح، قالوا: فيدخلون علينا المدينة؟ ما دُخِلَت علينا قطُّ، ولكِنَّا نخرج إليهم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فشأنكم إذًا»[1].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: تنفَّل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفَه ذا الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحُد، وذلك أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءه المشركون يوم أُحُد كان رأيُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقيم بالمدينة يُقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرًا: يَخرُجُ بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم نقاتلهم بأُحُد، وتَرجَّوا أن يُصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهلُ بدر[2].

قال الحافظ ابن كثير: وأبى كثير من الناس إلا الخروجَ إلى العدو، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأيه، ولو رَضُوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غَلَبَ القضاءُ والقَدَر، وعامَّةُ من أشار إليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة[3].



(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (٧٦٠٠).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٦٢٠).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٨٧).



تهيُّؤ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخروج إلى أُحُد

فنهض رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخـل بيته ولَبِسَ لَأْمَتَـه[1]، وظاهَرَ بين دِرعَين[2]؛ فقد روى الإمام الترمذي في جامعه بسـند حسن عن الزُّبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درعانِ يومَ أُحُد[3].

وفي رواية الإمام أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهر بين دِرعَين يوم أُحُد[4].

وقد انثنى عزمُ أولئك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا: ردَدْنا على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيه، فلما خرج عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: يا رسـول الله، أقِمْ، فالرأيُ رأيُك، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ينبغي لنبيٍّ أن يضَعَ أداتَه[5] بعد أن لَبِسَها، حتى يحكُمَ الله بينه وبين عدوِّه»[6].

---

(١) اللأْمة: الدِّرْعُ. انظر: النهاية (٤/ ١٩١).

(٢) يعني: لَبِس درعًا فوق دِرع. انظر: النهاية (٣/ ١٥٢).
قال السـندي في تعليقه علَى سـنن ابن ماجه (٣/ ٣٦٥): ومنه يُعلَمُ أن مباشرة الأسباب لا تُنافي التوكل.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٧٨٧).

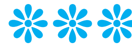
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (١٥٧٢٢) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٨٠٦).

(٥) يعني: سلاحه. انظر: لسان العرب (١/ ١٠٠).

(٦) أخـرج ذلك الحاكم في المسـتدرك - رقم الحديـث (٢٦٢٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وإسـناده حسن - وأخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٨٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده صحيح.



وقال الإمام البخاري في صحيحه: فإذا عزم الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن لبشَرٍ التقدُّمُ على الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشاور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه يوم أُحُد في المُقام والخروج، فرأوا له الخروجَ، فلما لَبِسَ لأْمَتَه وعزم، قالوا: أقِمْ، فلم يَمِلْ إليهم بعد العزمِ، وقال: «لا ينبغي لنبيٍّ يلبَسُ لأْمَتَه فيضَعُها، حتى يحكُمَ اللهُ»[(١)].



خروج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أُحُد

ثم أذَّن رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس بالخروج إلى العدُوِّ، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ألف مقاتل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفيهم المنافقون، على رأسهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ.



ردُّ مَن استُصغِرَ من الصحابة

فلما وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكان يُقال له: الشيخين، عسكر فيه، ثم أخذ يستعرض جيشه، فردَّ مَن استصغره ولم يَرَه مطيقًا للقتال، وكان منهم: عبد الله بن عمر بن الخَطَّاب، وزيد بن ثابت، وأسامة

(١) انظر: صحيح البخاري (١٥/ ٢٨٣).



بـن زيد، والبراء بن عازب [1]، وأبو سـعيد الخُـدْري، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وكانوا في سنٍّ دون البلوغ[2].

روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضه يوم أُحُد، وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجِزْني[3]، ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني[4].

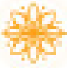
---

(١) اختُلف في شهود البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غزوةَ أُحُد، والذي يظهر أنه حضرها لكنه لم يُباشر القتال؛ لصِغَرِ سِنِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح - رقم الحديث (١٨٥٨٦) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أنا وعبد الله بن عمر لِدَة.
اللِّدَةُ -بكسر اللام-: هو الذي وُلِدَ يوم ولادِك. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ١٠٥٦).
وروى الإمـام البخـاري في صحيحـه - رقم الحديـث (٣٠٣٩) عن البـراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال:... فهزموهم، فأنا -والله- رأيت النسـاء يَشـددْنَ، قـد بدت خلاخِلُهن وأسواقُهن، رافعاتٍ ثيابَهن.
* قلت: وذلك بعد هزيمة الكفَّار أول المعركة يوم أُحُد.
وروى الحاكـم في المسـتدرك - رقم الحديث (٦٥٠١) - وابن أبي شـيبة في مصنفه - رقم الحديث (٣٤٣٨٨) بسـند صحيح عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عُرِضتُ أنا وابن عمر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر فاستصغرَنا، وشَهِدْنا أُحُدًا.
وأخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٥٦) دون قوله: وشَهِدْنا أُحُدًا.
قـال الحافظ في الفتح (٨/ ١٨): فهذه الزيادة إن حُمِلَت على أن المراد بقوله: وشـهدنا أُحُدًا، نفْسُه وحده دون ابن عمر، وإلا فما في الصحيح أصحُّ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٧٤).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٥٠): المراد بالإجازة: الإمضاء للقتال.

(٤) أخرجـه الإمام البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦٦٤) (٤٠٩٧) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٦٨).



تمرُّد عبد الله بن أُبَيٍّ [1] وأصحابه

وقبل طلوع فجر يوم السبت أدلج [2] رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر، وكان بمقربة جدًّا من العدو، وهناك انسحب عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول بنحو ثلُث الجيش؛ ثلاثمائة رجل، وهو يقول: ما ندري علامَ نقتُل أنفُسنا هاهنا أيُّها الناس؟! فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيب، ولَحِقَهم عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال لهم: يا قومِ، أُذَكِّرُكم اللهَ ألّا تخذُلوا قومَكم ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تُقاتِلون لَمَا أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتالٌ، فلما استعصَوا عليه وأبَوا إلا الانصراف عنهم، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أبعدكم اللهُ أعداءَ الله، فسيُغني اللهُ عنكم نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3].

وأنزل الله في هؤلاء المنافقين قولَه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [4].

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٦٠٣): عبد الله بن أُبَي رأس المنافقين، نزل في ذمِّه آيات كثيرة مشهورة، تُوفي في زمن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) الدُّلجة: هو سير الليل. انظر: النهاية (٢/ ١٢٠).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٧٢).

(٤) سورة آل عمران - الآيات (١٦٦ - ١٦٧).



ونزل فيهم قولُه تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ[1] فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم[2] بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾[3].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لما خرج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غزوة أُحُد، رجع ناس ممن خرج معه[4]، وكان أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم فرقتين؛ فرقة تقول: نُقاتلهم، وفرقة تقول: لا نُقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾[5].

قال الحافظ في الفتح: هذا هو الصحيح في سبب نزولها[6].



---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٦/ ٥٠٣): المعنيُّ بالمنافقين هنا: عبد الله بن أُبي وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُد، ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا.

(٢) قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أركَسَهم: أوقعهم. انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٧١): أي: بسبب عصيانِهم ومخالفتِهم الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتباعِهم الباطِلَ.
والآية من سورة النساء - رقم (٨٨).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٥٨٥): هم عبد الله بن أُبي ومَن تبعه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٥٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٧٦).

(٦) انظر: فتح الباري (٨/ ١٠١).



تأثُّر بني سَلِمةَ[1] وبني حارثة بالمنافقين

تأثَّر بنو سَلِمَة وبنو حارثة بكلام ابن سَلُول، فهَمَّتا بالرجوع، لكِنَّ الله عصمهما من ذلك وثبَّتهما؛ قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا[2] وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[3].

قال الإمام القرطبي: الطائفتان: بنو سَلِمَة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحَي العسكر يوم أُحُد[4].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سَلِمَة، وما نُحِبُّ -وقال سفيان مرة: وما يَسُرُّني- أنَّها لم تنزِلْ؛ لقول اللهِ: واللهُ وليُّهما[5].



(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ٥٥): بنو سَلِمَةَ، هو بكسر اللام.

(٢) الفشل: الجُبن والضعف. انظر: النهاية (٣/ ٤٠٢).

(٣) سورة آل عمران - الآية (١٢٢).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٨٥).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٥١) (٤٥٥٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٠٥).



متابعةُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسيرَه إلى أُحُد

قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد رجوع المنافقين ببقية الجيش، وكانوا سبعَمائة مقاتل[1]، واختُلِفَ هل كان معهم شيء من الخيل أم لا[2]؟ ومضى حتى نزل الشِّعْبَ من أُحُد، في عُدوة الوادي إلى الجبل، فعسكر بجيشه مستقبِلًا المدينة، وجاعلًا ظَهْرَه إلى جبل أُحُد، وجعل جَبَل عينين عن يسارِه، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلًا بين المسلمين وبين المدينة[3].



تعبئةُ[4] الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشَه ووصيَّتُه للرُّماة

وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر من شوال عبَّأ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه للقتال، واختار منهم أمهر الرماة، وعددهم

---

(١) قال البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٢٠): هذا هو المشهور عند أهل المغازي؛ أنهم بَقُوا في سبعمائة مقاتل.

(٢) قلت: وَهِمَ الحافظ ابن كثير في الفصول - ص (١١٦) - والإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٢٧) فقالا: وكان فيهم خمسون فارسًا.

* قال الحافظ في الفتح (٨/ ٩٣): وهو غلط بيِّن، وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أُحُدٍ شيء من الخيل، ووقع عند الواقدي، ونقله عنه ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٦٩): كان معهم فرس لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفرس لأبي بُردة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٧٣).

(٤) عبَّأهم: أي: رَتَّبهم في مواضعهم وهيَّأهم للحرب. انظر: لسان العرب (٩/ ٦).



خمسون[١] راميًا، وأَمَّر عليهم عبدَ اللهِ بن جُبَير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمرهم بالتمركز على جبل صغير عُرِف بعد ذلك بجَبَل الرماة، وأمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأوامر واضحة لا لبس فيها، فقال: احموا ظُهورنا، فإن رأيتُمونا نُقتَل فلا تنصُرونا، وإن رأيتُمونا قد غَنِمْنا فلا تَشْرَكُونا[٢].

وروى الإمام البخاري وأبو داود عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرماة يوم أُحُد -وكانوا خمسين رجلًا- عبدَ الله بنَ جُبير، وقال: إن رأيتمونا تخَطَّفُنا الطَّيرُ[٣] فلا تبرحوا مكانكم[٤] هذا، حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتُمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أُرسِلَ إليكم[٥].

وفي لفظ آخر في صحيح البخاري عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تبرحوا، إن رأيتُمونا ظهَرْنا عليهم

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٩٣): هذا هو المعتمد.

(٢) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٢٠١) وإسناده حسن.

(٣) الخَطْف: استلابُ الشيء وأخْذُه بسرعة، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تخطَّفُنا الطير": أي: تستلِبُنا وتطير بنا، وهو مبالغة في الهلاك. انظر: النهاية (٢/ ٤٧).

(٤) برح مكانه: أي زال عنه. انظر: لسان العرب (١/ ٣٦٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٩) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٦٦٢).



فلا تبرَحوا، وإن رأيتُموهم ظَهَروا علينا فلا تُعِينونا»[1].

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سَدَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثُّلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق[2].



تشجيع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه على القتال

دفع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللواء إلى مُصعَب بن عُمَير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثم أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفًا قاطعًا، وعرضه على أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ سيفًا يوم أُحُد، فقال: «مَن يأخُذُ مني هذا؟»[3]، فبَسَطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: «من يأخذه بحقِّه؟»

قال: فأحجم القومُ[4]، فقال سِماكُ بنُ خَرَشَة[5] أبو دُجانة: أنا آخُذُه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٤٣).
(٢) انظر: الرحيق المختوم - ص (٣٥٥).
(٣) زاد الإمام أحمد: السيف.
(٤) أحجم القوم: تأخَّروا وتهيَّبوا أخْذَه. انظر: النهاية (١/ ٣٣٤).
(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٤٤٩) - قسم التراجم -: سِماك: بكسر السين، وتخفيف الميم، والكاف، وخَرَشة: بفتح الخاء المعجمة والراء، والشين المعجمة.



بحقِّه، فأخذه ففَلَق به هامَ المُشرِكين[١].

وفي رواية الحاكم في مُستدرَكِه بسند حسن عن الزُّبَير بن العَوَّام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: عرض رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سيفًا يوم أُحُد، فقال: «مَن يأخذ هذا السيف بحقِّه؟» فقمت، فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عني، ثم قال: «مَن يأخذ هذا السيف بحقِّه؟»، فقمتُ فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عني، ثم قال: «مَن يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقام أبو دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فما حقُّه؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أن لا تقتُلَ به مسلِمًا، ولا تفِرَّ به عن كافر»، قال: فدفعه إليه، وكان إذا أراد القتال أَعْلَمَ بعصابة[٢]، قال: قلتُ: لأنظُرَنَّ اليوم كيف يصنع، فجعل لا يرتفع له شيءٌ إلا هتكه وأفراه![٣].



(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٧٠) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٣٥).

(٢) العِصابة: هي كل ما عصَبْتَ به رأسك؛ من عمامة، أو منديل، أو خِرقة. انظر: النهاية (٣/ ٢٢٠).

(٣) أصل الفَرْي: القطع. انظر: النهاية (٣/ ٣٩٦).
والخبر أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٠٨٩).





تعبئة جيش المشركين

وعبَّأَت قريش جيشها حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان، وعلى مَيسَرتها عِكْرِمة بن أبي جهل، واستعملوا على ميمنة خيلِهم خالد بن الوليد، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، وقبل بدء القتال حاول أبو عامر الفاسق[1] -وهو من الأوس- أن يتألَّف قومَه، فذهب إليهم، وأخذ يُناديهم: يا معشر الأوسِ، أنا أبو عامر، فـرَدَّ عليه الصحابةُ من الأوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: لا أنعمَ اللهُ بك عينًا يا فاسِقُ، فقال: لقد أصاب قومي بعدي شَرٌّ، فتركهم ورجع إلى المشركين[2].



بدءُ القِتال وإبادة حَمَلَةِ لواء المُشرِكين

ثم التحم الجيشان، واقتتل الناس يومئذ اقتتالًا شديدًا في كل مكان من ميدان المعركة، واشتد القتال حول لواء المشركين، فقُتِلَ من حَمَلَته سبعة أو تسعة، فما يحمله أحد إلا قُتِلَ؛ فقد روى الإمام أحمد والحاكم بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كان لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٤١٨ - ٤١٩): أبو عامر: يُعرف في الجاهلية بالراهب، وكان هو وعبد الله بن أُبي ابن سلول منافقينِ؛ فعبد الله يُبطِن نفاقه، وأبو عامر يُظهِره.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٧٥).





أوَّلُ النهار، حتى قُتِلَ من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة[1].



شدة أبي دُجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقاتل أبو دُجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتالًا عظيمًا، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله؛ فقد روى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن الزُّبَير بن العَوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لأنظُرَنَّ اليوم كيف يصنعُ، قال: فجعل لا يرتفعُ له شيء إلا هتكه وأفراه حتى انتهى، إلا نسوة في سَفْح الجبل[2] معهن دفوفٌ لهن، فيهن امرأةٌ، وهي تقول:

نحن بناتُ طارِقْ ... نمشي على النَّمارِق[3]
إن تُقبلوا نُعانِقْ ... ونَبسُطِ النَّمارِقْ
أو تُدبِروا نُفارِقْ ... فِراقَ غيرِ وامِق

قال: فأهوى بالسيف إلى المرأة ليضربَها، ثم كفَّ عنها، فلما انكشف القتال، قلتُ له: كلُّ عملك قد رأيتُ ما خلا رفْعَك السيف على المرأة، ثم لم تضرِبْها، قال: إني -واللهِ- أكرمتُ سيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٢٠١).

(٢) سفْح الجبل: أسفَلُه. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٣٢).

(٣) النمارق: أي الوسائد، واحدتها: نُمرُقة -بضم النون والراء وبكسرهما-. انظر: النهاية (٥/ ١٠٤).



أن أقتُلَ به امرأة[1]!



استشهاد عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

استُشهِدَ عبد الله بن عمرو بن حرام والِدُ جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في غزوة أُحُدٍ بعد أن ثبت مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: أُصيب أبي يوم أُحُد، فجعلتُ أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وجعلوا ينهونني، ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا ينهاني، وجعَلَت فاطمة بنت عمرو تبكيه[2]، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تُظِلُّه بأجنِحَتِها، حتى رفعْتُموه!»[3].

قال الحافظ في الفتح: ومُحَصَّلُه أن هذا الجليل القدر الذي تُظِلُّه الملائكة بأجنحتها، لا ينبغي أن يُبكَى عليه، بل يُفرَح له بما صار إليه[4].



---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٠٨٩).

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٢٤٤): فجعلت عمَّتي فاطمة تبكي.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٤) (١٢٩٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٧١) (١٣٠).

(٤) انظر: فتح الباري (٣/ ٥١٢).



انتصار المسلمين الساحق

سَحَق المسلمون عدوَّهم، وانتصروا عليهم، والفضل بعد الله جَلَّجَلَالُهُ يعود لثبات الرُّماة على الجبل الذي أمرهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالثبات عليه، فأنزل الله نصره على المسلمين، وصَدَقَهم وعده، فحَسُّوهم بالسيوف حتى كاشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة التي لا شك فيها.

روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: ما نُصِرَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موطنٍ كما نُصِرَ في[1] أُحُد، قال: فأنكَرْنا عليه، فقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: بيني وبين مَن أنكر ذلك كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول في يوم أُحُد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، يقول ابن عباس: والحسن: القتل[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: لما كان يوم أُحُد هُزِمَ المشركون هزيمةً بَيِّنَة[3].

وروى الحاكم وابن إسحاق في السيرة بسند حسن عن الزُّبَير بن

---

(١) في رواية الإمام أحمد: يوم.

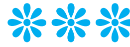
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٢٠١).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٢٤).



العَوَّام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: والله لقد رأيتُني أنظُرُ على خَدَمِ[1] هند بنت عُتبة وصواحِبِها مُشَمِّراتٍ هوارِبَ[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: فهزموهم، فأنا -واللهِ- رأيتُ النساء يَشْدُدْنَ[3]، قد بدت خلاخِلُهن[4] وأسواقُهن[5]، رافعاتٍ ثيابَهن[6].



مخالفة الرماة أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كانت الدولةُ أوَّلَ النهار للمسلمين على الكفار، فانهزموا راجعين، ووَلَّوا مُدْبِرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة هزيمتهم، تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه، وقالوا: يا قومِ، الغنيمةَ الغنيمةَ! فذكَّرَهم أميرُهم عبد الله بن جُبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَهْدَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فلم يلتفتوا إليه، وظنوا أنْ ليس للمشركين رجعةٌ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٦٢) - وابن إسحاق في السيرة (٣/ ٨٦) - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ١٠٦) وحسَّن إسناده.

(٢) خَدَم: جمعُ خَدَمَة، وهو الخَلْخال. انظر: النهاية (٢/ ١٥).

(٣) الشَّدُّ: العَدْو. انظر: النهاية (٢/ ٤٠٥).

(٤) الخَلْخال: نوع من أنواع الحُليِّ تلبسه المرأة في ساقها. انظر: لسان العرب (٤/ ٢٠٥).

(٥) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٩٣): أسواقُهن: جمع ساق، وسبب رفعهن ثيابهن؛ ليُعينَهن ذلك على سُرعة الهَرَب.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٩).

وأنهم لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخْلَوا الثَّغر![1]

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال أصحاب ابن جُبير: الغنيمةَ أيْ قَومِ الغنيمةَ، ظهر[2] أصحابكم فما تنتظرون؟! فقال عبد الله بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟[3] قالوا: واللهِ لنأتينَّ النَّاسَ، فلنُصيبَنَّ من الغنيمةِ[4]!

وروى الإمام أحمد والحاكم بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلما غَنِمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأباحوا[5] عسكر المشركين، انْكَفَتَ[6] الرُّماةُ جميعًا[7]، فدخلوا في العسكر ينتَهِبون[8]!

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٣٠) - الفصول في سيرة الرسول - ص (١٢٠ - ١٢١).

(٢) ظهر: غلب. انظر: النهاية (٣/ ١٥٢).

(٣) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٠٤٣): عَهِدَ إليَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا تَبْرَحوا.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٩).

(٥) أباحوا: استأصلوا. انظر: لسان العرب (١/ ٥٣٤).

(٦) انْكَفَتَ: انضَمَّ. انظر: النهاية (٤/ ١٥٩).
وفي رواية الإمام أحمد: أَكبَّ
أَكبَّ على الشيء: أقبل عليه ولَزِمَه. انظر: لسان العرب (١٢/ ٨).

(٧) قلت: يُفهَم من كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن كل الرماة نزلوا عن الجبل؛ ليُدرِكوا الغنائم، وهو صحيحٌ، إلَّا عددًا قليلًا لا يتجاوز العشرة.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٢٠١).

وترك عامة الرماة الخمسين أماكنهم التي أمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظها، وخَلَّوا ظهور المسلمين للعدو، وثبت أميرهم عبد الله بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نفرٍ يسير دون العشرة مكانَهم[1].

قال تعالى في ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ[2] مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا[3] وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[4].



التفاف خالد بن الوليد واضطراب المسلمين

فلما ترك الرُّماةُ الثَّغرَ الذي أوصاهم به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَرَّ فُرسانُ المشركين بقيادة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوجدوا الثَّغرَ خاليًا، قد خلا مِن الرُّماة، فجازُوا منه وتمكَّنوا حتى أقبل آخِرُهم، فأحاطوا بالمسلمين، فأكرم الله سبحانه عَدَدًا منهم بالشهادة، على رأسِهم عبدُ الله بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم التفَّ من وراء المسلمين، وصاح فرسانهم صيحةً

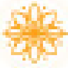
---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٨٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٧٠).

(٢) روى الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٦٠٠) بسند صحيح عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: عصيتُم الرسولَ من بعد ما أراكم الغنائمَ وهزيمةَ العدوِّ.

(٣) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٣): يعني: الغنيمةَ.

(٤) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٣): هم الذين ثَبَتوا في مراكزهم، ولم يُخالفوا أمر نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أميرهم عبد الله بن جُبَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



عرف المشركون المنهزمون بسرعةٍ تبدُّلَ الحال؛ فانقلبوا على المسلمين!

روى الإمام أحمد، والحاكم بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلما غنم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأباحوا عسكر المشركين، أكبَّ الرماة جميعًا، فدخلوا في العسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم هكذا -وشَبَّك بين أصابع يديه- والتبسوا، فلما أَخلَّ الرُّماةَ تلك الخَلَّة[1] التي كانوا فيها، دخل الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضرب بعضُهم بعضًا، والتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناس كثير[2]!

وروى ابن إسحاق في السيرة بسند حسن عن الزُّبَير بن العَوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلّوا ظهورَنا للخيل، فأُتِينا مِن خَلْفِنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قُتِلَ، فانكفَأْنا[3] وانكفأ علينا القومُ[4]!

---

(١) قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ٣٤): الخَلَّة -بفتح فتشديد- أي: تلك الحاجة التي هي دفع العساكر من وراء الظهر، أي: قصَّروا فيها، مِن: أَخَلَّ بالشيء، أو المراد بالخَلَّة: تلك البقعة، سُمِّيَت خَلَّة؛ لأنَّها محل الخَلَّة بمعنى الحاجة؛ لأنها كانت محتاجة إلى وجود العسكر فيها، أي: تركوا تلك البقعة، مِن: أَخَلَّ الرجلُ بمركزِهِ، أي: تركَه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٢٠١).

(٣) انكفأ: مال. انظر: لسان العرب (١٢/ ١١٣).

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٨٦) - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ١٠٦) وحسَّن إسناده.



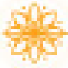
وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن الزُّبَير بن العَوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: والله لقد رأيتُني أنظر إلى خَدَمِ هند بنت عُتبة وصواحباتِها مُشَمِّراتٍ هوارِبَ، ما دونَ أخْذِهن قليلٌ ولا كثير؛ إذ مالت الرماةُ إلى العسكر حين كشَفْنا القومَ عنه، يُريدون النَّهْب، وخَلَّوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قُتِلَ، فانكفَأْنا وانكفأ القوم بعد أن أصبنا اللواءَ[1] حتى ما يدنو منه أحدٌ من القومِ[2].



مقتل اليمانِ والد حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خطأً

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما كان يوم أُحُد هُزِم المشركون، فصاح إبليس: أيْ عِبادَ اللهِ، أُخراكم[3]، فرجَعَت أُولاهم فاجتلَدَتْ[4] هي وأُخراهم، فنظر حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أيْ عبادَ اللهِ، أبي أبي! فوالله ما احتجزوا[5] حتى

(١) يعني: لواء المشركين.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٦٢).
(٣) قال القسطلاني في إرشاد الساري (٩/ ١٠٦): أي: احترِزوا من الذين وراءَكم متأخِّرين عنكم، وهي كلمةٌ تُقال لمن يُخشى أن يُوتى عند القتال من ورائه، وغَرَضُ إبليس اللعين أن يُغلِطَهم ليقتل المسلمون بعضُهم بعضًا.
(٤) جالدناهم بالسيوف: ضاربناهم. انظر: لسان العرب (٢/ ٣٢٣).
(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٢٣): احتجَزوا: أي انفصلوا من القتال، وامتنع بعضُهم من بعض.



قتلوه، فقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: غفر الله لكم[١].

وروى الإمام أحمد والحاكم بسند حسن عن محمود بن لَبِيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اختلَفَت سيوف المسلمين على اليمانِ أبي حُذيفة يوم أُحُد ولا يعرفونه، فقتلوه، فأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَدِيَهُ[٢]، فتصَدَّق حذيفة بدِيَتِه على المسلمين[٣].



استشهاد حمزة بن عبد المُطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

استغَلَّ وَحْشيٌّ بن حرب هذه الفوضى التي وقع فيها المسلمون، وقتل حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن وَحْشيٍّ، قال: كَمَنْتُ[٤] لحمزة تحت صخرة[٥]، فلما دنا مني رميتُه بحربتي فأضعُها في ثُنَّتِهِ[٦] حتى خرَجَتْ من بين وَرِكَيه، فكان ذاك العهدَ به[٧]!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٢٩٠).

(٢) يعني: يجمَعُ دِيَتَه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٦٣٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٩٧٠).

(٤) كَمَنَ: استتر واختفى. انظر: النهاية (٤/ ١٧٤).

(٥) زاد الإمام أحمد: حتى إذا مَرَّ عليَّ.

(٦) الثُّنَّة: ما بين السُّرة والعانة من أسفل البطن. انظر: النهاية (١/ ٢١٨).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٧٢) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٠٧٧).



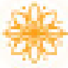
وفي رواية ابن إسحاق، قال وحشي: هززتُ حربتي، حتى إذا رضيتُ منهـا، دفعتُها عليه، فوقعت في ثُنَّتِهِ حتـى خرجت من بين رِجْليه، وذهب لينـوءَ[1]، نحـوي، فغُلِـبَ، وتَرَكْتُه وإيَّاهـا حتى مات، ثـم أتيتُه فأخذتُ حربتي، ثم رجعتُ إلى العسـكر، فقعدتُ فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلتُه لأُعْتَق[2]!



استشهادُ حنظلةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ غَسيلِ الملائكة

استُشـهِدَ حنظلةُ بن أبي عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذه الغزوة، فقتله شَدَّاد بن الأسـود؛ فقد روى ابن حِبَّان في صحيحه والحاكم في المسـتدرك بسـند حسـن عن الزُّبَير بن العَوَّام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كان الناس انهزموا عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى انتهى بعضُهم إلى دون الأعراض[3] إلى جبل بناحية المدينة، ثم رجعوا إلى رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد كان حنظلةُ بن أبي عامر التقى هو وأبو سفيان بن حرب[4]، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسـود، فعلاه شـدَّاد بالسـيف حتى قتله، وقد كاد يَقتُل أبا سفيان، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنَّ صاحِبَكم حنظلة تُغسِّـله الملائكة، فسَـلُوا

(١) ينوء: ينهض. انظر: النهاية (٥/ ١٠٧).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٨٠).
(٣) الأعراض: هي قرى المدينة التي في أوديتها. انظر: معجم البلدان (١/ ١٧٨).
(٤) في رواية الحاكم: أبو سفيان بن الحارث.



صاحبتَه![1]، فقالت: خرج وهو جُنُبٌ لما سَـمِعَ الهائعةَ[2]! فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «فذاك قد غسَّلَتْه الملائكة!»[3].



ثبات الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ

كان رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مجموعة من أصحابه يُراقب الوضع بعدما تغيرت الأحوال؛ فقد روى النسـائي في السنن الكبرى والبيهقي في دلائل النبوة بسـند جيد عن جابر بن عبـد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: لما كان يوم أُحُـد، وولَّى الناس، كان رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في ناحية في اثني عشـر رجلًا من الأنصار، وفيهم طلحة بن عبيد الله، فأدركه المشركون، فالتفت رسـولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقـال: «مَن للقوم؟» فقـال طلحةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أنا، فقـال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «كما أنت»، فقال رجـل من الأنصار: أنا يـا رسـول الله، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أنـت» فقاتل حتـى قُتِلَ، ثـم التفت، فإذا بالمشـركين، فقال: «مَن للقـوم؟» فقال طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أنـا، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «كما أنت» فقـال رجل من الأنصار:

---

(١) قال الحافـظ في التلخيص الحبير (٣/ ١١٩٧): صاحبتُه هي زوجتُه جميلة بنت أُبَيٍّ بن سلول.

(٢) الهائعة: صوت الصارخ للفزع. انظر: لسان العرب (١٥/ ١٨٠).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه – رقم الحديث (٧٠٢٥) – والحاكم في المستدرك – رقم الحديث (٤٩٧٩).



أنـا، فقال رسـول الله ﷺ: «أنت»، فقاتل حتى قُتِـلَ، ثم لم يَزَلْ يقـول ذلك، ويخرج إليهم رجلٌ من الأنصـار، فيقاتل قتالَ مَن قبله حتى يُقتَل، حتى بقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله، فقال رسول الله ﷺ: «مَـن للقـوم؟» فقال طلحة رضي الله عنه: أنـا. فقاتل طلحةُ رضي الله عنه قتال الأحَدَ عَشَر حتى ضُرِبَت يده، فقُطِعَت أصابعُه[١].

وروى الإمـام البخـاري في صحيحه عـن قيس بن أبي حـازم، قال: رأيتُ يد طلحة شَلَّاءَ؛ وقى بها النبيَّ ﷺ يوم أُحُد[٢].



دفاع الصحابة عن رسول الله ﷺ

قال ابن سعد في طبقاته: وثبت مع رسول الله ﷺ عصابةٌ من أصحابه؛ أربعةَ عَشَرَ رجلًا، سبعةٌ من المهاجرين، فيهم أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وسبعةٌ من الأنصار[٣].

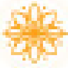
وروى الإمـام مسـلم في صحيحه عن أنس بـن مالك رضي الله عنه، قال:

---

(١) أخرجه النسـائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (٨٣٤٢) - والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٣٦) - وأورده الحافـظ في الفتـح (٨/ ١٠٦) وجوَّد إسـناده، وحَسَّـنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ القسم الأول/ ١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٦٣).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٧٠).



إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُفِرِدَ يوم أُحُد في سبعة من الأنصار، ورجلين من المهاجرين[1]، فلما رَهِقوه[2] قال: «مَن يردُّهم عَنَّا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟»

فتقدَّم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِلَ، ثم رَهِقوه أيضًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَن يردُّهم عنا وله الجنة أو: هو رفيقي في الجنة؟ فتقدَّم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى قُتِلَ السبعة[3].

فلما قُتِلَ هؤلاء الأنصار السبعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يبْقَ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي عثمان النَّهديِّ، قال: لم يَبْقَ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض تلك الأيام[4] التي قاتل فيهنَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرُ طلحةَ وسَعدٍ[5].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٠٦): هما طلحة وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٢٥): رَهِقوه: هو بكسر الهاء، أي: غَشُوه وقَرُبوا منه.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٩).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٨): يُريد يومَ أُحُد.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٢٢) (٣٧٢٣) (٤٠٦٠) (٤٠٦١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤١٤).



وكانت أحرَجَ ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوانَ المشركون في انتهاز تلك الفرصة؛ فقد ركَّزوا حملتهم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطَمِعوا في القضاء عليه، حتى أُصيبت رَبَاعِيَتُه[1] اليُمنى السُّفلى، وشُجَّ في جبهته، وحتى دخلت حلْقتان من حِلَقِ المِغْفَر[2] في وجْنَتِه[3]؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سُئِلَ عن جُرح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُد، فقال: جُرِحَ وجهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكُسِرَت رَباعِيَتُه، وهُشِمَت[4] البيضة[5] على رأسِه[6]!

وروى عبد الرزاق الصنعاني في مصنَّفه بسند مرسَل قوي عن الزُّهري، قال: ضُرِب وجهُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَئذٍ بالسيف سبعين ضربةً[7]

---

(١) الرَّبَاعِيَة -بفتح الراء-: هي إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا والناب. انظر: لسان العرب (٥/ ١١٩).
قال الحافظ في الفتح (٨/ ١١٣): والمراد بكسر الرَّباعِيَة، أنها كُسِرَت فذهبت منها فِلقة، ولم تُقلع من أصلها.

(٢) المِغفَر: ما يلبسه الدارع على رأسه. انظر: النهاية (٣/ ٣٣٦).

(٣) الوَجْنة: أعلى الخَدِّ. انظر: النهاية (٥/ ١٣٨).

(٤) هُشِمَ: كُسِر. انظر: النهاية (٥/ ٢٢٨).

(٥) البَيضة: الخُوذة. انظر: النهاية (١/ ١٦٩).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩١١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٩٠).

(٧) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١١٢): يحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتَها أو المبالغةَ في الكثرة.



وقاه الله شرَّها كُلِّها[١]!



نزول الملائكة

وفي هذه اللحظات الحرجة أنزل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ملائكته لحماية رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال: رأيتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُد ومعه رجلان يُقاتلان عنه، عليهما ثيابٌ بِيض، كأشَدِّ القتال، ما رأيتُهما قبلُ ولا بَعْدُ[٢]!

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم، قال سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: رأيتُ عن يمين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وعن شِماله يوم أُحُد رجلين عليهما ثيابُ بَياضٍ، ما رأيتُهما قَبلُ ولا بعدُ، يعني: جِبريلَ وميكائيلَ عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ[٣].



---

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنَّفِه - رقم الحديث (٩٧٣٦) - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ١٢٢)، وقال: إسناده مُرسَل قوي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٥٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٠٦) (٤٧).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٠٦) (٤٦).



تجمُّع الصحابة حول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وقعت هذه الأحداث كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة، وإلا فقد ثبت أبو بكر الصِّدِّيق، وعمر بن الخَطَّاب، وعلي بن أبي طالب، ومُصعَب بن عُمير، وغيرهم الذين كانوا في الصفوف المتقدمة عند القتال، لم يكادوا يرون تطور الموقف، أو يسمعون صوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أسرعوا إليه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لقي من الجراحات، ودفعوا هؤلاء الكفار عنه[١].

قال الحافظ في الفتح -بعد أن جمع أسماء مَن ثبت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: وإن ثَبَت حُمِلَ على أنهم ثبتوا في الجملة، وما تقدم فيمن حضر عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولًا فأوّلَ، والله أعلم[٢].

وأقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو المسلمين، فكان أول مَن عرفه تحت المِغْفَر كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فصاح بأعلى صوت: يا معشر المسلمين، أبشِروا؛ هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشار إليه أنِ اسكُتْ، واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشِّعْب الذي نزل فيه، ومعه أبو بكر الصِّدِّيق، وعمر بن الخَطَّاب، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزُّبَير بن العَوَّام، والحارث بن الصِّمَّة، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٣].

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، ص (٢٧٠).
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ١٠٦).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٩٣).



الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقتُل أُبَيَّ بن خلف قَبَّحه الله

روى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن سعيد بن المسيب عن أبيه، قال: أقبل أُبَيُّ بن خلف يوم أُحُد إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُريده، فاعترض له رجالٌ من المؤمنين، فأمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخَلَّوا سبيله، فاستقبله مُصعَب بن عُمير أخو بني عبد الدار، ورأى رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْقُوةَ[1] أُبَيٍّ من فُرجة بين سابغة الدِّرع والبيضة، فطعنه بحربته، فسقط أُبَيٌّ عن فرسه ولم يَخرج من طعنته دمٌ، فكَسَر ضِلَعًا من أضلاعه، فأتاه أصحابه وهو يخور خُوارَ الثَّور، فقالوا له: ما أعجزك! إنما هو خَدْشٌ، فذكر لهم قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل أنا أقتُلُ أُبيًّا»، ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المَجاز لماتوا أجمعين، فمات أُبيٌّ إلى النار -فسُحقًا لأصحاب السعير- قبل أن يَقدَمَ مكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين[3] غريبٌ جدًّا، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة،

---

(١) التَّرْقُوة: هي العظم الذي بين ثُغْرة النحر والعاتق، وهما تَرْقُوتان من الجانبين. انظر: النهاية (١/ ١٨٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٣٠٢) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢) وصَحَّح إسناده.

(٣) هما الإمام سعيد بن المسيب والزُّهْري.



وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم. والله أعلم [(١)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشتدَّ غَضَبُ الله على مَن قتله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبيل الله» [(٢)].

قال الإمام النووي: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «في سبيل الله»: احتراز ممن يقتله في حدٍّ أو قِصاص؛ لأن مَن يقتله في سبيل الله كان قاصدًا قَتْلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٣)].



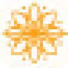
انحياز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه نحو الجبل

كان الشيطان -لعنه الله- قد صاح بمقتل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأثَّر ذلك على معنويات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وما إن رأوه معافًى حتى دَبَّت فيهم الحياة، وانحاز بهم نحو جبل أُحُد؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: صاح الشيطان: قُتِلَ محمد، فلم نشُكَّ فيه أنه حقٌّ، فما زلنا كذلك

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢).

(٢) أخرجه البخاري ي صحيحه - رقم الحديث (٤٠٧٤) - وأخرجه مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٩٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٢٧).



ما نشُكُّ أنه قد قُتِلَ حتى طلع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين السَّعدينِ[١] نعرفه بتكفُّئِه[٢] إذا مشى، ففرِحْنا حتى كأنَّه لم يُصِبْنا ما أصابنا، فرَقِيَ نحونا، وهو يقول: «اشتد غضب الله على قوم دَمَّوا وَجْهَ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!»[٣]، ويقول مرة أخرى: «اللهم إنه ليس لهم أن يَعْلُونا»، حتى انتهى إلينا[٤].



صعود الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصخرة في الجبل

وأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلوا الصخرة التي عرَضَت له من الجبل، فنهض إليها ليعلوها، فلم يستطع؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد بَدَّن[٥]، وظاهَرَ بين درعَينِ، وقد أصابه الضَّعفُ؛ لكثرة ما نزف من جراحه، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فصَعِدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ظهره حتى استوى.

---

(١) السعدان هما: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما في مغازي الواقدي.

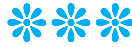
(٢) جاء في صفة مشي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٣٠) (٨٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزهر اللون، كأن عرقة اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ.
قال ابن الاثير في النهاية (٤/ ١٥٨): أي تمايل إلى قُدام.

(٣) أخرج منه هذا اللفظ: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٧٤) (٤٠٧٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٢٠١).

(٥) بَدَّن: أي كَبِر وأسَنَّ، والبادِنُ: الضَّخم. انظر: النهاية (١/ ١٠٧).

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم بسند حسن -واللفظ للترمذي- عن الزُّبَير بن العَوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درعان يوم أُحُد، فنهض إلى الصخرة، فلم يستطع، فأقعد طلحة تحته، فصعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى استوى على الصخرة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أوجبَ طلحةُ»[1].



آخر هجوم للمشركين

فلما استقر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشِّعْب، ومعه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا فيه النَّيل من المسلمين.

قال ابن إسحاق: فبينا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشِّعْبِ معه أولئك النفر من أصحابه، إذ علت عاليةٌ من قريشٍ الجبلَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم إنَّه لا ينبغي لهم أن يعلونا»، فقاتل عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورهطٌ معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل[2].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤١٧) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٧٨٧) (٤٠٧١) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٥٨).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٩٦).



نزول النعاس على المسلمين

ولما انتهت هذه المعركة العظيمة، أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النُّعاس على المؤمنين، بعدما نزل بهم مِن الجراح والقتل؛ لتهدأ نفوسهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[(١)].

قال ابن إسحاق: فأنزل الله النُّعاسَ؛ أَمَنةً منه على أهل اليقين به، فهم نيام لا يخافون[(٢)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنتُ فيمن تغشَّاه النعاس يوم أُحُد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخُذُه، ويسقُطُ وآخُذُه![(٣)].

وروى الإمام الترمذي والحاكم بسند صحيح عن أبي طلحة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: رفعتُ رأسي يوم أُحُد، فجعلت أنظر وما منهم أحد إلا وهو يَميدُ[(٤)] تحت حَجَفَتِه[(٥)]؛ من النُّعاس، فذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[(٦)].

---

(١) سورة آل عمران - الآية (١٥٤).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٢٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٦٨).
(٤) ماد الشيء: تحرَّك ومال. انظر: لسان العرب (١٣/ ٢٣٠).
(٥) الحَجَفَةُ: التُّرْسُ. انظر: النهاية (١/ ٣٣٣).
(٦) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٢٥٢) - والحاكم في المستدرك - =



شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعلُ هُبَلُ[1]، اعْلُ هُبَلُ، يعني: آلهتَه -أين ابن أبي كبشة[2]؟ أين ابن أبي قُحافة؟ أين ابن الخطَّاب[3]؟

فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، ألا أُجيبه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بلى، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللهُ أعلى وأجَلُّ! فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب، إنه يومُ الصَّمتِ، فعاد فقال: أين ابنُ أبي كبشة؟ أين ابن أبي قُحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عُمَرُ! فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والأيام دُوَل[4]، والحرب سِجال[5]، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا سواءً؛

= رقم الحديث (٣٢٠٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

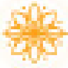
(١) هُبَل -بضم الهاء-: اسم صنم للمشركين معروف، كانوا يعبُدونه. انظر: النهاية (٥/ ٢٠٩).

(٢) قال الإمام البيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٨٢): بلغني أن أبا كبشة أول مَن عبد الشِّعْرى، وخالف دينَ قومه، فلما خالف النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دين قريش، وجاء بالحنيفيَّة، شبَّهوه بأبي كبشة، ونسبوه إليه، فقالوا: ابن أبي كبشة، وبلغني أنه كان سيدًا في قومه خُزاعة.

(٣) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٣٥): ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة؛ لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم.

(٤) دالت الأيام: دارت. انظر: لسان العرب (٤/ ٤٤٤).

(٥) الحرب سِجال: يعني: مَرَّة لنا، ومَرَّة علينا. انظر: النهاية (٢/ ٣١٠).



قَتْلانـا في الجنـة، وقتلاكـم في النـار، فقـال أبو سـفيان: إنكـم لتزعمون ذلك، لقد خِبْنا إذًا وخَسِـرْنا، ثم قال أبو سـفيان: أمَا إنكم سوف تَجِدون في قتلاكـم مُثْلـةً[1]، ولم يكن ذلك عن رأيِ سَـرَاتِنا[2]، ثـم أدركَتْه حَمِيَّةُ الجاهلية، فقال: أمَا إنه إذا كان ذلك لم نكرَهْه[3].



مواعدة المشركين اللقاء في بدر

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومَن معه نادى: إن موعدكم بـدرٌ للعام القابل، فقال رسـول الله ﷺ لرجُلٍ من أصحابه: قُلْ: «نَعَمْ، هو بيننا وبينكم موعِدٌ»[4].



مداواة الرسول ﷺ

ولمـا انتهى أمـر المعركة أخـذ الصحابـة رضي الله عنهم يُعالجون جراح الرسـول ﷺ؛ فقد روى ابـن حبان في صحيحه بسـند قوي عن

(١) مَثْلْتُ بالقتيل: إذا قطعتَ أطرافَه وشَوَّهْتَ به. انظر: النهاية (٤/ ٢٥١).

(٢) سَرَاتنا: أشرافُنا. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٧).

(٣) أخرج ذلك: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقـم الحديث (٣٢٠١) - وأخرجه مختصـرًا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٩) (٤٠٤٣).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٠٥).



الزُّبَيـر بن العَوَّام رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قال: أمر رسـولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فأتى المِهراس(1)، وأتاه بماء في دَرَقتِه(2)، فأراد رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يشـرب منه، فوجد له ريحًا فعافه، فغسـل بـه الدَّمَ الذي في وجهه، وهو يقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «اشـتَدَّ غَضَبُ الله على مَن دَمَّى وجه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ»(3).

وروى الشـيخان في صحيحيهما عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنه سُئِلَ عـن جُرح رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم أُحُد؟ فقـال رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: جُرِحَ وجه رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكُسِرَت رَباعِيَتُه، وهُشِمَت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تغسـل الـدم، وكان علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يسكُب(4) عليها بالمِجَنِّ(5)، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيـد الدمَ إلا كثرةً، أخذت قطعةَ حصير(6)، فأحرقَتْه حتى صار رَمادًا، ثم ألصقته بالجُرح، فاستمسك الدَّمُ(7).

---

(1) المِهراس: هو ماء بجبل أُحُد. انظر: النهاية (5/ 224).
(2) الدَّرَقة: التُّرس من جُلُود. انظر: لسان العرب (4/ 333).
(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (6979).
(4) سكب: صبَّ. انظر: لسان العرب (6/ 302).
(5) المِجَنُّ: التُّرسُ. انظر: لسان العرب (4/ 256).
(6) الحصير: هو البِساط الصغير من النبات، يُبسَط في البيت. انظر: لسان العرب (3/ 203)، النهاية (1/ 380).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (2911) (4075) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (1790) (101).



تفقُّد المسلمين شهداءهم ودفنُهم

ثـم نزل رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابـه يتفقَّـدون قتلاهم، وأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُجمَع شهداء أُحُد، ويُدفَنوا في مصارعِهم، ولا يُحمَلوا إلى المدينة، فيُدفنوا بها؛ فقد روى أبو داود في سننه بسند صحيح عـن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كنـا حمَلْنا القتلى يوم أُحُد لندفِنَهم، فجاء منادي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمركم أن تدفنوا القتلى في مضاجعهم، فرَدَدْناهم[(١)].

وفي رواية الإمام الترمذي في جامعه بسـند صحيح قال جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لما كان يوم أُحُد جاءت عمَّتي بأبي لتدفِنَه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ردُّوا القتلى إلى مضاجعِها[(٢)].

وأمـر رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُجمَـعَ الرجـلان والثلاثـة في القبر الواحد، والسـبب في ذلك: أنهم كانوا عاجزين عن حفر القبور بسـبب ما أصابهم من الجِراح؛ فقد روى أبو داود في سننه، والترمذي في جامعه بسند صحيح -واللفظ لأبي داود- عن هشـام بـن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: جاءت الأنصـارُ إلى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يـوم أُحُـد، فقالوا: أصابنـا قَرْحٌ[(٣)]

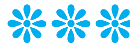
(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣١٦٥).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٨١٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) القَرْح -بفتح القاف، وسكون الراء-: هو الجُرح. انظر: النهاية (٤/ ٣٢).

وجَهْدٌ، فكيف تأمُرُنا؟ فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احفِروا وأوسِعوا، واجعلـوا الرجلين والثلاثـة في القبر»، فقيل: فأيهم يُقدَّم؟ قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكثرهـم قرآنًا»، قال هشـام: أُصيب أبي يومئـذ عامرٌ بين اثنين، أو قال: واحد.

وفي لفـظ الإمـام الترمذي، قال هشـام: فمات أبـي، فَقُدِّم بيـن يَدَيْ رجُلَين[1].

وروى الإمـام البخـاري في صحيحه عن جابر بـن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قـال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجمع بين الرجلين مـن قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟» فإذا أُشير له إلى أحدهم قَدَّمه في اللحد[2].

قال الإمام ابن القيم: السُّـنَّة في الشـهداء أن يُدفَنوا في مصارعهم، ولا يُنقلوا إلى مكان آخر[3].



(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٢١٥) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٨١٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٣٤٣).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).



فضل شهداء أُحُد

روى الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا شهيد على هؤلاء»[(١)].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إذا ذُكر أصحاب أُحُد: «أما والله لوَدِدْتُ أني غُودِرتُ مع أصحابِ نُحْصِ الجبل»، يعني: سَفْح الجبل[(٢)].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لما أُصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في جوف طير خُضر تَردُ أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مُعَلَّقة في ظِلِّ العرش، فلما وجدوا طِيبَ مأكلهم ومشربهم ومَقِيلهم، قالوا: مَن يُبَلِّغُ إخواننا عنا أنَّا أحياءٌ في الجنة نُرزَقُ؛ لئلَّا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنكُلوا[(٣)] عند الحرب؟! فقال الله تعالى: أنا أُبلِّغُهم عنكم، قال: فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٣٤٣).

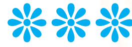
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٢٥).

(٣) نَكَل عن الأمر: إذا امتنع. انظر: النهاية (٥/ ١٠٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٨٨) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٥٢٠) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٤٧٥) (٣٢٠٣).



قال الحافظ ابن كثير: أما أرواح الشهداء فهي في حواصل طير خُضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفُسِها، فنسأل الله الكريمَ المَنَّان أن يُثبِّتَنا على الإيمان[١].



عدد شهداء غزوة أُحُد

بلغ عدد شهداء غزوة أُحُد سبعون شهيدًا، وعامَّتُهم من الأنصار؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن قتادة، قال: حدَّثنا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه قُتِلَ منهم[٢] يوم أُحُد سبعون[٣].

قال الحافظ في الفتح: ظاهر كلام أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الجميع من الأنصار، وهو كذلك إلا القليل[٤].

وروى الإمام الترمذي في جامعه والإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم أُحُد قُتِلَ من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة[٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٤).

(٢) يعني من الأنصار؛ لأن أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأنصار.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٧٨).

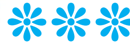
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ١٢٦).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٣٩٥) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢١٢٢٩).



عدد قتلى المشركين

قال ابن إسحاق: فجميع مَن قَتَل الله تبارك وتعالى يوم أُحُد من المشركين: اثنان وعشرون رجلا[1].



ثناء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ربه عَزَّ وَجَلَّ

فلما انتهى أمر هذه الغزوة العظيمة، وقبل رجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة: أمر أصحابه بالاستواء ليُثنِيَ على ربِّه جَلَّ جلاله؛ فقد روى الإمام أحمد والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن رفاعة بن رافع الزُّرَقيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يومُ أُحُد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استووا حتى أُثنيَ على ربي عَزَّ وَجَلَّ»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: «اللهم لك الحمدُ كُلُّه، اللهم لا قابضَ لما بسطْتَ، ولا باسط لما قبَضْتَ، ولا هاديَ لمن أضلَلْتَ، ولا مُضلَّ لمن هَدَيت، ولا معطيَ لما منَعْتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُقرِّبَ لما باعَدْتَ، ولا مباعِدَ لما قرَّبْتَ، اللهم ابسُطْ علينا من بركاتِك ورحمتك وفضلك ورزْقك، اللهم إني أسألُك النعيم المقيم الذي لا يَحول ولا يزول، اللهم إني أسألك الأمن يوم الخوف، اللهمَّ عائِذٌ من شَرِّ ما أعطيتَنا، وشرِّ ما منَعْتَنا، اللهم

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٤).



حَبِّب إلينا الإيمان وزَيِّنه في قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعَلْنا من الراشدين، اللهم توفَّنا مسلمين، وأحْيِنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غيرَ خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين يُكَذِّبون رُسُلَك، ويَصُدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رِجْزَك وعذابك، إلهَ الحَقِّ، آمين»[1].



﴿ عودة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة ﴾

ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعًا إلى المدينة، ودخلها مساء يوم السبت الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة.

وأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيات كثيرة من سورة آل عمران لأحداث هذه الغزوة العظيمة، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[2].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٤٩٢) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٨٨٩) (٤٣٥٤).

(٢) سورة آل عمران - الآية (١٢١).



غزوة حمراء الأسد

قال ابن إسـحاق: فلمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لسِتَّ عشرة ليلة من شـوال، أَذَّن مؤذِّن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس بطلب العدُوِّ، وأن لا يخرُجَنَّ معنا إلا مَن حضر أُحُدًا، فلم يخرج مع رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا مَن شَـهِد أُحُدًا، سـوى جابر[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد خَلَّفه أبوه على أخواتِه، واستُشـهِدَ أبـوه يوم أُحُد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فاسـتأذن رسـولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخروج إلى حمراء الأسد، فأَذِنَ له[2].

وروى الإمام مسـلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: لم أشـهد بـدرًا ولا أُحُدًا، منعني أبـي، فلما قُتِلَ عبـد الله[3] يوم أُحُد، لم أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوةٍ قطُّ[4].



(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسـماء واللغات (١/ ٣٦٣): وحيث أُطلِق جابر في هذه الكتب فهو جابر بن عبد الله، وإذا أراد ابن سَمُرَة، قيَّده.

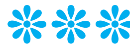
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١١٢).

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨١٣).

سبب هذه الغزوة

بلغ رسولَ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أبا سفيان يريد الرجوع إلى المدينة ليستأصل مَن بقي من المسلمين، فأمر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بملاحقة الكفار؛ فقد روى الإمام النسائي في السنن الكبرى بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما انصرف المشركون عن أُحُدٍ وبلغوا الرَّوْحاءَ[1]، قالوا: لا محمَّدٌ قتلْتُموه، ولا الكواعِبَ[2] أردفتُم، وبئس ما صنعتُم! ارجعوا، فبلغ ذلك رسولَ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراءَ الأسَدِ[3].



---

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٩/ ٣٧٩): الرَّوحاءُ: موضع بينه وبين المدينة ستة وثلاثين ميلًا.

(٢) الكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة إذا نَهَد ثديُها. انظر: النهاية (٤/ ١٥٥).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (١١٠١٧) - وصَحَّح إسناده السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٨) - والشوكاني في فتح القدير (١/ ٦٥١) - وأورده الحافظ في الفتح (٩/ ٩٦) وقال: أخرجه النسائي وابن مردويه، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة، ليس فيه ابن عباس، ومن الطريق المرسَلة أخرجه ابن أبي حاتم وغيره.



وصول الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد

نهض رسـول الله ﷺ وهو مجروح في وجهه، ومشجوج في جبهتـه، ورَباعِيَته، ومعه أصحابه الذين شـهدوا غزوة أُحُد، وهم مُثقَلون بالجراح، حتى بلغ حمراء الأسد.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشـة رضي الله عنها، قالت في قوله تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢﴾[(١)].

قالـت لعُروة: يا ابـن أختي، كان أبـوك منهم الزبير، وأبـو بكر، لما أصاب رسولَ الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُد، وانصرف المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «مَن يذهَبُ في أثرهم؟»، فانتدب منهم سـبعون[(٢)] رجلًا، قال: كان فيهم أبو بكر، والزبير[(٣)].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦٥): هذا كان يوم حمراء الأسد.

(٢) قال الشـامي في سبل الهُدى والرشـاد (٤/ ٣١٤): ولا تخالف بين قول عائشة رضي الله عنها ومـا ذكـر أصحاب المغازي؛ لأنه يمكن أن يكون السـبعون سـبقوا غيرهم، ثم تلاحق الباقون.

(٣) أخرجـه الإمام البخـاري في صحيحه - رقـم الحديث (٤٠٧٧) - وأخرجـه مختصَرًا الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤١٨).



مضى رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، حتى عسكر بها، وأقام فيها ثلاث ليال، فلما علم بذلك المشركون خافوا وانصرفوا إلى مكة، وفي يوم الأربعاء عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد استردَّ المسلمون الكثير من هيبتهم، بعدما كادت تتزعزع بسبب غزوة أُحُد.

***

 نزول الآيات في حمراء الأسد

وأنزل الله سبحانه في هذه الغزوة قولَه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[١].

قال الإمام القرطبي: أخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تَحصَّل لهم بهذه القَفْلة[٢].



---

(١) سورة آل عمران- الآيات (١٧٢ - ١٧٣).

(٢) القَفْلة: المَرَّة من القُفول: أي: إنَّ أجرَ المجاهد في انصرافه إلى أهله بعد غزوه كأجْرِه في إقباله إلى الجهاد؛ لأن في قُفُوله راحة للنفس، واستعدادًا بالقوة للعود، وحفظًا لأهله برجوعه إليهم. انظر: النهاية (٤/ ٨٢).
وانظر: كلام القرطبي في تفسيره (٥/ ٤٢١).



السنة الرابعة للهجرة

أهمُّ السَّرايا والبُعوث بين أُحُد والخندق

كان لغزوة أُحُد أثر سيِّئ على سمعة المسلمين؛ فقد زالت هيبتهم عن النفوس، وطمعت بهم القبائل، وكاشفهم[1] اليهود والمنافقون بما كانوا يُضمِرونه[2] من العداوة والبغض، فلم يمضِ على غزوة أُحُد إلا عدةُ أشهر حتى تهيأت بعض القبائل للإغارة على المدينة، وحاول يهودُ بني النضير قَتْلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غافلًا عن هذا كله، بل كان يُواجهه بحكمته حتى استطاع أن يُعيد للمسلمين هيبتَهم.



سَرِيَّة أبي سلمة إلى بني أسد

بعث رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعه مائة وخمسون رجلًا من المهاجرين والأنصار، إلى قَطَن، وهو جبل بناحية فَيْد، به ماء لبني أسد بن خزيمة، وذلك في هلال مُحَرَّم من السنة الرابعة للهجرة، وكان سبب بعث هذه السَرِيَّة ما بلغ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ طُليحة وسلمة ابنَيْ خويلد قد سارا في قومهما ومَن أطاعهما، يدعوانهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

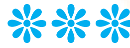
(١) كاشفه بالعداوة: باداه بها. انظر: لسان العرب (١٢/ ١٠٢).

(٢) أضمرتُ الشيء: أخفيتُه. انظر: لسان العرب (٨/ ٨٥).





خرج أبو سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فأغار على سَرْح[1] لهم، وأخذوا رعاءً لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرُهم، فجاؤوا جمْعَهم فحَذِروهم فتفرقوا في كل ناحية، وعاد أبو سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومن معه إلى المدينة سالمين غانمين، لم يلقَوْا كيدًا[2].



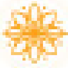
وفاة أبي سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

فلما دخل أبو سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المدينة انتفض جرحُه الذي أُصيب به يوم أُحُد، فمات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وذلك لثلاث بقيت من جُمادى الآخرة من السنة الرابعة للهجرة.

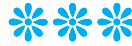
روى الإمام مسلم في صحيحه عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: دخل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أبي سلمة، وقد شَقَّ بصَرُه[3]، فأغمضه، ثم قال: «إن الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَه البصر، فَضَجَّ[4] ناسٌ من أهله»، فقال رسول الله: «لا تدعُوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يُؤَمِّنون على

(١) السَّرْح: الماشية. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٨).
(٢) انظر: تفاصيل هذه السرية في: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٧٤) لابن سعد - البداية والنهاية (٤/ ٤٤٢).
(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٦/ ١٩٨): شَقَّ بَصَرُه -بفتح الشين- أي: ارتفع.
(٤) في رواية أبي داود في سننه: فَصَيَّح.
الضجيج: الصياح عند المكروه والمشقة والجَزَع. انظر: النهاية (٣/ ٦٩).





ما تقولون»، ثم قال: «اللهم اغفِرْ لأبي سلمة وارفع درجته في المهديِّين، واخلُفْه في عَقِبِه في الغابرين[1]، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسَحْ له في قبره، ونَوِّرْ له فيه»[2].



سَرِيَّة عبد الله بن أُنَيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وفي الخامس من محرم من السنة الرابعة للهجرة بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن أُنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقتل خالد بن سفيان الهُذلي؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه بسند حسن عن عبد الله بن أُنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دعاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نُبيح الهُذلي يجمع لي الناس؛ ليغزوني، وهو بعُرَنَة[3]، فأْتِه فاقتُلْه»، قلت: يا رسول الله، انعَتْه[4] لي حتى أعرِفَه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا رأيتَه وجَدْتَ له إقشَعْريرة»[5]، قال: فخرجتُ

---

(١) الغابرين: الباقين، ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف - آية (٨٣): ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾. انظر: النهاية (٣/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٢٠) (٧) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣١١٨).

(٣) عُرَنة -بضم العين-: موضع عند المَوقِفِ بعَرَفات. انظر: النهاية (٣/ ٢٠٢).

(٤) النَّعتُ: وَصْف الشيء. انظر: النهاية (٥/ ٦٨).

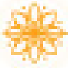
(٥) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ١٩٣): المشهور قُشَعريرة، بلا ألف، وهي قيام الشَّعر على الجِلْد.
وفي لسان العرب (١١/ ١٧٤): القُشْعَريرة: الرِّعْدة.



متوشحًا بسيفي حتى وقعتُ عليه، وهو بعُرَنة مع ظُعُن[١] يرتاد[٢] لهن منزلًا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدتُ ما وصف لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإقشَعْريرة، فأقبَلْتُ نحوه، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولة[٣] تشغلني عن الصلاة، فصليتُ وأنا أمشي نحوه أُومئُ برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه، قال: مَن الرجل؟ قلتُ: رجل من العرب سَمِعَ بك وبجَمْعِك لهذا الرجل[٤]، فجاءك لهذا، قال: أجَلْ أنا في ذلك، قال: فمشيتُ معه شيئًا، حتى إذا أمكنني حملتُ عليه السيف حتى قتَلْتُه، ثم خرجتُ وتركت ظعائنَه مُكِبَّات[٥] عليه، فلما قدمتُ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآني، قال: «أفلح الوَجهُ»، قلت: قتلتُه يا رسول الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صدقت»، قال: ثم قام معي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل بي بيته، فأعطاني عصًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أُنيس»، قال: فخرجتُ بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرني أن أُمسِكَها، قالوا: أوَلا ترجع إلى رسول الله فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعتُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ: يا رسول الله، لِمَ أعطيتَني

---

(١) الظُّعُن: النساء، واحدتها: ظعينة. انظر: النهاية (٣/ ١٤٣).
(٢) يرتاد: يطلب. انظر: لسان العرب (٥/ ٣٦٥).
(٣) المحاولة: طلب الشيء بحيلة. انظر: النهاية (١/ ٤٤٤).
(٤) يعني: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٥) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ١٩٤): مُكِبَّات: أي: ساقطات باكيات.



هذه العصا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيةٌ[١] بيني وبينك يوم القيامة؛ إن أقَلَّ الناس المتَخصِّرون[٢] يومئذ»، قال: فقَرَنها عبد الله بسيفه، فلم تَزَلْ معه حتى إذا مات أمَرَ بها فَضُمَّت معه في كفنه، ثم دُفِنَا جميعًا[٣].



سَرِيَّة الرَّجيع[٤]

كانت هذه السَرِيَّة في صَفَر من السنة الرابعة للهجرة[٥].

---

(١) الآية: العلامة. انظر: النهاية (١/ ٨٨).

ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغْض الأنصار".

رواه البخاري - رقم الحديث (١٧) - ومسلم - رقم الحديث (٧٤).

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ١٩٤): المتخَصِّر: مَن يُمسِك العصا بيده، وقد يتكئُ عليها.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٠٤٧) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧١٦٠) - وأخرجه مختصَرًا أبوداود في سننه - رقم الحديث (١٢٤٩) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٥٦) وجوَّد إسناده - والحافظ في الفتح (٣/ ١١٠) (٨/ ١٣٣) وحَسَّن إسناده.

(٤) الرجيع: هو ماء لقبيلة هُذَيل. انظر: النهاية (٢/ ١٨٦).

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٣١): الرَّجيع: موضع من بلاد هُذيل كانت الوَقْعة بقرب منه؛ فسُمِّيَت به.

(٥) جزم بذلك الواقدي في مغازيه (١/ ٣٥٤) وتبعه على ذلك تلميذه ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٧٧)، وعليه الأكثر، وجعلها ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٨٧) بعد غزوة أُحُد مباشرة، ولم يُحدِّد الشهر الذي وقعت فيه، فقال: ذِكْرُ يوم الرجيع في سنة ثلاث.



روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: بعث[(١)] رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عشَرةً[(٢)] عينًا[(٣)]، وأَمَّر عليهم عاصِمَ بن ثابت[(٤)] الأنصاري جَدَّ عاصمِ بن عمر بن الخَطَّاب، حتى إذا كانوا بالهَدَّة بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحيٍّ من هُذيل يُقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا: تَمرُ يثرِبَ، فاتَّبعوا آثارهم، فلما أحسَّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزِلوا فأعطوا

(١) اختُلِف في سبب بَعْث هذه السَّرِية على النحو التالي:
١- روى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٨٩) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عشرةً عينًا.
* وروى الواقدي في مغازيه (١/ ٣٥٤) عن أبي الأسود، قال: بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحاب الرجيع عيونًا إلى مكة؛ ليُخبروه خبر قريش، فسلكوا طريق النجدية حتى كانوا بالرجيع، فاعترضت لهم بنو لحيان.
٢- وقال ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٨٨): قَدِمَ على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد أُحُد رهط من عَضل والقَارة، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يُفقِّهوننا في الدين، ويُقرِئُوننا القرآن، ويُعلِّموننا شرائع الإسلام؛ فبعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معهم نفرًا ستة من أصحابه.
(٢) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٨٨): ستة.
قال السُّهيلي في الروض الأُنُف (٣/ ٣٦١): وفي الجامع الصحيح للبخاري أنهم كانوا عشرة، وهو أصح.
(٣) العين: الجاسوس. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٩).
(٤) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٨٨): مرثد بن أبي مرثد الغنوي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٣٣): وما في الصحيح أصح.

بأيديكم، ولكم العَهدُ والميثاق أن لا نقتُلَ منكم أحدًا، فقال عاصم بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها القوم، أمَّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال: اللهم أخبِرْ عنا نبيَّك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرَمَوهم بالنَّبْلِ فقتلوا عاصمًا[(١)]، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق؛ منهم: خُبيب، وزيد بن الدَّثِنَة[(٢)] ورجل آخر[(٣)]، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قِسيِّهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث[(٤)]: هذا أول الغدر، واللهِ لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أُسوة -يريد القتلى- فَجَرَّروه وعالجوه[(٥)] فأبى أن يصحبهم[(٦)]، فانطُلِقَ بخُبيب وزيد بن الدَّثِنَة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع[(٧)] بنو الحارث بن عامر بن نوفل خُبَيبًا -وكان خُبيبٌ هو قَتَلَ الحارث بن عامر يوم بدر- فلبث خُبيبٌ عندهم أسيرًا حتى أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٠٨٦): فقاتلوهم حتى قتَلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنَّبل، وبقي خُبيب وزيد ورجل آخر.

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٤١٠) - قسم التراجم-: زيد بن الدَّثِنة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شهد بدرًا وأُحُدًا، وأُسِرَ يوم الرجيع، والدَّثنة -بفتح الدال المهملة، وكسر الثاء-.

(٣) هو عبد الله بن طارق البلوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في رواية ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٩٠). قال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٦١): عبد الله بن طارق البلوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف لبني ظفر من الأنصار، شهد بدرًا وأُحُدًا.

(٤) هو عبد الله بن طارق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) اعتلج القوم: تصارعوا وتقاتلوا. انظر: لسان العرب (٩/: ٣٤٩).

(٦) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٤٠٨٦): فقتلوه.

(٧) ابتاع الشيء: اشتراه. انظر: لسان العرب (١/ ٥٥٧).

الحارث موسى يستحِدُّ بها، فأعارته، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجلِسَه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعتُ فزعةً عرفها خُبيبٌ، فقال: أتخشين أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيتُ أسيرًا قط خيرًا من خُبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل قِطفًا من عنبٍ في يده وإنَّه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه اللهُ خُبيبًا! فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلِّ، قال لهم خُبيب: دعوني أُصلِّي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أنَّ ما بي جزعٌ لزدتُ، ثم قال: اللهمَّ أحصهم عددًا، واقتُلهم بَدَدًا، ولا تُبْقِ منهم أحدًا، ثم أنشأ يقول:

فلستُ أُبالي حين أُقتَلُ مُسلمًا
على أيِّ جنبٍ كان لله مصرعي

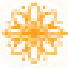
وذلك في ذات الإله وإن يشَأْ
يُبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه أبو سِرْوَعَة[1] عُقبة بن الحارث فقتله[2]، وكان خُبيب هو سَنَّ لكل مسلم قُتِلَ صبرًا الصلاةَ.

---

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٦٠٤) – قسم التراجم –: سِرْوَعَة: بكسر السين المهملة، وسكون الراء، وفتح الواو والعين المهملة.

(٢) روى ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٩٢) بسند صحيح عن عقبة بن الحارث، قال: ما أنا والله قتلْتُ خُبيبًا؛ لأنِّي كنت أصغر من ذلك، ولكِنَّ أبا ميسرة، أخا بني عبد الدار، أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة، ثم طعن بها حتى قتله.



وبعث ناسٌ من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتِلَ أن يُؤتَوا بشيء منه يُعرَف، وكان قَتَل رجلًا عظيمًا من عظمائهم[(١)]، فبعث الله لعاصم مِثْلَ الظُّلَّة[(٢)] من الدَّبْرِ[(٣)]، فحمَتْه من رسُلِهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا[(٤)].

زاد ابن إسحاق: فلما حالت بينه وبينهم الدَّبْرُ، قالوا: دَعُوه حتى يُمسِيَ فتذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله الوادي[(٥)]، فاحتَمَلَ عاصمًا، فذهب به[(٦)].



(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٣٨): لعل العظيم المذكور عُقبة بن أبي مُعَيط؛ فإن عاصمًا قتله صَبْرًا بأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن انصرفوا من بدر.

(٢) الظُّلَّة -بضم الظاء-: هي السحابة. انظر: النهاية (٣/ ١٤٦).

(٣) الدَّبْر -بفتح الدال، وسكون الباء-: هي الزنانير. وقيل: النحل. انظر: النهاية (٢/ ٩٢).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٨٩) (٤٠٨٦).

(٥) زاد الإمام البغوي في معالم التنزيل (١/ ١٩٣): غديرًا.
الغدير: مستنقَع ماء المطر. انظر: لسان العرب (١٠/ ٢٢).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٩٠).



فاجعةُ بئر مَعُونة[١] أو سَرِيَّة القُرَّاء[٢]

وقعت هذه الفاجعة في صَفَر من السنة الرابعة للهجرة[٣].

اخْتُلِف في سبب بَعْث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه السَّرِيَّة، على النحو التالي:

(١) طلب العون من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عدو:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن رِعْلًا وذكوانَ وعُصيَّة وبني لحيان[٤]، استمدُّوا رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

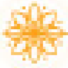
---

(١) بئر مَعُونة -بفتح الميم، وضم العين-: في أرض بني سُليم بين مكة والمدينة. انظر: النهاية (٤/ ٢٩٣).

(٢) قال الحافظ في الفتح (١٥/ ١٨٤): القُرَّاء -بضم القاف، وتشديد الراء، مهموز- جمع قارئ، والمراد بهم: العُلَماء بالقُرآن والسُّنَّة.
وقال الإمام البخاري في صحيحه (١٠/ ٥٦): باب القُرَّاء من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٧): أي: الذين اشتَهروا بحفظ القرآن والتصدي لتعليمه، وهذا اللفظ كان في عرف السلف أيضًا لمن تفقَّه في القرآن.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٤) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٧٥).

(٤) قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (٢/ ٧٢): كذا وقع في هذه الرواية، وهو يُوهِمُ أن بني لحيان ممن أصاب القُراء يوم بئر معونة، وليس كذلك، وإنما أصاب هؤلاء رِعْل وذكوان وعُصَيَّة ومَن صحبهم من سُليم، وأما بنو لحيان فهم الذين أصابوا بَعْثَ الرجيع، وإنما أتى الخبر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم كلهم في وقت واحد، فدعا على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين دعاءً واحدًا.



على عدوٍّ، فأمدهم بسبعين[1] من الأنصار كُنَّا نُسمِّيهم القُرَّاءَ في زمانهم، كانوا يحتَطِبون بالنهار، ويُصلُّون بالليل[2].

(٢) طلب تعليم القرآن والسُّنَّة:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء ناس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: أنِ ابعَثْ معنا رجالًا يُعلِّمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار، يُقال لهم: القُرَّاء[3].

وقال ابن إسحاق: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مُلاعِبُ الأسنَّة، على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، فعرض عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسلِمْ ولمَ يَبعُد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعَثْتَ رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني أخشى عليهم أهلَ نجد»، فقال أبو براء: أنا لهم جارٌ، فابعثهم فلْيَدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنذر بن عمرو في أربعين رجلًا من أصحابه، من خيار المسلمين[4].

---

(١) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٠٤): أربعين.
قال الإمام السهيلي في الروض الأُنُف (٣/ ٣٧٩): والصحيح أنهم كانوا سبعين، كذا وقع في صحيح البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٩٠).
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٧٧).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٤).



وصول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى بئر معونة

خرج أصحابُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السبعون من المدينة، وأَمَّر عليهم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنذر بن عمرو العقبي البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى إذا بلغوا بئر معونة عرض لهم حَيَّان من بني سليم، فغدروا بهم وقتلوهم؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فعرض لهم حَيَّان من بني سُليم: رِعْلٌ، وذكوان، عند بئر يُقال لها: بئر معونة، فقال القوم: واللهِ ما إيَّاكم أرَدْنا، إنما نحن مجتازون في حاجةٍ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقتلوهم[1].

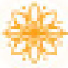
وفي لفظ آخر في صحيح البخاري، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فانطلقوا حتى بلغوا بئر معونة، غدروا بهم وقتلوهم[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فأتوا على حَيٍّ من بني سُليم، وفيهم خالي حرام، فقال حرام لأميرهم: دعني فلأُخبِرْ هؤلاء أَنَّا لسنا إياهم نريد، حتى يُخَلُّوا وجْهَنا، فقال لهم حرام: إنَّا لسنا إياكم نريد، فاستقبله رجل بالرمح، فأنفَذَه منه، فلما وَجَدَ الرُّمح في جوفه، قال: الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبةِ!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٦٤).



قال: فانطووا عليهم[(١)]، فما بَقِي منهم أحد[(٢)]!

فلما قُتِلَ هؤلاء القراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قالوا لربهم سبحانه: اللَّهُمَّ بلِّغْ عنا نبيك؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان[(٣)]، فقالوا: اللهم بلِّغْ عنا نبيَّك أَنَّا قد لقيناك فرَضِينا عنك، ورَضِيتَ عَنَّا[(٤)]!

*** لم ينجُ من هذه المقتلة إلا رجلان، وهما:**

١- قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقتلوهم إلا رجلًا أعرجَ صَعِدَ الجَبَلَ[(٥)].

٢- والرجل الثاني: هو عمرو بن أُمية الضَّمْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قد أُسِرَ، فأُطلِقَ، كما سيأتي.

---

(١) انطوَوا عليهم: التفَّ بعضهم حول بعض. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٥٧٢).
وفي رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (١٤٠٧٤): ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٤٠٢).

(٣) أي: ديار بني عامر، وهم قوم مُلاعِب الأسِنَّة.

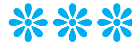
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٧٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٠١).
سَمَّى ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٠٥) الرجل الأعرج، فقال: قُتِلُوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار؛ فإنَّهم تركوه وبه رَمَق، فارتُثَّ من بين القتلى، فعاش حتى قُتِلَ يوم الخندق شهيدًا، يرحمه الله.
الرَّمَق: يعني: بقية الروح وآخر التنفُّس. انظر: النهاية (٢/ ٢٤٠).
الرثيث: الجريح. انظر: النهاية (٢/ ١٧٩).



فضل عامر بن فُهيرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

كان من بين قتلى فاجعة بئر معونة عامِرُ بن فُهَيرة مولى أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير، قال: لما قُتِلَ الذين ببئر معونة وأُسِرَ عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال له عامر بن الطُّفيل[1]: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامِرُ بن فُهَيرة، فقال: لقد رأيته بعد ما قُتِلَ رُفِعَ إلى السماء، حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وُضِعَ[2]!



حُزْن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شهداء بئر معونة

بلغ رسولَ الله خبرُ فاجعة بئر معونة، وأصحاب سَرِيَّة الرجيع في يوم واحد، فحَزِن عليهم حزنًا شديدًا، وأخذ يدعو على مَن غدر بأصحابه شهرًا كاملًا في كل صلاة؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن

---

(١) قلت: هذا الرجل -قبحه الله- رأس من رؤوس بني سُليم الذين غدروا بالقُراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٩١) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خاله -أخٌ لأم سُليم- في سبعين راكبًا، وكان رئيسُ المشركين عامرَ بن الطُّفيل.

قال السندي في شرحه للمسند (٢٠/ ٤٢١) قوله: عامر بن الطفيل، هو العامري، مات كافرًا، وليس هو عامر بن الطفيل الأسلمي الصحابي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث(٤٠٩٣).



مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «إنَّ إخوانكم قد قُتِلُوا، وإنهم قالوا: اللهم بلِّغ عنَّا نبيَّنا أنَّا قد لقيناك، فرَضِينا عنك، ورضَيِت عنا!»[1].

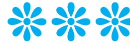
وروى الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: ما رأيتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَد[2] على شيءٍ قطُّ ما وَجَد على أصحاب بئر معونة؛ أصحابِ سَرِيَّة المُنذر بن عمرو، فمكث شهرًا يدعو على الذين أصابوهم، في قُنُوت صلاة الغَداة[3]، يدعو على رِعْلٍ، وذَكوانَ، وعُصيَّةَ، ولَحْيانَ، وهم من بني سُلَيم[4].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قَنَت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرًا متتابعًا في الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، في دُبُر كل صلاة إذا قال: سمع الله لمن حَمِده من الركعة الأخيرة، يدعو عليهم؛ على حي من بني سُليم، على رِعْل وذكوان وعُصيَّة، ويُؤمِّن مَن خلفه، وكان أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فقتلوهم[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٧٧).
(٢) وَجَدَ: حَزِن. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢١٩).
(٣) هي صلاة الفجر.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٣٠٠) (٦٣٩٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٧٧) (٣٠٢) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٠٢٧).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٤٦) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (١٤٤٣) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٩١٥).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في الذين قُتلوا ببئر معونةَ قرآنًا قرأناه حتى نُسِخ بَعدُ: ﴿أن بَلِّغوا قومنا أنْ قد لَقِينا رَبَّنا، فرَضِيَ عنَّا ورَضِينا عنه﴾[1].



عودةُ عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة

أُسِرَ عمرو بن أمَيَّة الضَّمْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فلما علموا أنه من مُضَر أطلقوه؛ لسبب غريب.

قال ابن إسحاق: وأخذوا عمرو بن أُمَيَّة أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مُضَر، أطلقه عامر بن الطُّفَيل، وجَزَّ ناصيتَه[2]، وأعتقه عن رقبةٍ زعم أنها كانت على أمِّه![3].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٨١٤) (٤٠٩٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٧٧) (٢٩٧).

(٢) الناصية: منبت الشعر في مُقدَّم الرأس. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٦٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٦).



قتل العامريِّين

رجـع عمرو بن أُمَيـة الضَّمْـري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة، حتـى إذا كان بالقَرْقَرَة، أقبل رجلان من بني عامر[1]، حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه، وكان مع العامريَّينِ عَقدٌ من رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوارٌ، لم يَعلم به عمرو بن أُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد سـألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بني عامر، فأمهلهمـا، حتى إذا ناما قتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأرَه من بني عامر، فلما قدم عمرو بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره خبر أصحابـه، وأخبره خبر قتله الرجلين من بني عامر، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد قتلت قتيلينِ، لَأَدِيَنَّهما»[2].

فـكان قَتْلُ عمرو بن أميـة الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذيـن الرجلين وجَمعُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِيَتَهما: سببًا لغزوة بني النَّضير، كما ذكر ابن إسحاق.



(١) وهي قبيلة الذين غدروا بالصحابة القُرَّاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٦).



غزوة بني النَّضير

كانت في ربيع الأوَّلِ من السنة الرابعة للهجرة[1].

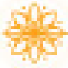
اختُلِف في سبب هذه الغزوة على النحو التالي:

السبب الأول: جمع دِيَة القتيلين.

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بني النَّضير يستعينُهم في دِيَة ذينك القتيلينِ من بني عامر، اللذين قَتل عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ للجِوار الذي كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقد لهما، كما حدَّثني يزيد بن رُومان، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقدٌ وحِلف، فلما أتاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعينهم في دية ذنيك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينُك على ما أحببتَ ممَّا استعنتَ بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل

---

(١) هذا تاريخها عند ابن إسحاق (٣/ ٢١٠) - وابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٧٨)، وهو قول عامة أهل المغازي.
وقال الإمام البخاري في صحيحه: قال الزُّهري عن عروة بن الزبير: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أُحُد.
وتعقَّبه الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٩١) بقوله: هذا وَهْم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أُحُد، والتي كانت بعد بدر بستة أشهر هي غزوة بني قَينُقاع، وقُرَيظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحُديبيَة.



حالـه هذه -ورســول الله إلى جنـب جدار من بيوتهم قاعـد- فمَن رَجُلٌ يعلـو على هذا البيــت، فَيُلقي عليه صخرة، فيُريحنـا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحَاشِ بن كعب، أحدهم، فقال: إنَّا لذلك، فصعد ليُلقي عليه صخـرة كما قـال، ورســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفر من أصحابـه؛ فيهم: أبـو بكر، وعمر وعلي، رضوان الله عليهم، فأتى رســولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبرُ من الســماء بما أراد القــوم، فقام وخرج راجعًا إلـى المدينة، فلما استلبث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه، قاموا في طلبه، فلَقُوا رجلًا مقبلًا من المدينة، فسـألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى انتهوا إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغَدْر به، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم[1].

السبب الثاني: الغدر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقتله:

روى أبو داود في سننه، وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه بسند صحيح -واللفـظ لعبد الرزاق- عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: إن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبَي ابن سلول، ومَن معه يعبد الأوثان

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٠ - ٢١١) - وذكره بنحوه ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٧٨) بـدون إسـناد، وذكره الألباني في السلسـلة الضعيفة (١٠/ القسـم الثـاني - ٤٦٩) وقال: فاتفاق هؤلاء الرواة على إرسـال الحديث وسَوْقُه بغير إسناد، لدليلٌ واضح على أنه لا يُعرَف إسناده عندهم، وإلا لساقوه.



من الأوس والخزرج، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر، يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكم أكثرُ أهل المدينة عددًا، وإنَّا نُقسِم بالله لَتَقتُلُنَّه أو لتُخرِجُنَّهُ أو لنستعينُ عليكم العرب، ثم لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتُلَ مقاتِلَتكم، ونستبيحَ نساءَكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبي ومَن معه من عبدة الأوثان، تراسلوا فاجتمعوا، وأجمعوا لقتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقيهم في جماعة، فقال: «لقد بلغ وعيدُ قريش منكم المبالِغَ، ما كانت لِتكيدَكم بأكثَرَ مما تريدون أن تكيدوا به أنفُسَكم! فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم؟»، فلما سمعوا ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفَّارَ قريش، وكانت وقعةُ بدر، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهلُ الحَلْقَةِ[1] والحُصُون، وإنكم لتُقاتِلُنَّ صاحبنا أو لنفعلَنَّ كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَمِ نسائِكم شيءٌ، فلما بلغ كتابُهم اليهودَ أجمعت بنو النضير على الغدْرِ، فأرسلت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخرُجْ إلينا في ثلاثين رجُلًا من أصحابك، ولنَخرُج في ثلاثين حَبْرًا[2]، حتى نلتقيَ بمكان كذا -نَصَف بيننا وبينكم-[3] فيسمعوا

---

(١) الحَلْقة -بسكون اللام-: السلاح عامًّا. انظر: النهاية (١/ ٤١٠).
(٢) الأحبار: هم العلماء: جمع حَبْر، بالفتح والكسر. انظر: النهاية (١/ ٣١٧).
(٣) في رواية أبي داود: بمكان المَنْصَف.
المَنْصَف: أي الموضع الوسَط بين الموضعين. انظر: النهاية (٥/ ٥٧).



منـك، فإن صَدَّقوك وآمنوا بك آمَنَّا كلنا، فخرج رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثين من أصحابه، وخـرج إليه ثلاثون حَبْرًا من يهود، حتى إذا برزوا في بَرازٍ[1] من الأرض، قال بعـض اليهود لبعض: كيف تَخلُصون[2] إليه، ومعـه ثلاثون رجلًا مـن أصحابه، كلهم يُحب أن يموت دونه، فأرسَـلوا إليه: كيف تفهم ونفهم، ونحن ستون رجلًا؟ اخرُج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فلْيَسـمعوا منـك، فإن آمنوا بك آمنَّا كلنا وصدَّقناك، فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة من أصحابه، واشـتملوا[3] على الخناجر، وأرادوا الفَتْكَ[4] برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلت امرأةٌ ناصحة مـن بني النضير إلى بنـي أخيها، وهو رجل مسـلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل أخوهـا سـريعًا، حتى أدرك النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسـارَّه بخبرهم قبل أن يصـل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فرجـع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما كان من

---

(١) البَـراز -بفتح الباء-: المكان الفضاء من الأرض، البعيد الواسـع. انظر: لسـان العرب (١/ ٣٧٣).

(٢) خَلَصَ: وصل. انظر: لسان العرب (٤/ ١٧٣).

(٣) الاشـتمال: افتعـال مـن الشَّـملة، وهـو كسـاء يُتغطى بـه ويُتلفَّف فيـه. انظـر: النهاية (٢/ ٤٤٨).

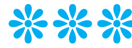
والمقصود: أنهم أخفَوا الخناجر تحت الشَّملة.

(٤) الفَتْـك: أن يأتـي الرجـل صاحبـه وهو غَـارٌّ غافل، فيشـد عليـه فيقتُله. انظـر: النهاية (٣/ ٣٦٧).



الغدِ غدا عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكتائب، فحاصرهم[١].

* قال الحافظ في الفتح: فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُعينوه في دِيَة الرجلين، لكن وافق ابنَ إسحاق جُلُّ أهل المغازي، والله أعلم[٢].



حصار بني النضير واستسلامهم

سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه إلى بني النضير، واستخلف على المدينة: ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رآه يهود بني النضير تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستَّ ليال[٣]، وأمر بحرق وبقطع نخيلهم؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حَرَّق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نخل بني النضير وقَطَعَ، وهي البُوَيرةُ[٤]، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا

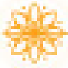
---

(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠٠٤) - وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه - رقم الحديث (٩٧٣٣) - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ٧٠) وصَحَّح إسناده.

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٧٠).

(٣) هذا ما ذكره ابن هشام في السيرة (٣/ ٢١١) - وقال الواقدي في مغازيه (١/ ٣٧٤)- وابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٧٨): خمسة عشر يومًا.

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ٤٥): البُويرة -بضم الباء الموحدة-= = وهي موضع نخل بني النضير.



﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾[1].

وروى الإمام الترمذي في جامعه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال في قوله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾، قال: اللِّيْنَةُ: النَّخلةُ، ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، قال: استنزلهم من حصونهم، وأُمِروا بقطع النخل[2].

اشتدَّ الحصار على يهود بني النضير، وأيقنوا أن حصونهم لن تمنعهم من الله، وقذف الله عَزَّوَجَلَّ الرُّعبَ[3] في قلوبهم، فعند ذلك صالحوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الجلاء[4]، وعلى أن لهم ما أَقَلَّت[5] الإبِلُ من الأموال والأمتعة إلا السلاح.

---

(١) سورة الحشر - آية (٥) - والخبر أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٣١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٤٦) (٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٥٨٨).

(٣) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٣٣٦): وفي الصحيح: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: نُصِرْتُ بالرعب بين يَدَيَّ مسيرةَ شهر، فكيف لا يُنصَرُ به مسيرةَ ميل من المدينة إلى مَحلَّة بني النضير؟! وهذه خصيصة لمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دون غيره.

(٤) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٣٣٩): الجَلاءُ: مفارقة الوطن... والفرق بين الجلاء والإخراج -وإن كان معناهما واحدًا- من وجهين:

أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج: قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة.

(٥) أَقَلَّ الشيء واستقلَّه: إذا رفعه وحمله. انظر: النهاية (٤/ ٩١).



روى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كانت غزوة بني النضير -وهم طائفة من اليهود- على رأس ستة أشهر من وقعة بدر[1]، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبلُ من الأمتعة والأموال إلا الحَلْقةَ -يعني السلاح-[2].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأجلى رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النضير، وأقَرَّ قريظةَ ومَنَّ عليهم، حتى حاربت قريظةُ بعد ذلك، فقتَل رجالَهم، وقسَّم نساءَهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين[3].



(١) تقدم أن هذا أيضًا قول عروة بن الزبير -فيما علقه عنه الإمام البخاري في صحيحه- ويظهر أن عروة أخذ ذلك من خالته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والذي أجمع عليه أهل المغازي أنها وقعت في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٨٣٩).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٢٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٦).



أولُ فَيءٍ[1] في الإسلام

وقبض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تركه يهودُ بني النضير من الأموال والسلاح، فكانت له خاصَّةً، وخَصَّ جزءًا من هذا الفيء في هذه الغزوة للمهاجرين خاصَّةً؛ لفَقْرِهم، وجعل باقيها له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الإمام ابن القيم: وكانت[2] بنو النضير خالصة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسْها؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أفاءها عليه ولم يُوجِفِ[3] المسلمون عليها بِخَيلٍ ولا رِكابٍ[4].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ممَّا لم يُوجِفِ المسلمون عليه بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، فكانت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة[5].

---

(١) الفَيء: ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد. انظر: النهاية (٣/ ٤٣٤).

(٢) يعني: أموال.

(٣) قال ابن قُرقُول في مطالع الأنوار (٦/ ١٧٩): لم يُوجف: أي: لم يُؤخَذ بغَلَبة جيش، وأصله من الإيجاف في السير، وهو الإسراع.

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٥٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٠٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥٧) (٤٨).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كان الرجل يجعل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّخلات، حتى افتتح قريظة والنضير، فكان بعد ذلك يردُّ عليهم[1].

وروى أبو داود في سننه بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: كان نخل بن النضير لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصَّةً، أعطاه الله إياه وخَصَّه بها، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[2]، يقول: بغير قتال، فأعطى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرها للمهاجرين، وقسَمها بينهم، وقسَم منها لرجلين من الأنصار[3] كانا ذَوَيْ حاجةٍ، لم يَقسِم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقةُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي في أيدي بني فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا[4].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٣٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧١) (٧١).

(٢) سورة الحشر - (آية ٦).

(٣) سماهما ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢١٣): سهل بن حُنيف، وأبو دُجانة سِمَاك بن خَرَشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠٠٤).



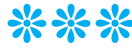
نزول سورة الحشر[1]

قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورةُ الحشر بأسْرِها[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن سعيد بن جُبير، قال: قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سورة الحشر. قال: نزلت في بني النضير[3].

وفي لفظ آخر في صحيح البخاري، قال سعيد بن جُبير: قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سورة الحشر. قال: قل: سورة النضير[4].

قال الحافظ في الفتح: كأنه كره تسميتها بالحشر؛ لئلا يُظَنَّ أن المراد يوم القيامة، وإنما المراد به هنا إخراج بني النضير[5].



---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٣٣٣): مدنية في قول الجميع، وهي أربع وعشرون آية.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٨٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٨٣).

(٥) انظر: فتح الباري (٩/ ٦١٨).



غزوة بدر الآخرة[١]

وقعت غزوة بدر الأخرى في شعبان من السنة الرابعة للهجرة[٢].

واعد أبو سفيان عند انصرافه من غزوة أُحُد رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على القتال في العام القابل من أُحُد في بدر، فلما كان في شعبان من العام القابل -سنة أربع للهجرة- خرج رسول الله لموعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ألف وخمسمائة، حتى انتهى إلى بدر، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين، وخرج أبو سفيان من مكة ومعه ألفان، فلما انتهى إلى مَرِّ الظهران، قال لمن معه: إنَّ العامَ عامُ جَدْب[٣]، وقد رأيتُ أن أرجع بكم، فانصَرفوا راجعين وأخلفوا الموعد، ثم رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة النبوية، وقد سمع الناسُ بمسيره[٤].

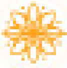
---

(١) وتُسمى بدرًا الصغرى؛ لعدم وقوع قتال فيها، وتُسمَّى أيضًا بدر المَوعِد؛ لمواعدة أبي سفيان يوم أُحُد على اللقاء في بدر من العام القابل، وتُسمى بدرًا الثالثة.

(٢) هذا تاريخها عند ابن إسحاق (٣/ ٢٣١) - وعند ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٧٩): أنها كانت في ذي القعدة من نفس السنة.
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٤٧١): والصحيح قول ابن إسحاق؛ أن ذلك في شعبان من هذه السنة الرابعة، ووافق قول موسى بن عُقبة أنها في شعبان، لكن قال: في سنة ثلاث، وهذا وَهْمٌ؛ فإن هذه تواعدوا إليها من أُحُد، وكانت أُحُد في شوال سنة ثلاث.

(٣) الجَدْب: القحْط. انظر: النهاية (١/ ٢٣٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢٣١) - والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٧٩).



السنة الخامسة للهجرة

غزوة الخندق[1] أو الأحزاب[2]

وقعت في شوال من السنة الخامسة للهجرة [3].



سبب هذه الغزوة

كان سبب هذه الغزوة: أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة واستقروا في خيبر؛ منهم:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٤٨): فأما تسميتها الخندق؛ فلأجل الخندق الذي حُفِر حول المدينة بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان الذي أشار بذلك سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيما ذكر أصحاب المغازي.

وقال الإمام السهيلي في الروض الأُنُف (٣/ ٤١٦): وحَفْرُ الخندق لم يكن من عادة العرب، ولكنه من مكايد الفُرسِ وحروبها.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٤٨): وأما تسميتها الأحزاب؛ فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغَطَفان واليهود ومَن تبعهم.

(٣) هذا قول ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٣٦)، وتبعه على ذلك الجمهور.

قال الحافظ ابن كثير في الفصول - ص (١٥٤): كانت في سنة خمس في شوالها، على الصحيح من قولَيْ أهل المغازي.

وقال في البداية والنهاية (٤/ ٤٧٦): والصحيح قول الجمهور؛ أن الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة. والله أعلم.

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣١٥): فصلٌ في غزوة الخندق، وكانت في سنة خمس من الهجرة في شوال، على أصح القولين.



سلَّام بن أبي الحُقَيق النَّضري، وحُيَيُّ بن أخطب، وكِنانة بن أبي الحُقيق النضري، وسَلَّام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألَّبُوهم[1] على حرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غَطَفان، فاستجابوا لهم أيضًا، وخرجت قريش في أحابيشها[2] ومَن تابعها، ووافتهم بنو سليم بمَرِّ الظهران، وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مُرَّة[3].



عدد جيش الأحزاب وخروجهم

تجمَّع عشرة آلاف من الأحزاب، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وتوجَّهوا نحو المدينة النبوية على غير ميعاد كانوا قد تعاهدوا عليه[4].



مشاورة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه وحَفْرُ الخندق

فلما سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمسيرهم إلى المدينة، استشار أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فأشار سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وكانت غزوة الخندق

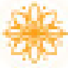
---

(١) التأليب: التحريض. انظر: لسان العرب (١/ ١٧٧).

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٠٦): الأحابيش: الجماعات المجتمعة من قبائل شتى متفرقة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٧) - دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٩٨) وما بعدها.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٨).



أول مشاهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفر الخندق؛ ليَحُول بين الأحزاب وبين المدينة النبوية، فأمر به رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبادر إليه المسلمون، وعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه فيه[1].

قال الحافظ ابن كثير: وكانت في حَفْرِه آياتٌ مُفَصَّلة يطول شرحها، وأعلامُ نُبوَّة قد تواتر خبرُها[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ[3] باردة، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم مِن النَّصَب[4] والجوع، قال:

"اللهم إن العيشَ عيشُ الآخِرَهْ
فاغفِرْ للأنصار والمُهاجِرَهْ"

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمَّدَا
على الجِهاد ما بقينا أبدَا[5]

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٨).
(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول، ص (١٥٦).
(٣) الغَداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٦٤٦).
(٤) النَّصَب: التَّعَب. انظر: النهاية (٥/ ٥٣).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٩٩) - ومسلم في صحيحه مختصرًا - رقم الحديث (١٨٠٥) (١٣٠).

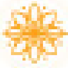


وروى الشيخان في صحيحيهما عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى[1] عني الترابُ جِلدةَ بطنِه[2]، وكان كثيرَ الشَّعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رَواحة، وهو ينقل من التراب، يقول:

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزِلَنْ سكينةً علينا
وثَبِّتِ الأقدامَ إن لاقَيْنا
إن الأُلى[3] قد بَغَوا علينا
وإن أرادوا فتنةً أَبَينا"[4]

قال الإمام القرطبي: عمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون، وجعلوا يتسلَّلون لِواذًا[5]، فنزلت فيهم آياتٌ من القرآن، ذكرها

(١) وَرَيت الشيء وواريتُه: أخفيته. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨٣).
(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٨٣٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٣): بياضُ بطنِه.
(٣) قال ابن قُرقول في مطالع الأنوار (١/ ٢٦١): الألى -بقصر الهمزة- ومعناه: الذين.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٠٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٣).
(٥) لِواذًا: أي: مُستخفِين ومُستَتِرين. انظر: النهاية (٤/ ٢٣٧).



ابن إسحاق[1] وغيره، وكان مَن فرغ من المسلمين من حصَّته عاد إلى غيره، حتى كَمَلَ الخندق، وكانت فيه آيات بيِّنات وعلامات للنبُوَّات[2].



شدة الجوع والبرد الذي أصابهم

واصل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَفْرَ الخندق، وكانوا يُقاسون وهم يَحفِرون الخندق، شِدَّةَ الجوع، والجَهْد الشديد؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما حفر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الخندق أصابهم جَهْدٌ شديد، حتى ربط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بطنه حجرًا؛ من الجوع[3].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إنَّا يوم الخندق نحفِر فعَرَضَت كُدْيةٌ[4] شديدة، فجاؤوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: هذه كُدْية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنُه معصوب بحجر[5]، ولبثنا ثلاثةَ أيام لا نذوق ذَواقًا، فأخذ

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٧٠) وما بعدها.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٧٢).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٢٢٠).
(٤) كُدْية -بضم الكاف، وسكون الدال-: قطعة غليظة صُلبة لا تعمل فيها الفأس. انظر: النهاية (٤/ ١٣٦).
(٥) قال الإمام ابن القيم في عدة الصابرين، ص (٣٧٩): وهل ذلك إلا من أعظَم شواهد صِدْقِه؟=



النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِعْوَلَ[١]، فضرب في الكُدْية، فعاد كَثيبًا[٢] أَهْيَلَ[٣] أو أَهْيَمَ[٤].

وروى الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره بسند صحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون[٥] ليلة الخندق في برد شديد وريح، إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف، قال: فاستأذنتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَذِنَ لي[٦].

= فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه: إنه مَلِك طالب مُلكٍ ودنيا، لكان عَيشُه عَيشَ الملوك، وسيرتُه سيرتَهم، ولقد توفاه الله وإنَّ دِرعَه مرهونةٌ عند يهودي على طعام أخذه لأهله! وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجُبِيت إليه الأموال، ومات ولم يترك درهمًا واحدًا ولا دينارًا ولا شاة ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أَمة.

(١) المِعْوَل: الفأس. انظر: لسان العرب (٩/ ٤٨٢).

(٢) الكَثيبُ: الرمل. انظر: النهاية (٤/ ١٣٢).

(٣) أَهْيَل: أي: رملاً سائلاً. انظر: النهاية (٥/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٠١).

(٥) كذا وقع في هذا الخبر عثمان بن مظعون، ولا شك أنه وَهْمٌ؛ لأن عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات بعد غزوة بدر الكبرى مباشرة، وذلك في السنة الثانية للهجرة، ودُفِنَ بالبقيع، وهو أول مَن دُفِنَ بالبقيع من المهاجرين، فكيف يشهد الخندق؟!
قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (٢/ ٨٦): كذا وقع في هذا الخبر: عثمان بن مظعون، وعثمان بن مظعون تُوفي قبل هذا، وإخوة عثمان: قُدامة، والسائب، وعبد الله، تأخروا، وقُدامة مذكور فيمن شهد الخندق، وهم أخوال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٦٣) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٨٥) - والحافظ في الفتح (٨/ ١٦١) وصحح الحافظ إسناده في الفتح، ولم يُنبه أحد منهم على هذا الإشكال.



الانتهاء من حفر الخندق

انتهى الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من حفر الخندق قبل وصول الأحزاب.

قال الإمام ابن القيم: وكان حَفْرُ الخندق أمام سَلْعٍ، وجَبَلُ سَلْعٍ خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار[(١)].

وخرج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، فتحصَّن بالجبل مِن خَلْفِه، وبالخندق أمامه، وأمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالنساء والذراري، فجُعِلوا في آطامِ المدينة[(٢)]، وكان شعار المسلمين يومئذ: حم لا يُنصَرون؛ فقد روى الإمام الترمذي، وأبو داود بسند صحيح -واللفظ لأبي داود- عن المهلَّب بن أبي صُفرة، قال: أخبرني مَن سمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[(٣)] يقول: «إن بُيِّتُّم[(٤)] فليكن شِعارُكم[(٥)]:

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣١٧).

(٢) آطام المدينة: يعني: أبنيتها المرتفعة كالحصون. انظر: النهاية (١/ ٥٧).
والخبر في سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٣).

(٣) زاد النسائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (٨٨١٠) (١٠٣٧٨): ليلة الخندق.

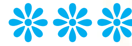
(٤) في رواية الترمذي: إنْ بَيَّتكم العدوُّ.
بَيَّتكم: أي: أصابوكم ليلًا، وتبييت العدو: هو أن يُقصَد في الليل من غير أن يَعلَم، فيُؤخَذ بغتةً. انظر: النهاية (١/ ١٦٧).

(٥) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ٤٣٤): أي: علامتكم التي تتميزون أنتم فيما بينكم بها من عدوكم.



حم لا يُنصَرون»[١].

وقال ابن إسحاق: كان شعار أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق وبني قريظة: حم لا يُنصرون[٢].



قدوم الأحزاب ودهشتهم من الخندق

وصل الأحزاب إلى أطراف المدينة النبوية، وإذا بهم يتفاجؤون بالخندق، فنزلت قريش بمجمع الأسيال من رُومة، بين الجُرُف وزُغابة، وأقبلت غَطَفان حتى نزلوا بذَنب نَقْمَى إلى جانب أُحُد، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[٣].

قال الحافظ ابن كثير: أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[٤].

---

(١) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ٤٣٤): قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حم لا يُنصرون»: فإنه مع كونه علامة، دعاءٌ عليهم أيضًا.
والحديث أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٧٧٧) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٥٩٦) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٢٧) وقال: إسناده صحيح.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٩).

(٣) سورة الأحزاب - آية (٢٢).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٢).



نقض بني قريظة العهد

وكانت حصون بني قريظة -وهم طائفة من اليهود- شرقيَّ المدينة، ولهم عهد من رسول الله ﷺ وذمة، وهم قريب من أربعمائة مقاتل، وقيل: سبعمائة، فذهب إليهم عدو الله حُيَيُّ بن أخطَبَ النَّضْري.

وصل حُيي بن أخطب إلى ديار بني قريظة، وطرق على كعب بن أسد -سيد بني قريظة- الباب، فلم يأذن له وأبى أن يُقابله، فناداه حُيَيٌّ: ويحك يا كعب، افتح لي، فقال: ويحك يا حُيَيُّ، إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدتُ محمدًا، فلستُ بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصِدقًا، فما زال حُيَيٌّ يُكلمه حتى فتح له كعب بابه، فقال حُيي: جئتك بعز الدهر وببحر طامٍ[1]: جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة، وغَطَفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمى إلى أُحُد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومَن معه.

فقال له كعب: جئتني -والله- بذُلِّ الدهر، وبجَهامٍ[2] قد هراق ماءَه، فهو يُرْعِد ويُبرِق، ليس فيه شيء، ويحك يا حُيي! فدعني وما أنا عليه؛ فإني لم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

---

(١) طَمَا البحر: ارتفع بأمواجه. انظر: النهاية (٣/ ١٢٦).

(٢) الجَهَام -بفتح الجيم-: السحاب الذي لا ماء فيه. انظر: النهاية (١/ ٣١١).



فلم يزل حُيي بكعب يَفْتِلَهُ في الذِّروة والغاربِ[١]، حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًـا: لئن رجَعَت قريش وغَطَفان، ولم يُصيبوا محمدًا، أن أدخل معك في حِصنك حتى يُصيبني ما أصابك، فنقض كعبُ بن أسد عهده، وبرئَ مما كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]!



بَعْثُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لبني قُرَيظة

لـم يكن رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غافلًا عـن تحركات بنـي قريظة، فبعـث الزُّبَيـر بن العـوَّام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ليتأكد من خبر بنـي قريظة؛ فقد روى الشـيخان في صحيحيهما عن عبد الله بـن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كنتُ يوم الأحزاب[٣] جُعِلْتُ[٤] أنا وعمر بن أبي سلمة[٥] في النساء، فنظرتُ فإذا أنا

---

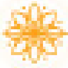
(١) الغارب: مُقدَّم السَّـنان، وهو الرمح، والذِّروة: أعـلاه، أراد أنه ما زال يُخادعه ويتلطف حتى أجابه. انظر: النهاية (٣/ ٣١٥).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٤).

(٣) في رواية الإمام مسلم: الخندق.

(٤) كان عُمْرُ عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يوم الخندق خمس سنين؛ لأنه وُلِدَ في السنة الأولى للهجرة.

(٥) عمـر بـن أبـي سـلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ربيـب النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابـن أم سـلمة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي كانت يده تطيش في الصحفة، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يـا غـلام، سَـمِّ الله، وكُلْ بيمينـك، وكل ممـا يليـك". رواه البخاري - رقـم الحديث (٥٣٧٦)- ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٢٢) (١٠٨).



بالزبير على فرسه يختلف[1] إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعتُ قلت: يا أبتِ رأيتك تختلف، قال: أَوَهل رأيتني يا بُني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن يأتِ بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟» فانطلقت، فلما رجعتُ جمع لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبويه، فقال: «فداك أبي وأمي!»[2].

وفي لفظ آخر في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب[3]: «مَن يأتينا بخبر القوم؟»

فقال الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنا، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنا، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنا، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حواريًّا[4]، وإن حوارِيَّ الزُّبَيْرُ[5]».

قال الحافظ في الفتح: فقصة الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانت لكشف خبر بني قريظة: هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ووافقوا قريشًا على

---

(١) اختلف إلى المكان: تردد. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٢٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤١٦).

(٣) في رواية الإمام مسلم: الخندق.

(٤) الحواريُّ: أي: خاصَّتي من أصحابي، وناصري. انظر: النهاية (١/ ٤٤٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٤٦) (٢٨٤٧) (٤١١٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤١٥).



محاربة المسلمين[١].



بَعْثُ السَّعْدَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لبني قُرَيظة

ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخَوَّات بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إلى بني قريظة؛ ليتأكَّدوا من خبر التزامهم بالعهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أم أنهم نقضوا العهد، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: «انطلقوا حتى تنظروا: أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حَقًّا فألحِنوا لي لَحْنًا[٢] أعرفه، ولا تَفُتُّوا[٣] في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس».

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وجاهروهم بالسَّبِّ والعدوان، ونالوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فانصرفوا عنهم، ثم أقبلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: عَضَل والقارَة[٤]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ١٦٦).

(٢) بمعنى: أشِيرا إليَّ ولا تُفصِحا، وعَرِّضا بما رأيتُما، أمَرَهما بذلك، لأنَّهما ربما أخبرا عن العدو ببأسٍ وقوة، فأحَبَّ ألا يقِفَ عليه المسلمون. انظر: النهاية (٤/ ٢٠٨).

(٣) يُقال: كَلَّمه بشيء ففتَّ في ساعده: أي: أضعفه وأوهنه. انظر: لسان العرب (١٠/ ١٧٠).

(٤) أي: كغَدْرِ عَضَل والقارة بأصحابِ الرجيع.



«الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين!»[1].



اشتداد الخوف وظهور النفاق

وعلى الرغم من إخفاء حقيقة نقض بني قريظة العهد فإنَّ الخبر انتشر بين الناس، فعَظُم الخَطْبُ، وضاق الحال، واشتد الخوف، وخِيفَ على الذراريِّ والنساء، فلم يكن يحول بين المسلمين وبين بني قريظة شيء يمنعهم من الإغارة عليهم، والأحزاب بجيشهم العرمرم أمامهم، وصار حالهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ[2] وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[3].

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن إسحاق في السيرة بسند حسن عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: والله لقد رأيتنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخندق... فقال رسول الله: «مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القومُ ثم يرجع؟» -يشرط له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجعة- «أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة»، فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة الرِّيح[4].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٥).

(٢) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٧/ ٩١): أي: شخصت، فلم تلتفت إلا إلى عدوِّها دَهَشًا من فَرْط الهَوْل.

(٣) سورة الأحزاب - الآيتان (١٠ - ١١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٣٣٤) - وابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٥٥).



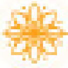
ونَجَم[1] النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[2] مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا[3] ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ[4] فَارْجِعُوا[5] وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ[6] إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[7].

قال الحافظ ابن كثير: أما المنافق فنجَمَ نفاقُه، والذي في قلبه شُبهةٌ أو حَسيكةٌ[8]، ضَعُف حاله، فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال[9].



---

(١) نَجَم: ظَهَر. انظر: النهاية (٥/ ٢٠).
(٢) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٧/ ٩٦): أي: شَكٌّ ونفاقٌ.
(٣) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٧/ ٩٦): أي: باطلاً من القول.
(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٨٩): أي: هاهنا، يعنون عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقام المرابطة.
(٥) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٨٩): أي: إلى بيوتكم ومنازلكم.
(٦) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٧/ ٩٧): أي: سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهي مما يلي العدوَّ.
(٧) سورة الأحزاب - الآيتان (١٢ - ١٣).
(٨) حسيكة: أي عداوة وحقد. انظر: النهاية (١/ ٣٧١).
(٩) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٨٨ - ٣٨٩).



سعي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مصالحة غطفان

فلما اشتدَّ البلاء على المسلمين، وطال عليهم هذا الحال، بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عُيَينة بن حِصن، وإلى الحارث بن عوف المُرِّي -وهما قائدا غَطَفان- وصالحهما على ثُلُث ثمار المدينة على أن يَرْجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فقبِلا وجرت المُراوضة[١] على ذلك، فاستشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّعدينِ؛ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ذلك، فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسَمْعًا وطاعة، وإن كان شيئًا تصنعُه لنا، فلا حاجة لنا به، فلقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يَطمعُون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قِرًى[٣] أو بيعًا، أفحينَ أكرَمَنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه، نُعطيهم أموالنا؟! واللهِ لا نُعطيهم إلا السيف حتى يحكُمَ الله بيننا وبينهم! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأنت وذاك، ولم يتم الأمر»[٤].

قال الحافظ ابن كثير: وصَوَّب رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يفعل من ذلك شيئًا[٥].

---

(١) المراوضة: هو أن تُواصِفَ الرجل بالسلعة ليست عندك. انظر: النهاية (٢/ ٢٥١).

(٢) السبب في استشارة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنهما سيدا الأنصار -الأوس والخزرج- وهم أصحاب المزارع والعقار في المدينة النبوية.

(٣) قَرى الضيفَ: أضافَه. انظر: لسان العرب (١١/ ١٤٩).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٦).

(٥) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (١٥٩).



إصابة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

استمرَّت المناوشات بين المسلمين والكفار، فرمى حِبَّان بن العَرِقة بسهم، فأصاب سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأَكْحَلِهِ [(١)].

روى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرجتُ يومَ الخندق أقفو آثار الناس، فسمعتُ وئيد الأرض[(٢)] ورائي -يعني حِسَّ الأرض- فالتفتُّ، فإذا أنا بسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مِجَنَّتَه[(٣)]، قالت: فجلستُ على الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرَجَت منها أطرافه، فأنا أتخوَّف على أطراف سعد، وكان من أعظم الناس وأطولِهم ... قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ورمى سعدًا رجلٌ من المشركين -يُقال له: ابن العَرِقة- بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العَرِقة، فأصاب أَكْحَلَهُ، فقطعه[(٤)].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند صحيح عن

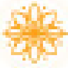
---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٤): الأَكْحَل -بفتح الهمزة والمهملة، بينهما كاف ساكنة-: هو عِرق في وسَط الذراع.

(٢) الوَئيد: صوت شِدَّة الوطء على الأرض، يُسمع كالدويِّ مِن بُعدٍ. انظر: النهاية (٥/ ١٢٥).

(٣) المِجَنُّ: التُّرس. انظر: النهاية (٤/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٠٩٧) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٢٨).



جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال: رُمِيَ يوم الأحزاب سعدُ بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقطعوا أَكْحَلَه، فحسمه[1] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنار، فانتفخت يده، فتركه، فنزفه الدمُ، فحسمه أخرى فانتفخت يده، فلما رأى ذلك، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللهم لا تُخرِجْ نفْسي حتى تُقِرَّ عيني من بني قُرَيظة، فاستمسَكَ عِرقُه، فما قطر قطرةً حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ[2].

ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُحمَل سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المسجد ليُطَبَّب فيه، وليعودَه من قريب؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أُصيب سعد يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش -يُقال له: حِبَّان بن العَرِقة- رماه في الأَكْحَلِ، فضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيمة في المسجد؛ ليعوده من قريب[3].



(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٤/ ١٦٤): حَسَمَهُ: أي: كواه؛ ليقطع دمه، وأصل الحَسْم: القَطْع.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٧٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٦٧٣) - وأخرجه مختصَرًا جدًّا: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٢٢)- ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٩) (٦٥).



استمرار المناوشات وفوات الصلاة

لما طال المُقام على المشركين، اتَّعَدوا[١] أن يَغدُوا[٢] من الغد، فباتوا يُعَبِّئون[٣] أصحابهم، وفرَّقوا كتائبهم في كل وجه من الخندق، ووجَّهوا إلى قُبَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتيبة غليظة، فيها خالد بن الوليد، فتصدى لهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقاتلوهم يومهم ذلك إلى هَوِيٍّ[٤] من الليل، ما يقدرون أن يزولوا عن موضعهم، ولا صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أصحابه صلاة العصر، وفي بعض الروايات صلاة الظهر والعصر والمغرب في وقتها، ثم انصرف المشركون إلى منازلهم وعسكرهم، ولم يكن بعد ذلك اليوم قتال حتى انصرف المشركون، لكنهم لم يكونوا يَدَعون الطلائع[٥] بالليل، يطمعون في الغارة[٦].

---

(١) اتَّعدوا: أي: تواعدوا. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٤٢).

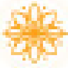
(٢) الغُدوة: هو سير أول النهار. انظر: النهاية (٣/ ٣١١).

(٣) عبأتُ الجيشَ: أي: رتَّبتُهم في مواضعهم وهيَّأْتُهم للحرب. انظر: لسان العرب (٩/ ٦).

(٤) الهَوِيُّ من الليل: الحين الطويل من الزمان، وقيل: هو مختص بالليل. انظر: النهاية (٥/ ٢٤٥).

(٥) الطلائع: هم القوم الذين يُبعَثون؛ ليطَّلِعوا على العدوِّ، كالجواسيس. انظر: لسان العرب (٨/ ١٨٥).

(٦) الإغارة: النَّهْب. انظر: لسان العرب (١٠/ ١٤٢).
والخبر في الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨٣).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إن عمر بن الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمسُ، فجعل يَسُبُّ كفار قريش، قال: يا رسول الله ما كدتُ أُصلي العصر حتى كادت الشمس تغرُب! فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "والله ما صليتُها"، فقمنا إلى بُطحان[1]، فتوضَّأَ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[2].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الأحزاب[3]: «شغلونا عن الصلاة الوسطى؛ صلاة العصر[4]، ملأ اللهُ بيوتهم وقبورهم نارًا»، ثم صلَّاها بين العشاءَين؛ بين المغرب والعشاء[5].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٦٧): بُطْحانُ -بضم أوله، وسكون ثانيه-: وادٍ بالمدينة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٩٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٣١).

(٣) في رواية الإمام البخاري: يوم الخندق.

(٤) قلت: كون صلاة العصر هي الصلاة الوسطى، هو الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم.
قال الإمام الترمذي في جامعه (١/ ٢٢٩): هو قول أكثر العلماء من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وغيرهم.
وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٥٥): كونها العصر هو المعتمد، وبه قال ابن مسعود، وأبو هريرة، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة، وقول أحمد، والذي صار إليه معظم الشافعية؛ لصحة الحديث فيه.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٣١) (٤١١١) (٤٥٣٣) - ومسلم في صحيحه (٦٢٧) (٢٠٥).

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح على شرط مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حُبِسْنا يوم الخندق عن الصلاة حتى كان بعد المغرب بهَوِيٍّ من الليل حتى كُفينا، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[1]، قال: فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلالًا، فأقام صلاة الظهر، فصلاها، وأحسَنَ صلاتها، كما كان يُصلِّيها في وقتها، ثم أمره فأقام العصر، فصلاها، وأحسن صلاتها، كما كان يُصليها في وقتها، ثم أمره فأقام المغرب، فصلاها كذلك، قال: وذلكم قبل أن يُنزِلَ الله في صلاة الخوف: ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[2].

قال الإمام النووي: واعلم أنه وقع في هذا الحديث هنا وفي البخاري أن الصلاة الفائتة كانت صلاة العصر، وظاهره أنه لم يَفُتْ غيرها، وفي المُوَطَّأ أنها الظهر والعصر، وفي غيره أنه أخَّر أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء، حتى ذهب هَوِيٌّ من الليل. وطريق الجمع بين هذه الروايات: أن وقعة الخندق بقيت أيامًا، فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها[3].



(١) سورة الأحزاب - آية (٢٥).
(٢) سورة البقرة - آية (٢٣٩) - والخبر أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١١٤٦٥).
(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥/ ١١١) - ومال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٦٧) إلى ما ذهب إليه الإمام النووي.



هزيمة الأحزاب

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نصر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعباده المؤمنين بالدعاء والريح والملائكة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ[1] وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: ثم أرسل الله عَزَّوَجَلَّ على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تَبْقَ لهم خيمةٌ ولا شيء، ولا تُوقَد لهم نارٌ، ولم يَقِرَّ لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين. وقوله تعالى: ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾: هم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرُّعبَ والخوف؛ فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بَنِي فلانٍ، إلَيَّ، فيجتمعون إليه، فيقول: النَّجاءَ النَّجاءَ! لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب[3].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: وبعث الله عَزَّوَجَلَّ الريح على المشركين، فكفى الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين القتال،

---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٧/ ٧٠): يعني غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة، وكانت حالًا شديدة مُعْقَبَة بنعمة ورخاء وغِبطة، وتضمَّنت أحكامًا كثيرة، وآيات باهرات عزيزة.

(٢) سورة الأحزاب - آية (٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٤).



وكان الله قويًّا عزيزًا[١].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نُصِرتُ بالصَّبا[٢]، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبُور»[٣].

قال الحافظ في الفتح: عُرِف بهذا وجه إيراد المصنِّف[٤] هذا الحديث هنا[٥]، وأن الله نصر نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غزوة الخندق بالريح، قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾[٦].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: دعا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الأحزاب على المشركين، فقال: «اللهم مُنزِلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزِمِ الأحزاب، اللهمَّ اهزِمْهم وزلزِلْهم»[٧].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٠٩٧) - وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٠٨) وجوَّد إسناده.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٦/ ١٧٥): الصَّبَا -هي بفتح الصاد-: الريح الشَّرقيَّة.

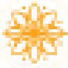
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٢٠٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٠٠).

(٤) أي: الإمام البخاري.

(٥) في باب غزوة الخندق من صحيحه.

(٦) انظر: فتح الباري (٨/ ١٦٠).

(٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٣٣) (٤١١٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٤٢) (٢١).



وروى الإمام أحمد في مسنده بسند ضعيف -وله شواهد يتقوى بها- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هل من شيء نقوله؛ فقد بلغت القلوبُ الحناجرَ؟[1]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم، اللهم استر عَوْراتِنا، وآمِن روْعاتِنا»، قال: فضرب الله عَزَّ وَجَلَّ وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالرِّيح[2].



بَعْثُ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للأحزاب

ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ليأتيه بخبر الأحزاب، بعد ما عصفت فيهم الريح؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأحزاب، وأخذَتْنا ريحٌ شديدة وَقُرٌّ[3]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا، فلم يُجِبْه منا أحد، ثم قال: «ألا رجلٌ يأتينا بخبر القوم، جعله

---

(١) قال السندي في شرحه للمسند (٦/ ٣٣٤): أي: كادت تخرُجُ من البدن، وتنشَقُّ من شدة الخوف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٠٩٩٦) - وحسنه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة للغزالي - ص (٣٠٤) - والسلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٢٠١٨).

(٣) القُرُّ -بضم القاف-: البرد. انظر: النهاية (٤/ ٣٤).

الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا، فلم يُجِبْه منا أحد، ثم قال: «ألا رجلٌ يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا، فلم يُجبه منا أحد، فقال: «قم يا حذيفة، فأْتِنا بخبر القوم»، فلم أجِدْ بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «اذهب، فأْتِني بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهم[1] عليَّ»، فلما ولَّيتُ من عنده جعلتُ كأنما أمشي في حمَّام[2] حتى أتيتُهم، فرأيتُ أبا سفيان يَصْلِي[3] ظَهْره بالنار، فوضعتُ سَهمًا في كَبِد القوس[4]، فأردتُ أن أرميَه، فتذكرتُ قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولا تَذْعَرهم عليَّ، ولو رميتُه لأصبته، فرجعتُ وأنا أمشي في مِثلِ حَمَّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرَغتُ، قُرِرْتُ، فألبسني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من فضل عباءة كانت عليه يُصلِّي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحتُ، فلما أصبحتُ قال:

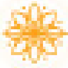
---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٢٣): تَذْعَرْهم -هو بفتح التاء- معناه: لا تُفزِعهم عليَّ ولا تُحَرِّكْهم عليَّ، والمراد: لا تحرِّكهم عليك؛ فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضررًا عليَّ؛ لأنك رسولي وصاحبي.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٢٣): يعني: أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئًا، بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وذهابه فيما وجَّهه له، ودعائه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ له، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلما رجع ووصل، عاد إليه البرد الذي يجده الناس! وهذه من معجزات رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولفظة الحمَّام عربية، وهو مذكَّر مشتق من الحميم، وهو: الماء الحار.

(٣) يَصْلي -بفتح الياء- يعني: يُدفِئُه. انظر: النهاية (٣/ ٤٧).

(٤) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٢٧١): كَبِد القوس: وَسَطُها.



«قم يا نَومانُ!»[1].



رجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى منازلهم

رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام إلى منازلهم، وذلك بعد ذهاب الأحزاب إلى ديارهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: ولولا أن جعل الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشدَّ من الريح العقيم على عادٍ، ولكِنْ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾[3]، فسلط عليهم هواءً فرَّق شَمْلَهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهَوَى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء؛ فناسب أن يرسِل عليهم الهواء الذي فرَّق جماعتهم، وردَّهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقِهم[4]، لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظَّفَر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول -صلوات الله وسلامه

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٨).
(٢) سورة الأحزاب - آية (٢٥).
(٣) سورة الأنفال - آية (٣٣).
(٤) الحَنَق: الغيظ. انظر: النهاية (١/ ٤٣٤).

عليه- بالعداوة، وهَمِّهم بقتله، واستئصال جيشه، ومَن هَمَّ بشيء وصَدَّق هَمَّه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله[(١)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن سليمان بن صُرَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول حين أُجلِيَ[(٢)] الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونَنا، نحن نسيرُ إليهم»[(٣)].

قال الحافظ في الفتح: وفي هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتمر في السنة المُقبِلة، فصدَّته قريش عن البيت، ووقعت الهُدْنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة؛ فوقع الأمر كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)].



(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٥).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٤): أُجْلِيَ -بضم الهمزة، وسكون الجيم، وكسر اللام-: أي: رجَعوا عنه.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١١٠).
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ١٦٤).



غزوة بني قُرَيظة[1]

وقعت في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة[2].

ذكرنا في غزوة الخندق نَقْضَ بني قريظة العهد مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتآمرهم مع الأحزاب على حرب المسلمين؛ فجاء جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمره بقتال يهود بني قريظة.

قال الحافظ ابن كثير: فصلٌ في غزوة بني قريظة، وما أحلَّ الله تعالى بهم من البأس الشديد، مع ما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب الأليم؛ وذلك لكفرهم ونقضهم العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وممالأتهم الأحزاب عليه، فما أجدى[3] ذلك عنهم شيئًا، وباؤوا بغضبٍ من الله ورسوله، والصفقةِ الخاسرة في الدنيا والآخرة[4].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: لما رجع

(١) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٥٣): وأما قُرَيظة فكانت أشد اليهود عداوةً لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأغلظَهم كفرًا؛ ولذلك جرى عليهم ما لم يَجْرِ على إخوانهم.

(٢) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٨٧) - وذكر ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٥٧) أنها وقعت في السنة الخامسة للهجرة، ولم يزد على ذلك.

(٣) فما أجدى: أي: فما أغنى. انظر: لسان العرب (٢/ ٢١٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٩٩).



النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: قد وضعْتَ السلاحَ؟! واللهِ ما وضَعْناه؛ فاخرج إليهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإلى أين؟» قال: هاهنا، وأشار إلى قريظة، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فرغ من الأحزاب، دخل المغتَسَل ليغتسل، فجاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: أوقَدْ وضعتم السلاح؟! ما وضعنا أسلحتنا بعدُ، انهَدْ[2] إلى بني قريظة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كأني أنظر إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من خَلَلِ[3] الباب، قد عصَب رأسَه من الغُبار[4].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان عندها، فَسَلَّم علينا رجل ونحن في البيت، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزِعًا، فقمتُ في أثره، فإذا دِحية الكَلْبي، فقال: «هذا جبريلُ يأمرني أن أذهب إلى بني قريظة»[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١١٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٩) (٦٥).

(٢) نهد: نهض. انظر: النهاية (٥/ ١١٨).

(٣) الخَلَل: الفرجة بين الشيئين، والخَلَّة: الثقبة الصغيرة. انظر: لسان العرب (٤/ ١٩٩).

(٤) عَصَب رأسَه من الغبار: أي رَكِبَهُ وعَلِق به. انظر: النهاية (٣/ ٢٢١).
والخبر أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٤٩٩٤).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٧٩).



خروج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بني قريظة

خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة آلاف من أصحابه متوجِّهًا إلى بني قريظة، ودفع اللواء إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبعث بلالًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُنادي في الناس: أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمركم ألا تُصَلُّوا العصر إلا في بني قريظة؛ فقد روى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «عزمتُ عليكم أن لا تُصلُّوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قُرَيظة»[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنا لما رجع من الأحزاب: «لا يُصلِّيَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصلِّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نُصلي، لم يُرَدْ منا ذلك، فذُكِرَ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يُعنِّفْ واحدًا منهم[2].

وفي رواية الحاكم في مستدركه بسند حسن قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فغرَبَت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن النبي

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٩٤٦) (٤١١٩).



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـم يُـرِدْ أن تَدَعوا الصـلاة، فصَلَّوا، وقالت طائفـة: إنا لفي عزيمـة النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومـا علينـا من إثـم، فصَلَّـت طائفـة إيمانًا واحتسابًا، وتركت طائفةٌ إيمانًا واحتسابًا[1]، ولم يَعِبِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحدًا من الفريقين[2].

قال الإمام ابن حزم: وعَلِمَ الله تعالى أننا لو كنا هناك ما صلَّينا العصر في ذلك اليوم إلَّا في بني قريظة، ولو بعد أيام[3].

وقـال الحافظ ابن كثير: بَيَّنَّا أن الذين صلوا العصر لـوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمـر، وإن كان الآخرون معذورين أيضًا، والحُجة هاهنـا في عذرهـم في تأخير الصـلاة لأجل الجهاد والمبـادرة إلى حصار الناكثين لـلعهد من الطائفة الملعونة[4].



---

(١) يعنـي: تركوا صلاة العصر في وقتها، ولم يصلوها إلا في بني قريظة، وذلك بعدما غربت الشمس.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٧٩).

(٣) انظر: جوامع السيرة للإمام ابن حزم - ص (١١٥).

قـال الحافـظ ابن كثيـر في البداية والنهايـة (٤/ ٥٠٢) معلِّقًا على قـول ابن حزم: وهذا القول منه ماشٍ على قاعدته الأصلية في الأخذ بالظاهر.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٩).



حصار بني قريظة

وبعث الله عَزَّوَجَلَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بني قريظة ليُزلزِلَهم ويُلقيَ في قلوبهم الرعب؛ فقد روى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مر بكم من أحد؟ قالوا: مرَّ علينا دِحْية الكلبي على بغلةٍ شهباءَ، تحته قطيفة ديباج، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أُرسِلَ إلى بني قريظة؛ ليُزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب»[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كأني أنظر إلى الغُبار ساطعًا[2] في زُقاق[3] بني غَنْمٍ[4] مَوكِبَ جبريل حين سار رسولُ الله إلى بني قريظة[5].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٧٩).

(٢) ساطعًا: مرتفعًا. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٩).

(٣) الزُّقاق -بضم الزاي-: الطريق. انظر: النهاية (٢/ ٢٧٧).

(٤) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٧٦٤) - قسم التراجم-: بنو غَنْم: بفتح الغين وسكون النون.
وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٥٥): هم بطن من الخزرج، وهم بنو غَنْم بن مالك بن النجَّار، منهم أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٢١٤) (٤١١٨).



وصل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظ الله ورعايته إلى ديار بني قريظة، فلما رأوه تحصنوا بحصونهم، فناداهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا إخوة القِرَدة والخنازيرِ[1]»، ثم فرض عليهم الحصار، واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة حتى اشتد عليهم الحال، وقذف الله الرعب في قلوبهم؛ فأذعنوا ونزلوا على حُكمِ سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكانوا حلفاءه[2].

وفي رواية ابن إسحاق: فنزلوا على حكم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعَلْتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد عَلِمْتَ[3]، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا ترضَون يا معشر الأوسِ أن يحكُمَ فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فذاك سعد بن معاذ»[4].

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: فلما اشتد حَصْرُهُم واشتد البلاء، قيل

---

(١) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٧٩) إسناده حسن.

(٢) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٠٩٧) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٢٨) - وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٠٨) وجوَّد إسناده.

(٣) يعنون يهود بني قَينُقاع حلفاء الخزرج، لما ترك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكم فيهم بيد عبد الله بن أُبَي ابن سلول، وذلك في غزوة بني قَينُقاع، وقد تقدم ذلك.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٣).



لهم: انزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستشاروا أبا لُبابة بن عبدالمنذر، فأشار إليهم أنه الذبح، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ»[١].



قدوم سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وحكمه في بني قريظة

وبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأُتِيَ به على حمار عليه إكافٌ[٢] من ليف، قد حُمِلَ عليه، وحَفَّ[٣] به قومه، فقالوا: يا أبا عَمرٍو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية، ومَن قد علمتَ، فلا يَرجِعُ إليهم قولًا، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دُورِهم التفت إلى قومه، فقال: قد آن لسعدٍ ألّا يُباليَ في الله لومة لائم، فلما طلع على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قوموا[٤] إلى سيدكم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٠٩٧) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٢٨) - وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٠٨).

(٢) الإكاف: الحبل. انظر: النهاية (٤/ ١٦٧).

(٣) حَفَّ القوم بالشيء: أحدقوا به واستداروا حوله. انظر: لسان العرب (٣/ ٢٤٤).

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٩٨): فقام إليه المسلمون، فأنزلوه؛ إعظامًا وإكرامًا واحترامًا له في محل ولايته؛ ليكون أنفذ لحكمه فيهم.

وقال الإمام النووي في الأذكار - ص (٤٣٧): وأما إكرام الداخل بالقيام: فالذي نختاره أنه مستحبٌّ لمن كان فيه فضيلة ظاهرة؛ من علم أو صلاح أو شرف، أو ولاية مصحوبة بصيانة، أو له ولادة أو رحم مع سنٍّ، ونحو ذلك، ويكون هذا القيام للبر والإكرام والاحترام لا للرياء والإعظام، وعلى هذا الذي اخترناه استمرَّ عَمَل السلف والخلف.

فأنزِلوه»، فأنزَلوه[1]، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احكُمْ فيهم»، فقال سـعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإني أحكـم فيهم: أن تُقتَـلَ مُقاتِلَتُهم، وتُسـبَى ذراريُّهم، وتُقسَّـم أموالُهم، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد حكم فيهم بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ وحكم رسوله»[2].

وفي روايـة الإمام أحمد والترمذي بسـند صحيح عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فحَكَم أن تُقتَلَ رجالُهم، وتُستحْيا نساؤهم وذراريُّهم؛ ليستعين بهم المسلمون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أصبت حكم الله فيهم[3].

وفي رواية الحاكم بسـند حسـن عن سـعد بن أبـي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد حكم اليوم فيهم بحكم الله الذي حَكَم به من فوق سبع سماوات!»[4].

وصـدق الله سـبحانه إذ يقـول: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم[5] مِّنْ أَهْلِ

---

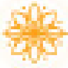
(١) في رواية أبي داود -رقم الحديث (٥٢١٦) بسند صحيح- قال للأنصار: قوموا إلى سيِّدكم.

(٢) أخـرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٢٥٠٩٧) - وابن حبـان في صحيحه - رقـم الحديث (٧٠٢٨) - وأورده الحافـظ في الفتح (١٢/ ٣١٩) وحسَّن إسناده.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٧٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٦٧٣) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٦٠٢).

(٥) قـال الحافـظ ابن كثير في تفسـيره (٦/ ٣٩٨): أي: عاوَنوا الأحزاب وسـاعَدوهم على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



﴿ٱلْكِتَٰبِ[(١)] مِن صَيَاصِيهِمْ[(٢)] وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[(٣)].



تنفيذ الحكم في بني قريظة

أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتنفيذ حكم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يهود بني قريظة، بأن يُقتَل كل مَن أنبت[(٤)] منهم، ومَن لم يكن أنبت تُرِك، فضرب أعناقهم في خنادق حُفِرت في سوق المدينة، وكانوا أربعمائة[(٥)] رجل.

روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود بسند صحيح عن عطية القُرَظي، قال: عُرِضْنا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم قريظة، فكان

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٩٨): يعني بني قريظة من اليهود.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٩٨): صياصيهم، يعني: حُصُونَهم.

(٣) سورة الأحزاب - الآيتان (٢٦ - ٢٧).

(٤) أنبت: أراد نبات شَعر العانة، فجعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علامة البلوغ. انظر: النهاية (٥/ ٤).

(٥) هذه رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٧٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٦٧٣) وإسناده صحيح.
وقال ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٦٥): وهم سِتُّمائة أو سبعمائة، والمُكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة.



مَـن أنبت قُتِلَ، ومَن لم يُنبِت خُلِّي سـبيله، فكنـتُ فيمن لم يُنبِت، فَخُلِّي سبيلي[(١)].

وفي روايـة ابـن حبان في صحيحه بسـند صحيح قـال عطية القرظي: كنتُ أول مَن حكم فيهم سعد، فجيء بي وأنا أرى أنه سيقتلني، فكشفوا عن عانتي، فوجدوني لم أُنبِت، فجعلوني في السَّبْيِ[(٢)].

قـال الإمام الترمـذي في جامعـه: والعمل على هذا عنـد بعض أهل العلم؛ أنهم يرون الإنبات بُلُوغًا إن لم يُعرَفِ احتلامه ولا سِنُّه، وهو قول أحمد، وإسحاق[(٣)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأجلى بني النضير، وأقـرَّ قُرَيظة ومَنَّ عليهم، حتى حاربت قريظـةُ بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم بين المسلمين[(٤)].



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٧٧٦) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٦٧٥) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٤٠٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٨٣).

(٣) انظر: جامع الإمام الترمذي (٣/ ٤١٠).

(٤) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٢٨) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٦).



لم يُقتَلْ من نساء بني قريظة إلا امرأة

ولـم يُقتَلْ من نسـاء يهود بني قريظة سـوى امرأة واحـدة؛ فقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم -واللفظ للحاكم- بسـند حسـن عن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالـت: مـا قتَل رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امـرأةً من بني قريظة إلا امرأةً واحدة، واللهِ إنَّها لعندي تضحك ظَهرًا لبطن، وإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيقتُلُ رجالهم بالسـيوف[1]، إذ يقول[2] هاتفٌ باسـمها: أيـن فلانـة؟ فقالت: أنا والله. قلـتُ: وَيلَكِ ما لكِ؟! فقالـت: أُقتَلُ والله، فقلـت: ولِمَ؟ قالت: لحَدَثٍ أحدثته[3]، فانطُلِـقَ بها فضُرِبَت عنُقُها، فما أنسى عَجَبًا منها طِيبةَ نفسها وكثرة ضحكها، وقد عَرَفت أنها تُقتَل![4].



---

(١) في رواية الإمام أحمد: بالسوق.

(٢) في رواية الإمام أحمد وأبي داود: هتف.
هتف: يعني: نادى. انظر: النهاية (٥/ ٢١١).

(٣) قـال ابن هشـام في السـيرة (٣/ ٢٦٦): هي التي طرحـت الرَّحى على خلاَّد بن سُـوَيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقتَله.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٢٦٣٦٤) - وأبو داود في سـننه - رقم الحديث (٢٦٧١) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٨١).



وفاة السَّيد الكبير سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

استجاب الله جل جلاله دعوة عبده الصالح سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأقرَّ عينه وشفى صدره من يهود بني قريظة، فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَتْلِ رجالهم، انتفض جُرحُه، فمات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلما فُرِغ من قتلهم[1]، انفتق[2] عِرْقُه، فمات[3].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن سعدًا قال[4]: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أُجاهِدَهم فيك من قوم كذَّبوا رسولك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخرجوه، اللهم فإني أظن[5] أنك قد

---

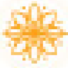
(١) يعني: يهود بني قريظة.

(٢) أصل الفتق: الشَّقُّ والفتح. انظر: النهاية (٣/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٧٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٦٧٣).

(٤) وذلك بعدما حكم في يهود بني قريظة.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٦): والذي يظهر لي أن ظن سعد كان مصيبًا، وأن دعاءه في هذه القصة كان مجابًا، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حربٌ يكون ابتداء القصد فيها من المشركين؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجهز إلى العمرة فصدُّوه عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم فلم يقع، كما قال تعالى:=



وضَعْتَ الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي مِن حرب قريش شيء فأبقني له، حتى أُجاهِدَهم فيك، وإن كنتَ وضَعْتَ الحرب فافْجُرْها[1]، واجعل موتـي فيها، فانفجرت مِن لَبَّتِه[2]، فلم يَرُعْهم[3]، وفي المسـجد خيمة من بني غفار إلا الدم يسـيل إليهم! فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قِبَلِكم؟! فإذا سعد يَغذو[4] جُرحُه دمًا، فمات منها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

ثم حُمِل سـعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -بعد ما فُرِغ من جَهـازه- وحملته الملائكة مع الناس، فكانت جنازته خفيفة بسبب حمل الملائكة؛ فقد روى الإمام الترمـذي، والحاكم بسـند صحيـح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال: لما حُمِلَت

= ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ثـم وقعت الهدنة، واعتمر رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قابلٍ، واسـتمر ذلـك إلى أن نقضوا العهـد، فتوجه إليهم غازيًا فَفُتِحـت مكة، فعلى هذا فالمراد بقولـه: أظنُّ أنك وضعتَ الحرب: أي: أن يقصِدونا محاربين.

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٦): أي :الجراحة.

(٢) قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (١٢/ ٨٢): لَبَّتـه -بفتح اللام وبعدها باء مشددة- وهي: النحر.
وقـال الحافظ في الفتـح (٨/ ١٧٦): وكأن موضـع الجرح ورم حتى اتصـل الورم إلى صدره فانفجر من ثَمَّ.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٨٢): أي: لم يفجَأْهم.

(٤) يَغذو: يسيل. انظر: النهاية (٣/ ٣١٢).

(٥) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٢٢) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٩) (٦٧).



جِنازة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال المنافقون: ما أخَفَّ جنازتَه! وما ذاك إلا لحُكمه في بني قريظة، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «لا، ولكن الملائكة كانت تحمِلُه»[1].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]: «اهتزَّ العرش[3] لموت سعد بن معاذ!»[4].

قال الإمام الذهبي: والعرش خَلْقٌ لله مُسَخَّر إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجَعَل فيه شعورًا لحُبِّ سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أُحُد بحبِّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[5]، وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[6]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾[7]، ثم عَمَّم، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤١٨١) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٩٩٠).

(٢) زاد الإمام مسلم في صحيحه: وجنازة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين أيديهم.

(٣) في رواية الإمام مسلم: عرش الرحمن.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٠٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٦٦) (١٢٣).

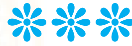
(٥) أخرج ذلك الإمام البخاري - رقم الحديث (٤٠٨٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٩٣).

(٦) سورة سبأ - آية (١٠).

(٧) سورة الإسراء - آية (٤٤).



بِحَمْدِهِ ﴾[1]، وهذا حق، وفي صحيح البخاري قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كنا نسمع الطعام وهو يؤكَل[2]، وهذا باب واسع سبيله الإيمان[3].



نزول سورة الأحزاب

قال ابن إسحاق: وأنزل الله تعالى في أَمْرِ الخندق، وأَمْرِ بني قريظة من القرآن: سورة الأحزاب، يذكر فيها ما نزل من البلاء، ونعمَتَه عليهم، وكفايتَه إياهم حين فَرَّج ذلك عنهم، بعد مقالة مَن قال من أهل النفاق[4].



زواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا

تزوَّج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وفي صبيحة عُرسِها نزل الحجاب، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة[5].

---

(١) سورة الإسراء - آية (٤٤).
(٢) أخرج ذلك البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٥٧٩).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٧).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٧٠).
(٥) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣١٠): ذكر أرباب التواريخ أن تزويجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كان في ذي القعدة سنة خمس.
وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٣٩٩): ولا خلاف أن آية الحجاب نزلت حين دخوله =

كانت الحكمة من زواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إبطال عادة التبنِّي المنتشرة في ذلك الزمان، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعَلْنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلَّقات الأدعياء[2]؛ وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان يُقال له: زيد بن محمد[3]، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا

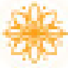
= صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فثبت أن الحجاب كان قبل قصة الإفك، وقد كنت أمليت في أوائل كتاب الوضوء أن قصة الإفك وقعت قبل نزول الحجاب، وهو سهو، والصواب بعد نزول الحجاب فليُصلح هناك.

(١) سورة الأحزاب - آية (٧٩).

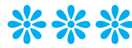
(٢) أي: الأبناء بالتبنِّي.

(٣) روى البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٨٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٢٥) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزل في القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾.

وروى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٠٨٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تبنى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مَن تبنى رجلًا في الجاهلية دعاه الناس إليه، وورث من ميراثه، حتى أنزل الله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ فَرُدُّوا إلى آبائهم، فمن لم يُعلَم له أب كان مولًى وأخًا في الدِّين.



﴿جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1]، ثم زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما طلقها زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾[2] ليتحرز من الابن الدَّعِيِّ؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم[3].



خِطبة زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فظنت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يُريديها لزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبت؛ فقد روى الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره بسند مرسل صحيح عن قتادة، قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[4]، قال: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت بنت عمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخطبها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرضيت، ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبت وأنكرت، فأنزل

---

(١) سورة الأحزاب - آية (٥).

(٢) سورة النساء - آية (٢٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٦).

(٤) سورة الأحزاب - آية (٣٦).



الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، قال: فتابعتْه بعدَ ذلك ورَضِيتَ[1].

مكثت زينب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **عند زيد بن حارثة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قريبًا من سنة**، ثم إنه جاء يشكوها إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام البخاري والترمذي -واللفظ للترمذي- عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[2]، في شأن زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، جاء زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يشكو، فَهمَّ بطلاقها، فاستأمر النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[3].

قال الحافظ في الفتح: والحاصل أن الذي كان يُخفيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشيةُ قول الناس: تزوج امرأة ابنه! وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنِّي بأمرٍ لا أبلَغَ في الإبطال منه، وهو تزَوُّج امرأة الذي يُدعى ابنًا، ووقع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبوله[4].

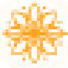
---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠١).

(٢) سورة الأحزاب - آية (٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٨٧) (٧٤٢٠) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٤٩١).

(٤) انظر: فتح الباري (٩/ ٤٧٩).



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزيد: «اذهب فاذكُرْها علَيَّ»[(١)]، قال: فانطلق حتى أتاها، وهي تُخمِّرُ عجينها، قال: فلما رأيتها عَظُمَت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها؛ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكَرَها[(٢)]، فوَلَّيتُها ظهري، ونكَصْتُ[(٣)] على عَقِبي، فقلتُ: يا زينبُ أبشري، أرسلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكُرُكِ، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أُؤامِرَ ربي عَزَّ وَجَلَّ، فقامت في مسجدها[(٤)]، ونزل القرآن[(٥)]، وجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل عليها بغير إذن[(٦)].

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١٩٤): أي: فاخطبُها لي من نَفْسِها.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١٩٤): معناه: أنه هابها واستجَلَّها؛ من أجل إرادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوُّجها، فعاملها معاملة من تزوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإعظام والإجلال والمهابة!

(٣) النكوص: الرجوع إلى الوراء. انظر: النهاية (٥/ ١٠١).

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١٩٥): أي: موضع صلاتها من بيتها.

(٥) بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: أي: لما فرغ منها -زيد- وفارقها، زوجناكها، وكان الذي وَلَّى تزويجها منه هو الله عَزَّ وَجَلَّ، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا وليٍّ ولا مهرٍ ولا عقدٍ ولا شهودٍ من البشر!

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٢٨) (٨٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٠٢٥).



وروى الإمام البخاري في صحيحه والترمذي في جامعه -واللفظ للترمذي- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قال: فكانت تفخر على أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تقول: زوجَكُنَّ أهلُكن[1]، وزوَّجني الله من فوق سبع سماوات[2]!



وليمة[3] زواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

وأولَمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بنى[4] بزينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أولَمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بنى بزينب ابنة جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فأشبع الناس خُبزًا ولحمًا[5].

---

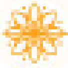
(١) قال الحافظ في الفتح (١٥/ ٣٧١): وهذا الإطلاق محمول على البعض، وإلا فالمُحَقَّق أن التي زوجَّها أبوها منهن: عائشة وحفصة فقط، وفي سودة وزينب بنت خزيمة وجويرية: احتمال، وأما أم سلمة وأم حبيبة وصفية وميمونة، فلم يزوِّجْ واحدةً منهنَّ أبوها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٧٤٢٠) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٤٩٢).

(٣) الوليمة: الطعام الذي يُصنَع عند العُرْس. انظر: النهاية (٥/ ١٩٦).

(٤) البناء: الدخول بالزوجة. انظر: النهاية (١/ ١٥٦).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٩٣).



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أولَمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على امرأة من نسائه أكثَرَ أو أفضَلَ مما أولم على زينب[1].

قال الإمام النووي: يحتمل أن سبب ذلك الشكر لنعمة الله في أن الله تعالى زوجه إياها بالوحي، لا بولي وشهود، بخلاف غيرها، ومذهبنا الصحيح المشهور عند أصحابنا صحة نكاحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا ولي ولا شهود؛ لعدم الحاجة إلى ذلك في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الخلاف في غير زينب، وأما زينب فمنصوص عليها، والله أعلم[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بُنِيَ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأُرسِلْتُ على الطعام داعيًا، فيجيء قوم، فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم، فيأكلون ويخرجون، فدعوتُ حتى ما أجد أحدًا أدعو[3].



---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٢٨) (٩١).

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٩٣).

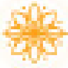


نزول الحجاب

فلمَّـا طَعِمَ الناسُ جلـس طوائف منهم يتحدَّثون في بيت رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام مسـلم في صحيحـه عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:... وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالـس، وزوجته مولِّية وجهها إلى الحائط، فثَقُلُوا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلَّم على نسائه، ثم رجع، فلما رأوا رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رجـع ظنوا أنهم قد ثَقُلُوا عليه، فقال: فابتَدَروا البابَ فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أرخى السـتر، ودخل فلم يلبَثْ إلا يسـيرًا حتى خرج عليَّ، وأُنزِلَت هذه الآية، فخرج رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرأهنَّ على الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾[1].

وروى الشـيخان في صحيحيهمـا عن أنس بن مالـك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أصبح رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عروسًـا[2] بزينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا،

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٢٨) (٩٤).
(٢) يُقـال للرجل: عروس، كما يُقال للمرأة، وهو اسـم لهما عنـد دخول أحدهما بالآخر: انظر: النهاية (٣/ ١٨٧).



وكان تزوَّجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، فجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلس معه رجال بعدما قام القوم، حتى قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمشى ومشيتُ معه، حتى بلغ حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم ظن أنهم خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع ورجعتُ الثانية، حتى بلغ باب حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد قاموا، فضرب بيني وبينه سِترًا، وأُنزِل الحِجابُ(١).

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا أحدث الناس عهدًا بهذه الآيات، وحُجِبْن نساءُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

* وقال الإمام ابن القيم: فهؤلاء نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هن أمهات المؤمنين في التحريم والحرمة فقط لا في المَحرميَّة؛ فليس لأحد أن يخلو بهن ولا ينظر إليهن، بل قد أمرهن الله بالاحتجاب عمن حَرُم عليه نكاحُهن من غير أقاربهن، ومَن بينَهن وبينه رَضاع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٤٦٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٢٨) (٩٣).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٢٨) (٩٤).

(٣) انظر: زاد المعاد (٦/ ١٦٦).



وقال الحافظ ابن كثير: فناسب نزولُ الحجاب في هذا العرس؛ صيانةً لها ولأخواتها من أمهات المؤمنين، وذلك وَفْق الرأي العُمَري[(١)].



(١) يعني: رأي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانظر: كلام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٣٣).



السنة السادسة للهجرة

مرحلة جديدة للدعوة

نستطيع أن نُسمِّيَ مرحلة ما بعد غزوة الخندق: مرحلة التمكين والفتح، وعَبَّر عن ذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعبارة دقيقة، فقال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[1]؛ فإنه لما فرغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر الأحزاب ويهود بني قريظة، وهدأ وضعُ المدينة النبوية، أخذ يُوجِّه الحملات التأديبية لكل مَن غدر بالمسلمين في حوادث سابقة؛ ليُعزِّز قوة الدولة الإسلامية، ويفرض هيبتها في الجزيرة العربية.



سَرِيَّة عبد الله بن عتيك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لقتل سَلَّام بن أبي الحُقَيق

قال ابن إسحاق: ولما انقضى شأن الخندق، وأَمْرُ بني قريظة، وكان سَلَّام بن أبي الحُقَيق، وهو أبو رافع، فيمن حَزَّب الأحزاب على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت الأوس قبل أُحُد قد قتلت كعب بن الأشرف، في عداوته لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحريضه عليه، استأذَنَت الخزرجُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتل سَلَّام بن أبي الحُقَيق، وهو بخيبر، فأذِنَ لهم[2].

(١) تقدم تخريج هذا الحديث قريبًا.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٠).



قصة قتله

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا، قال: بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ إلى أبي رافع اليهودي رجالًا من الأنصار[1]، فأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وكان أبو رافع يُؤذي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ويُعين عليه، وكان في حِصن له بأرض الحجاز،

---

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٠٢٢): بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ رهطًا من الأنصار إلى أبي رافع؛ ليقتلوه.

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٠٤٠): بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ إلى أبي رافع: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عُتبة في ناس معهم.

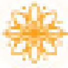
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٨٤): سُمِّيَ منهم في هذا الباب: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبة، وعند ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٠١): عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أُنيس، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعي، وخزاعي بن أسود، فإن كان عبد الله بن عتبة محفوظًا فقد كانوا ستة.

* قلتُ: وَهِمَ ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٥٨١) - قسم التراجم -: في اسم عبدالله بن عتبة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فقال: عبد الله بن عِنَبة، هو أبو عِنَبة عبد الله بن عنبة الخولاني، له ذكر في قتل أبي رافع بن أبي الحُقيق.

عِنَبة: بكسر العين المهملة، وفتح النون.

والعجيب أنه ذكره في كتاب الغزوات من جامع الأصول (٨/ ٢٣٠) باسمه الصحيح: عبد الله بن عُتبة.

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٨٤): وزعم ابن الأثير في جامع الأصول: أنه ابن عِنَبة -بكسر العين وفتح النون- وهو غلط منه؛ فإنه خولاني لا أنصاري، ومتأخر الإسلام، وهذه القصة متقدمة، والرواية: بضم العين وسكون المثناة، لا بالنون. والله أعلم.



فلما دَنَوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسَرْحِهم[(١)]، فقال عبدالله لأصحابه: اجلِسوا مكانكم؛ فإني منطلق ومُتلطِّف للبوَّاب؛ لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تَقَنَّع[(٢)] بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف[(٣)] به البوَّاب: يا عبد الله، إن كنتَ تريد أن تدخل فادخل، فإني أُريد أن أُغلِقَ الباب، فدخلتُ فكمَنْتُ[(٤)]، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم عَلَّق الأغاليق[(٥)] على وَدٍّ[(٦)]، قال: فقمتُ على الأقاليد[(٧)] فأخذتها ففتحتُ الباب[(٨)]، وكان أبو رافع يُسمَر عنده، وكان في عَلاليَّ له، فلما ذهب عنه أهلُ سَمَرِه صَعِدتُ إليه، فجعلت كلما فتحتُ بابًا أغلقتُ عليَّ من داخل، قلتُ: إنِ القومُ نَذِروا[(٩)] بي لم يخلُصوا إليَّ حتى أقتُلَه، فانتهيتُ إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت؟ فقلت: أبا رافع: قال: مَن هذا؟ فأهوَيتُ[(١٠)] نحو الصوت فأضرِبُه

---

(١) السَّرْحُ: الماشية. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٢).

(٢) تقنَّع: تغطى. انظر: النهاية (٤/ ١٠٠).

(٣) هتف: نادى. انظر: النهاية (٥/ ٢١١).

(٤) كمن: استتر واستخفى. انظر: النهاية (٤/ ١٧٤).

(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٢٣٢): الأقاليق والأغاليق: المفاتيح.

(٦) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٢٣٢): الوَدُّ: الوَتِدُ في لغة تميم.

(٧) الأقاليد: جمع إقليد، وهو المِفتاح. انظر: النهاية (٤/ ٨٧).

(٨) في رواية أخرى في صحيح البخاري: ففتحتُ باب الحصن.

(٩) نذِروا -بكسر الذال- أي: علموا وأحسُّوا بمكانه. انظر: النهاية (٥/ ٣٣).

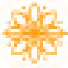
(١٠) في رواية أخرى في صحيح البخاري: فتعمَّدتُ.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٨٥): أي: قصَدْتُ.



ضربة بالسيف، وأنا دَهِشٌ[(١)] فما أغنيتُ شيئًا[(٢)]، وصاح، فخرجتُ من البيت فأمكثُ غيرَ بعيد، ثم دخلتُ إليه، فقلت[(٣)]: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأُمِّك الوَيلُ! إنَّ رجلًا في البيت ضربني قَبْلُ بالسيف. قال: فأضرِبُه ضربةً أثخَنتْه[(٤)]، ولم أقتُلْه، ثم وضعتُ ضَبيبَ[(٥)] السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفتُ أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيتُ إلى درجة له، فوضعتُ رجلي وأنا أُرَى[(٦)] أني قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعتُ في ليلة مقمرة، فانكسَرَت ساقي فعصَبْتُها بعمامة، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب، فقلتُ: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتَلْتُه، فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أَنْعَى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النَّجاءَ، فقد قَتَلَ اللهُ أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحدَّثْتُه، فقال لي: «ابسُطْ رجلك»، فبسطتُ رجلي فمسحها، فكأنَّها لم أشتكِها قطُّ[(٧)]!

---

(١) دَهِش -بكسر الهاء-: ذَهَلَ. انظر: لسان العرب (٤/ ٤٢٧).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٨٥): أي: لم أقتله.
(٣) زاد البخاري في رواية أخرى: وغيَّرت صوتي.
(٤) الإثخان في الشيء: المبالغة فيه. انظر: النهاية (١/ ٢٠٣).
(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٢٣٣): ظُبَة السيف: طَرَفه، وصبيب السيف قد اختلفوا فيه؛ فقيل: هو بالصاد المهملة، وهو طَرَفه، وقيل: بالظاء المعجمة، ولا أدري له معنًى، والصحيح: أنه بالصاد المهملة كما قلنا. والله أعلم.
(٦) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٨٦): أُرى -بضم الهمزة- أي: أظُنُّ.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٢٢) (٤٠٣٩) (٤٠٤٠).



وفي رواية ابن إسحاق: أن جميع النفر دخلوا على أبي رافع، واشتركوا في قتله، وأن الذي تحامل عليه بالسيف عبد الله بن أُنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه أنهم لما قتلوه ليلًا، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه، وأتوا مَنهرًا[1] من عيونهم، فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران، واشتدوا في كل وجه، حتى إذا يئسوا رجعوا على صاحبهم، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].



سَرِيَّة زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى العِيص[3]

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سبعين ومائة راكب، وذلك في جمادى الأولى من السنة السادسة[4] للهجرة، والهدف اعتراض عِير لقريش أقبلت من الشام يقودها أبو العاصِ بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوجُ زينب بنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وكان ما زال مشركًا- فأدركوها فأخذوها وما فيها، وأسَروا ناسًا ممن كان في العِير؛ منهم: أبو العاصِ بن

(١) المنهر: خَرقٌ في الحصن نافذ يدخل فيه الماء. انظر: النهاية (٤/ ٣١٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٣) العِيص -بكسر العين-: موضع قرب المدينة على ساحل البحر. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٧).

(٤) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٩٣) - وذكر ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٦٩) أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث هذه السرية قُبيل فتح مكة، لكنه لم يحدد لها تاريخًا، فقال: حتى إذا كان قُبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرًا.... وساق خبر هذه السَّرِية.



الربيع[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقدموا بهم إلى المدينة[2].

فأرسل أبو العاص بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة -وكانت هاجرت إلى المدينة- فاستجار بها، فأجارته؛ فقد روى الحاكم والطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند حسن عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إليها أبو العاص بن الربيع: أنْ خُذي لي أمانًا من أبيك، فخرَجَتْ فأطلَعَتْ رأسها من باب حُجرتها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصبح يُصلي بالناس، فقالت: أيها الناس، إني زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإني قد أجرتُ أبا العاص، فلما فرغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلاة، قال: «أيها الناس، إنه لا عِلْمَ لي بهذا حتى سمعتموه، ألا وإنه يُجِير على المسلمين أدناهم»[3].

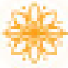
وطلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحاب السَرِيَّة رد الأموال التي غنموها من قافلة أبي العاص بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من غير أن يُكرِهَهم،

---

(١) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٩٣) - وذكر ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٦٩): أن العاص بن الربيع أعجزهم هربًا، ولم يُؤسَر.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٩) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٧٠١٥) - والطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (١٢٤٤) - وذكره الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ١٢٩) فقال: وثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أجار أبا العاص بن الربيع لمَّا أجارته ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



فـردوا عليه كل ما أخذوه من القافلة، حتـى إن الرجل ليأتي بالدَّلوِ ويأتي بالشَّـنَّة[١] والإداوة[٢]، حتى العِقال[٣]، حتى ردُّوا عليـه ماله كله، ما يُفقَد منه شيء[٤]!



عودة أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة وإسلامه

ثـم رجع أبـو العاص بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكـة، فأدَّى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ومن كان أبضع له، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّـا كريمًا، فقال: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأنا أشـهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسـوله، واللهِ مـا منعني من الإسـلام عنده إلا تخـوُّفُ أن تظنوا أني إنما أردتُ أن آكُلض أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمتُ. ثم خرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى قَدِمَ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥].

قال الإمام الذهبي: أسلم قبل الحُديبيَة بخمسة أشهر[٦].

---

(١) الشَّنَّة: القِربة. انظر: النهاية (٢/ ٤٥٣).

(٢) الإداوة -بكسر الهمزة-: إناء صغير من جِلد يُتخذ للماء. انظر: النهاية (١/ ٣٦).

(٣) العِقال: هو الحبل الذي يُربَط به البعير. انظر: النهاية (٣/ ٢٥٣).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٩).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٠).

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٣١).



هل رد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب لأبي العاص بعقد جديد؟

ورَدَّ رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأبـي العاص بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النكاح الأول، ولم يُحدِث شهادةً ولا صَداقًا؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك.

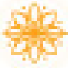
روى الإمام الترمذي وأبو داود وابن ماجه بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بعد ستٍّ[1] سنين بالنكاح الأول، ولم يُحدِث نِكاحًا[2].

قال الإمام السندي: فإن قيل: حديثه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردها عليه بعد ست سنين، والعِدَّة لا تبقى إلى هذه المدة غالبًا، قلنا: لم يُؤثِّر إسلامها وبقاؤه على الكفر في قطع النكاح الأول، إلا بعد نزول الآية في الممتحَنة،

---

(١) في رواية ابن ماجه: بعد سنتين.
قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٣٠): وأشار بذلك -يعني الإمام الترمذي- إلى أنَّ رَدَّها إليه بعد ست سنين، أو بعد سنتين، أو ثلاث: مشكل؛ لاستبعاد أن تبقى في العدة هذه المدة، ولم يذهب أحد إلى جواز تقرير المسلمة تحت المشرك إذا تأخر إسلامه عن إسلامها حتى انقضت عدتها، وممَّن نقل الإجماع في ذلك ابن عبد البر، وأشار إلى أن بعض أهل الظاهر قال بجوازه، ورده بالإجماع المذكور، وتعقب بثبوت الخلاف فيه قديمًا، وهو منقول عن علي وعن إبراهيم النخعي، أخرجه ابن أبي شيبة عنهما بطرق قوية، وبه أفتى حماد شيخ أبي حنيفة.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١١٧٥) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٢٤٠) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٠٠٩).



وذلـك بعد صُلح الحُديبيَة، فتوقُّف نكاحهـا على انقضاء العدة من حين النـزول، وكان إسـلام أبي العاص بعـد الحُديبيَة بزمان يسـير[١]، بحيث يمكن أن تكون عدتها لم تنقضِ في الغالب، فيشـبه أن يكون الرد بالنكاح الأول؛ لأجل ذلك[٢].

وقال الإمام ابن القيم: ولا يُعرَف اعتبار العِدَّة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسـأل المرأة: هل انقضـت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام كان بمجَرَّده فُرقةً، لم تكن فُرقة رجعية بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسـلام قـد نَجَّـز الفُرقة بينهما، لم يكـن أحقَّ بها في العدة، ولكـن الذي دل عليه حكمـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النـكاح موقوف، فإنْ أسـلم قبل انقضـاء عِدَّتِها فهـي زوجته، وإن انقضـت عدتها فلها أن تنكِح مَن شـاءت، وإن أحبَّت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح، ولا نعلم أحدًا جَدَّد للإسـلام نكاحه البتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاؤها عليه وإن تأخر إسلامها أو إسلامه[٣].

---

(١) اختُلِـفَ في وقـت إسـلام أبي العـاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقيـل: قبـل الحُديبية، وقيـل: بعدها بيسير.

(٢) انظر: شرح السندي للمسند (٢/ ٢٧٦).

(٣) انظر: زاد المعاد (٥/ ١٨٨-١٨٩).



تنبيه هام:

ذهب موسى بن عقبة[1] إلى أن قصة أبي العاص بن الربيع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأسْرِه وقعت بعد هدنة الحُديبيَة، وأن الذين تعرَّضوا لقافلته هم: أبو بَصير وأبو جَندل وأصحابهما زمن هدنة الحُديبيَة، ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنهم كانوا منحازين عنه بسِيفِ البحرِ[2]، وكان لا يمر بهم مِن عِير لقريش إلا أخذوها، وهذا قول الزُّهري[3]، خلافًا لما ذهب إليه الواقدي[4]، وابن سعد في طبقاته[5]، وغيرهما من أصحاب المغازي؛ من أن سَرِيَّة زيد بن حارثة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هي التي اعترضت قافلته، وصوَّب ذلك الإمام ابن القيم.

قال الإمام ابن القيم: وقول موسى بن عقبة أصوب، وأبو العاص إنما أسلم زمن الهُدنة، وقريش إنما انبسطت عِيرها إلى الشام في زمن الهدنة، وسياق الزُّهري للقصة بيِّن ظاهر أنها كانت في زمن الهدنة[6].



---

(١) كما في دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ١٧٤).
(٢) سِيفُ البحر: ساحِلُه. انظر: النهاية (٢/ ٣٩٠).
(٣) أورد ذلك عنه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٧٢-١٧٥).
(٤) أورد ذلك عنه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٨٥).
(٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٩٣).
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٣٤).



سَرِيَّة الخَبَط[1]

روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: بعثَنا رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأمَّر علينا أبا عُبيدة، نتلقى[2] عِيرًا لقريش[3]، وزوَّدَنا جِرابًا[4] من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يُعطينا تمرةً تمرةً، فقلتُ: كيف كنتم تصنعون بها؟

---

(١) الخَبَط: ما سقط من ورق الشجر بالخَبْط والنَّفْض. انظر: النهاية (٢/ ٨).

(٢) في رواية أخرى في الصحيحين: نرصد.
والرصد: المراقبة. انظر: لسان العرب (٥/ ٢٢٣).

(٣) في رواية ابن سعد في طبقاته (٢/ ٣١٥): أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعثهم إلى حي من جُهينة بالقَبَلية مما يلي ساحل البحر.
القَبَلية: -بفتح القاف والباء- هي ناحية من ساحل البحر، بينها وبين المدينة خمسة أيام. انظر: النهاية (٤/ ٩).
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٠٨): وهذا لا يُغاير ظاهره ما في الصحيح؛ لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيرًا لقريش ويقصدون حيًّا من جُهينة، ويقوي هذا الجمع ما عند مسلم من طريق عبيد الله بن مقسم عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: بعث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعثًا إلى أرض جُهينة، فذكر هذه القصة، لكن تَلقِّي عير قريش ما يُتصور أن يكون في الوقت الذي ذكره ابن سعد في رجب سنة ثمان؛ لأنهم كانوا حينئذ في الهدنة، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السَّرية في سنة ست أو قبلها قبل هدنة الحُديبيَة، نعم يُحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم، بل لحفظهم من جُهينة؛ ولهذا لم يقع شيء من طرق الخبر أنهم قاتلوا أحدًا، بل فيه أنهم قاموا نصف شهر أو أكثر في مكان واحد. والله أعلم.

(٤) الجراب: -بكسر الجيم- وعاء من جلد، لا يُوضع فيه إلا يابس. انظر: لسان العرب (٢/ ٢٢٨).



قال: نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعِصِينا الخَبَط[1]، ثم نبُلُّه بالماء فنأكله، وانطلقنا على ساحل البحر، فَرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تُدعى العنبر[2]، فقال أبو عبيدة: ميتة! ثم قال: لا، بل نحن رُسُل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي سبيل الله، وقد اضطُررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا[3]، ونحن ثلاثمائة حتى سَمِنَّا! ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب[4] عينه بالقلال[5] الدُّهْنَ، ونقتطع منه الفِدَر[6] كالثور

---

(١) في رواية أخرى في الصحيحين: فأصابنا جوع شديد، حتى أكلنا الخَبَط.

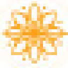
(٢) العنبر: هي سمكة بحرية كبيرة. انظر: النهاية (٣/ ٢٧٦).
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٥٤٩٣): فألقى البحر حوتًا ميتًا لم يُر مثله.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٣٦٠): فإذا حوت مثل الظَّرِب.
الظراب: الجبال الصغيرة، واحدتها: ظَرِبٌ بوزن كتِف، وقد يُجمع في القلة على أظْرُب.
انظر: النهاية (٣/ ١٤٢).

(٣) في رواية أخرى في الصحيحين: نصف شهر.
وفي رواية أخرى في الصحيحين: ثمان عشرة ليلة.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٣/ ٧٥): طريق الجمع بين الروايات: أن من روى شهرًا هو الأصل ومعه زيادة علم، ومَن روى دونه لم ينفِ الزيادة، ولو نفاها قُدِّم المثبت، وقد قدمنا مرات أن المشهور الصحيح عند الأصوليين أن مفهوم العدد لا حكم له؛ فلا يلزم منه نفي الزيادة لو لم يُعارضه إثبات الزيادة، كيف وقد عارضه؟ فوجب قبول الزيادة.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤١١): الوَقْب: -بفتح الواو وسكون القاف- حفرة العين في عظم الوجه.

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٣/ ٧٤): القِلال -بكسر القاف-: جمع قُلة -بضمها- هي الجَرَّة الكبيرة.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤١١): الفِدَر: -بكسر الفاء وفتح الدال- جمع فِدْرة -بفتح ثم سكون- وهي: القطعة من اللحم.



-أو كقدر الثور-، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا، فأقعدهم في وَقْب عينه، وأخذ ضِلَعًا مَن أضلاعه فأقامها، ثم رَحَل[(١)] أعظم بعير معنا، فمر من تحتها[(٢)]، وتزوَّدْنا من لحمه وشائقَ[(٣)]، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتُطعمونا؟»

قال: فأرسلنا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه، فأكله[(٤)].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكان فينا رجل[(٥)]، فلما اشتد الجوع نحر ثلاث جزائر[(٦)]، ثم ثلاث جزائر، ثم نهاه أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)].

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٣/ ٧٥): رَحَل: بفتح الحاء، أي: جعل عليه رَحْلًا - والرحل للبعير: كالسرج للفرس. انظر: النهاية (٢/ ١٩٢).

(٢) في رواية أخرى في الصحيحين: فأخذ أبو عبيدة ضِلَعًا من أضلاعه فنصبه، ثم نظر إلى أطول رجل في الجيش، وأطول جمل، فحمله عليه، فمرَّ تحته!

زاد الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح - رقم الحديث (١٤٢٨٦): فلم يُصِبها شيء.

(٣) الوشائق: جمع وشيقة، وهو أن يُؤخذ اللحم فيُغلى قليلاً ولا يُنضج، ويُحمل في الأسفار. انظر: النهاية (٥/ ١٦٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٦٠) (٤٣٦١) (٤٣٦٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٣٥) (١٧) (١٨).

(٥) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٣): هذا الرجل هو قيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان اشترى الجُزُر من أعرابي جهني: كل جَزور بِوَسْق من تمر يُوفيه إياه بالمدينة.

الوَسْق: بفتح الواو وسكون السين: ستون صاعًا. انظر: النهاية (٥/ ١٦١).

(٦) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٣): الجزائر: جمع جزور، وفيه نظر؛ فإن جزائر جمع جزيرة، والجَزور إنما يُجمع على جُزُر بضمتين، فلعله جمع الجمع.

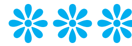
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٤٩٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٣٥) (١٩).



فوائد من سَرِيَّة الخَبَط

قـال الحافظ في الفتح: فيُستفاد منه: إباحة مَيتة البحر، سواء مات بنفسه، أو مات بالاصطياد، وهو قول الجمهور[١].

وقال الإمام ابن القيم: وفيها[٢] دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإقرارِه على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الاجتهاد، وعدم تمكُّنِهم من مراجعة النص، وقد اجتهد أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عِدَّة من الوقائع، وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جُزْئيَّة معيَّنة لا في أحكام عامة وشرائع كلية؛ فإن هذا لم يقع من أحد من الصحابة في حضوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البتة[٣].

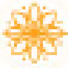


وَهْم أهل المغازي في تاريخ هذه السَّرية

ذهب عامة أهل المغازي إلى أن سرية الخَبَط وقعت في رجب من السنة الثامنة للهجرة، وهذا فيه نظر.

قال الحافظ ابن كثير: ومقتضى أكثر هذه السياقات أن هذه السرية

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٣).
(٢) يعني: سَرِيَّةَ الخَبَطِ.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٧).



كانت قبل صلح الحُديبيَة[(١)].

وقال الإمام ابن القيم: وهذا السياق يدل على أن هذه الغزوة كانت قبل الهُدنة، وقبل عُمرة الحُديبيَة؛ فإنه من حين صالح أهل مكة بالحُديبية لم يكن يرصد لهم عِيرًا، بل كان زمن أمن وهُدنة إلى حين الفتح، ويبعد أن تكون سَرية الخَبَط على هذا الوجه مرتين؛ مرةً قبل الصلح، ومرة بعده. والله أعلم[(٢)].

وقال أيضًا: فصل في فقه هذه القصة؛ ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام، إن كان ذِكْرُ التاريخ فيها برجب محفوظًا، والظاهر -والله أعلم- أنه وَهْم غير محفوظ؛ إذ لم يُحفظ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه غزا في الشهر الحرام ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سَرية[(٣)].

وقال الحافظ في الفتح: تَلَقِّي عِير قريش ما يُتصوَّر أن يكون في الوقت الذي ذكره ابن سعد في رجب سنة ثمانٍ؛ لأنهم كانوا حينئذ في الهُدنة، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السَّرية في سنة ستٍّ، أو قبلها قبل هُدنة الحُدَيبيَة[(٤)].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٦٧٠).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٢).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٣).
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٨).



تنبيه هام:

قلت: وقع في صحيح مسلم غزوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبيهة أحداثها بأحداث سَرية الخَبَط، وهو أيضًا عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، الذي روى قصة سرية الخَبَط مع أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سرنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة بطن بُوَاط[١] وهو يطلب المجدي بن عمرو الجُهني، وكان الناضح[٢] يَعقُبُه منا الخمسة والستة والسبعة... إلى أن قال: وكان قوت[٣] كل رجل منا في كل يوم تمرة، فكان يَمَصُّها ثم يَصُرُّها[٤] في ثوبه، وكنا نختبط[٥] بقِسِيِّنا[٦] ونأكل، حتى قَرِحت أشداقنا[٧]... إلى أن قال: وشكا الناس إلى رسول

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٨/ ١٠٨): بُواط -بضم الباء الموحدة وفتحها، والواو مخففة، والطاء مهملة-.
وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٤): بواط: هو جبل من جبال جهينة بقرب ينبع.

(٢) النواضح: هي الإبل التي يُستقى عليها، واحدها: ناضح. انظر: النهاية (٥/ ٥٩).

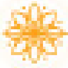
(٣) القوت: قدر ما يُمسك الرَّمَق من المطعم. انظر: النهاية (٤/ ١٠٤).

(٤) يَصُرُّها: يجمعها ويشدها. انظر: لسان العرب (٧/ ٣٢٣).

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم(١٨/ ١١١): معنى نختبط: نضرب الشجر؛ ليتحاتَّ ورقه فنأكله.

(٦) القِسِيُّ: جمع قوس. انظر: لسان العرب (١١/ ٣٤٥).

(٧) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٨/ ١١١): أي: تجرَّحت من خشونة الورق وحرارته.
والأشداق: جوانب الفم. انظر: النهاية (٢/ ٤٠٦).



الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجوع، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عسى الله أن يُطعمكم»، فأتينا سِيفَ البحر، فزَخَر[1] البحر زخرة، فألقى دابة، فأَورينا[2] على شِقِّها النار، فاطَّبَخْنا واشتوينا وأكلنا حتى شبعنا، فدخلتُ أنا وفلان وفلان -حتى عد خمسةً- في حِجاج[3] عينها، ما يرانا أحد! حتى خرجنا، فأخذنا ضِلَعًا من أضلاعه فقَوَّسناه، ثم دعونا بأعظم رجل في الركب، وأعظم جمَل في الركب، وأعظم كِفْل[4] في الركب، فدخل تحته ما يُطأطئ[5] رأسه[6]!

ذكر الحافظ ابن كثير أحداث سرية الخَبَط مع أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قال: وفي بعض روايات مسلم أنهم كانوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين وجدوا هذه السمكة، فقال بعضهم: هي واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هي قضية واحدة، ولكن كانوا أولًا مع النبي

---

(١) زخر: ارتفعت أمواجه. انظر: النهاية (٢/ ٢٧١).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٨/ ١١١): أورينا: أوقدنا.

(٣) الحِجاج: -بكسر الحاء وفتحها-: العظم المستدير حول العين. انظر: النهاية (١/ ٣٢٩).

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٨/ ١١١): الكِفْل: -بكسر الكاف وإسكان الفاء- قال الجمهور: الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه؛ لئلا يسقط، فيحفظ الكِفل الراكب.

(٥) طاطأ: خفض. انظر: لسان العرب (٨/ ١١٣).

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الزهد والرقائق - باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليَسَر - رقم الحديث (٣٠٠٩) (٣٠١١) (٣٠١٤).

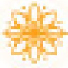


صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بعثهم سَـرِيةً مع أبي عبيـدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوجدوا هذه[1] في سريتهم تلك مع أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله أعلم[2].

وقـال الحافظ في الفتح: وظاهر سـياق هذه القصـة[3] يقتضي مغايرة القصـة المذكـورة في البـاب[4]، وهـي من روايـة جابر أيضًـا، حتى قال عبـد الحق في الجمع بيـن الصحيحين: هذه واقعة أخـرى غير تلك؛ فإن هـذه كانـت بحضرة النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما ذكره ليس بنـص في ذلك؛ لاحتمـال أن تكون الفاء في قـول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأتينا سِـيفَ البحر، هي الفصيحة، وهي مُعقبة لمحذوف تقديره: فأرسـلَنا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبي عبيدة، فأتينا سِـيفَ البحر؛ فتتحد القصتان، وهذا هو الراجح عندي، والأصـل عدم التعدد، ومما يُنبَّه عليه هنـا أيضًا أن الواقدي زعم أن قصة بعْث أبي عبيدة كانت في رجب سنة ثمانٍ، وهو عندي خطأ؛ لأن في نفس الخبر الصحيح أنهم خرجوا يترصدون عِير قريش، وقريش في سـنة ثمان كانـوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هُدنـة، وقد نبهتُ على ذلك في المغازي، وجـوزتُ أن يكون ذلك قبل الهُدنة في سـنة سـتٍّ أو قبلهـا، ثم ظهر لي

---

(١) أي: السمكة الكبيرة، وهو الحوت.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٨).
(٣) يعني: قصة الغزوة التي خرج فيها رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي شـبيهة بأحداث سرية الخَبَط مع أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) هي سَرية الخَبَط.



الآن تقويـة ذلك بقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية مسـلم هـذه: إنهم خرجوا في غـزوة بُوَاط، وغزوة بواط كانت في السـنة الثانيـة من الهجرة قبل وقعة بـدر، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج في مائتيـن من أصحابه يعترض عِيرًا لقريش فيهـا أُمَية بن خلف، فبلغ بُواطًا، فلم يلق أحدًا فرجع، فكأنه أفرد أبـا عبيدة فيمن معه يرصدون العير المذكـورة، ويؤيد تقدُّمَ أمرها ما ذُكر فيها من القلة والجَهد، والواقع أنهم في سـنة ثمانٍ كان حالهم اتسـع بفتح خيبر وغيرها، والجَهد المذكور في القصة يناسب ابتداء الأمر؛ فيَرجَح ما ذكرته، والله أعلم [(١)].



غزوة المُرَيْسِيع [(٢)] أو بني المُصْطَلِق [(٣)]

وقعت غزوة المُرَيسيع أو بني المُصطَلِق في شعبان، ووقع الخلاف في السنة التي وقعت فيها هذه الغزوة، على النحو التالي:

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٥-٤٦).

(٢) قـال الحافظ في الفتح (٨/ ١٩٥): المُرَيسـيع -بضم الميم، وفتـح الراء-: هو ماءٌ لبني خُزاعة.

(٣) قـال الحافـظ في الفتـح (٨/ ١٩٥): المُصْطَلِق -بضم الميم، وسـكون المهملة، وفتح الطاء، وكسـر اللام- هو لقب، واسـمه جُذَيمة بن سـعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة؛ بطن من بني خزاعة.



* **القول الأول:** وقعت في السنة الخامسة للهجرة [(١)].

* **القول الثاني:** وقعت في السنة السادسة للهجرة [(٢)].

---

(١) أبرز مَن ذهب إلى ذلك:

* الإمام موسى بن عقبة - كما في دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٥).
* محمد بن عمر الواقدي في مغازيه - وكما في دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٥).
* ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٨١).
* الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١) - والسيرة النبوية (١/ ٤٦٨).
* الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/ ١٩٦).
* الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٩٩).
* قلت: ويُعكِّر على أصحاب هذا القول: أن الحجاب فُرِضَ في ذي القعدة سنة خمس للهجرة في قول الأكثر، ولا خلاف أن آية الحجاب نزلت حين دخول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وثبت في قصة الإفك التي وقعت في هذه الغزوة أن الحجاب فُرض قبل قصة الإفك.
* قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣١٠): ذكر أرباب التواريخ أن تزويجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كان في ذي القعدة سنة خمس، وعلى هذا فلا يصح قول موسى بن عقبة -يعني في قوله: وقعت غزوة المُريسيع أو بني المصطلق في شعبان سنة خمس-.
* وذهب الحافظ في الفتح (٨/ ١٩٦) إلى أن فرض الحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع للهجرة، وعند ذلك فلا إشكال، فقال: والحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع عند جماعة، فيكون المُريسيع بعد ذلك، فيرجح أنها سنة خمس.

(٢) أبرز مَن ذهب إلى ذلك:

* إمام أهل المغازي محمد بن إسحاق في السيرة (٣/ ٣١٧).
* الحافظ ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير - ص (٢٠٠).
* الإمام ابن حزم في جوامع السيرة - ص (١٢١).

* الإمام ابن الأثير في أُسد الغابة (٥/ ٤٤٧).
* الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول - ص (١٧٨).

قلت: ويعكِّر على أصحاب هذا القول ذكر سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه تنازع مع سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أصحاب الإفك -كما في الصحيحين- فجَعَل أصحاب هذا القول ذِكْرَ سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهْمًا؛ لأنه لم يختلف أحد أن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات إثر غزوة بني قُرَيظة، وكان عقب الخندق سنة خمس من الهجرة، وقد ذكر ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٢٨) أن الذي تنازع مع سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أُسَيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبذلك يزول الإشكال.

* قال الإمام ابن حزم في جوامع السيرة - ص (١٢٣): وقد روينا من طرق صحاح: أن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت له في شيء من ذلك مراجعة مع سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا عندنا وهم؛ لأن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات إثر فتح قريظة بلا شك... وذكر ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله وغيره: أن المقاول لسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما كان أُسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا هو الصحيح، والوهم لم يَعْرَ منه من بني آدم إلا مَن عصم الله تعالى.
* وعلَّق الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول - ص (١٨٦) على كلام ابن حزم، بقوله: وهو كما قال إن شاء الله.
* وذهب الحافظ ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير - ص (٢٠٢) إلى ما ذهب إليه الإمام ابن حزم.
* **تنبيه مهم:**
* قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (٢/ ١٤٦): وقع في هذا الحديث -يعني حديث الإفك الذي وقع في غزوة المُريسيع-: فقام سعد بن معاذ الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، أنا أعذِرُك منه، ووقع عند ابن إسحاق في هذا الخبر بدل سعد بن معاذ أُسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمن الناس مَن يرى أن ذِكْر سعد في هذا الخبر وَهْم؛ لأن سعدًا مات عند انقضاء أمر بني قريظة، ويرى أن الصواب ما ذكره ابن إسحاق=

سبب هذه الغزوة

بلغ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الحارث بن أبي ضرار سيدَ بني المُصطَلِق جمع قومه ومَن قدر عليه من العرب لحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِيَعلَم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن ضرار وكَلَّمه، فرجع إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره الخبر[1].



= من ذكر أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولو اتفق أهل المغازي على أن وقعة الخندق وبني قريظة متقدمة على غزوة بني المُصطَلق لكان الوَهم لازمًا لمن رآه كذلك، ولكن هم مختلفون في ترتيب هذه المغازي، كما سبق في هذه وغيرها، ورأيتُ عند الحاكم أبي عبد الله أن سبب هذا الخلاف إنما هو لاختلاف في التاريخ: هل هو لمَقْدَم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ربيع الأول، كما هو عند قوم، أو للعام الذي قدم فيه كما هو عند آخرين، وذلك لا يتم؛ لأمرين: =

* **أحدهما**: أن تلك المدة التي وقع الاختلاف فيها إنما هي نحو ثلاثة أشهر، وهي من أول العام إلى ربيع الأول، وزمن الخلاف أوسع من ذلك؛ فهذه الغزوة عند ابن عقبة في سنة أربع، وعند غيره في شعبان سنة ست.
* **الثاني**: أنها مختلفة الترتيب عندهم في تقديم بعضها على بعض؛ فهذه عند ابن سعد وجماعة قبل الخندق، وعند ابن إسحاق وآخرين بعدها، وذلك غير الأول، وأما ابن سعد فإنه يُؤَرِّخ هذه الوقائع بالأشهر لا بالسنين.

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨١).



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم

ندب رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس، فأسـرعوا في الخروج، وخرج معـه عـدد كثير من المنافقين لـم يخرجوا في غزوة قط مثلها، واسـتعمل علـى المدينة زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرج رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينـة يـوم الاثنين لليلتين خلتا من شـعبان، فلما بلـغ الحارث بن أبي ضرار ومَن معه مسير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، خافوا خوفًا شديدًا، وتفَرَّق عنهم مَن كان معهم من العرب[١].



هل وقع قتال في هذه الغزوة؟

وصل رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المُرَيسِـيع، واختُلِف هل دعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام قبل أن يُباغتهم أم لا؟

والـذي يظهـر أنـه لـم يَدْعُهـم؛ لأن الدعوة قـد بلغتهـم؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن ابن عون، قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن الدعاء[٢] قبل القتال[٣]؟

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣١٧) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨١).

(٢) في رواية الإمام أحمد: الدعوة.
قال السندي في شرحه للمسند (٤/ ٧١): أي: إلى الإسلام.

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٤/ ٧١): أي: واجبة قبل القتال، بحيث إنه لا يجوز لهم أن يُقاتلوا قبلها.



قال: فكتب إليَّ: إنما كان ذلك أول الإسلام، قد أغار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بني المُصطَلِق وهُم غارُّون[1]، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتِلَتَهم وسبى سَبْيَهم، وأصاب يومئذ جُوَيْرِية[2] ابنة الحارث، حدَّثني هذا الحديث عبدُ الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكان في ذاك الجيش[3].

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة، من غير إنذار[4].

وقال الحافظ في الفتح: هي مسألة خلافية[5]؛ فذهب طائفة، منهم عمر بن عبد العزيز، إلى اشتراط الدعاء إلى الإسلام قبل القتال، وذهب الأكثر إلى أن ذلك كان في بدء الأمر قبل انتشار دعوة الإسلام، فإن وُجِدَ مَن لم تبلغه الدعوة لم يُقاتَل حتى يُدعى. نصَّ عليه الشافعي، وقال مالك: مَن قَرُبت داره قُوتل بغير دعوة؛ لاشتهار الإسلام، ومَن بَعُدت

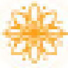
(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٣٣): غارُّون -بالْغَين المعجمة، وتشديد الراء- أي: غافِلون.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٤٧٨): جُويرية -مصغَّرًا- بنت الحارث بن أبي ضِرار -بكسر المعجمة وتخفيف الراء- وكان أبوها سيد قومه، وقد أسلم بعد ذلك.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٤١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٣٠) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٨٥٧).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٣٣).

(٥) يعني: اشتراط الدعاء قبل القتال.



داره فالدعوة أقطع للشك[١].

وذهب الواقدي وابن سعد وابن إسحاق إلى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاهم إلى الإسلام، ووقع القتال بين الطرفين؛ فقال الواقدي: انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المُرَيسيع، وهو الماء، فنزل وضرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُبَّةً له من أَدَم[٢]، ومعه من نسائه: عائشة، وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد اجتمعوا على الماء، وأعدُّوا وتهيؤوا للقتال، وصفَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه، ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فنادى في الناس: قولوا لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا، فكان أوَّلَ مَن رمى رجلٌ منهم بسهمٍ، فرمى المسلمون ساعة بالنَّبْل، ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أصحابه أن يحملوا، فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقُتِل عشرة منهم، وأُسِرَ سائرهم، وسبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجال والنساء والذرية والنَّعَم[٣] والشَّاء[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٢٠٩).

(٢) الأَدَم: الجِلد. انظر: لسان العرب (١/ ٩٦).

(٣) النَّعَم: الإبل والغنم. انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٣٢).

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٧ - ٤٨) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨١) - سيرة ابن هشام (٣/ ٣١٨).



قال الإمام ابن القيم: هكذا قال عبد المؤمن بن خَلَف في سيرته وغيره، وهو وَهْم؛ فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء، فسبى ذراريَّهم وأموالهم، كما في الصحيح[(١)].

وجمع بينهما الحافظ في الفتح، فقال: يحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلًا، فلما كَثُر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافُّوا، ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغَلَبة عليهم[(٢)].

قلت: والعجب من ابن سعد كيف رَجَّح رواية أهل المغازي المُرسَلة على رواية البخاري ومسلم؟! فقال بعد أن ذكر رواية أهل المغازي التي ذكرتُها قبل قليل: وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحدِّث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغار عليهم وهم غارُّون، ونَعَمهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتِلَتَهم وسَبى ذارريَّهم، والأول أثبتُ[(٣)].

وتعقبه الحافظ في الفتح بقوله: والحكم بكون الذي في السِّيَر أثبتَ مما في الصحيح مردود، ولا سيما مع إمكان الجمع. والله أعلم[(٤)].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٠).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ١٩٦).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨١).

(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ١٩٧).



﴿ زواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جُويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴾

تزوج رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وذلك بعـد أن أعتقهـا، وقصتهـا أخرجها الإمـام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: لما قسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبايا بني المُصطَلِق، وقعت جُوَيرية بن الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شَمَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أو لابن عم له- وكاتَبَتْه[1] على نفسها، وكانت امرأةً حُلوة مُلَاحَة[2] لا يراها أحد إلا أخذت بنفسِه، فأتت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حُجرتي فكرهتها، وعرفتُ أنه سيرى منها ما رأيت، فدخَلَت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّدِ قومي، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن شَمَّاس، فكاتبتُه على نفسي، فجئتُك أستعينك على كتابتي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهل لكِ في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

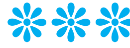
---

(١) الكتابة: أن يُكاتب الرجل عبده على مال يُؤديه إليه منجَّمًا -يعني مفرَّقًا-، فإذا أداه صار حُرًّا. انظر: النهاية (٤/ ١٢٩).

(٢) في رواية الحاكم: مَليحة.
قال الزرقاني في شرحه للمواهب (٤/ ٤٢٥): مُلَاحة: ذات بهجة وحُسن منظر.



«أقضي كتابَتَكِ وأتزوَّجُكِ»، قالت: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد فعلتُ»، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسَلوا ما بأيديهم[١]، قالت: فلقد أُعتِقَ بتزويجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المُصطلِق! فما أعلم امرأة كانت أعظَمَ بركةً على قومها منها[٢].



سعي المنافقين لإثارة الفتنة

قدَّمْنا أنه خرج مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أُباي بن سلول رأس المنافقين، ولم يكن خروجهم مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة إلا لإثارة الفتن بين المسلمين، ووقعت أحداث عظيمة بسببهم؛ منها:

(١) إثارة نعرات الجاهلية:

روى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال:

---

(١) زاد أبو داود في سننه: من السَّبْي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٢٦٥) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٩٣١) - وأخرجه مختصرًا الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٦٩٤٢).

كنا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزاة[1]، فكَسَع[2] رجل من المهاجرين[3] رجلًا من الأنصار[4]، فقال الأنصاري: يا لَلأنصارِ، وقال المهاجريُّ: يا لَلمهاجرينَ، فسمع ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «ما بالُ دعوى الجاهلية؟!»[5]، قالوا: يا رسول الله، كَسَع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُوها؛ فإنها منتنة»[6].

زاد الإمام مسلم في صحيحه في رواية أخرى: لِيَنصُرِ الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا؛ إن كان ظالمًا فلينْهَه، فإنَّه له نصرٌ، وإن كان مظلومًا فلْيَنصُرْه[7].

---

(١) في رواية أحمد والترمذي: غزوة بني المصطلق.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٤٤): الكَسْعُ: ضرب الدُّبُر باليد أو بالرِّجل.

(٣) سماه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣١٨): هو جَهْجاه بن سعيد، وكان أجيرًا لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقود له فرسَه.

(٤) سماه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣١٨): هو سنان بن وَبْرة الجهني.

(٥) قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ١٣١): هذا، وهما اسمان شريفان، سماهم الله بهما في كتابه، فنهاهم عن ذلك، وأرشدهم إلى أن يتداعَوا بالمسلمين والمؤمنين عباد الله، وهي الدعوى الجامعة، بخلاف الدعوى المفرِّقة؛ كالفلانيَّة والفلانيَّة، فالله المستعان.

(٦) النَّتْن: الرائحة الكريهة، ومعنى الحديث: أن الدعوة بدعوى الجاهلية مذمومة في الشرع مجتنَبة مكروهة، كما يُجتنَب الشيء النَّتِن. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٦) - النهاية (٥/ ١٢).
والحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٨٤) (٦٣) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٢٢٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٦٠٢).

(٧) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٨٤) (٦٢).

موقف ابن سلول من ذلك

فلما بلغ عبدَ الله بن أُبي ابن سلول ذلك غَضِب، وقال قولًا منكَرًا؛ فقد روى ابن إسحاق في السيرة عن شيوخه، قالوا: فغضب عبد الله بن أُبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غلام حَدَث، فقال: أوَقَد فعلوها، قد نافَرونا[١] وكاثَرونا في بلادِنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيبَ قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعْنا إلى المدينة ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ، ثم أقبل على مَن حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموه بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحوَّلوا إلى غير داركم[٢].

وروى الإمام البخاري ومسلم والترمذي -واللفظ للترمذي- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فسمع ذلك عبدُ الله بن أُبي ابن سلول، فقال: أوقَد فعلوها؟[٣] والله لئن رجعْنا إلى المدينة ليُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، دعني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق[٤]،

(١) نافره: غلبه. انظر: النهاية (٥/ ٨٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣١٨ - ٣١٩).

(٣) في رواية البخاري: فعلوها؟
قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٤٥): هو استفهام بحذف الأداة: أي: أَفَعَلوها؟ أي: الأَثَرة، أي: شَرِكْناهم فيما نحن فيه، فأرادوا الاستبداد به علينا.

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٥١٨): الخبيث.



فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعْـه، لا يتحَدَّث النـاسُ أن محمدًا يقتل أصحابه[1].



زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] يُخبر بالخبر

فلمَّا سـمع زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك من هذا المنافق، ذهب وأخبر عمَّـه[3] بذلـك؛ فقد روى الإمـام البخاري في صحيحه عـن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنتُ في غزوة[4]، فسمعتُ عبد الله بن أُبي، يقول: لا تُنفقوا

---

(١) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٥) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٨٤) (٦٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٦٠٢).

(٢) قـال الإمام النووي في تهذيب الأسـماء واللغات (١/ ٤٧٨): زيد بـن أرقم الأنصاري الخزرجـي الصحابـي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غـزا مع رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـبع عشـرة غزوة، اسـتصغره يوم أُحُـد، وكان يتيمًا في حجر عبد الله بن رواحة، وسـار معه في غزوة مُؤتة، وله مناقب، منها: ما روينا في صحيحي البخاري ومسلم في قصة إخباره بقول المنافقين.

(٣) في رواية الطحاوي في شـرح مشـكل الآثار - رقم الحديث (٥٨٨٥) بسـند حسن، قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأتيت سعد بن عبادة، فأخبرته، فأتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له.
قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٣٩): وليس سـعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمه حقيقة، وإنما هو سـيد قومه الخزرج، وعم زيد بن أرقم الحقيقي ثابـت بن قيس، له صحبة، وعمه زوج أمه عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خزرجي أيضًا.

(٤) في رواية الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٦٠١): غزوة تبوك.
قال الحافظ ابن كثير في تفسـيره (٨/ ١٢٧): قوله: غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيد؛ فـإن عبـد الله بن أبي بن سـلول لـم يكن ممن خرج في غـزوة تبوك، بل رجـع بطائفة =



على مَن عندَ رسول الله حتى ينفضُّوا مِن حوله، ولو رجعنا من عنده ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ، فذكرتُ ذلك لعمي أو لعُمَرَ[1]، فذكره للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعاني فحدَّثته، فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عبد الله بن أُبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

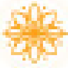
وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأرسل إلى عبدالله بن أُبيٍّ فسأله، فاجتهد يمينَه ما فعل، وقال: كَذَبَ زَيدٌ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

= من الجيش، وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسِّيَر أن ذلك كان في غزوة المُرَيسيع، وهي غزوة بني المُصطَلِق.
وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٣٨): والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بني المصطلق.
وفي صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٩٠٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -في نفس القصة- قال: وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كَثُروا بعدُ.
قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٤٥): هذا مما يؤيد تقدُّم القصة، ويُوضح وَهْم مَن قال: إنها كانت بتبوك؛ لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيرًا جدًّا، وقد انضافت إليهم مُسلِمةُ الفتحِ في غزوة تبوك؛ فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار. والله أعلم.

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٣٩): كذا بالشك، وفي سائر الروايات الآتية: لعَمِّي، بلا شكٍّ.

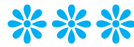
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٠) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٧٢).



وفي رواية الطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند حسن، قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فنظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال سعد: يا رسول الله، إنما أخبَرَنيه الغلامُ، لزيدِ بن أرقم، فجاء سعد فأخذ بيدي، فانطلق بي، فقال: هذا حدَّثني، فانتهرني عبد الله بي أُبي، فأجهَشْتُ[1] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكيتُ، فقلتُ: والذي أنزل عليك النبُوَّةَ، لقد قال[2].

قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأصابني هَمٌّ لم يُصِبْني مثلُه قطُّ، وقال لي عمي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَقَتَك[3]؟.



تصديق الوحي لزيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبينما أنا أسير مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خفَقْتُ[4] برأسي من الهَمِّ، إذ أتاني رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعَرَكَ[5]

---

(١) الجَهْش: أن يفزع الإنسان إلى الإنسان ويلجأ إليه، وهو مع ذلك يريد البكاء، كما يفزع الصبي إلى أمه وأبيه. انظر: النهاية (١/ ٣١٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٥٨٨٥).

(٣) المقت: أشد البُغض. انظر: النهاية (٤/ ٢٩٥).

والخبر أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٠) (٤٩٠٤).

(٤) يُقال: خفق فلانًا خفقة: إذا نام نومة خفيفة. انظر: لسان العرب (٤/ ١٥٧).

(٥) عَرَك: دَلَك. انظر: لسان العرب (٩/ ١٦٨).

أُذني وضَحِك في وجهي، فما كان يَسُرُّني أنَّ لي بها الخُلْدَ في الدنيا! ثم إن أبا بكر لحقني، فقال: ما قال لك رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قلت: ما قال لي شيئًا، إلا أنه عرك أُذني، وضَحِك في وجهي، فقال: أبشِرْ، ثم لحقني عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقلتُ له مثلَ قولي لأبي بكر، فلما أصبحنا، قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورةَ المنافقين[(١)].

وروى الإمام البخاري والإمام أحمد -واللفظ لأحمد- عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فأرسل إليَّ نبي الله -أو أتيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أنزل عُذرَك، وصَدَّقك، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[(٢)]، حتى بلغ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[(٣)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا الذي أوفى اللهُ له بأُذُنِه[(٤)].

قال الحافظ في الفتح: أي: أظهر صِدقَه فيما أعلَمَ به، والمعنى: أوفى صِدْقَه[(٥)].

---

(١) أخرج ذلك الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٦٠٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) سورة المنافقون - آية (٧).
(٣) سورة المنافقون - آية (٨) - والخبر أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٢) (٤٩٠٤) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٩٢٨٥) (١٩٢٩٥).
(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩٠٦).
(٥) انظر: فتح الباري (٩/ ٦٤٧).



قصة الإفك

وفي هـذه الغزوة وقعت قصة الإفـك الذي افتراه ابن سـلول -قبَّحه الله- ومَن معه من المنافقين، في أم المؤمنين الطاهرة عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ عشـر آيات من سـورة النور في ذلك؛ قال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾[1] إلى آخر الآيات.

قـال الإمام القرطبي: وسـبب نزول هـذه الآيات مـا رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشة رضوان الله عليها، وهو خبر صحيح مشهور، أغنى اشتهاره عن ذِكْره[2].

وقـال الحافظ ابـن كثير: هذه العشـر الآيات[3] كلها نزلت في شـأن عائشـة أم المؤمنيـن رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، حيـن رماهـا أهـل الإفـك والبهتـان من المنافقيـن بما قالوه مـن الكذب البَحْت والفِرية، التـي غار الله تعالى لها ولنبيه صلوات الله وسـلامه عليه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ براءتها؛ صيانة لعِرض الرسـول عليه أفضل الصلاة والسـلام، فقـال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ

---

(١) سورة النور - آية رقم (١١).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٦١).
(٣) من سورة النور - الآيات (١١ - ٢٢).

مِّنكُمْ﴾، أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقَدَّم في هذه اللعنة عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس المنافقين؛ فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلَّموا به، وجَوَّزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريبًا من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة[١].



قدوم العُرَنِيِّين

قَدِمَ على رسول الله ﷺ في المدينة رهط من عُكْل[٢] وعُرَينة[٣]، وذلك في شوال من السنة السادسة للهجرة[٤]، فأظهروا الإسلام، وبايعوا رسول الله ﷺ، فاجتَوَوُا المدينة[٥]، وسقمت أجسامهم، فعَظُمت بطونهم، وانتهشت[٦] أعضاؤهم[٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٩).

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٤٩): عُكْل -بضم العين، وإسكان الكاف-: قبيلة من تَيمِ الرِّبابِ.

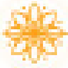
(٣) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٤٩): عُرَيْنة -بضم العين، مُصَغَّرًا-: حيٌّ من قبيلة بَجيلة.

(٤) هذا تاريخ قدومهم عند ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٩٦) - وذكر ابن إسحاق أن قدومهم كان بعد غزوة ذي قَرَد، وكانت عنده في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة.

(٥) أي: أصابهم الجوى، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها. انظر: النهاية (١/ ٣٠٧).

(٦) انتهشت: هَزلت. انظر: النهاية (٥/ ١٢٠).

(٧) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٠٨٦) وإسناده صحيح.



قال الحافظ في الفتح: والظاهر أنهم قَدِموا سِقامًا، فلما صحُّوا من السقم كرهوا الإقامة بالمدينة لوَخمِها، فأما السقم الذي كان بهم فهو الهزال الشديد والجَهد من الجوع، فعند أبي عَوانة من رواية غيلان عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كان بهم هزال شديد، وعنده من رواية ابن سعد عنه: مُصْفَرَّة ألوانهم [1].

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن ناسًا من عُكْلٍ وعُرَينة قدموا المدينة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكلموا بالإسلام [2]، فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف [3]، واستوخموا [4] المدينة، فأمر لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذَوْدٍ [5] وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٤٥٠).

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٨٩٩)- ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧١) (١٠): فبايعوه على الإسلام.
وفي رواية أخرى في صحيح مسلم: رقم الحديث (١٦٧١) (١٣): فأسلموا وبايعوه.

(٣) قال الإمام ابن الأثير في جامع الأصول (٣/ ٤٩٠): أراد: أننا أهل ماشية وبادية، ولسنا من أهل المدن والحَضَر، وإنما عيشُنا من اللَّبَن.

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١١/ ١٢٩): أي: لم توافقهم، وكرهوها لسقم أصابهم، وهو مشتقٌّ من الجوى، وهو داء في الجوف.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٦٦): الذَّوْدُ: بفتح المعجمة وسكون الواو.
وقال ابن الأثير في جامع الأصول (٣/ ٤٩١): الذَّودُ من الإبل: من الثلاثة إلى العشرة.



إذا كانوا ناحية الحَرَّة[١] كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعيَ[٢] النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستاقوا الذَّوْدَ، فبلغ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعث الطَّلَبَ في آثارِهم[٣]، فأمر بهم فسَمَروا[٤] أعيُنَهم وقَطَعوا أيديهم، وتُرِكوا في ناحية

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٥٣): الحَرَّة: هي أرض ذات حجارة سُود معروفة بالمدينة.

(٢) اسم راعي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقتول: يَسار، كما في رواية ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٩٧).

قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٥٢): ولم تختلف روايات البخاري في أن المقتول راعي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي ذكره بالإفراد، وكذا لمسلم، لكن عنده من رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس: ثم مالوا على الرُّعاة فقتلوهم، بصيغة الجمع، ونحوه لابن حبان من رواية يحيى بن سعيد عن أنس، فيحتمل أن إبل الصدقة كان لها رعاة، فقُتِلَ بعضهم مع راعي اللقاح، فاقتصر بعض الرواة على راعي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر بعضهم معه غيره، ويحتمل أن يكون بعض الرواة ذكره بالمعنى، فتجوز في الإتيان بصيغة الجمع، وهذا أرجح؛ لأن أصحاب المغازي لم يذكر أحد منهم أنهم قتلوا غيرَ يسارٍ، والله أعلم.

(٣) في رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٦٧١) (١٣) قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وعنده -يعني الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شباب من الأنصار قريب من عشرين، فأرسلهم، وبعث معهم قائفًا يقتصُّ أثرهم.

قلت: وأَمَّر عليه كُرْز بن جابر الفهري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كذا ذكره ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٩٧) والأكثرون.

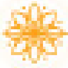
قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٥٢): كُرْز: هو بضم الكاف وسكون الراء بعدها زاي.

وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١١/ ١٣٠): القائف هو الذي يتتبَّع الآثار وغيرها.

(٤) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٥٣): فسَمَروا: بتخفيف الميم.

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٣٣): وسُمِّرَت.

قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٥٢): سُمِّرت: بتشديد الميم، ولم تختلف روايات البخاري في أنه بالراء. =



الحَرَّةِ، حتى ماتوا على حالِهم[1].

وفي لفظ آخر في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فخرجوا فشَرِبوا من أبوالها وألبانها، فصحُّوا، فقتلوا الراعيَ وأطْرَدوا[2] الإبلَ[3]، فبلغ ذلك رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعث في آثارهم، فأُدرِكوا، فجيء بهم، فأمر بهم فقُطِعَت أيديهم وأرجلهم، وسَمَرَ أعيُنَهم، ثم نُبِذُوا[4] في الشمس حتى ماتوا[5].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إنما سَمَلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعين أولئك؛ لأنهم سَمَلُوا أعيُنَ الرِّعاءِ[6].

= وفي صحيح مسلم - رقم الحديث (١٦٧١) (٩): وسَمَلَ أعيُنَهم.

قال ابن الأثير في جامع الأصول (٣/ ٤٩١): سَمَرَ العين: هو أن تُحمى لها مسامير الحديد وتُكحل ليذهب بصرُها، وسُمِلَت عينُه: إذا فُقِئَت بحديدةٍ مُحْماة.

وفي لفظ آخر في صحيح البخاري -رقم الحديث (٣٠١٨)- قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم أمر بمسامير فأُحمِيَت فكَحَلَهم بها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٢).

(٢) واطَّرَدوا: أي ساقوا.

(٣) في رواية الإمام البخاري: النَّعَم.

والنَّعَم -بفتح النون المشددة والعين-: هي الإبل. انظر: لسان العرب (١٤/ ٢١٢).

(٤) نُبِذُوا: طُرِحوا. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٦٨٩٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧١) (١٠).

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧١) (١٤).



قال أبو قِلابة: فهؤلاء سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله[1].

وقال الحافظ ابن كثير: فكان ما فُعِلَ بهم قِصاصًا، والله أعلم[2].

وروى أبو داود في سننه والطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند صحيح عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾[3].

قال الإمام القرطبي: اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية؛ فالذي عليه الجمهور أنها نزلت في العُرَنِيِّين[4].

وقال الحافظ ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة في المُشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصِّفات[5].



---

(١) أخرج ذلك عنه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٣).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٩٧).
(٣) سورة المائدة - آية (٣٣) - والخبر أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٣٦٦)- والطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (١٨١٠).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٤٣١).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٩٥).

من فوائد قصة العُرَنِيِّين

قال الإمام ابن القيم: وفيها من الفقه:

١- جواز شرب أبوال الإبل.

٢- طهارة بول مأكول اللحم.

٣- الجمع للمحارب -إذا أخذ المال وقَتَل- بين قطع يده ورجله، وقَتْلِه، وأن يُفعَل بالجاني كما فَعَل؛ فإنهم لما سَمَلوا عين الراعي سَمَلَ أعينهم، وقد ظهر بهذا أن القصة مُحكَمة ليست منسوخة، وإن كانت قبل أن تنزل الحدود؛ فالحدود نزلت بتقريرها لا بإبطالها، والله أعلم[1].



(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٣٧).

غزوة الحُدَيبيَة[1]

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٤٤): الحُدَيبيَة: بضم الحاء، وفتح الدال، وتخفيف الياء، كذا قاله الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأهل اللغة، وبعض أهل الحديث، وقال أكثر المحدِّثين بتشديد الياء، وهما وجهان مشهوران.

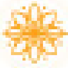
وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٣٣٧): الحُديبيَة هي بئر، ثم عُرِفَ المكان كله بذلك.

* قلت: واختُلِفَ في تسمية هذه الحادثة، على النحو التالي:
* بَوَّب لها الإمام البخاري في صحيحه - وعنون لها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٥٢) - والفصول في سيرة الرسول - ص (١٨٦): غزوة الحديبية.
* وعنون لها ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٣٦) بقوله: أمر الحديبية.
* وعنون لها الإمام ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ١١٥) - والإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٣٨) بقولهما: قصة الحديبية.
* وعنون لها الحافظ ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير - ص (٢٠٤)، والإمام البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٩٠) بقولهما: عُمرة الحديبية.
* قال الشيخ حافظ الحكمي في كتابه مرويات غزوة الحُديبية - ص (١٤ - ١٥): بعد دراسة وتأمل لتلك العناوين رأيتُ أن العنوان المناسب لهذه الحادثة هو: غزوة الحديبية؛ وذلك للأمور التالية:

أولًا: أنه موافق لاصطلاح أهل السِّيَر والمحدِّثين.

قال الزرقاني في شرح المواهب (٢/ ٢٢٠): جرت عادة المحَدِّثين وأهل السِّيَر واصطلاحاتهم غالبًا أن يُسمُّوا كل عسكر حضره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه الكريمة غزوة، وما لم يحضره بل أرسل بعضًا من أصحابه إلى العدو، سَرِيةً أو بعثًا.

ثانيًا: ما يحمله لفظ: غزوة من إيماءات عميقة تُعطي الحادثة اعتبارًا خاصًّا في شعور المسلم، ولا توجد في لفظ: قصة وأمر ذلك؛ لأن لفظ غزوة أصبح ملازمًا لشخص =



وقعت غـزوة الحُديبيَـة في ذي القعدة من السـنة السادسـة للهجرة، بالإجماع.

روى الإمـام البيهقـي في دلائل النبوة عن نافـع مولى عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كانت الحُديبيَة سـنة سـت بعد مَقْـدَم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة، في ذي القَعدة[١].

قال الإمـام البيهقي: هذا هو الصحيح، وإليه ذهـب الزُّهري وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق بن يسار، وغيرهم[٢].

وقال الحافظ ابن كثير: غزوة الحُديبية كانت في ذي القعدة سنة سِتٍّ بلا خلاف[٣].



= رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فما تكاد ترى أو تسـمع هذه اللفظة حتى يسرح بك الخيال مـن وراء تلك الأجيـال المتعاقبة؛ لتـرى تحركات رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه الأبرار يُزلزلون الطغاة وأتباعهم.

ثالثًا: شمول هذا العنوان لجميع تحركات الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذه الحادثة، ابتداء من إحرامه بالعمرة ومرورًا بالبيعة والصُّلح إلى رجوعه للمدينة.

رابعًا: ورود عدة أحاديث تُصرح بأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسمُّونها غزوة.

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٩١).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٩١).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٥٢).



سبب هذه الغزوة

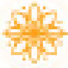
كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُرِيَ في المنام[1] أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلِّقين رؤوسهم ومُقصِّرين، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، ففرح الصحابة بذلك، ودعاهم للخروج إلى مكَّة للعمرة، وذكر الله سبحانه هذه الرؤيا في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكِّدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عُمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع من الحُديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة، فأقام بها ذا الحجة والمحرم.. فلما كان في ذي

---

(١) رُؤيا الأنبياء وحيٌ؛ فقد روى الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٦٥٥) بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رُؤيا الأنبياء وحي.
وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٨٣): ورؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي؛ فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة؛ ولهذا أقدم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ على ذبح إسماعيل بالرؤيا.

(٢) سورة الفتح - آية (٢٧).



القعدة في سنة سبع خرج إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحُديبية، فأحرم من ذي الحُلَيفة، وساق معه الهَدْيَ[1].



عدد الذين خرجوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة يوم الاثنين هلالَ ذي القعدة سنة ستٍّ للهجرة، ومعه زوجته أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنهَا، وخرج معه من المهاجرين والأنصار ألف وأربعمائة، في قول الأكثر؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنهُما، قال: كنا يوم الحُديبيَة ألفًا وأربعمائة[2].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٤٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٥٦) (٦٧).

* وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٥٧٦) (٤١٥٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٥٦) (٧٢) (٧٣) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قال: كنا ألفًا وخمسمائة.
* وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤١٥٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٥٧) عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قال: كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاثمائة.
* قال الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٤٠): الأكثر من حفَّاظ الرواة، قالوا: كانوا ألفًا وأربعمائة.
* وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٤٥): وأكثر الروايات =



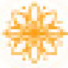
إحرام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الميقات

ولم يُخرِج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه السلاحَ، إلا سلاحَ المسافر، وهي السيوف في القُرُب[1]، وساق معه الهَدي[2] سبعين بَدَنةً[3]، فيها جمل لأبي جهل -قبحه الله- في رأسه أو أنفه بُرَّةٌ[4] من فِضة؛ ليغيظ بذلك المشركين، وبعثها مع ناجية بن جُندب الخزاعي الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما

= أن أهل الحُديبية كانوا ألفًا وأربعمائة رضي الله تعالى عنهم.

* وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٣٩): والقلب إلى هذا أميل -يعني ألفًا وأربعمائة-، وهو قول البراء بن عازب، ومَعقِل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين عنه.
* قلتُ: وقع وَهْم في مسند الإمام أحمد - رقم الحديث (١٨٩١٠) - والسيرة النبوية لابن إسحاق (٣/ ٣٣٧) بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة، ومروان بن الحكم، قالا: وكان الناس سبعمائة رجل.
* قال الإمام ابن حزم في جوامع السيرة - ص (١٢٣): وهذا وَهْم شديدٌ البتةَ، والصحيح بلا شك بين الألف والثلاثمائة إلى الألف وخمسمائة.
* وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٣٣١): كذا قال ابن إسحاق، وهو معدود من أوهامه؛ فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

(١) القُرُب -بضم القاف-: جمع قِراب، بكسر القاف: هو غِمْد السيف. انظر: لسان العرب (١١/ ٨٦).
(٢) الهَدْي: هو ما يُهدى إلى البيت الحرام من النَّعَم لتُنحَر. انظر: النهاية (٥/ ٢٢٠).
(٣) البَدَنة: تقع على الجمل والناقة والبقرة، وهي بالإبل أشبه، وسُمِّيت بدنة؛ لعِظَمِها وسِمَنِها. انظر: النهاية (١/ ١٠٨).
(٤) البُرَّة: حلقة تُجعَل في لحم الأنف، وربما كانت في شَعْرِه. انظر: النهاية (١/ ١٢٢).



وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ميقات ذي الحُليفة[١] قَلَّد هَدْيَه[٢]، ثم أشعَرَه[٣]، وأحرم بالعُمرة.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان، قالا: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمن الحُديبيَة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بذي الحُليفة قَلَّد النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهَدْيَ وأشعره، وأحرم بالعُمرة[٤].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان أهدى جَمَلَ أبي جهل، الذي كان استُلِبَ يوم بدر، في رأسه[٥] بُرَّة مِن فِضَّة، عام الحُديبيةِ في هَدْيِه؛ ليَغِيظَ بذلك المشركين[٦].

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٠٣): ذو الحُلَيفة: ميقات أهل المدينة -زادها الله شرفًا-، بضم الحاء المهملة، وفتح اللام، وإسكان الياء، وهي على نحو ستة أميال من المدينة.

(٢) تقليد الهَدي: أن يُجعَلَ في عنقها شِعار يُعلَمُ به أنها هَدْيٌ. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٧٦).

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٨٥): الإشعار في الهَدي هو أن يجرحها في صفحة سَنامها اليُمنى بحربة أو سكين أو حديدة، أو نحوها، ثم يَسلُت الدَّمَ عنها، ويجعل ذلك لها علامةً تُعرف بها أنها هَدْيٌ.

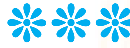
(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٩٤) (١٦٩٥).

(٥) في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (٢٤٦٦): أنفه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٦٢) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (١٧٤٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٧٣٣).



وبعث رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه بُسْرَ[1] بن سفيان الخُزاعي عينًا[2] له إلى قريش؛ ليأتيه بخبرهم[3].



جموع قريش تتصدى للمسلمين

سار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا بلغ غَدير الأشطاط أتاه عينُه الخزاعي، فقال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش[4]، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت ومانِعوك[5].

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: حتى إذا كان بعُسفان[6] لقيه بُسر بن سفيان الكعبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سَمِعَت بمسيرك،

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٨٠): بُسْر: بضم الباء، وسكون السين، على الصحيح.

(٢) العين: الجاسوس. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٩).

(٣) أخرج ذلك الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٧٨) (٤١٧٩)، ولم يقع في صحيح البخاري تسمية الجاسوس، وسَمَّاه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٣٧).

(٤) الأحابيش: هم أحياء انضموا إلى بعض، فَسُمُّوا بذلك، والتحبش: التجمع. انظر: النهاية (١/ ٣١٩).

(٥) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٧٨) (٤١٧٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩٢٨).

(٦) عُسْفان: قرية جامعة بين مكة والمدينة. انظر: النهاية (٣/ ٢١٤).



فخرجت معها العُوذُ المطافيلُ(١) قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنوةً(٢) أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلِهم قد قدَّموها إلى كُراع الغميم(٣)، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا ويحَ قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلَّوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظن قريش؟! والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يُظهِرَه اللهُ له، أو تنفَرِدَ هذه السَّالفةُ»(٤).



---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٨٦): العُوذ -بضم العين، وسكون الواو-: جمع عائذ، وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها، يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل؛ ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه.

(٢) عَنوة: أي: قَهْرًا. انظر: النهاية (٣/ ٢٨٤).

(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٤٦٠): كُرَاع: هو بضم الكاف، والغَمِيم: بفتح الغين، وكسر الميم، وهو واد بين مكة والمدينة، بينه وبين مكة نحو مرحلتين.

(٤) السَّالفة: صفحة العنق، وكنَّى بانفرادها عن الموت؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت. انظر: النهاية (٢/ ٣٥١).
والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).



مشاورة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه

ثـم قال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «أشِـيروا -أيُّها الناس- عليَّ، أَتَرون أن أميل إلى عيالهم وذراريِّ هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عـن البيت، فـإن يأتونـا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد قطع عينًا من المشـركين، وإلا تركناهم محروبين؟»[(١)].

وفي رواية أخرى للإمام أحمد في مسـنده بسـند صحيح، قال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أشـيروا عليَّ، أَتَرون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنُصيبَهـم، فإن قعدوا قعدوا موتوريـن محروبين، وإن يجيئون تكن عُنُقًا قطعها الله، أو تَرَون أن نَؤُمَّ[(٢)] البيت، فمن صَدَّنا عنه قاتلناه؟»[(٣)].

قال الحافظ في الفتح: والمراد أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشار أصحابه: هل يخالـف الذين نصروا قريشًـا إلى مواضعهم، فيسـبي أهلهم، فإن جاؤوا إلى نصرهم اشـتغلوا بهم، وانفـرد هو وأصحابه بقريـش، وذلك المراد بقوله: تكن عنقًا قطعها الله[(٤)].

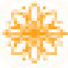
---

(١) محروبين: أي: مسلوبين منهوبين. انظر: النهاية (١/ ٣٤٥).
وأخـرج ذلك إلى هـذا القدر: الإمام البخـاري في صحيحه - رقـم الحديث (٤١٧٨) (٤١٧٩).

(٢) نَؤُم: نقصد. انظر: النهاية (١/ ٧٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩٢٨).

(٤) انظر: فتح الباري (٥/ ٦٨١).

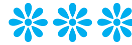


فقال أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله خرجتَ عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجَّهْ له، فمن صَدَّنا عنه قاتَلْناه[١].

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح، قال أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا نبيَّ الله، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئْ نقاتل أحدًا، ولكن مَن حال بيننا وبين البيت قاتلناه[٢].

وقـال المقداد بن عمـرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما والله لا نكـون كالملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ٢٤﴾[٣]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم مقاتلون[٤].

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «امضوا على اسم الله»[٥].



---

(١) أخـرج ذلك إلى هـذا القدر: الإمـام البخـاري في صحيحه - رقم الحديـث (٤١٧٨) (٤١٧٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩٢٨).

(٣) سورة المائدة - آية (٢٤).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيـره (٤/ ٥٢١) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧- القسم الثاني/ ١٠٢١ - ١٠٢٢) وقال: وهذا إسناد مرسَل صحيح - وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٩): وهذا إن كان محفوظًا يوم الحُديبية، فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر.

(٥) أخرج ذلك البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٧٨) (٤١٧٩).



نزول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحُديبية

ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس، فسلكوا ذات اليمين بين ظَهْرَي الحَمض على طريق تُخرجه على ثَنِيَّة[1] المُرارِ[2]، والحُديبيَة من أسفل مكة، فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قَترة[3] الجيش قد خالفوا عن طريقهم، نكصوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا سلك ثَنِيَّة المُرار[4]، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «مَن يَصعَدُ الثَّنِيَّةَ؛ ثنيةَ المُرار؛ فإنه يُحَطُّ عنه ماحُطَّ عن بني إسرائيل»[5].

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكان أوَّلَ مَن صَعِدها خيلُنا؛ خيلُ بني الخزرج، ثم تتامَّ الناس[6].

---

(١) الثَّنِيَّة: هو الطريق العالي في الجبل. انظر: النهاية (١/ ٢٢٠).

(٢) المُرار -بكسر الميم وبضمها- موضع بين مكة والمدينة من طريق الحديبية. انظر: النهاية (١/ ٢٢٠).

(٣) القَترة -بفتح القاف-: الغُبار. انظر: النهاية (٤/ ١١).

(٤) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠) وإسناده حسن.

(٥) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ٢٢٠): وإنما حثهم على صعودها؛ لأنها عَقَبة شاقة وصلوا إليها ليلًا، فرغَّبهم في صعودها، والذي حُطَّ عن بني إسرائيل هو ذنوبهم؛ قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَـٰيَـٰكُمۡ﴾.

(٦) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٨٠).



فلما كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **بالثنية؛** ثنية المُرار التي يُهبَط عليهم منهـا، بركت ناقته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقـال الناس: حَل حَـل[1]، فألَحَّت[2]، فقالـوا: خَـلَأتِ[3] القصـواء، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ما خَلَأتِ القَصـواءُ، ومـا ذاك لـه بخُلُـق[4]، ولكِـنْ حبسـها حابِسُ الفيـل»[5]، ثم قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «والذي نفسـي بيده، لا يسـألونني خُطَّةً[6] يُعظِّمون فيها حرمات الله[7] إلا أعطيتهم إيَّاها»[8].

وفي لفظ آخر في المسـند بسند حسـن، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «واللهِ لا تدعـوني قريـش اليـوم إلـى خُطَّة يسـألوني فيها صلـة الرحم إلا أعطيتهم إياها»[9].

---

(١) قـال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٨٢): حَلْ حَلْ -بفتح الحاء، وسـكون اللام-: كلمة تقال للناقة إذا تَرَكت السير.

(٢) قـال الحافـظ في الفتـح (٥/ ٦٨٢): فألَحَّت -بتشـديد الحاء- أي: تمـادت على عدم القيام، وهو من الإلحاح.

(٣) خلأ: إذا برك فلم يقُم. انظر: لسان العرب (٤/ ١٦٤).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٨٣): أي: بِعَادةٍ.

(٥) زاد الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠) بسند حسن: عن مكَّة.

(٦) الخُطَّة: الحال والأمر. انظر: النهاية (٢/ ٤٦).

(٧) قـال الحافظ في الفتـح (٥/ ٦٨٤): أي: مِن تَرْكِ القِتالِ في الحـرم، وفي رواية أخرى قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: يسألوني فيها صلة رحم، وهي من جملة حُرُمات الله.

(٨) أخـرج ذلك إلى هـذا القدر: الإمـام البخـاري في صحيحه - رقم الحديـث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).

(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).



ثم زجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقته، فوثبت[1]، فعدل[2] عنهم حتى نزل بأقصى الحُديبية على ثَمَدٍ[3] قليل يتبرَّضُه[4] الناس تبرُّضًا، فلم يُلَبِّثْه الناسُ حتى نزَحوه[5]، وشُكي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العطش، فانتزع سهمًا من كنانتِه[6]، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش[7] لهم بالرِّيِّ حتى صَدَروا[8] عنه[9]!

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرجَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهمًا من كِنانته، فأعطاه رجلًا من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القُلُب، فغرزه فيه، فجاش[10]

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٨٤): وثبت: قامت.
(٢) عدل عن الطريق: مال عنه. انظر: لسان العرب (٩/ ٨٦).
(٣) الثَّمَد -بالتحريك-: الماءُ القليل. انظر: النهاية (١/ ٢١٥).
(٤) يتبرَّضه الناس: أي: يأخذونه قليلاً قليلاً. انظر: النهاية (١/ ١١٩).
(٥) النَّزَح -بالتحريك-: البئر التي أُخِذَ ماؤها، والمراد: أنهم لم يُبقوا من الماء شيئًا. انظر: النهاية (٥/ ٣٤).
(٦) الكِنانة: جَعبة السِّهام تُتخَذ من جلود. انظر: لسان العرب (١٢/ ١٧٣).
(٧) يَجيش -بفتح الياء وكسر الجيم- أي: يفور. انظر: النهاية (١/ ٣١٢).
(٨) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٨٥): أي: رَجعوا رِواءً بعد ورودهم.
(٩) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١)، (٢٧٣٢).
(١٠) جاش: أي: فارَ ماؤه وارتفَع. انظر: النهاية (١/ ٣١٢).



الماء بالرِّواءِ حتى ضرب الناس عنه بعَطَنٍ[1].



وساطة بُديل بن ورقاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فلما اطمأنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منزله بالحُديبية أتاه بُديل بن ورقاء الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان ما زال مشركًا- في نفر من قومه من خُزاعة، فقال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني تركتُ كعبَ بن لُوي وعامر بن لُؤي نزلوا أعداد مياه الحُديبيَة، ومعهم العُوذ المَطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا لم نجئْ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نَهَكَتْهم[2] الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدةً ويُخْلوا بيني وبين الناس، فإن أظهرْ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[3]، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأُقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفَرِدَ سالفتي، وليُنفِذَنَّ الله أمْرَه»، فقال بُديل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سأُبلِّغهم ما تقول.

فانطلق بُديل بن ورقاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن معه من خُزاعة حتى أتوا قريشًا، فقال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نَعرِضَه عليكم فعَلْنا، فقال سُفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تُخبرونا عنه بشيء،

---

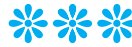
(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).
(٢) نهكتهم: أي جَهَدَتْهم وأضعفَتْهم. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٠٩).
(٣) جَمُّوا -بفتح الجيم وتشديد الميم-: أي: استراحوا وكثُروا. انظر: النهاية (١/ ٢٩٠).



وقـال ذوو الـرأي منهم: هاتِ ما سـمعتَه يقول، قال: سـمعته يقول: كذا وكذا، فحدَّثهم بما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

وفي رواية الإمام أحمد في مسـنده بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: فرجعوا إلى قريش[٢]، فقالوا: يا معشـر قريش، إنكم تعجَلون على محمد، وإن محمدًا لم يأتِ لقتال، إنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظِّمًا لحقه.

فاتَّهموهـم[٣]، وقالوا: وإن كان إنما جـاء لذلك، فلا والله لا يدخلُها أبدًا علينا عَنوة[٤]، ولا تتحدَّثُ بذلك العرب[٥].



بَعْثُ عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لقريش

ثـم بعث رسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن عفـان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى مكة ليُبلِّغَ رسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سادة مكة، وأنه إنما قَدِم لأداء العمرة؛

---

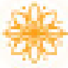
(١) أخـرج ذلك إلى هـذا القدر: الإمـام البخـاري في صحيحه - رقم الحديـث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).

(٢) يعني: بُدَيل بن ورقاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومَن معه من خُزاعة.

(٣) قـال الحافظ في الفتـح (٥/ ٦٨٧): أي: اتهموا بُديلاً والذين معـه؛ لأنهم كانوا يعرفون مَيلَ خُزاعة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤) عَنوة: أي: قهرًا. انظر: النهاية (٣/ ٢٨٤).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).



فقد روى الإمام أحمد في مسنده، والطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: دعا رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بها من بني عَدِيٍّ بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عَرَفَت قريش عداوتي إيَّاها وغِلْظَتي عليها، ولكني أدلُّك على رجلٍ أعزَّ بها مني؛ عُثمانَ بنِ عَفَّان، فدعاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت معظِّمًا لحرمته، فخرج عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى أتى مكة، فلَقِيَه أبانُ بن سعيد بن العاص[(١)]، فنزل عن دابَّتِه، وحمله فردفه وأجاره، حتى يُبلِّغَ رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانطلق عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلَّغَهم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فَطُفْ، فقال عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما كنتُ لأفعَلَ حتى يطوف رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحتبسَتْه قريشٌ عندها، فبَلَغَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين أنَّ عثمان قد قُتِلَ[(٢)].



(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ١٣٥) - قسم التراجم -: أبان بن سعيد بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أسلم بين الحُديبية وخيبر، وأَمَّره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بعض سراياه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠) - والطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٥٧٧١).



بيعة الرِّضوان

فأمر رسول الله ﷺ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للبيعة، وعُرِفَت هذه البيعةُ ببيعة الرضوان؛ لأن الله سبحانه رضي عن أصحابها، وكان رسول الله ﷺ جالِسًا تحت شجرة؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن مَعقِل بن يَسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لقد رأيتُنا يوم الشجرة، والنبي ﷺ يُبايع الناس، وأنا رافِعٌ غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنَّا يوم الحُديبية ألفًا وأربعمائة، فبايعناه، وعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آخذ بيده[2] تحت الشجرة[3].

وبايع رسولُ الله ﷺ نفسَه نيابة عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: وأمَّا تغيُّبُه[4] عن بيعة الرِّضوان، فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانَه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرِّضوان بعدما ذهب عثمان

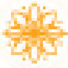
---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٥٨) (٧٦).

(٢) يعني: يد النبي ﷺ.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٥٦) (٦٧).

(٤) يعني: عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



إلـى مكة، فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده اليُمنى: «هذه يـدُ عُثمان»، فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعُثمانَ»[1].

وروى الإمـام الترمـذي في جامعه بسـند حسـن عن أنـس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قـال: لمـا أمـر رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيعـة الرضـوان، كان عثمـان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رسـولَ رسـولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل مكة، قال: فبايع الناس، فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسـوله»، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يدُ رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم[2]!

قـال الحافـظ ابن كثيـر: فكان ذلـك أجَلَّ من شـهودِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تلك البيعةَ[3].

وأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[4].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٩٩).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٠٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٣) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (١٩١).
(٤) سورة الفتح - آية (١٨).



فضل أهل بيعة الرضوان

أعظم ما ورد في فضل أهل بيعة الرضوان قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

وروى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحُديبية: «أنتم خير أهل الأرض»، وكنا ألفًا وأربعمائة[1].

قال الحافظ في الفتح: هذا صريح في فضل أصحاب الشجرة؛ فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة والمدينة، وبغيرهما[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل النَّارَ أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»[3].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٥٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٥٦) (٧١).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٢١١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٧٨) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤١٩٧) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٦٥٣).



أَسْرُ عددٍ من المشركين

لما عَلِمَت قريش بالبيعة بعَثَت سَـرِيَّة ليلًا إلى معسـكر المسـلمين، فوقعوا كلُّهم في الأَسْر؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسـنده -واللفـظ لأحمد- عـن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: لما كان يـومُ الحُديبية هبط على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة في السـلاح، من قِبَلِ جبـل التنعيم[1]، فدعا عليهم، فأُخِذوا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[2].

وفي رواية أخرى في المُسنَد والمُستدرَك بسند صحيح عن عبد الله بن مُغَفَّـل المُزَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شـابًّا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخذ الله أبصارَهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحدٌ أمانًا؟».

---

(١) زاد الإمام مسلم في صحيحه: يريدون غِرَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.
الغِرَّة -بكسر الغين-: الغفلة. انظر: النهاية (٣/ ٣١٨).
وزاد أبو داود في سننه والإمام أحمد في رواية أخرى، بعد قوله: التنعيم: عند صلاة الفجر.

(٢) سـورة الفتـح - آية (٢٤) - والخبر أخرجه الإمام مسـلم في صحيحـه - رقم الحديث (١٨٠٨) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٢٧) (١٤٠٩٠) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٦٨٨).



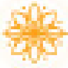
فقالوا: اللهم لا، فخلَّى سبيلهم، وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].



متى وقع أسْرُهم؟

قلتُ: يظهر أن هذه الحادثة وقعت بعدما تم الصلح أو قُبيله بقليل؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سَلمةَ بنِ الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: ثم إن المشركين راسَلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا، وكنتُ تبيعًا[2] لطلحة بن عُبيد الله، أسقي فرسه، وأَحُسُّهُ[3]، وأخدُمه، وآكُلُ من طعامه، وتركتُ أهلي ومالي، مهاجِرًا إلى الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[4]، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسَحْتُ[5] شوكها، فاضطجعت في أصلها، فأتاني أربعة

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٨٠٠) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٧٥٨) - وأورده الحافظ في الفتح (٥/ ٧٠٤) وصَحَّح إسناده.
(٢) تبيعًا: أي: خادمًا. انظر: النهاية (١/ ١٧٦).
(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٨): أي: أحكُّ ظَهرَه بالمِحَسَّة؛ لأُزيل عنه الغبار ونحوه.
(٤) قال الحافظ في الإصابة (٣/ ١٢٧): سلمة بن عمرو بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أولُ مَشاهِدِه الحديبية، كان من الشُّجعان.
(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٨): أي: كنستُ ما تحتها من الشَّوك.



من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبغَضْتُهم، فتحوَّلتُ إلى شجرة أُخرى، وعلَّقوا سلاحهم، واضطجعوا، فبينا هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا لَلمهاجرين قُتِلَ ابن زُنَيم[1]، قال: فاخترطتُ[2] سيفي، ثم شددتُ على أولئك الأربعة وهم رقودٌ، فأخذتُ سلاحَهم، فجعلته ضِغثًا[3] في يدي، ثم قلتُ: والذي كَرَّم وجهَ محمد، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، ثم جئتُ بهم أسوقهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: وجاء عمِّي عامر برجُلٍ من العَبَلات[4] -يُقال له: مِكْرز[5]- يقوده إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فرس مُجَفَّفٍ[6] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «دعوهم، يكُنْ لهم بَدءُ الفُجور وثِنَاه»[7]، فعفا عنهم

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٨): زُنَيم: هو بضم الزاي وفتح النون.

(٢) اخترط السيف: سَلَّه من غِمْدِه. انظر: لسان العرب (٤/ ٦٥).

(٣) ضِغثًا: أي: حُزمة. انظر: النهاية (٣/ ٨٣).

(٤) العَبَلَات -بالتحريك-: اسم أمية الصغرى من قريش، والنسب إليهم: عَبْلِيٌّ. انظر: النهاية (٣/ ١٥٨).

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٨): مِكرِز: هو بميم مكسورة، ثم كاف، ثم راء مكسورة

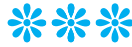
(٦) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٨): مُجَفَّف -هو بفتح الجيم، وفتح الفاء الأولى المشددة- أي: عليه تِجفاف -بكسر التاء- وهو ثوب كالجُلِّ يلبسه الفرس ليقيَه من السلاح، وجمعه تجافيف.

(٧) وثِناه: أي: أوّلُه وآخِرُه. انظر: النهاية (١/ ٢١٩).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[(١)].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كفَّ أيديَ المشركين عنهم، فلم يصِلْ إليهم منهم سوء، وكفَّ أيديَ المؤمنين من المشركين، فلم يُقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحًا فيه خِيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة[(٢)].

***



صُلح الحُديبيَة

فلما أطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء السبعين بعثت قريش سُهَيل بن عمرو، ومعه حُويطب بن عبد العُزَّى، ومِكرَز بن حفص؛ ليُصالح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يرجع عنهم عامهم هذا، وأن يعتمر من العام المقبل، واتفقوا على أمور أخرى؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: إن قريشًا بعثوا سهيل بن عمرو؛ أحدَ بني عامر بن لُؤَي، فقالوا: ائتِ محمدًا فصالِحْه، ولا يكون في صُلحه إلا أن يرجِعَ عنا عَامَهُ هذا، فوالله

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٢).



لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عَنوة أبدًا، فأتاه سُهَيل بن عمرو، فلما رآه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل»[1]، فلما انتهى إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلما، وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح[2].

اتفق الطرفان على أمور؛ من أهمها:

١- روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبد الله سُهَيلَ بن عمرو: ترجِعُ عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فتدخلها بأصحابك، وأقمتَ فيهم ثلاثًا، معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القُرُب[3].

وفي رواية الإمام البخاري في صحيحه، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضُغْطةً[4]، ولكن ذلك من العام المقبل[5].

(١) في رواية الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١) (٢٧٣٢) قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى سُهيل بن عمرو: قد سَهُل لكم من أمرِكم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).
(٣) أخرجه الإمام في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).
(٤) ضُغطة: أي: قهرًا. انظر: النهاية (٣/ ٨٣).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).



٢- روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: إنهم اصطلحوا على وضع الحرب عشر سنين[١] يأمَنُ فيهن الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض[٢].

٣- روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب أنه مَن أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومَن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خُزاعة، فقالوا: نحن في عقد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدِهم[٣].

٤- روى الإمام البخاري في صحيحه عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: قال سهيل بن عمرو: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا ردَدْتَه علينا[٤].

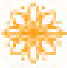
---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٩٣): هذا القدر الذي ذكره ابن إسحاق -في السيرة (٣/ ٣٤٦)- أنه مدة الصلح، هو المعتمَد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٧٦٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).



وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فاشترطوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مَن جاء منكم لم نرُدَّه عليكم، ومَن جاءكم منا ردَدْتُموه علينا، فقالوا: يا رسول الله، أنكتُبُ هذا؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم، إنه من ذهب منَّا إليهم فأبعَدَه اللهُ، ومَن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»[1].

٥- روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما أُحْصِرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند البيت صالحه أهل مكة على أن يدخلها[2]، فيقيم بها ثلاثًا، ولا يدخلها إلا بجُلْبان[3] السلاح؛ السَّيفِ وقِرابه[4]، ولا يَخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحدًا يمكث بها ممن كان معه[5].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٤).

(٢) يعني: في العام القادم، وذلك في عُمرة القَضيَّة.

(٣) الجُلْبان -بضم الجيم، وسكون اللام-: شِبْهُ الجراب من الأَدَم، يُوضع فيه السيف مغمودًا، ويَطرَح فيه الراكب سوطه وأداته. انظر: النهاية (١/ ٢٧٣).

(٤) في رواية الإمام البخاري: ما جُلبان السلاح؟
قال: القِراب بما فيه.
والقِراب -بكسر الراء-: هو غِمد السيف. انظر: لسان العرب (١١/ ٨٦).

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦٩٨) (٢٦٩٩) (٤٢٥١)، ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٣) (٩٢).



أمْرُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالتحلُّل

فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صُلح الحُديبية قال لأصحابه: قوموا فانحَروا ثم احلِقوا، فما قام منهم رجل! حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فذكر لها ما لَقِيَ من الناس، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ اخرُجْ، ثم لا تُكلِّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحرَ بُدْنَك[1]، وتدعو حالِقَك فيَحلِقك، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يُكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدْنَه ودعا حالقه[2] فحلقه، فلمَّا رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يحلق بعضًا، حتى كاد يَقتُل بعضًا غمًّا![3]

قال الحافظ ابن كثير: فلم يفعلوا؛ انتظارًا للنَّسْخ، حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس[4].

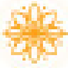
---

(١) البُدْن: جمع بَدَنة، وهي تقع على الجمل والناقة والبقرة، وهي بالإبل أشبه، وسُمِّيَت بدنة لِعظَمِها وسِمَنِها. انظر: النهاية (١/ ١٠٨).

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/ ٣٦٨): الصحيح أن خِراش بن أُمَية كان الحالِقَ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحُديبية.

(٣) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٣).



ودعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمُحَلِّقين ثلاثًا، وللمُقَصِّرين مرة؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حلق رجالٌ يوم الحُديبية، وقَصَّر آخرون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يرحَمُ الله المُحَلِّقين»، قالوا: يا رسول الله، والمُقَصِّرين؟ قال: «يرحم الله المُحَلِّقين»، قالوا: يا رسول الله والمُقَصِّرين؟ قال: «يرحم الله المحلقين»، قالوا: يا رسول الله، والمقصرين؟ قال: «والمُقَصِّرين»[(١)].

ثم نحر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَدْيَهم؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نحَرْنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الحُديبية: البَدَنَةَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٣١١)، وأخرجه عن ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٢٧) (١٧٢٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٠١) (٣١٧) (٣١٨) (١٣٠٢) (٣٢٠) - وليس عندهما أن ذلك كان يوم الحُدَيبية.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٤٣): كل هذا -يعني الدعاء للمحلِّقين ثلاثًا، والمقصِّرين مرة واحدة- كان في حَجَّة الوداع: هذا هو الصحيح المشهور، وحكى القاضي عِياض عن بعضهم أن هذا كان يومَ الحديبية.

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٨٩): بل هو المتعين؛ لتظاهر الروايات بذلك في الموضعين، إلا أن السبب في الموضعين مختلف؛ فالذي في الحُديبيَة كان بسبب توقُّف من توقف من الصحابة عن الإحلال؛ لِمَا دخل عليهم من الحزن؛ لكونهم مُنِعوا من الوصول إلى البيت، وأما السبب في تكرير الدعاء للمحلِّقين في حجة الوداع: أن عادة العرب أنها كانت تُحب توفير الشعر والتزين به، وكان الحلق فيهم قليلًا، وربما كانوا يرونه من الشهرة ومن زي الأعاجم؛ فلذلك كَرِهوا الحَلْقَ واقتصروا على التقصير.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣١٨).



وروى ابن حبان في صحيحه بسند صحيح عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نحرنا يوم الحُديبية سبعين بَدَنة، البَدَنةُ عن سبعة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يشترِكُ النَّفَرُ في الهَدْيِ»[1].

قال الإمام الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم؛ يرون الجَزورَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة، وهو قول سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد[2].

❊❊❊



نزول آية الفِدْية

نزلت آية الفِديةِ في كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[4].

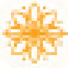
---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٠٤).

(٢) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٤١١).

(٣) قال الإمام ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٨١٢) - قسم التراجم -: عُجْرَة: بضم العين المهملة، وسكون الجيم.
وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٤٢ - ١٤٣): كعب بن عُجْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف الأنصار، تأخر إسلامُه وشهد بيعة الرِّضوان وغيرَها.

(٤) سورة البقرة - الآية (١٩٦).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن كعب بن عُجْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وقف عليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحُديبية، ورأسي يتهافت[1] قَملًا، فقال: «يؤذيك هوامُّك؟»[2] قلتُ: نعم، فقال: «فاحلِقْ رأسك»، أو قال: «احلِقْ»، قال: فيَّ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ إلى آخرها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صُمْ ثلاثة أيام، أو تَصدَّق بِفَرَقٍ[3] بين سِتَّة، أو انسُكْ[4] بما تيسَّر»[5].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال كعب بن عُجْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حُمِلتُ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقملُ يتناثرُ على وجهي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما كنتُ أُرى أنَّ الجَهْدَ[6] قد بلغ بك هذا، أما تجِدُ شاةً؟» قلتُ: لا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صُم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصفُ صاع من طعام، واحلِقْ رأسَك»[7].

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ٩٩): يتهافت: يتساقط ويتناثر.

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٣/ ٣٩١): الهَوامُّ: جمع هامَّة، وهي الدبيب، كالقَملِ ونحوه مما يكون في الشَّعر والبَدَن.

(٣) الفَرَق -بالتحريك-: مكيال يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مُدًّا، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز. انظر: النهاية (٣/ ٣٩١).

(٤) نَسَك يَنْسُك نَسْكًا: إذا ذبح. انظر: النهاية (٥/ ٤١).

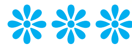
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٨١٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٠١) (٨٣).

(٦) الجَهْد -بفتح الجيم-: المشقة. انظر: النهاية (١/ ٣٠٨).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٥١٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٠١) (٨٥).



قـال الحافظ ابـن كثير: مذهب الأئمـة الأربعة، وعامـة العلماء: أنه مُخيَّـر في هذا المقام؛ إن شـاء صام، وإن شـاء تصدق بِفَـرَقٍ، وهو ثلاثة آصُعٍ، لكل مسـكين نصف صاع، وهو مُدَّان، وإن شاء ذبح شاة وتَصَدَّق بها على الفقراء، أيَّ ذلك فَعَل أجزَأه[1].



الإحصار[2] في عمرة الحُديبية

ولم يتمكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام من أداء العمرة؛ بسـبب منع قريش لهـم، وهذا ما يُعرف بالإحصـار في العمرة؛ فقد روى الإمام مسـلم في صحيحه عن البراء بـن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: لما أُحْصِرَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند البيت، صالحه أهل مكة على أن يدخلها[3]، فيُقيم بها ثلاثًا[4].

وروى الإمـام البخاري في صحيحه عـن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قد أُحْصِرَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحلق رأسه، وجامع نساءَه، ونَحَر هَدْيَه، حتى اعتمر عامًا قابلا[5].

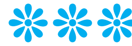
---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٩٧).
(٢) الإحصار: المنع والحبس. انظر: النهاية (١/ ٣٨٠).
(٣) يعني: يدخل مكة في العام القادم.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٣) (٩٢).
(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٩).



ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾[1].

قال الإمام السُهيلي، وهو يتحدث عن عمرة القضاء التي وقعت بعد عمرة الحُديبيَة بسنة، قال: وسُمِّيت عمرةَ القضاء؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاضى قريشًا عليها[2]، لا أنه قضى العمرة التي صُدَّ عن البيت فيها؛ فإنَّها لم تَكُ فسدت بصَدِّهم عن البيت، بل كانت عمرة تامة متقبَّلة، فهي معدودة في عُمَرِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أربع: عمرة الحُديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجِعْرَانة، والعمرة التي قرنها مع حَجِّه في حجة الوداع[3].



حُزْن المسلمين من هذا الصلح

قال المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم: وقد كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجوا وهم لا يشكُّون في الفتح؛ لرُؤيا رآها رسول الله

(١) سورة البقرة - آية (١٩٦).

(٢) في الحديبية.

(٣) انظر: الروض الأنف (٤/ ١١٤).



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمَّل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفسه، دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا أن يَهلِكوا[1].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن سهل بن حُنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى عُمَرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: ففيمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ[2] في ديننا، ونرجع ولَمَّا يحكُمِ الله بيننا وبينهم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يُضيِّعَني الله أبدًا»؛ فانطلق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يصبر متغيظًا، فأتى أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا، نرجع ولمَّا يحكُمِ الله بيننا وبينهم؟ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يُضيِّعَه الله أبدًا[3].

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أوليس كنت

---

(١) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠) وإسناده حسن.

(٢) الدَّنِيَّة -بفتح الدال، وكسر النون، وتشديد الياء- أي: الخصلة المذمومة. انظر: النهاية (٢/ ١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣١٨٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٥) (٩٤).



تُحدِّثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بلى»، فأخبَرْتُك أنَّا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنَّك آتيه ومُطَّوِّفٌ به»[(١)].

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما زلتُ أصوم وأتصدَّق وأصلِّي وأُعتِق؛ من الذي صنعتُ؛ مخافة كلامي الذي تكلمتُ به يومئذ حتى رجوتُ أن يكون خيرًا[(٢)].

قال الإمام النووي: قال العلماء: لم يكن سؤال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكلامه المذكور شكًّا، بل طلبًا لكشف ما خفي عليه وحثًّا على إذلال الكفار وظهور الإسلام، كما عُرِف من خُلُقِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقُوَّته في نُصرة الدين وإذلال المُبطلين[(٣)].



عودة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة ونزول سورة الفتح[(٤)]

عاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، بعد أن أقام بالحُديبية عشرين يومًا، وفي طريق عودته نزل عليه الوحي بسورة الفتح كاملة؛ فقد

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).

(٢) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩١٠) وإسناده حسن.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٢٠).

(٤) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٩٤): سورة الفتح مَدَنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية، ونزلت ليلًا بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيبيَة.



روى الحاكم في مستدركه بسند حسن عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: أُنزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُديبية، من أولها إلى آخرها[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ مَرْجِعَه من الحُديبية وهم يُخالطهم الحُزن والكآبة، وقد نَحَر الهَدْيَ بالحُديبية، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد أُنزِلَت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعًا»[2].

فلما نزلت سورة الفتح بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقرأها عليه؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن سهل بن حُنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى آخرها، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوفَتْحٌ هو؟! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم».

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٧٥٢).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٦).



زاد مسلم: فطابت نفسُه ورجع[١].



صلح الحُديبية أعظم الفتوح

قال الحافظ ابن كثير: فكانت هذه الهُدنة من أكبر الفتوحات للمسلمين[٢].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١﴾، قال: الحُديبيَة[٣].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تَعدُّون أنتم الفتحَ فَتحَ مكَّةَ، وقد كان فتحُ مكة فتحًا، ونحن نعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يوم الحُديبيَة[٤].

وقال الإمام النووي: قال العلماء: والمصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التي كانت عاقبتُها فتحَ مكة، وإسلام أهلها كلها، ودخول الناس في دين الله أفواجًا،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣١٨٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٥) (٩٤).

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (١٨٩).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٧٢).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٥٠).



وذلـك أنهم قبل الصلح لـم يكونوا يختلطون بالمسـلمين، ولا تتظاهر عندهم أمـور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هي، ولا يحلُّـون بمن يُعلمهم بها مفصَّلـة، فلما حصل صلح الحُديبية اختلطوا بالمسـلمين، وجاؤوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة وحلُّوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يسـتنصحونه، وسـمعوا منهـم أحوال النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفصَّلة بجزئياتها، ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحُسْـن سيرته وجميـل طريقته، وعاينوا بأنفسـهم كثيـرًا من ذلك، فما زَلَّت نفوسـهم إلـى الإيمان حتى بادر خَلقٌ منهم إلى الإسـلام قبل فتح مكة، فأسـلموا بين صلح الحُديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلًا إلى الإسـلام، فلما كان يوم الفتح أسـلموا كلهم، لمَّـا كان قد تمهَّد لهم من الميل، وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلامَ قريش، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي[1].



(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٢٠).



السنة السابعة للهجرة

مكاتبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الملوك والأمراء

في مُحَرَّم من السنة السابعة[1] للهجرة أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) اختُلف في الوقت الذي بعث فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُتُبَه إلى الملوك والأمراء:

* قال ابن سعد في طبقاته (١/ ١٢٥): قالوا: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع من الحُديبية في ذي الحجة سنة ستٍّ، أرسل الرُّسُل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كُتبًا.
* ولم يُحدد ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٦٢) تاريخ إرسال الكتب، واستدرك عليه ابن هشام (٤/ ٢٦٢) وجعلها بعد عمرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي صُدَّ عنها يوم الحُديبية.
* وذهب الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٧٦) إلى أن إرسال الكتب كان بعد غزوة مؤتة، وذلك في السنة الثامنة للهجرة.
* وجعل الإمام البخاري في صحيحه (٨/ ٤٦٩) إرسال الكتب إلى كسرى وقيصر بعد غزوة تبوك، والتي وقعت في رجب من السنة التاسعة للهجرة.
* قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٦٥٥): ولا خلاف بينهم أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحُديبية.
* وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٧٣): في إيراد هذا الحديث -هو حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه بَعْث عبد الله بن حُذافة السهمي بكتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كسرى- آخر هذا الباب: إشارةٌ إلى أن إرسال الكتب إلى الملوك كان في سنة غزوة تبوك، ولكن لا يدفع ذلك قول مَن قال: إنه كاتَبَ الملوكَ في سنة الهُدنة كقيصر، والجمع بين القولين أنَّه كاتَبَ قيصر مرتين، وهذه الثانية قد وقع التصريح بها في مسند أحمد - رقم الحديث (١٥٦٥٥)، وكاتَبَ النجاشي الذي أسلم وصلى عليه لما مات، ثم كاتب النجاشي الذي وَلِيَ بعده وكان كافرًا، وقد روى مسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كل جبار، يدعوهم إلى الله، وسمَّى منهم كسرى وقيصر والنجاشي، قال: وليس بالنجاشي الذي أسلم.

رسله إلى ملوك العرب والعَجَم، وكتب إليهم كُتُبًا يدعوهم فيها إلى الإسلام؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب[(١)] إلى كِسرى، وإلى قَيصر، وإلى النَّجاشي[(٢)]، وإلى كل جبَّار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].



---

(١) زاد الإمام الترمذي في جامعه: قبل موته.

(٢) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٣٥٥): أُكَيدِر دُومة بدل النجاشي.
قال الحافظ في الفتح (٥/ ٥٥٢): أُكيدِر دومة: هو أُكيدِر تصغير أكْدَر، ودُومة -بضم الدال وسكون الواو-: بلد بين الحجاز والشام، وهي دُومة الجَنْدَل؛ مدينة بقرب تبوك بها نخل وزرع وحصن، على عشر مراحل من المدينة، وثمانٍ من دمشق، وكان أُكيدِر مَلِكَها.
قلت: ذهب الإمام ابن حزم في جوامع السيرة - ص (٢٤) - والإمام ابن القيم في زاد المعاد (١/ ١١١) - والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٩٠): إلى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبعث إلى النجاشي أصحمة الذي آمن به، وآوى مهاجري الحبشة، وصلى عليه صلاة الغائب؛ لأنه مسلم.
وذهب الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١١٥) - والحافظ في الفتح (٨/ ٤٧٣) إلى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث إليهما جميعًا: النجاشي أصحمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والنجاشي الآخر الذي حكم بعد أصحمة.
قلت: والأظهر أنه بعث إليهما جميعًا، كما سيأتي في الحديث عن رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنجاشي أصحمة.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٤) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٣٥٥) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢٩١٣).



اتخاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخاتَمَ لكُتُبه

فلما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكتب إلى الملوك والأمراء، قيل لـه: إنهم لا يَقبَلون كتابًا إلا وعليه خاتَم، فاتخذ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمًـا من فضة؛ فقد روى الشـيخان في صحيحيهما عـن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال: إن نبـي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يكتب إلى رهط أو أُناس مـن الأعاجم[(١)]، فقيل لـه: إنهم لا يَقبَلون[(٢)] كتابًـا إلا عليه خاتَم؛ فاتَّخَذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمًا من فضة، نَقْشُه: محمد رسول الله[(٣)].

وفي لفظ آخر في صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر؛ محمد: سطر، ورسول: سطر، والله: سطر[(٤)].

---

(١) في رواية أخرى في صحيح مسـلم - رقم الحديث (٢٠٩٢) (٥٨): إلى كسـرى وقيصر والنجاشي.

(٢) في رواية أخرى في الصحيحين: يقرؤون.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٨٧٢) (٥٨٧٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٩٢) (٥٦) (٥٧) (٥٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣١٠٦) (٥٨٧٨) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٨٤٢).

* قـال الحافظ في الفتح (١١/ ٥١٦): ظاهره أنه كان على هـذا الترتيب، لكن لم تكن كتابتـه على السـياق العادي؛ فـإن ضرورة الاحتيـاج إلى أن يختم بـه يقتضي أن تكون الأحرف المنقوشـة مقلوبة؛ ليخرج الختم مسـتويًا، وأما قول بعض الشيوخ: إن كتابته كانت من أسفل إلى فوق، يعني: أن الجلالة في أعلى الأسطر الثلاثة، ومحمد في أسفلها، فلم أرَ التصريح بذلك في شيء من الأحاديث. =



كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النَّجاشي أَصْحَمة[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن أمية الضَّمْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النجاشي أَصْحَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويظهر من خلال الروايات: أنه بعثه أكثر من مرة وفي أزمان مختلفة، وتضمَّنت رسائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي أصحمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمورًا؛ منها:

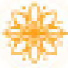
١) دعوته إلى الإسلام:

قال الحافظ ابن كثير: أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن أُمَيَّة

---

* وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٧٥): وكان فَصُّهُ منه -يعني: ليس فيه فَص ينفَصِلُ عنه-، ومَن روى أنه كان فيه صورة شخص، فقد أبعد وأخطأ، بل كان فِضَّة كله وفَصُّه منه، ونَقْشُه: محمد رسول الله، ثلاثة أسطر؛ محمد: سطر، رسول: سطر، الله: سطر، وكان منقوشًا وكتابته مقلوبة؛ ليُطبَع على الاستقامة كما جرت العادة بهذا، وقد قيل: إن كتابته كانت مستقيمة، وتُطبَع كذلك، وفي صحة هذا نظر، ولستُ أعرف لذلك إسنادًا صحيحًا ولا ضعيفًا.

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٧/ ٢٠): أَصْحَمَة: هو بفتح الهمزة، وإسكان الصاد وفتح الحاء المهملتين، وهذا الذي وقع في رواية مسلم -رقم الحديث (٩٥٢) (٦٤)- هو الصواب المعروف فيه، وهكذا هو في كتب الحديث والمغازي وغيرها، ووقع في مسند ابن أبي شيبة في هذا الحديث تسميته: صَحْمَة، بفتح الصاد وإسكان الحاء، وقال: هكذا قال لنا يزيد، وإنما هو صَمْحَة -يعني: بتقديم الميم على الحاء-، وهذان شاذَّان، والصواب: أَصْحَمَة، بالألف.
قال العلماء: والنَّجاشي: لقَبٌ لكل مَن ملك الحبشة، وأما أَصْحَمَة، فهو اسم عَلَم لهذا الملك الصالح الذي كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



الضَّمْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النجاشي بكتابه، فأسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

٢) الوصية بمهاجري الحبشة.

٣) تزويجه أمَّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال ابن سعد في طبقاته: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن أمية الضَّمْري إلى النجاشي، وكتب إليه كتابين، يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزَوِّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن حبيب بن أبي أوس، قال: حدثني عمرو بن العاص مِن فيه، قال: لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق، جمعتُ رجالًا من قريش كانوا يرون مكاني، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون، والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا كبيرًا، وإني قد رأيت رأيًا، فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي؛ فإنَّا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يَدَيْ محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عَرَفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، فقالوا: إن هذا الرأي، قال: فقلت لهم: فاجمعوا له ما نُهدي له، وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٣٢٦).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٢٥).



أرضنـا الأُدُمُ[١]، فجمعنا له أُدُمًا كثيرًا، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنـده إذ جاء عمرو بن أمية الضَّمْري، وكان رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه[٢].

وروى البيهقـي في دلائـل النبـوة عن محمد بن إسـحاق، قال: بعث رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرَو بن أمية الضَّمْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النجاشي في شـأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتابًا: بسـم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلامٌ عليك؛ فإني أحمد إليك اللهَ الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسـى بن مريم رُوحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيِّبة الحصينة، فحملت بعيسـى، فخَلَقَه مـن رُوحه ونَفَخَه، كما خلـق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتَّبِعَني وتُؤمـن بـي وبالذي جاءني؛ فإني رسـول الله، وقد بعثـتُ إليكم ابن عمي جعفـرًا ومعه نفر من المسـلمين، فإذا جاؤوك فأَقْرِهـم[٣] ودَعِ التجبُّر[٤]؛

---

(١) الأُدُمُ: جمع أديم، وهو الجلد. انظر: لسان العرب (١/ ٩٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٧٧٧).

(٣) قَرى الضيف: أضافه. انظر: لسان العرب (١١/ ١٤٩).

(٤) قلت: يظهر من صيغة رسـالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه: أن رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثها بعد وصول مهاجري الحبشة الهجرة الثانية إلى الحبشة، وذلك قبل الهجرة إلى المدينة النبويـة، وهـو ما ذهب إليـه البيهقي في دلائل النبـوة، وأورد ذلك بعـد أحداث الهجرة الثانية إلى الحبشة، ورجحه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٩٠).

فإني أدعوك وجنودك إلى الله، وقد بَلَّغتُ ونصَحْتُ؛ فاقبلوا نصيحتي، والسلامُ على مَن اتَّبَع الهدى[١].

وروى أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه بسند صحيح عن أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها كانت تحت عُبَيد الله بن جَحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجَها النجاشي[٢] النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع شُرَحْبيل بن حَسَنة[٣].

قال الحافظ في التلخيص الحَبير: اشتَهَرَ في السِّيَر: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عمرو بن أمية الضَّمْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فزوَّجه أم حبيبة، وهو محتمل أن يكون هو الوكيل في القبول أو النجاشي، وظاهِرُ ما في أبي داود والنسائي: أن النجاشي عقد عليها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووَلِيَ النكاحَ خالدُ بن سعيد بن العاص، كما في المغازي، وقيل: عثمان بن عفان[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو وَهْم[٥].

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٠٩).

(٢) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٣٠٢): زوَّجه إياها خالد بن سعيد بن العاص، وهما بأرض الحبشة.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢١٠٧) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٧٧٦).

(٤) هي رواية الحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٦٩٢٣) - من قول الإمام الزهري، وإسناده جيد إليه.

(٥) انظر: التلخيص الحبير (٤/ ١٨٨٩).

وقال الإمام ابن القيم: وتزويج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، القُرَشية الأموية، وقيل اسمها: هند[1]، تزوجها وهي ببلاد الحبشة مهاجِرةً، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وسِيقَت إليه من هنالك، وماتت في أيام أخيها معاوية، هذا المعروف المتواتر عند أهل السِّيَر والتواريخ، وهو عندهم بمنزلة نكاحه لخديجة بمكة، ولحفصة بالمدينة، ولصفيَّة بعد خيبر[2].

وقال في تهذيب سنن أبي داود: وتزويج النجاشي لها حقيقةٌ؛ فإنه كان مسلمًا، وهو أمير البلد وسلطانه، وقد تأوله بعض المتكلِّفين على أنه ساق المهر من عنده، فأضيف التزويج إليه، وتأوله بعضهم على أنه كان هو الخاطب، والذي وَلِيَ العقد عثمان بن عفان، وقيل: عمرو بن أمية الضَّمْري، والصحيح أن عمرو بن أمية كان وكيل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، بعث به إلى النجاشي يزوِّجُه إياها، وقيل: الذي وَلِيَ العقد عليها خالد بن سعيد بن العاص؛ ابن عم أبيها[3].



---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٨١٥): الصحيح المشهور: رملة، وبه قال الأكثرون.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٩٩).

(٣) انظر: تهذيب سنن أبي داود (١/ ٤٣٠).



كتاب النجاشي أصحمة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وهداياه

كتـب النجاشـي أصحمـة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ **إلـى النبـي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ **بإجابته وتصديقـه وإسـلامه،** وأهـدى إلـى رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام الترمذي وأبو داود بسند حسن عن ابن بُريدة بن الحُصَيب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن أبيه، قال: إن النجاشـي أهدى إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ خُفَّين أسودَين ساذَجين[(١)]، فلبسهما، ثم توضأ ومسح عليهما[(٢)].

وروى الإمـام أحمد في مسـنده وأبو داود في سـننه بسـند حسـن عن عائشـة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت: قَدِمَت على النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ حِلْية[(٣)] من عند النجاشـي، أهداها لـه، فيها خاتم مـن ذهب، فيه فَصٌّ[(٤)] حبشـي، فأخذه النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ بِعُود ببعض أصابعه، مُعرِضًـا عنه، ثم دعا أُمامة بنت أبي العاص، ابنة ابنته[(٥)]، فقال: تَحلَّي بهذا يا بُنَيَّة[(٦)].

---

(١) السَّاذَج: الخالص غير المنقوش. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٠٣٠) - وأبو داود في سـننه - رقم الحديث (١٥٥) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن - وحَسَّنه الإمام البغوي في شرح السنة (١٢/ ٧١).

(٣) الحَلْيُ: اسم لكل ما يُتزيَّن به من مَصاغ الذهب والفضة، والجمع حُلِيٌّ بالضم والكسر. انظر: النهاية (١/ ٤١٨).

(٤) فَصُّ الخاتم: المُركَّب فيه. انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٧١).

(٥) زينب رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٢٤٨٨٠) - وأبو داود في سـننه - رقم الحديث (٤٢٣٥).





وفاة النجاشي أَصْحَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تُوفي النجاشي أصحمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رجب من السنة التاسعة للهجرة، ونعاه[1] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أصحابه يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: نعى لنا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال: استَغفِروا لأخيكم[2].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج بهم إلى المصلى[3]، وكبر أربع تكبيرات[4].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مات النجاشي: مات اليوم رجل صالح؛

---

(١) نعى الميِّت: إذا أذاع موتَه، وأخبر به. انظر: النهاية (٥/ ٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٣٢٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٥١) (٦٣).

(٣) في رواية ابن ماجه في سننه - رقم الحديث (١٥٣٤): البقيع.
قال الحافظ في الفتح (٣/ ٥٤٣): المراد بالبقيع: بَقيع بُطحان، أو يكون المراد بالمُصَلَّى موضعًا مُعَدًّا للجنائز ببقيع الغرقد غير مُصَلَّى العيدين، والأول أظهر.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٥١) (٦٢).





فقوموا فصَلُّوا على أخيكم أَصْحَمَة[1].

قال الإمام الذهبي: النجاشي، واسمه أَصْحَمة ملك الحبشة، معدود في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان ممن حَسُن إسلامه ولم يُهاجِر، ولا له رُؤية، فهو تابعي من وجه، صاحِبٌ من وجه، وقد تُوفي في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصلى عليه بالناس صلاةَ الغائب، ولم يثبُت أنه صلى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غائب سواه، وسبب ذلك أنه مات بين قوم نصارى، ولم يكن عنده مَن يُصلِّي عليه؛ لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين إلى المدينة عام خيبر[2].



كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي الآخَر

ولما مات النجاشي أَصْحَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَلَفَه على الحبشة نجاشي آخر، فكتب له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جَبَّار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلَّى عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٧٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٥٢) (٦٥).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٨).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٤).



وروى الإمام البيهقي في دلائل النبوة والحاكم في مستدركه عن ابن إسحاق، قال: هذا كتاب من النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني رسوله؛ فأسلِمْ تسلَمْ، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾[(١)]، فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك[(٢)].

قال الحافظ ابن كثير: الظاهر أن هذا الكتاب إنما هو إلى النجاشي الذي كان بعد المسلم صاحب جعفر وأصحابه، وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ قُبيل الفتح، كما كتب إلى هِرَقل عظيم الروم، وقيصر الشام، وإلى كِسرى ملك الفرس، وإلى صاحب مصر، وإلى النجاشي، وكلها فيها هذه الآية، وهي من سورة آل عمران، وهي مدنية بلا خلاف، فهذا الكتاب إلى الثاني لا إلى الأول، وقوله فيه: إلى النجاشي الأصحم، لعل الأصحم مُقحَم من الراوي بحسَب ما فَهِمَ. والله أعلم[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران - الآية (٦٤).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٠٨) - ومستدرك الحاكم - رقم الحديث (٤٢٩٠).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٩٠).



كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كِسرى[1]

وبعث رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدَ الله بن حُذافة السـهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتابه إلى كِسـرى ملـك الفرس؛ فقد روى الإمـام البخاري في صحيحه عـن ابن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعـث بكتابه إلى كسـرى مع عبد الله بن حُذافة السـهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[2]، فدفعه عظيم البحرين إلى كِسـرى، فلما قرأه مَزَّقه[3]، فحَسِـبْتُ[4] أن ابن المُسَيِّب قال: فدعا عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُمَزَّقوا كلَّ مُمَزَّقٍ[5].

قال الإمام السـندي: أراد بتمزيقهم تفَرُّقهـم، وزوال مُلْكِهم، وقَطْعَ دابِرِهم، وقد وقع ذلك؛ فما بَقِيَ فيهم المُلك[6].

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسـماء واللغات (٢/ ١٤٠): كسـرى بن هرمز الكافر، عظيـم الفُرس في العـراق وحواليها، وهو بكسـر الكاف وفتحها، قال ابـن الجواليقي: الكسـر أفصح، وهو فارسـي مُعَرَّب، قال: وجمعه أكاسرة، وكُسـور وأكاسر، والنسبة إليه كَسْرَوي، بفتح الكاف.

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/ ٢١٠): هو المُنذِرُ بن ساوَى بالمهملة وفتح الواو الممالة.

(٣) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٩٣٩): حَرَّقه.

(٤) قال الحافظ في الفتح (١/ ٢١٠): القائل: هو ابن شهاب راوي الحديث.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٢٤).

(٦) انظر: شرح السندي للمسند (٢/ ٣٩٤).



وروى الإمام ابن جرير الطبري في تاريخه عن يزيد بن حبيب، قال: بَعَث[1] عبدَ الله بنَ حُذافة السَّهمي إلى كِسرى بن هرمز ملك فارس، وكَتَب معه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على مَن اتبع الهُدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافَّةً؛ لأُنذِرَ مَن كان حيًّا ويَحِقَّ القولُ على الكافرين، فأسلِمْ تَسلَمْ، فإن أبيتَ فإن إثم المجوس عليك.

فلما قرأه مَزَّقَهُ، وقال: يكتب إليَّ هذا، وهو عبدي![2].

ومات كِسرى هذا في حياة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأخبر رسول كسرى بذلك؛ فقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه بسند مرسل رجاله ثقات، عن عبد الله بن شدَّاد، قال: كتب كسرى إلى باذان[3]: إني نُبِّئْتُ أن رجلًا يقول شيئًا لا أدري ما هو، فأرسِلْ إليه فليقعد في بيته، ولا يكن من الناس في شيء، وإلَّا فليواعدني موعدًا ألقاه به، قال: فأرسل باذان إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رجلين حالقي لحاهما، مُرسِلَي شواربِهما، فقال رسول الله

(١) يعني: رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ١٣٣) - وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، ص (٣٥٨).
(٣) باذان: هو عامِلُ كِسرى على اليمن.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يحمِلُكما على هذا؟»[1]. فقالا: يأمرنا به الذين يزعمون أنه ربُّهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكِنَّا نُخالف سُنَّتكم؛ نَجُزُّ هذا[2]، ونُرسِل هذا»[3]، قال: فتركهما بضعًا وعشرين يومًا، ثم قال: «اذهبا إلى الذي تزعمون أنه ربكما[4]، فأخبراه أنَّ رَبِّي قَتَل الذي يزعُمُ أنه رَبُّه»[5]، قالا: متى؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اليوم، فذهبا إلى باذان فأخبَراه الخبر»، قال: فكتب إلى كِسرى، فوجدوا اليومَ هو الذي قُتِلَ فيه كسرى![6]



(١) أي: على حلق اللحية وإرسال الشوارب.
(٢) يعني: الشارب.
(٣) يعني: اللحية.
(٤) هو باذان.
(٥) يعني: كسرى.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه - رقم الحديث (٣٧٧٨١) - وأورد طرقه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة - ص (٣٥٩) للشيخ محمد الغزالي، وحسنه.



كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قيصر[1]

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِحْية[2] بن خليفة الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتابه إلى قيصر ملك الروم، فدفعه إلى عظيم بُصرى[3]، فدفعه إلى هرقل؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدفعه إلى عظيم بُصرى؛ ليدفعه إلى قيصر[4].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حدثني

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٣٦): قيصر: عظيم الروم في الشام، وقيصر: لقب لكل مَن ملك الروم، وكان اسم قيصر الذي كان بالشام، وكتب له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتابه: هِرَقْل، بكسر الهاء وفتح الراء، هذا هو المشهور.

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٣٦٥) - قسم التراجم -: دِحْيَة، بكسر الدال، وسكون الحاء المهملة، وبالياء تحتها نقطتان، كذا يرويه أكثر أصحاب الحديث وأهل اللغة.

(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٦٣): بُصرى -بضم الباء-: = = مدينة حوارن، فُتحت صُلحًا في شهر ربيع الأول لخمس بقين منه، سنة ثلاث عشرة، وهي أول مدينة فُتحت بالشام.

وقال في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٨٨): والمراد بعظيم بُصرى أميرُها.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٤٠).

أبو سفيان من فيه إلى فِيَّ[١]، قال: انطلقتُ في المدة[٢] التي كانت بيني وبين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فبينما أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل، وكان دِحْية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصرى، فدفعه عظيم بُصرى إلى هِرَقْل، فقال هِرَقْل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم، قال: فدُعيتُ في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل فأجلَسَنا بين يديه، فقال: أيُّكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا. فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بتَرْجُمانه[٣]، فقال: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كَذَبَني فكَذِّبوه. قال أبو سفيان: وأيمُ الله لولا أن يُؤثِروا[٤] عليَّ الكَذِبَ لكذَبْتُ، ثم قال: لترجمانه: سَلْه كيف حَسَبُه[٥] فيكم؟ قال: قلتُ: هو فينا ذو حَسَب، قال:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٨٠): إنما لم يقل إلى أذني، يُشير إلى أنه كان متمكنًا من الإصغاء إليه بحيث يُجيبه إذا احتاج إلى الجواب؛ فلذلك جعل التحديث معلقًا بفمه، وهو في الحقيقة إنما يتعلق بأذنه.

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٩): يعني: مدة الصلح بالحُديبية.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٨٨): قوله: ترجمانه: هو بضم التاء وفتحها، والفتح أفصح، وهو المعبِّر عن لغة بلغة أخرى.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٨١): يُؤثَر -بفتح المثلثة- أي: يُنقَل.

(٥) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٧): نَسَبُه.



فهل كان من آبائه مَلِك؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: أيتَّبِعُه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أو يَنقُصون؟ قلت: لا، بل يزيدون، قال: هل يرتدُّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخُلَ فيه سَخْطةً[1] له؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتُموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سِجالًا؛ يُصيب منا ونُصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة، لا ندري ما هو صانع فيها، قال: والله ما أمكنني من كلمة أُدخِلُ فيها شيئًا غير هذه، قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا، ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتُك عن حَسَبِه فيكم فزعَمْتَ أنَّه فيكم ذو حَسَبٍ، وكذلك الرسُلُ تُبعَث في أحساب قومها، وسألتُك هل كان في آبائه مَلِك، فزعمت: أنْ لا، فقلتُ: لو كان من آبائه مَلِك، قلتُ: رجل يطلب مُلك آبائه، وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباعُ الرسل. وسألتُك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أنْ لا، فعرفتُ أنه لم يكن لِيَدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخطة له،

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٨٩): سَخْطة -هو بفتح السين- والسَّخَط: كراهية الشيء وعدم الرضا به.





فزعمت أنْ لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشةَ القلوب، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يَتِمَّ، وسألتك هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالًا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر، فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله، فزعمت أنْ لا، فقلتُ: لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلتُ: رجل ائتمَّ بقول قيل قبله، ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة، والصِّلة والعفاف، قال: إن يكُ ما تقول فيه حقًّا فإنه نَبيٌّ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولم أكُ أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أَخلُصُ إليه لأحببتُ[1] لقاءَه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدَمَيه، وليبلغن مُلكُه ما تحت قدميَّ، قال: ثم دعا بكتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تَسلَمْ، وأسلِمْ يُؤتِك الله أجرك مرتين، فإن

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٧): لتجشَّمتُ.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٩١): وهو أصح -يعني قوله: لتجشَّمتُ - في المعنى، ومعناه: لتكلفتُ الوصول إليه، وارتكبت المشقة في ذلك، ولكن أخاف أن أُقتطَع دونه، ولا عذر له في هذا؛ لأنه عرف صدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما شَحَّ في المُلك ورغب في الرياسة، فآثرها على الإسلام.



توليت فإن عليك إثمَ الأريسِيِّين[١]، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثُر اللغط، وأُمِرَ بنا فأُخرِجْنا، قال: فقلتُ لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ[٢] أَمْرُ ابنِ أبي كبشة! إنَّه لَيَخافُه مَلِكُ بني الأصفر! فما زلتُ موقنًا بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سيظهر حتى أدخل اللهُ عليَّ الإسلامَ[٣].

قلت: فآثَرَ هِرَقلُ المُلْكَ على الإسلام، والدنيا على الآخرة؛ فقد روى ابن حبان في صحيحه بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فقال[٤] لِرَسولِ رَسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد ترى أني خائف على مملكتي... وكتب قيصر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني مسلمٌ، وبعث

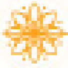
---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٩٣): أي: الفلاحون والزراعون، ومعناه: أن عليك إثم رعاياك الذين يتَّبعونك وينقادون بانقيادك، ونَبَّه بهؤلاء على جميع الرعايا؛ لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٩٤): أَمِرَ -بفتح الهمزة وكسر الميم- أي: عَظُم.
وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٦٧): أي: كَثُر وارتفع شأنه، يعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

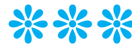
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٧) (٤٥٥٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٣).

(٤) يعني: هرقل عظيم الروم.



إليه بدنانيرَ، فقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قرأ الكتاب: «كَذَبَ عدُوُّ الله، ليس بمسلم، وهو على النصرانيَّة»، وقَسَم الدنانيرَ[١].

وقـال الحافظ في الفتح: ومما يقوِّي أن هرقل آثر ملكه على الإيمان، واسـتمر على الضلال: أنه حارب المسلمين في غزوة مُؤتة سنة ثمانٍ بعد هذه القصة بدون[٢] السَّنتين[٣].



كتاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المُقوْقِس[٤]

قـال الحافظ ابن كثير: بعث رسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاطِبَ بن أبي بلتعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى المُقَوقِس ملك الإسـكندرية ومصر، فقارب ولم يُذكَر له إسلام، وبعث الهدايا إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتُّحَف[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٥٠٤).

(٢) بدون: أي: بأقل.

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٥٥).

(٤) قـال الإمـام النـووي في تهذيـب الأسـماء واللغـات (٢/ ٢٤٠): المُقَوْقِـس صاحب الإسكندرية الكافر، الذي أهدى للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مارية وأختها سيرين، والبغلة.
وقـال ابن الأثير في أُسـد الغابـة (٤/ ١٨٧): ذكره ابن منده وأبـو نعيم، ولا مدخل له في الصحابـة؛ فإنه لم يُسـلِم، ولم يـزل نصرانيًّا، ومنه فتح المسـلمون مصر في خلافة عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٣٢٧).



وروى الطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند حسن عن عبد الرحمن بن عبد القاري، قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، يعني بكتابه معه إليه، فَقَبَّلَ كتابه وأكرم حاطبًا، وأحسن نُزُلَه، ثم سَرَّحَهُ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأهدى له مع حاطب كسوةً وبغلةً[1] شهباءَ بسَرْجِها، وجاريتين[2]، إحداهما أمُّ إبراهيم[3]، وأما الأخرى، فوهبها لجَهْمِ بن قَيس العَبْدَري، وهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على مصر[4].

وروى الطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند حسن عن بُريدة، قال: أهدى أمير القِبط لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاريتين أختين قِبطيَّتين، وبغلة، فأما البغلة فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركبها، وأما إحدى الجاريتين، فتسَرَّاها[5] فولدت له إبراهيمَ، وأما الأخرى فأعطاها حسَّان

---

(١) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد(١/ ١٣٠): كان له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البغال دُلْدُل، وكانت شَهباء أهداها له المُقَوْقِس.
قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٧): دُلْدُل: بضم الدالين المهملتين.

(٢) في رواية البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٩٦): ثلاث جوارٍ.

(٣) هي مارية القبطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٤٣٤٩).

(٥) قال الحافظ في الفتح (١٠/ ١٥٨): السُّرِّيَّة -بضم السين، وكسر الراء الثقيلة- سُميت بذلك لأنها مشتقَّة من التسَرُّر، وأصلُه من السِّرِّ، وهو من أسماء الجماع.



بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

وروى الإمام الطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند ضعيف عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أهدى المُقوقِس صاحب مصر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدَحًا من زجاج، وكان يشرب فيه[2].



تبشير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح فارِسَ والرُّوم ومِصر

روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا هلك كِسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسُ محمد بيده لتُنفِقُنَّ كنوزَهما في سبيل الله»[3].

قال الحافظ ابن كثير: وفي هذا بشارة عظيمة بأن مُلك الروم لا يعود أبدًا إلى أرض الشام[4].

وقال الإمام النووي: قال الشافعي وسائر العلماء: معناه لا يكون كسرى بالعراق، ولا قيصر بالشام، كما كان في زمنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٤٣٥٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٤٣٤٣) - وأورده الحافظ في الفتح (١/ ٤٠٦) وعزاه لمسند الإمام أحمد، وقال: في إسناده مقال.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦١٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٩١٨).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٥).



فأعلَمَنا بانقطاع ملكهما في هذين الإقليمين، فكان كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض، وتمزَّق مُلكه كلَّ مُمَزَّق، واضمحلَّ بدعوة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقاصي بلاده، فافتتح المسلمون بلادهما، واستقرت للمسلمين ولله الحمد، وأنفق المسلمون كنوزهما في سبيل الله كما أخبر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذه معجزات ظاهرة [١].

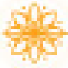
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سَمُرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «لَتفتَحَنَّ عصابة من المسلمين -أو من المؤمنين- كنز آل كسرى الذي في الأبيض» [٢].

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «عُصَيبة [٣] من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض؛ بيت كسرى، أو آل كسرى» [٤].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسمَّى فيها

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ٣٤).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٩١٩) (٧٨).
(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٧٢): العُصَيبة: تصغير عُصْبة، وهي الجماعة.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٢٢).



القيراطُ[1]، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمةً ورَحِمًا، أو قال: ذِمَّةً وصِهرًا»[2].

قال الإمام النووي: أما الذمة فهي الحُرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذِّمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصِّهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم[3].

وروى الحاكم في المستدرك والطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند صحيح عن كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إذا افتتحتم[4] مصر، فاستوصوا بالقِبط خيرًا؛ فإن لهم ذِمَّةً ورَحِمًا»[5].

وروى الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أوصى عند وفاته، فقال: «اللهَ

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٣٧): القيراط: جزء من أجزاء الدينار، وأراد بالأرض المستفتَحة مصر، وخصها بالذكر وإن كان القيراط مذكورًا في غيرها؛ لأنه كان يَغلب على أهلها أن يقولوا: أعطيت فلانًا قراريطَ، إذا أسمعه ما يكرَهُه، واذهب لا أعطيك قراريطك: أي: سَبَّك وإسماعك المكروه، ولا يُوجد ذلك في كلام غيرهم.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٤٣) (٢٢٧).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٧٩).

(٤) في رواية الطحاوي: إن دخلتم.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٠٧٦) - والطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٢٣٦٤) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (١٣٧٤) وصحَّحه.



اللهَ في قِبْط مصر؛ فإنكم ستَظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّةً وأعوانًا في سبيل الله»[(١)].



غزوة ذي قَرَد[(٢)] أو الغابة[(٣)]

وقعت غزوة ذي قَرَد بعد الحُديبيَة، وقبل غزوة خيبر بثلاثة أيام على الصحيح[(٤)]؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو بطل هذه الغزوة- قال: قَدِمنا الحُديبيَة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن أربع عشرة مائة... ثم ساق خبر غزوة ذي قَرَد، ورجوعهم مع

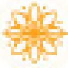
---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير - رقم الحديث (١٨٢٥٩) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣١١٣) وصحَّحه.

(٢) ذي قَرَد -بفتح القاف والراء-: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. انظر: النهاية (٤/ ٣٣).
وقال الإمام السهيلي في الروض الأُنُف (٤/ ٣): والقَرَد في اللغة: الصوف الرديء.

(٣) قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (٢/ ١٢٥): غزوة ذي قَرَد، ويُقال لها غزوة الغابة.
وقال ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٨٩): ثم غزوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغابة، وهي على بريد من المدينة طريق الشام.
قلت: وأُضيفت إليها الغزوة؛ لأن لِقاح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أُغير عليها كانت بها.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٤): اللِّقاح -بكسر اللام وتخفيف القاف، ثم مهملة-: ذوات الدَّرِّ من الإبل، واحدها: لِقْحة، بالكسر والفتح أيضًا.

(٤) وذهب عامة أهل المغازي إلى أنها وقعت قبل الحُديبيَة، وهو قول: ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٠٨) - وابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٨٩) وغيرهما.



رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، ثم قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

قـال الإمـام البيهقي: والذي لا شـك فيه أنهـا كانت بعـد الحُديبيَة، وحديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ينطق بذلك[(٢)].

وقـال الإمـام ابـن القيم: وقـد وَهِمَ فيهـا جماعة من أهـل المغازي والسِّيَر، فذكروا أنها قبل الحُديبيَة[(٣)].



---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧).

(٢) انظر: دلائل النبوة (٣/ ٣٦٨).

* قلت: ذهب إلى ما ذهب إليه الإمام البيهقي:
* الإمام البخاري في صحيحه (٨/ ٢٣٣).
* الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٤).
* الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٤١) - وفي الفصول في سـيرة الرسـول - ص (١٧٨).
* والإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).



سبب هذه الغزوة

روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجتُ قبل أن يُؤذَّن بالأُولى[(١)]، وكانت لِقاحُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترعى بذي قَرَد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: أُخِذَت لِقاح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: مَن أخذها؟ قال: غَطَفان، قال: فصرختُ ثلاث صَرَخات: يا صباحاه! فأسمعتُ ما بين لابَتَيِ[(٢)] المدينة[(٣)]، ثم اندفعتُ على وجهي حتى أدركتُهم بذي قَرَد[(٤)].

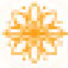
---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٤): يعني: صلاة الصبح، ويدل عليه في رواية الإمام مسلم أنه تبعهم من الغَلَس إلى غروب الشمس.
الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. انظر: النهاية (٣/ ٣٣٩).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١١٥): قال أهل اللغة وغريب الحديث: اللّابتان: الحَرَّتان، واحدتها: لابَةٌ، وهي الأرض المُلبَسة حجارة سوداء، وللمدينة لابتان شرقية وغربية، وهي بينهما.

(٣) في رواية أخرى في صحيح مسلم، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم قمتُ على أَكَمَةٍ، فاستقبلتُ المدينة، فناديتُ ثلاثًا: يا صباحاه.
الأَكَمَة: التل الصغير. انظر: لسان العرب (١/ ١٧٣).
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٥): فيه إشعار بأنه كان واسع الصوت جدًّا، ويحتمل أن يكون ذلك من خوارق العادات.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٦).



وفي لفظ آخر في صحيح مسلم، قال سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بظَهْره[1] مع رَبَاح غلام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنا معه، وخرجتُ معه بفرس طلحة، أُنَدِّيه[2] مع الظَّهْر، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفَزاري قد أغار على ظَهر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فاستاقه أجمع، وقتل راعيَه، فقلت: يا رَبَاح، خُذ هذا الفرس فأبلِغْه طلحة بن عبيد الله، وأخبِرْ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن المشركين قد أغاروا على سَرْحِه[3].



مطاردةُ سَلَمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ غَطَفان

قال سَلَمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ثم اتَّبعتُ القوم معي سيفي ونَبْلي، فجعلتُ أرميهم، وأعقِرُ بهم[4]، وذلك حين يكثُر الشجر، فإذا رجع إليَّ فارس جلستُ له في أصل شجرة، ثم رميتُ، فلا يُقبِل عليَّ فارس إلا عقرتُ به، فجعلت أرميهم، وأنا أقول:

---

(١) الظَّهْر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركب. انظر: النهاية (٣/ ١٥١).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٩): أُنَدِّيه -بهمزة مضمومة، ثم نون مفتوحة، ثم دال مكسورة مشددة- ومعناه: أن يُورِد الماشيةَ الماءَ، فتُسقى قليلًا، ثم تُرسَل في المرعى، ثم تَرِد الماء فترِد قليلًا ثم تُرَدَّ إلى المرعى.
وفي رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٥٣٩): أُبَدِّيه.
قال الإمام السندي في شرحه للمسند (٩/ ٣٩٧): بالموحدة وتشديد الدال، أي: أُخرِجه إلى البادية.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧).

(٤) أعقر بهم: أي: أقتُل مركوبَهم. انظر: النهاية (٣/ ٢٤٦).





أنـــا ابـــن الأكـــوع والـيـومُ يـومُ الـرُّضَّـع[١]

فألحقُ برجل منهم، فأرميه وهو على راحلته، فيقعُ سَهمي في الرَّجُلِ، حتى انتظَمَتْ[٢] كَتِفَه[٣]، فقلتُ: خُذْها:

أنـــا ابـــن الأكـــوع والـيـومُ يـومُ الـرُّضَّـع

فإذا كنتُ في الشجر أحرقتُهم بالنَّبل، فإذا تضايقتِ الثنايا[٤] علوتُ الجبل، فرَدَّيتُهم بالحجارة، فما زال ذاك شأني وشأنهم، أَتبَعُهم فأرتجِزُ، حتى ما خلق الله شيئًا من ظهر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا خَلَّفتُه وراء ظهري، فاستنقذته من أيديهم، ثم لم أزل أرميهم حتى ألقَوا أكثر من ثلاثين رمحًا، وأكثر من ثلاثين بُردة يستخفُّون منها، ولا يُلقون من ذلك شيئًا إلا جعلتُ عليه حجارةً[٥]، وجمعتُ على طريق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦] حتى إذا امتدَّ الضُّحى، أتاهم عُيَينة بن بدر الفَزاري مَدَدًا لهم، وهم في ثَنِية ضَيِّقة، ثم علوت الجبل، فأنا فوقهم، فقال عُيَينة: ما هذا

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٥): الرُّضَّع -بضم الراء، وتشديد المعجمة-: جمع راضع، وهو اللئيم، فمعناه: اليومُ يومُ هَلاك اللِّئام.

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ٣٩٧): أي: السَّهم.

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ٣٩٧): كَتِفَه: بالنَّصب، يُقال: طعنه فانتظمه: أي: اختَلَّه.

(٤) الثنايا: جمع ثَنِية، وهي الطريق العالي في الجبل. انظر: النهاية (١/ ٢٢٠).

(٥) في رواية الإمام مسلم: آرامًا من الحجارة.
الآرام: الأعلام. انظر: النهاية (١/ ٤٤).

(٦) في رواية الإمام مسلم: يعرفها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.





الـذي أرى؟! قالوا: لقينا من هذا البَرْحَ(١)، ما فارَقَنا بسَـحَرٍ(٢) حتى الآن، وأخذ كل شيء في أيدينا، وجعله وراء ظهره! فقال عيينة: لولا أن هذا يرى أن وراءه طَلَبًـا لقد ترككم، لِيَقُمْ إليه نفر منكم، فقام إليه نفر منهم أربعة، فَصَعِـدوا في الجبل، فلما أسـمعتهم الصـوت، قلت: أتعرفـوني؟ قالوا: مَـن أنت؟ قلتُ: أنا ابـن الأكوع، والذي كَـرَّم وجهَ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَطلُبُني منكم رجل فيُدرِكَني، ولا أطلُبُه فيفوتَني(٣).



خروج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلب القوم

لما بلغ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صياحُ سَلَمَةَ بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، صرخ بالمدينـة: «الفَزَعَ الفَزَعَ»، فترامت الخيول إلى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أوَّلُ مَـن انتهـى إلـى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفُرسـان المقـدادُ بنُ عمـرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثـم كان أوَّلَ فارس وقف على رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد المقداد من الأنصار: عَبَّادُ بن بشـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وسـعد بن زيد، وأُسـيد بن ظُهير، وعكَّاشـة بن مِحصَـن، ومُحرِز بن نَضْلة، وأبـو قتادة الحارث بن ربعي، وأبو عياش عبيـد بن زيد بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين، فلما

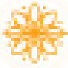
(١) البَرْح -بفتح الباء، وسكون الراء- أي: الشِّدَّة. انظر: النهاية (١/ ١١٣).
(٢) في رواية الإمام مسلم: ما فارَقَنا منذ غَلَس.
(٣) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٥٣٩) - واللفظ لأحمد.

اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أَمَّرَ عليهم سعد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قال: اخرج في طلب القوم، حتى ألحقك في الناس[(١)].

قال سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما برحتُ مقعدي ذلك حتى نظرتُ إلى فوارس رسول الله ﷺ يتخلَّلون الشجر، وإذا أوَّلُهم: الأخرم الأسدي -وهو مُحرِزِ بن نَضْلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وعلى أثره أبو قتادة فارس النبي ﷺ، وعلى أثر أبي قتادة المقداد بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فولى المشركون مدبرين، فنزلتُ من الجبل، فأخذتُ بعِنانِ[(٢)] فرس الأخرم، وقلت له: يا أخرَمُ، ائذَنِ القوم -يعني احذرهم- فإني لا آمن أن يقطعوك، فاتَّئِدْ حتى يَلْحَقَ رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: يا سَلَمة، إن كنتَ تُؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق؛ فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة، قال: فخليتُ عِنان فرسه، فيلحق بعبد الرحمن بن عُيينة، ويعطف عليه عبد الرحمن[(٣)]، فاختلفا طعنتين، فعقر الأخرمُ بعبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله، فتحول عبد الرحمن على فرس الأخرم، فلحق أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعبد الرحمن فاختلفا طعنتين، فَعُقِرَ بأبي قتادة، وقتله أبو قتادة، وتحوَّل أبو قتادة على فرس الأخرم،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٩).
(٢) العِنان: سير اللجام. انظر: النهاية (٣/ ٢٨٣).
(٣) في رواية الإمام مسلم: فالتقى هو وعبد الرحمن.



ثـم إني خرجتُ أعدو[١] في أَثَـرِ القوم، حتى ما أرى من غُبار صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا، ويعرضون قبل غيبوبة الشمس إلى شِعْبٍ فيه ماء يُقال له: ذو قَرَد، فأرادوا أن يشربوا منه[٢]، فأبصروني أعدو وراءهم، فَعَطَفوا[٣] عنه، واشـتدُّوا في الثنيـة -ثنية ذي نثر- وغربت الشـمس، فألحق رجلًا، فأرميه، فقلت: خُذْها:

أنـــا ابـــن الأكـــوع والـيـوم يـوم الـرُّضَّـع

فقال: يا ثُكْلَ أُمِّ[٤]، أكوعُ بُكْرَةَ[٥]! قلت: نعم، أيْ عَدُوَّ نفسِـه، وكان الـذي رميته بُكْـرةَ[٦]، فأتبعته سـهمًا آخر، فعَلِـقَ به سـهمان، ويُخَلِّفون فرسـين، فجئتُ بهما أسـوقهما إلى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو على الماء الذي حَلَّيتهم عنه؛ ذو قَرَد، فإذا نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خمسـمائة، وإذا بلالٌ قد نَحَرَ جَزُورًا مما خَلَّفتُ، فهو يشوي لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كَبِدها وسَنامِها، فأتيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله،

---

(١) زاد الإمام مسلم في صحيحه: على رِجْلي.
(٢) زاد الإمام مسلم في صحيحه: وهم عطاش.
(٣) عطف: انصرف. انظر: لسان العرب (٩/ ٢٦٨).
(٤) ثَكِلَتْك أمك: أي: فقَدَتْك. انظر: النهاية (١/ ٢١٢).
(٥) أكـوعُ بُكـرةَ: أي: أنـت الأكوع الـذي كان قـد تَبِعَنا بكـرة هذا النهـارِ. انظـر: النهاية (٤/ ١٨٢).
(٦) في رواية الإمام مسلم: أكوَعُك بُكْرةَ.



خَلِّنـي فأنتخب(١) من أصحابـك مائة، فآخذ(٢) على الكُفَّار بالعَشْـوة(٣)، فـلا يبقـى منهم مُخبِـرٌ إلا قتلتُـه، فقال رسـول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أكنتَ فاعـلًا ذلك يا سـلمة؟» قلت: نعم، والذي أكرمك، فضحك رسـول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتـى رأيـت نواجِـذَه(٤) في ضوء النـار، ثم قال رسـول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنهـم يُقْـرَون(٥) الآن بـأرض غَطَفـان(٦)، فجـاء رجل من غَطَفـان، فقال: مَـرُّوا على فلان الغَطَفـاني فنحر لهم جـزورًا، قال: فلما أخـذوا يَكشِـطون(٧) جِلْدَهـا رأوا غَبَـرَة، فتركوها وخرجـوا هُرَّبًا، فلما

---

(١) أنتخب: أختار. انظر: النهاية (٥/ ٢٦).

(٢) في رواية الإمام مسلم: فأتبع.

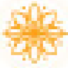
(٣) قال السـندي في شرحه للمسند (٩/ ٣٩٨): بالعَشْـوة -بفتح فسكون-: هو ما بين أول الليل إلى رُبُعه، يُقال: أخذتُ عليهم بالعَشوة، أي: بالسواد من الليل.

(٤) النواجذ من الأسـنان: الضواحك، وهي التي تبدو عند الضحك، والأكثر الأشـهر أنها أقصى الأسنان. انظر: النهاية (٥/ ١٧).

(٥) قـال الحافظ في الفتـح (٨/ ٢٣٧): يُقْرَون -بضم الياء، وسـكون القـاف، وفتح الراء، وسكون الواو-: مِنَ القِرى، وهي الضِّيافة.
وفي رواية ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣١٢): يَغْبُقون.
قـال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٧): الغَبوق: هو شـرب اللبن أول الليـل، والمراد: أنهم فاتوا وأنهم وصلوا إلى بلاد قومهم ونزلوا عليهم، فهم الآن يذبحون لهم ويُطعِمونهم.

(٦) في روايـة أخـرى في الصحيحين، قال رسـول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يا ابن الأكـوع، ملَكْتَ فأسجِحْ».
قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (١٢/ ١٤٦): فأسجح: هو بهمزة قطع، ثم سين مهملة ساكنة، ثم جيم مكسورة، ثم حاء مهملة، ومعناه: فأحسِنْ وارفُق، والسجاحة: السهولة، أي لا تأخذ بالشدة، بل ارفُق، فقد حَصَلت النِّكاية في العدو. ولله الحمد.

(٧) كشط: رفع وقلع وكشف. انظر: النهاية (٤/ ١٥٢).



أصبحنا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رَجَّالِتنَا سلمة»، فأعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْم الرَّاجِل والفارس جميعًا، ثم أردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، فلما كان بيننا وبينها قريبًا من ضَحْوَةٍ، وفي القوم رجل من الأنصار كان لا يُسبَق، جعل يُنادي: هل مِن مسابق؟ ألا رجلٌ يسابق إلى المدينة؟ فأعاد ذلك مرارًا، وأنا وراء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُردفي، فقلتُ له: أما تُكْرِمُ كريمًا، ولا تَهَابُ شريفًا؟! قال: لا، إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، خَلِّني فلأُسابِقِ الرجلَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن شئتَ»، قلتُ: اذهب إليك، فَطَفَرَ [1] عن راحلته، وثنيتُ رجلي فَطَفَرتُ عن الناقة، ثم إني رَبطْتُ[2] عليها شَرَفًا[3] أو شَرَفين، يعني استبقيتُ نفسي، ثم إني عدوتُ حتى ألحقه، فأَصُكُّ[4] بين كتفيه بيدي، قلت: سبقتُك والله -أو كلمة نحوها- قال: فضحك، وقال: إنْ أظنُّ، حتى قدمنا المدينة[5].

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٥٢) ظَفَر: أي: وَثَبت وقَفَزتُ.

(٢) ربطتُ: أي تأخرتُ عنه. انظر: النهاية (٢/ ١٧١).

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ٣٩٩): الشَّرَف: هو ما ارتفع مِن الأرض، أي: قدْرًا من الأرض.

(٤) صَكَّه: ضربه. انظر: النهاية (٣/ ٤٠).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٥٣٩) - واللفظ لأحمد - وأخرجه مختصرًا الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٤١) (٤١٩٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٦).



غزوة خيبر[1]

وقعت غزوة خيبر بعد غزوة ذي قَرَد بثلاث ليال، وذلك في مُحَرَّم من السنة السابعة للهجرة؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: فوالله ما لبثنا[2] إلا ثلاثَ ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

قال الحافظ في التلخيص الحَبير: وأما غزوة خيبر في السابعة، فهو المشهور الذي عليه الجمهور من أهل المغازي[4].

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٨٤): خيبر: البلدة المعروفة على نحو أربع مراحل من المدينة إلى جهة الشام، ذات نخل ومزارع، فتحها رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوائل سنة سبع مِن الهجرة.

(٢) يعني بعد قدومهم من غزوة ذي قَرَد.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧).

(٤) انظر: التلخيص الحبير (٦/ ٢٨٦٦).

قلت: وجزم بذلك الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٧٦) - والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٧٠) - وفي الفصول في سيرة الرسول - ص (١٩٥)، بينما ذهب الإمام ابن حزم في جوامع السيرة - ص (١٢٦) إلى أنها وقعت في بقية من المحرم، وذلك قرب آخر السنة السادسة من الهجرة.

قال الحافظ ابن كثير في الفصول - ص (١٩٥): وأما ابن حزم، فعنه أنها في سنة ست بلا شك، وذلك بناء على اصطلاحه، وهو أنه يرى أن أول السنين الهجرية شهر ربيع الأول الذي قدم فيه رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة مهاجرًا، ولكن لم يتابَع عليه، إذ الجمهور على أن أول التاريخ من مُحَرَّم تلك السنة.



سبب هذه الغزوة

كانت خيبر مركزًا للدسائس والتآمر ضد المسلمين -ولا يسكنها إلا يهود-؛ فهم الذين جمعوا الأحزاب للقضاء على المسلمين في غزوة الخندق، وحرَّضوا يهود بني قُرَيظة على نقض العهد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الخندق، وحاولوا اغتيال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقاموا بدعم قريش بالمال والسلاح في معاركهم ضد المسلمين؛ فكان من المهم القضاء على هذه الشوكة الخبيثة التي هي أحد أسباب فقْد الأمن والأمان والهدوء حول المدينة النبوية، والمنطقة بأسرها.



الوعد الرباني بفتح خيبر

وعد الله سبحانه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين بفتح خيبر في كتابه الكريم، وأعطى غنائمها لأهل الحُديبيّة خاصة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾[1].

قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: عَجَّل لكم خيبرَ[2].

(١) سورة الفتح - آية (٢٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٥١).



وقال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بعد أن ساق الأقوال فيها: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب: المغانمُ الكثيرةُ من مغانِمِ خيبرَ، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحُديبية غنيمةً، ولم يفتحوا فتحًا أقرب من بيعتهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحُديبيَة إليها من فتح خيبر وغنائمِها[1].

وقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[2].

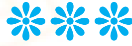
قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلَّفوا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الحُديبيَة إذ ذهب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: إنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلَّفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يأذن لهم في ذلك؛ معاقبةً لهم من جنس ذنبهم؛ فإن الله تعالى وعد أهل الحُديبية بمغانِمِ خيبر وحدهم لا يَشرَكُهم فيها غيرُهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقَدَرًا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: هو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٥١).
(٢) سورة الفتح – آية (١٥).



الوعد الذي وعد به أهل الحُديبية - واختاره ابن جرير[(١)].



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر

خرج مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة كل مَن شهد معه غزوة الحُديبية، إلا مَن مات منهم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين[(٢)]، واستعمل على المدينةِ سِباع بن عُرفُطة الغِفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]، وقَدِم أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المدينة

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٧).

(٢) قال ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٨٠): وقُسِّمت خيبر على أهل الحُديبيَة؛ مَن شهد خيبر، ومَن غاب عنها، ولم يَغِبْ عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَسم له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَسَهم مَن حضرها.

قلت: ثبت في الصحيحين وغيرهما ما يخالف قول ابن إسحاق، وأن جابرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهد غزوة خيبر؛ فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨١٣) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لم أشهد بدرًا ولا أُحُدًا، منعني أبي، فلما قُتِلَ عبدالله يوم أُحُد، لم أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة قط.

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن - رقم الحديث (١٤٤٦٣) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم خيبر، أصاب الناسَ مجاعةٌ، فأخذوا الحُمُرَ الإنسية، فذبحوها وملؤوا منها القدور، فبلغ ذلك نبيَّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَرَنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكفَأنا القُدور.

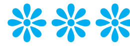
وروى البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢١٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٤١) (٣٦) (٣٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٨٤٠) - واللفظ لأحمد - عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ذَبَحْنا يوم خيبر الخيلَ والبِغال والحَمير، فنهانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن البغال والحمير، ولم ينْهَنا عن الخيل.

(٣) قال ابن هشام في السيرة (٣/ ٣٥٧): واستعمل على المدينة نُميلة بن عبد الله الليثي.

قلت: والصحيح رواية الإمام أحمد والحاكم.



مهاجرًا، وذلك بعدما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، فوافى سباع بن عرفطة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلاة الصبح؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه بسند صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر استخلف[1] سِباع بن عُرفُطة الغِفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقَدِمْنا فشهدنا معه صلاة الصبح، فقرأ في أول ركعة: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فقلت في نفسي: ويلٌ لأبي فلان! له مكيالان يستوفي بواحد ويبخس بآخر، فأتينا سباع بن عرفطة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجَهَّزَنا، فأتينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الفتح[2] بيوم أو بعده بيوم[3].



مسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر

سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه إلى خيبر، وحدثت أحداثٌ وهم في طريقهم إلى خيبر؛ فمن ذلك:

١) صلاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دابته:

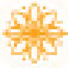
روى الإمام مسلم والإمام أحمد عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رأيتُ

---

(١) في رواية أخرى في المستدرك: استعمل.

(٢) يعني: فتح خيبر.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٨٥٥٢) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٢٧٢) (٤٣٨٤).



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي على حمار، وهو مُتوجِّه إلى خيبر[(١)].

قال الإمام القرطبي: وأجمعوا على أنه لا يجوز لأحد صحيح أن يُصلِّيَ فريضة إلا بالأرض، إلا في الخوف الشديد خاصَّةً[(٢)].

٢) حُدَاء[(٣)] عامر بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

روى الشيخان في صحيحيهما عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، فسرنا ليلًا، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامِرُ، ألا تُسمِعُنا من هُنَيهاتِك؟[(٤)].

وكان عامر رجلًا شاعرًا، فنزل يحدو[(٥)] بالقوم[(٦)]، يقول:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٠) (٣٥) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٥٢٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٢٦).

(٣) قال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٧٢): الحُداء: هو بضم الحاء وتخفيف الدال المهملتين، يُمَدُّ ويُقصَر: سَوْقُ الإبل بضَربٍ مخصوص من الغناء، والحُداء في الغالب إنما يكون بالرَّجَز، وقد يكون بغيره من الشِّعر، وقد جرت عادة الإبل أنها تُسرِع السير إذا حُدِيَ بها.

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري ومسلم: هُنَيَّاتك.
قال الحافظ في الفتح (١٤/ ٤٠٦): هُنَيَّاتك: بضم أوله، وتشديد التحتانية بعد النون.
وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٠): هُنَيَّاتك: أي: أراجيزك.

(٥) في رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٨٠٧) (١٣٢): يرتجِز.
الرَّجَزُ: بحر من بحور الشعر، معروف، ونوع من أنواعه، يكون كل مِصراع منه مُفردًا، وتسمى قصائده أراجيز، واحدها أُرجوزة. انظر: النهاية (٢/ ١٨٢).

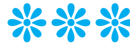
(٦) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٥٣٨) قال سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جعل يرتجز بأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسوق الركاب. =



اللهم لـولا أنـت مـا اهتَدَينـا ... ولا تـصَـدَّقْـنـا ولا صَـلَّـيـنـا
فـاغـفِرْ فِـداءً لـك ما أبقَينا ... وثـبِّـتِ الأقـدامَ إن لاقَـيـنـا
وألـقِـيَـنْ سكـينـةً علينا ... إنَّـا إذا صِـيـحَ بـنـا أَبـيـنـا
وبـالـصِّـيـاح عَـوَّلـوا علينا

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن هذا السائقُ؟»[1]

قالوا: عامر بن الأكوع، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يرحمُه الله»[2]، فقال رجل من القوم[3]: وجَبَت[4] يا نبيَّ الله، لولا أمتَعْتَنا به[5]!



= قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٤١): وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل في السير؛ ينزل بعضهم فيسوقها ويحدو في تلك الحال.

(١) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٥١١): «الحادي».

(٢) زاد الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧) (١٣٢): قال سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وما استغفر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإنسان يَخُصُّه إلا استُشْهِد.

(٣) هو عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، جاء التصريح بذلك في رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٨٠٧) (١٣٢)، فنادى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو على جمل له: يا نبي الله، لولا متَّعْتَنا بعامرٍ!

(٤) قال الإمام السندي في شرحه للمسند (٩/ ٣٨٠): أي: الشهادة؛ فقد جاء أن مَن خصَّه بمثل هذا الدعاء وجبت له الشهادة.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٢) (١٢٣).



وصول المسلمين إلى خيبر وإغارتهم

وصل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه المبارك إلى خيبر ليلًا، وكان إذا أتى قومًا بليل لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبِح، فلما أصبح صلَّى الفجرَ بغَلَس[1] ثم ركب هو وأصحابه، فأتى خيبر، فلما أشرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خيبر دعا؛ فقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك بسند حسن عن صُهَيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يَرَ قريةً يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللهم ربَّ السَّموات السبع وما أظلَلْنَ، وربَّ الأرَضينَ السبع وما أقلَلْنَ[2]، ورَبَّ الرياح وما ذَرَينَ، وربَّ الشياطين وما أضلَلْنَ، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها»[3].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى خيبر فجاءها ليلًا، وكان إذا جاء قومًا ليلًا لا يُغير عليهم حتى يُصبِح، فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم[4]

---

(١) الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. انظر: النهاية (٣/ ٣٣٩).

(٢) أقللن: حَمَلن. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٠٩) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٦٥١).

(٤) المِسْحاة: المِجْرَفة من الحديد. انظر: النهاية (٤/ ٢٨٠).



ومكاتِلِهم[١]، فلما رأوه قالوا: محمد والخميس[٢]، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله أكبر، خَرِبَت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ، فساء صباحُ المُنذَرين!»[٣].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة[٤] بغَلَس، فركِب نبيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة... فلما دخل القرية، قال: «الله أكبر، خَرِبَت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المُنذَرين!»[٥].

قال الإمام السُهيلي: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم: «الله أكبر، خَرِبَت خيبرُ»، فيه التفاؤل؛ وذلك أنه رأى المساحي والمكاتل، وهي من آلات الهدم والحفر، مع أن لفظ المِسْحاة من سَحَوْتُ الأرض: إذا قشَرْتَها؛ فدل ذلك على خراب البلدة التي أشرف عليها[٦].

---

(١) زاد الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٧٧١): إلى زروعهم وأَرَضيهم.
ومكاتلهم: جمع مِكْتَل -بكسر الميم-: هو الزَّبيل الكبير. انظر: النهاية (٤/ ١٣١).

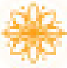
(٢) الخميس: الجيش، سُمي به؛ لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المُقَدِّمة، والسَّاقة، والمَيمنة، والمَيسرة، والقَلْب، وقيل: لأنه تُخَمَّس فيه الغنائم. انظر: النهاية (٢/ ٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٤٥) (٤١٩٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (١٢١).

(٤) هي صلاة الفجر.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (١٢٠).

(٦) انظر: الروض الأنف (٤/ ٦٩).



حصون خيبر

خيبر عبارة عن حصون منيعة، وتنقسم حصونها إلى قسمين:

١) حصون النَّطاة والشَّقِّ:

وفيها خمسة حصون، وهي: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزُّبير، وحصن أُبي، وحصن النِّزار.

٢) حصون الكُتَيبة[١]:

وفيها ثلاثة حصون، وهي: حصن القَموص، وحصن الوَطِيح[٢]، وحصن السُّلالم[٣].



بدء القتال، وفتح حصن ناعم

فلما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، حاصرها حِصنًا حِصنًا، وأول حصن فتحه المسلمون، هو حصن ناعم؛ فإنه لما تصافَّ القوم خرج مرحب يطلب المبارزة، فبرز له عامر بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

(١) الكُتَيبة -مُصغَّرًا-: اسم لبعض قُرى خيبر. انظر: النهاية (٤/ ١٣٠).

(٢) الوَطِيح: هو بفتح الواو، وكسر الطاء، وبالحاء المهملة. انظر: النهاية (٥/ ١٧٧).

(٣) السُّلالم: هي بضم السين. انظر: النهاية (٢/ ٣٥٧).



قال: لما قدمنا خيبر خرج مَلِكُهم مَرْحَب يَخْطِر بسيفِه[(١)]، ويقول:

قد عَلِمَت خيبرُ أني مَرْحَبُ   شاكي السلاحِ[(٢)] بَطلٌ مُجَرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تَلَهَّبُ

قال: وبرز له عمِّي عامر، فقال:

قد عَلِمَت خيبرُ أني عامِرُ   شاكي السِّلاحِ بطلٌ مُغامِرُ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مَرحَب في تُرس عامر، وذهب عامر يَسفُلُ[(٣)] له، فرجع سيفُه على نفسه، فقطع أَكْحَلَهُ[(٤)]، فكانت فيها نفسُه!

قال سلمة: فخرجتُ فإذا نفر من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: بَطَلَ عملُ عامرٍ؛ قَتَل نَفْسَه! فأتيتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، بَطَلَ عمل عامر؟! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن قال ذلك؟» قال: ناس من أصحابك، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبَ[(٥)]

---

(١) يَخطِرُ بسيفه -هو بكسر الطاء-: أي: يهزُّه مُعجبًا بنفسه متعرضًا للمبارزة، أو أنه يخطِر في مِشيته: أي: يتمايل ويمشي مِشية المعجَب، وسيفه في يده. انظر: النهاية (٢/ ٤٤).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٥٣): شاكي السلاح أي: تامُّ السِّلاح.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٥٣): يَسفُلُ -بفتح الياء، وضم الفاء-: أي: يضربه من أسفل.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٤): الأَكْحَل -بفتح الهمزة والمهملة، بينهما كاف ساكنة-: هو عِرق في وَسَطِ الذِّراع.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٤٢): أي: أخطأ.

* وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٥٥٩): الكذب يُراد به أمران: =



مَن قال ذلك، بل له أجرُه مرتين»[1].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبَ مَن قال، إن له لأجرين وجمع بين إصبَعَيه: إنه لَجَاهِدٌ مجاهِدٌ[2]، قَلَّ عربيٌّ مشى بها مثله»[3].

---

* أحدهما: الخبر غير المطابق لمُخْبَرِه، وهو نوعان:

١) كَذِب عمد

٢) وكَذِب خطأ.

فكَذِب العمد معروف، وكَذِب الخطأ ككَذِب أبي السنابل في فتواه للمتوفَّى عنها إذا وضعت حَمْلَها؛ أنها لا تحِلُّ حتى تُتِمَّ أربعة أشهر وعشرًا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبَ أبو السنابل»، ومنه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كذب مَن قالها»، لمن قال: حَبِط عَمَلُ عامر؛ حيث قتل نفسه خطأً، ومنه قول عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَذَب أبو محمد؛ حيث قال: الوِتر واجِب، فهذا كله من كَذِب الخطأ، ومعناه: أخطأ قائلُ ذلك.

* حديث أبي السنابل: أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٢٣١) (١٢٣٢) - وابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٠٢٧) - وأورد طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٢٧٤) وصَحَّحه.

* وحديث عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٦٩٣) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٤٢٥) وإسناده صحيح.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٦) (٦١٤٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧) (١٣٢).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٤٣): هكذا رواه الجمهور من المتقدمين والمتأخرين: لَجاهِدٌ -بكسر الهاء، وتنوين الدال-، ومُجاهِدٌ -بضم الميم، وتنوين الدال أيضًا-، وفسروا: لجاهِدٌ، بالجادِّ في علمه وعمله، أي: إنه لجادٌّ في طاعة الله، والمجاهد: هو المجاهد في سبيل الله، وهو الغازي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٦) (٦١٤٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٢) (١٢٣).



قتال أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

أعطى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللـواءَ لأبي بكـر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثـم أعطاه لعمر بن الخَطَّـاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يُفتَح لهمـا؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في دلائل النبوة -واللفظ لأحمد- بسند قوي عن بُريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حاصَرْنا خيبر، فأخذ اللواءَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانصـرف ولم يُفتَح له، ثم أخذه من الغَدِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخرج، فرجع ولم يُفتح له، وأصاب الناسَ يومئذ شِدَّةٌ وجَهْدٌ[(١)].

زاد البيهقي في دلائل النبوة: وقُتِلَ محمود بن مَسلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ابن إسحاق: كان أوَّلَ حصونهم افتُتِحَ حِصنُ ناعم، وعنده قُتِلَ محمود بن مَسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أُلقِيَت عليه منه رحًى[(٢)] فقتلَتْه[(٣)].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٩٩٣) - والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢١٠).

(٢) الرَّحى: هي التي يُطحَن بها. انظر: النهاية (٢/ ١٩٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٦٠).



تم الفتح على يد أبي الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بشَّر رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه بفتح حصن ناعم على يد أبي الحسـن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الشـيخان في صحيحيهما عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم خيبر: «لأُعطِيَـنَّ هذه الراية غـدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يُحب الله ورسـوله، ويُحبه الله ورسـوله»، قال: فبات الناس يَدُوكون[1] ليلتهم: أيُّهم يُعطاها، فلمـا أصبح الناس غـدَوا على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يَشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه» فأُتي به، فبصق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع! فأعطاه الراية، فقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسـول الله أُقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انفُذْ[2] على رِسْلِك[3] حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام وأخبِرْهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن

---

(١) قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (١٥/ ١٤٥): هكذا هو في معظم النسـخ والروايـات: يَدُوكـون -بضم الدال المهملـة، وبالواو- أي: يخوضـون ويتحدثون في ذلك، وفي بعض النسخ: يَذْكُرون، بإسكان الذال المعجمة وبالراء.

(٢) انفُذ: امضِ. انظر: النهاية (٥/ ٧٩).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٥٦): على رِسْلِك -بكسر الراء- أي: على هِينَتِك.



يهديَ الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»[١].

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: فأتيتُ عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فجئتُ به أقوده، وهو أرمَدُ[٢]، حتى أتيتُ به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبسق[٣] في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج مرحبٌ، فقال:

قد عِلَمَت خيبرُ أني مَرحَبُ ... شاكي السلاح بطلٌ مُجَرَّبُ
إذا الحروبُ أقبلت تَلَهَّبُ

فقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

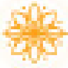
أنا الذي سمَّتني أمي حَيْدَرَهْ ... كلَيثِ غاباتٍ كَريهِ المَنظَرَهْ
أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كَيلَ السَّندَرَهْ

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٤٥): حُمْرُ النَّعَمِ هي الإبل الحُمْر، وهي أنفَسُ أموال العرب، يضربون بها المثَل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه، وقد سبق بيان أن تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسْرها وأمثالها معها لو تُصُوِّرت، وفي هذا بيانُ فضيلةِ العِلم، والدعاء إلى الهُدى، وسَنِّ السُّنَن الحسنة.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢١٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٠٦).

(٢) الرَّمَد: وجع العين وانتفاخها. انظر: لسان العرب (٥/ ٣١١).

(٣) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٢٨): بَسَق: لغةٌ في بزق وبصق.





قال: فضرب رأسَ مَرحَبٍ فقتله، ثم كان الفتح على يديه[١].

قال ابن الأثير: الصحيح الذي عليه أكثر أهل السِّيَر والحديث أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَتَل مرحبًا[٢].



فتح حِصن الصَّعبِ بن مُعاذ

فـرَّ اليهود الذين كانوا في حصن ناعم -بعد فتحه- إلى حصن الصعب بن معاذ، فحاصر رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِصنَ الصعب بن معاذ، وقد أصاب المسلمين مجاعةٌ شديدة حتى ذبحوا حُمُرًا أهليَّة، وأوقدوا تحتها النيران، فنهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم خيبر عن لحوم الحُمُر الأهلية[٣].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم خيبر جاءَ جاءٍ، فقال: يا رسول الله، أُكِلَت الحُمُر، ثم جاء آخر، فقال: يا رسول الله، أُفنِيَت الحُمُر، فأمر رسول الله

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٠٧) (١٣٢).

(٢) انظر: أُسْد الغابة (٤/ ٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢١٩) (٥٥٢٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٤١) (٣٦).



صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا طلحة فنادى: إن الله ورسوله ينهيانِكم عن لحوم الحُمُر؛ فإنها رِجْس أو نَجَس[1].

زاد البخاري ومسلم في رواية أخرى، عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأُكفِئَت القدور، وإنها لتفور باللحم[2].

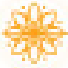
قال الإمام النووي: وأما الحُمُر الإنسية، فقد وقع في أكثر الروايات أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى يوم خيبر عن لحومها، وفي رواية: حَرَّم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحوم الحُمُر الأهلية... واختلف العلماء في المسألة؛ فقال الجماهير من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم بتحريم لحومها؛ لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة، وقال ابن عباس: ليست بحرام، وعن مالك ثلاث روايات؛ أشهرها: أنها مكروهة كراهة تنزيه شديدة، والثانية: حرام، والثالثة: مباحة، والصواب التحريم كما قاله الجماهير؛ للأحاديث الصريحة[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٩) (٥٥٢٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٤٠) (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩٩) (٥٥٢٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٤٠) (٣٤).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٧٧-٧٨).
قلت: اختُلف في علة تحريم أكل الحُمُر الأهلية، على النحو التالي:

* قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لا أدري أنهى عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من أجل أنه كان حَمُولة الناس، فكره أن تذهب حَمُولتهم. رواه البخاري - رقم الحديث (٤٢٢٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٣٩).



ثم إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا ربه عَزَّ وَجَلَّ بفتح حصن الصَّعب بن معاذ، فقال ابن إسحاق: إن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: والله يا رسولَ اللهِ لقد جُهِدْنا، وما بأيدينا من شيء،

---

* قال عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنما نهى عنها؛ لأنها لم تُخَمَّس. رواه البخاري - رقم الحديث (٣١٥٥) (٤٤٢٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٣٧) (٢٦) (٢٧).
* قال بعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: نهى عنها البتة؛ لأنها كانت تأكل العَذِرَة. رواه البخاري - رقم الحديث (٣١٥٥) (٤٤٢٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩٣٧) (٢٧).
* قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٩): والحاصل أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ اختلفوا في علة النهي عن لحوم الحُمُر: هل هو لذاتها أو لعارض.
* وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤١٠-٤١١): ومنها: تحريم لحوم الحُمُر الإنسية؛ صح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحريمها يوم خيبر، وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس، وهذا مقدَّم على قول مَن قال من الصحابة: إنما حرمها؛ لأنها كانت ظَهْر القوم وحَمُولتهم، فلما قيل له: أُفنِيَ الظَّهر وأُكِلَت الحُمُر، حرَّمها، وعلى قول مَن قال: إنما حرمها لأنها لم تُخَمَّس، وعلى قول مَن قال: إنما حرمها؛ لأنها كانت جَوَالّ القرية، وكانت تأكل العَذِرَة، وكل هذا في الصحيح، لكن قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنها رجس مُقَدَّم على كل هذا؛ لأنه مِن ظَنِّ الراوي وقوله بخلاف التعليل بكونها رجسًا.

قوله: جَوَالّ -بتشديد اللام-: جمعُ جالَّة، ويُقال لها الجَلَّالة، وهي من الحيوان التي تأكل العَذِرَة. انظر: النهاية (١/ ٢٧٨ - ٢٧٩).
* وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٥٨١): وتحريمها مذهب جمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وهو مذهب الأئمة الأربعة.



فلم يجدوا عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا يُعطيهم إياه، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم إنَّك قد عرفتَ حالهم، وأنْ ليست بهم قوَّةٌ، وأنْ ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظَمَ حصونهم عنهم غَناءً، وأكثرها طعامًا وَوَدَكًا[1]، فغدا الناس، ففتح الله عَزَّوَجَلَّ حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصنٌ كان أكثر طعامًا وَوَدَكًا منه[2].

❊❊❊

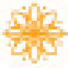
 فتح حصن قلعة الزبير

تحوَّل اليهود الذين هربوا من حصن الصعب بن معاذ إلى حصن قلعة الزبير، فحاصره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود، يُقال له: غَزال، فقال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أبا القاسم تُؤمِّنُني على أن أدلَّك على ما تستريح من أهل النَّطاة وتخرج إلى أهل الشق؛ فإن أهل الشق قد هلكوا رُعبًا منك، فأَمَّنَهُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهله وماله، فقال اليهودي: إنك لو أقمْتَ شهرًا ما بالوا؛ لهم دُبُولٌ[3] تحت الأرض، يَخرُجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم

(١) الوَدَك: هو اسم اللحم ودُهنه الذي يُستخرج منه. انظر: النهاية (٥/ ١٤٨).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٦٢).

(٣) دُبُول: أي: جداول ماء، واحدها دَبْلٌ، سُميت به لأنها تُدبَل: أي: تُصْلَح وتُعمَر. انظر: النهاية (٢/ ٩٤).



فيمتنعون منك، فإن قطَعْتَ مَشرَبَهم عليهم أصحَروا[١] لك، فسار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى دبولهم فقطعها، فلما قَطَع عليهم مشاربَهم خرجوا فقاتلوا أشدَّ القتال، وقُتِلَ من المسلمين يومئذ نفرٌ، وأُصيب من يهود ذلك اليوم عشرة، وافتتحه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان هذا آخِرَ حصون النَّطاة[٢].



هل يُقالُ: فلانٌ شهيد؟

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى مروا على رجل[٣]، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلَّا، إني رأيته في النار؛ في بُردة غَلَّها[٤]، أو عباءة»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا ابن الخطاب، اذهب فنادِ في

---

(١) أصحر القوم: برزوا في الصحراء، وقيل: أصحر القوم: إذا برزوا إلى فضاء لا يُواريهم شيء. انظر: لسان العرب (٧/ ٢٨٩).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٢٤).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧٢): هذا يمكن تفسيره بكركرة.

(٤) الغُلُول: هو الخيانة في المَغنَم، والسرقة من الغنيمة قبل القِسمة. انظر: النهاية (٣/ ٣٤١).



الناس: إنه لا يدخل الجنةَ إلا المؤمنون»، قال: فخرجتُ فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنةَ إلا المؤمنون[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كان على ثِقْل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجل يُقال له: كَرْكَرة، فمات، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هو في النار»، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلَّها.

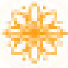
الخِلافُ في ضبط اسم كركرة:

قلت: اختُلِفَ في ضبط اسم كركرة، على النحو التالي:

* قال الإمام البخاري: قال ابن سلام: كَرْكَرة: يعني بفتح الكاف، وهو مضبوط كذا[2].
* قال الحافظ في الفتح: أراد بذلك[3] أن شيخه محمد بن سلام رواه عن ابن عُيينة بهذا الإسناد بفتح الكاف[4].
* وقال الإمام النووي: كِرْكِرة: بفتح الكاف الأولى وكسرها،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٥).
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٧٤).
(٣) يعني الإمام البخاري.
(٤) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٠٥).



وأما الثانية فمكسورة فيهما، والله أعلم[1].

* وقال ابن الأثير: كركرة: بفتح الكافين وبكسرهما[2].

* وقال الحافظ في الإصابة: حكى البخاري الخلاف في كَافِهِ: هل هي بالفتح أو الكسر، ونقل ابن قُرقُول[3] أنه يُقال: بفتح الكافين وبكسرهما، ومقتضاه أن فيه أربع لغات[4].

فوائد الحديث:

قال الإمام النووي: وفي الحديث:

١- غِلَظ تحريم الغُلُول.

٢- ومنها أنه لا فرق بين قليله وكثيره، حتى الشِّراك.

٣- ومنها أن الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على مَن غَلَّ إذا قُتِلَ.

٤- ومنها أنه لا يدخل الجنة أحد ممن مات على الكفر، وهذا بإجماع المسلمين[5].



---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١١١).
(٢) انظر: جامع الأصول (٢/ ٨١٢)، قسم التراجم.
(٣) في مطالع الأنوار (٣/ ٤٠٤).
(٤) انظر: الإصابة (٥/ ٤٣٩).
(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١١١).



فتح حصن أُبَي (أحد حِصَنَي الشق)

فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حصون النطاة، وتحول اليهود إلى حصون الشق، وفيها حصنان، هما: حصن أُبي، وحصن النزار، فتوجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حصن أُبَي وحاصره، فقاتل أهله قتالًا شديدًا حتى هزمهم المسلمون، وفتحوا حصن أُبي، فوجدوا فيه أثاثًا وطعامًا، وفرَّ اليهود الذين كانوا فيه إلى حصن النزار، وهو آخر حصون النطاة والشق[1].

فتح حصن النزار:

هذا الحصن أمنع حصون النَّطاة والشَّقِّ، وتمنَّع اليهود فيه أشد الامتناع، فزحف إليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فتراموا، حتى وصلت نبالهم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتد الحصار على اليهود في حصن النزار، ثم أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنصب المنجنيق[2] -ويبدو أنهم عثروا عليها في بعض الحصون التي فتحوها- فأوقعوا الخلل في جدران حصن النزار، ثم اقتحم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منه، ودار بينهم وبين اليهود داخل الحصن قتال مرير، حتى انهزم اليهود

---

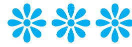
(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٢٥).

(٢) المنجنيق -بفتح الميم وكسرها-: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت تُرمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها. انظر: لسان العرب (١٣/ ٣٣) - والمعجم الوسيط (٢/ ٨٥٥).



هزيمة منكَرة، وفر مَن فر منهم وتركوا نساءهم وذراريَّهم[(١)].

وبعد فتح حصن النزار، وهو آخر حصن في الشـطر الأول من خيبر، وهـي ناحية النطاة والشـق، تحول رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى الشـطر الثاني من حصون خيبر، وهي حصون الكُتيبة، وفيها ثلاثة حصون، وهي: القموص، والوَطِيح، والسُّلالم.



هل فُتحت حصون الكُتيبة صُلحًا؟

اختلـف أهل السِّيَرِ والمغازي في أمـر حصون الكُتيبـة، هل فُتحت صلحًا أم جرى فيها قتال؟

روى أبو داود في سننه بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ غزا خيبر فأصبناها عَنوةً، فَجُمع السبي[(٢)].

وروى أبو داود في سـننه بسـند صحيح إلى الزهـري، قال: بلغني أن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ افتتـح خيبر عَنوة بعـد قتال، ونزل مَـن نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال[(٣)].

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠٠٩) - وأخرجه مطولاً البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (١٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠١٨).



وروى أبو داود في سننه بسند صحيح مرسل عن بُشَير بن يَسار، قال: لما أفاء الله على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبرَ قسمها على ستة وثلاثين سهمًا، جَمَعَ كل سهم مئة سهم، فعزل نصفها لنوائبه[1] وما ينزل به: الوَطيحة والكُتيبة وما أُحِيز معهما، وعزل النصف الآخر فقسمه بين المسلمين: الشَّق والنَّطاة وما أُحيز معهما، وكان سهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أُحيز معهما[2].

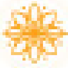
قال الإمام البيهقي: وهذا لأن بعض خيبر فُتِحَ عَنوة وبعضها صلحًا، فقسم ما فُتح عَنوة بين أهل الخُمُس والغانمين، وعزل ما فُتح صلحًا لنوائبه وما يحتاج إليه في مصالح المسلمين، والله أعلم[3].

(١) النوائب: جمع نائبة، وهي ما ينوب الإنسان، أي: ينزل به من المهمات والحوادث. انظر: النهاية (٥/ ١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠١٣) - وقد ثبت سماع بُشير بن يسار ذلك من الصحابة -كما في رواية أخرى في سنن أبي داود- رقم الحديث (٣٠١٠) (٣٠١١) (٣١٢) - ومسند الإمام أحمد - رقم الحديث (١٦٤١٧)، فصح بذلك الحديث، والحمد لله.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٣٦).

قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٩٢): وهذا بناءً منه على أصل الشافعي: أنه يجب قَسْم الأرض المفتتحة عَنوة كما تُقسم سائر الغنائم، فلما لم يجده قَسَم النصف من خيبر، قال: إنه فُتح صلحًا، ومَن تأمل السِّيرَ والمغازي حقَّ التأمل تبيَّن له أن خيبر إنما فُتحت عَنوة، وأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استولى على أرضها كلها بالسيف عَنوة، ولو فُتح شيء منها صلحًا لم يُجْلِهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها.



وروى الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه -واللفظ لأبي داود- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما افتُتحت خيبر سألت يهودُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقِرَّهم على أن يعملوا على النصف مما يخرج منها[(١)]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُقرُّكم فيها على ذلك ما شئنا»[(٢)]، فكانوا على ذلك، وكان التمر[(٣)] يُقسَم على السُّهمان من نصف خيبر، ويأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخُمُس[(٤)].

قال الإمام النووي: هذا يدل على أن خيبر فُتحت عَنوة[(٥)]؛ لأن السُّهمان كانت للغانمين، وقوله: يأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخُمُس: أي يدفعه إلى مستحِقِّه، وهم خمسة الأصناف المذكورة في قوله تعالى:

---

(١) زاد الإمام مسلم: من الثمر والزرع.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٠/ ١٧٩): قال العلماء: هو عائد إلى مدة العهد، والمراد: إنما نُمكِّنُكم من المُقام في خيبر ما شئنا، ثم نخرجكم إذا شئنا؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان عازمًا على إخراج الكفار من جزيرة العرب كما أمر به في آخر عمره.

(٣) في رواية الإمام مسلم: الثمر.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٥٥١) (٤) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠٠٨).

(٥) قلت: ممن ذهب إلى أن خيبر فُتحت عَنوة -وهو قول الأكثر-:

* ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٦٠) وما بعدها.
* ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسِّيَر - ص (٢١٤).
* ابن حزم في جوامع السيرة - ص (١٢٧).
* الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول - ص (١٩٦).



﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]، فيأخذ لنفسه خُمسًا واحدًا من الخُمُس، ويصرِفُ الأخماس الباقية من الخُمُس إلى الأصناف الأربعة الباقين[2].

وقال الإمام ابن القيم: الصواب الذي لا شك فيه أنها فُتحت عَنوة، والإمام مخيَّر في أرض العَنوة بين قَسْمِها ووَقْفِها، وقَسْم بعضها ووَقْف البعض، وقد فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنواع الثلاثة: فقَسَم قُرَيظة والنضير، ولم يَقسِم مكة، وقَسَم شَطْرَ خيبر وتَرَك شَطْرَها[3].

وروى أبو داود وابن حبان بسند صحيح -واللفظ لابن حبان- عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فَغَلَب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يُجْلُوا منها، ولهم ما حملت ركابُهم، ولرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصفراء[4] والبيضاء[5]، ويخرجوا منها، فاشترط عليهم أن لا يكتموا، ولا يُغيِّبوا شيئًا، فإن فعلوا فلا ذِمَّة لهم ولا عصمة، فغيَّبوا مَسْكًا[6] فيه مال وحُلِيٌّ لِحُيَيِّ بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أُجلِيَت النضير،

(١) سورة الأنفال - آية (٤١).

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/ ١٨٠).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣).

(٤) الصفراء: الذهب. انظر: النهاية (٣/ ٣٤).

(٥) البيضاء: الفضة. انظر: النهاية (٣/ ٣٤).

(٦) المَسْك -بفتح الميم وسكون السين-: هو الجِلد. انظر: النهاية (٤/ ٢٨٣).



فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعم حُيَي[(١)]: «ما فعل مَسْكُ حُيَي الذي جاء به من النضير؟!»، فقال: أذهَبَته النفقات والحروب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العهد قريب، والمال أكثر من ذلك»، فدفعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الزُّبير بن العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمسَّه بعذاب، وقد كان حُيَي قبل ذلك قد دخل خَرِبَة، فقال: قد رأيتُ حُيَيًّا يَطوف في خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا، فوجدوا المَسْك في خَرِبة، فقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنَيْ أبي الحُقَيق، وأحدهما زوجُ صفية[(٢)] بنت حُيي بن أخطب[(٣)]، وسبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءهم وذراريَّهم، وقَسَمَ أموالهم؛ للنَّكثِ الذي نكَثوا، وأراد أن يُجلِيَهم منها، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نُصلِحُها، ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، فكانوا لا يَتفرَّغون أن يقوموا، فأعطاهم

---

(١) في رواية أبي داود: لِسَعْيَة.
قال شهاب الدين المقدسي في شرحه لسنن أبي داود (١٣/ ٥٤): سَعْيَة: بفتح العين وسكون السين المهملتين، ثم مثناة تحت: ابن عمرو.

(٢) هو كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق.

(٣) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٦٩): ولم يَعُمَّهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقتل كما عَمَّ قريظة؛ لاشتراك أولئك في نقض العهد، وأما هؤلاء فالذين عَلِموا بالمَسْك وغَيَّبوه وشرطوا له أنه إن ظهر فلا ذمة لهم ولا عهد، قَتلهم بشرطهم على أنفسهم، ولم يتعدَّ ذلك إلى سائر أهل خيبر؛ فإنه معلوم قطعًا أن جميعهم لم يعلموا بِمَسْك حُيَي وأنه مدفون في خَرِبة، فهذا نظير الذِّمِّي أو المعاهَد إذا نقض العهد ولم يمالئه عليه غيره؛ فإنَّ حُكمَ النقض يختصُّ به.



خيبر على أن لهم الشَّطْرَ من كل زرع ونخل وشيء، ما بدا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

قال ابن سيد الناس: ففي هذا[٢] أنها فُتحت صلحًا، وأن الصلح انتقض، فصارت عَنوة، ثم خَمَّسها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقسمها[٣].



عِظم غنائم خيبر

غنم المسلمون غنائم عظيمة من خيبر؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر[٤].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: لما فُتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر[٥].

قال الحافظ في الفتح: أي: لكثرة ما فيها من النخيل، وفيه إشارة إلى

(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٠٠٦) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٥١٩٩).

(٢) الحديث الذي رواه أبو داود وابن حبان.

(٣) انظر: عيون الأثر (٢/ ١٩١).

قلت: وذهب الحافظ في الفتح (٨/ ٢٥٦) إلى ما ذهب إليه ابن سيد الناس، وختم قوله: فلو كانوا صولحوا على أرضهم لم يُجْلَوا منها، والله أعلم.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٤٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٤٢).



أنهم كانوا قبل فتحها في قلة من العيش[(١)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم خيبر للفَرَس سهمين، وللرَّاجِل[(٢)] سهمًا.

فَسَّرَهُ نافع، فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فله سهم[(٣)].

قال الإمام الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم، وهو قول سفيان الثوري، والأوزاعي، ومالك بن أنس، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، قالوا: للفارس ثلاثة أسهم؛ سهم له، وسهمان لفرسه، وللراجل سهم[(٤)].



(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٨٠).
(٢) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٤٤٨): وللرَّجُل.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٢٨).
(٤) انظر: جامع الإمام الترمذي (٣/ ٣٨٢).



رد المهاجرين منائح[1] الأنصار

لما أغنى الله جَلَّجَلَالُهُ المسلمين بفتح خيبر، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي منحوها لهم لما قدموا عليهم المدينة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: لما قدم المهاجرون المدينة من مكة، وليس بأيديهم -يعني شيئًا-، وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن يُعطوهم ثمار أموالهم كل عام، ويَكْفُوهم العملَ والمَؤونة... قال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما فرغ من قتال أهل خيبر فانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم، من ثمارها[2].

قال الإمام النووي: هذا دليل على أنه كانت منائحَ ثمارٍ - أي: إباحة للثمار - لا تمليك لأرقاب النخل؛ فإنها لو كانت هبة لرقبة النخل لم يرجعوا فيها؛ فإن الرجوع في الهبة بعد القبض لا يجوز، وإنما كانت إباحة كما ذكرنا، والإباحة يجوز الرجوع فيها متى شاء، ومع هذا لم يرجعوا فيها حتى اتسعت الحال على المهاجرين بفتح خيبر، واستغنوا عنها، فردوها على الأنصار فقبِلوها[3].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٥٦٨): المَنِيحة -بفتح الميم، وكسر النون، بوزن عظيمة-: وهي في الأصل العطِيَّة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦٣٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧١) (٧٠).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٨٥).



قدوم مهاجري الحبشة ومعهم الأشعريُّون

قَـدِمَ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر بعد فتحها ابنُ عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الحبشـة، ففرح به رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحًا عظيمًا؛ فقد روى الحاكم في المستدرك بسند ضعيف -وله شواهد يتقوى بها- عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما قدم رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر قدم جعفر من الحبشـة، تلقاه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبَّل جبهته، ثم قال: «والله ما أدري بأيهما أنا أفرح؛ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟!»[(١)].

وقَدِمَ مع مهاجري الحبشة: الأشعريُّون، وفيهم أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسـنده بسـند صحيح عن أبي موسى الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قدمتُ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ناس من قومي بعدما فتح خيبر بثلاثٍ، فأسهم لنا، ولم يقسِمْ لأحد لم يشهد الفتح غيرنا[(٢)].

وروى الشـيخان في صحيحيهما عن أبي موسـى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بلَغَنـا مخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن باليمـن، فخرجنا مهاجرين

---

(١) أخرجـه الحاكم في المسـتدرك - رقم الحديـث (٤٢٩٥) (٥٠٠٥) - وقال الألباني في تحقيقه لفقه السـيرة للغزالي، ص (٣٥٠): حديث حسـن، ثم أورد طرقه، وختم قوله: وبالجملـة فالحديث قوي بهذه الطرق، وقد صححه الحاكم - وأورده أيضًا الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٢٦٥٧) وصحَّحه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٩٦٣٥).



إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم؛ أحدهما: أبو بُردة[١]، والآخر: أبو رُهم[٢] -إما قال: في بِضعٍ، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلًا من قومي- فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافَقْنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَثَنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا، فوافَقْنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا -أو قال: فأعطانا- منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا، إلا لمن شهد معه، إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه[٣]،

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٢٢٥) - قسم التراجم -: أبو بُردة -بضم الباء، وسكون الراء، وبالدال المهملة-: هو عامر بن قيس الأشعري، أخو أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٣٩٧) - قسم التراجم -: أبو رُهْم -بضم الراء، وسكون الهاء-: هو مجدي بن قيس الأشعري، أخو أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومَجْدِي: بفتح الميم، وسكون الجيم، وكسر الدال المهملة.

(٣) قلتُ: يخالف ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الآتي، وهو في مسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم، ولفظه: أتينا خيبر، وقد افتتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر، فكلم المسلمين، فأشركونا في سهامِهم.

قال السندي في شرحه للمسند (٦/ ٦٠): هذا خلاف المشهور، والمشهور أنه أشرك أهل السفينة دون غيرهم، والله أعلم.

يعني بقوله: أصحاب السفينة: جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن معه، كالأشعريين وغيرهم.

* قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧١): ويُجمَع بين هذا وبين الحصر الذي في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد أنه لم يُسهم لأحد لم يشهد الوقعة من غير استرضاء أحد من الغانمين إلا لأصحاب السفينة، وأما أبو هريرة وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يُعطهم إلا عن طيب خواطر المسلمين. والله أعلم.

قسَم لهم معهم[1].



قدوم الدَّوْسِيِّين

وقَدِمَ على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بخيبر بعد فتحها: الدَّوسيُّون، فيهم: الطُّفَيل بن عمرو الدوسي، وراوية الإسلام أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغيرهما.

وروى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن خُثيم بن عِراك بن مالك عن أبيه، قال: إن أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قدم المدينة في رهط من قومه، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر، وقد استخلف سِباع بن عرفطة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على المدينة، قال: فانتهيتُ إليه وهو يقرأ في صلاة الصبح في الركعة الأولى: بـ ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، قال: فقلت لنفسي: ويلٌ لفلان! إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص، قال: فلما صَلَّى زوَّدَنا شيئًا حتى أتينا خيبر، وقد افتتح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر، قال: فكلم المسلمين، فأشركونا في سهامهم[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣١٣٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٠٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٨٥٥٢) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٢٢٧٢).



وروى الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما قدمتُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلتُ في الطريق:

يا ليلةً من طُولها وعَنائِها[1]
على أنَّها من دارة[2] الكُفرِ نَجَّتِ

وأَبَق[3] غلام لي في الطريق، فلما قدمتُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعته، فبينا أنا عنده إذ طلع الغلام، فقال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أبا هريرة، هذا غلامك!»، فقلت: هو لوجه الله، فأعتقتُه[4].



إعتاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية بنت حُيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

اصطفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غنائم خيبر صَفية بنت حُيَي بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لنفسه، فأسلمت فأعتقها وتزوَّجها، وبنى[5] بها في طريق المدينة بعدما حَلَّت؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن

---

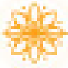
(١) قال السندي في شرحه للمسند (٥/ ٣٣٤): عَنَائِها -بفتح عين مهملة، وتخفيف نون ممدودة- أي: تعَبِها ومَشقَّتِها.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٤٦٧): الدَّارة أخصُّ من الدار، وقد كثر استعمالها في أشعار العرب.

(٣) أبق: هرب. انظر: النهاية (١/ ١٩).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٣٠) (٢٥٣١) (٤٣٩٣) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٧٨٤٥).

(٥) البناء: الدخول بالزوجة. انظر: النهاية (١/ ١٥٦).



أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء دِحْيَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا نبيَّ الله أعطني جارية من السبيِ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذهب فخذ جارية»، فأخذ صفية بنت حُيَي، فجاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا نبي اللهِ، أعطيتَ دِحْيةَ صفيةَ بنت حُيَي سيِّدة قُريظة والنضير! لا تصلُحُ إلا لك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادعوه بها»، فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «خُذ جاريةً من السبيِ غيرها»، قال: فأعتقها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتزوَّجها(١).

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعتق صفية، وجعل عِتقَها صداقَها(٢).

وفي لفظ آخر، قال ثابت البُناني: يا أبا حمزة(٣) ما أصدَقَها؟

قال: نفسها، أعتقها وتزوجها(٤).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٠٨٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (٨٥).

(٣) هي كنية أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (٨٤).



هل حُكمُ صداقُها عِتْقُها خاصٌّ بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

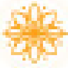
اختُلِف في هذه المسألة:

قال الإمام النووي: وقوله: أصدَقَها نَفْسَها، اختُلِفَ في معناه؛ فالصحيح الذي اختاره المحققون أنه أعتقها تبرعًا بلا عوض ولا شرط، ثم تزوجها برضاها بلا صداق، وهذا من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه يجوز نكاحه بلا مهر لا في الحال ولا فيما بعدُ، بخلاف غيره[1].

وذهب الإمام ابن القيم إلى أن هذا الحكم ليس من خصائص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: فصار ذلك سُنة للأُمَّة إلى يوم القيامة؛ أن يُعتق الرجل أَمَتَه، ويجعل عِتْقَها صداقَها، فتصير زوجته بذلك، فإذا قال: أعتقتُ أَمَتي، وجعلتُ عِتقَها صَداقَها، أو قال: جعلتُ عِتق أَمَتي صَداقَها، صح العتق بالنكاح، وصارت زوجته من غير احتياج إلى تجديد عقد ولا ولي، وهذا ظاهر مذهب أحمد، وكثير من أهل الحديث، وقالت طائفة: هذا خاص بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مما خَصَّه الله به في النكاح دون الأُمَّة، وهذا قول الأئمة الثلاثة ومَن وافقهم، والصحيح: القول الأول؛ لأن الأصل عدم الاختصاص حتى يقوم عليه دليل، والله سبحانه لما خَصَّه بنكاح الموهوبة، قال فيها: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل هذا في

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ١٨٩).



المُعتَقة، ولا قاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقطع تأسِّي الأُمة به في ذلك، والله سبحانه أباح له نكاح امرأةِ مَن تَبنَّاه؛ لئلَّا يكون على الأُمة حرج في نكاح أزواج من تَبنَّوه، فدل على أنه إذا نكح نكاحًا فلأُمته التأسي به فيه، ما لم يأتِ عن الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصٌّ بالاختصاص وقطْع التأسي، وهذا ظاهر، ولتقرير هذه المسألة وبسط الاحتجاج فيها، وتقرير أن جواز مثل هذا هو مقتضى الأصول والقياس موضِعٌ آخر، وإنما نَبَّهنا عليها تنبيهًا[1].



دخول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر، فلما فَتَح الله عليه الحِصن، ذُكِرَ له جمال صَفية بنت حُيَي بن أخطب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -وقد قُتِلَ زوجها وكانت عروسًا- فاصطفاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه فخرج بها، حتى بلغنا سَدَّ الرَّوْحاء[2] حَلَّت[3]، فبنى بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ١٠٣-١٠٤).

(٢) جاء في صحيح مسلم - رقم الحديث (٣٨٨) (١٥): الروحاء: موضع يبعد عن المدينة النبوية ستة وثلاثين ميلًا.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٥/ ١٧٦): حَلَّت: أي: طَهُرَت من حيضِها.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٣٥).



وفي لفظ آخر في صحيح مسلم، قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ثم دفعها[1] إلى أم سُليم تُصنعُها له وتُهيِّئُها -قال: وأحسَبُه قال:- وتعتدُّ في بيتِها[2].

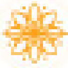
قال الإمام النووي: قوله: تعتدُّ: فمعناه تستبرئُ؛ فإنها كانت مَسْبِيَّة يجب استبراؤُها، وجعَلَها في مدة الاستبراء في بيت أم سُليم، فلما انقضى الاستبراء جهَّزتها أم سُليم، وهيَّأتها، أي: زيَّنَتها وجمَّلتها، على عادة العروس بما ليس بمنهي عنه من وَشْمٍ ووصلٍ وغيرِ ذلك من المنهيِّ عنه[3].

وأطعم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس حَيسًا في وليمة صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: حتى بلَغْنا سَدَّ الصَّهباء، حَلَّت، فبنى بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم صنع حَيْسًا[4] في نِطْعٍ[5] صغير، ثم قال لي: «آذِنْ مَن حولك»، فكانت تلك وليمته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صفية[6].

وفي رواية الإمام مسلم، قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وجعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِيمَتَها التَّمرَ والأَقِط والسَّمنَ[7].

---

(١) يعني: صَفِيَّة بنت حُيي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥) (٨٧).
(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ١٩٠).
(٤) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٣٤): الحَيْس -بفتح الحاء-: خليطُ السمن والتمر والأَقِط.
(٥) النِّطع -بكسر النون-: هو بِساط من جِلد. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٨٦).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٣٥) (٤٢١١).
(٧) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥).



قال الحافظ في الفتح: ولا مخالفة بينهما؛ لأن هذه[1] من أجزاء الحَيس[2].

وروى ابن حبان في صحيحه بسند صحيح عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: رأى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعينَيْ صفية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا خُضرة، فقال: «يا صفيةُ، ما هذه الخُضرة؟» فقالت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كان رأسي في حجر ابن أبي الحُقيق وأنا نائمة، فرأيتُ كأنَّ قمرًا وقع في حجري! فأخبرته بذلك فلطَمَني، وقال: تَمَنَّينَ مَلِكَ يَثرِبَ[3]؟! قالت: وكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أبغض الناس إليَّ؛ قتل زوجي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إليَّ، ويقول: «إن أباك ألَّبَ[4] عليَّ العرب وفعل وفعل»، حتى ذهب ذلك من نفسي[5].



(١) أي: التمر والأَقِط والسمن.
(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٩٦).
(٣) يعني: رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ
(٤) ألَّب -بفتح الهمزة، وتشديد اللام-: أي: جَمَّعَ. انظر: النهاية (١/ ٦١).
(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٥١٩٩).



قصة الشاة المسمومة

وفي هـذه الغزوة سَـمَّ اليهودُ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وحاولوا قتله بهذا السُّم؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قـال: لما فُتِحَت خيبر أُهدِيَت لرسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ شـاة فيها سُـم، فقـال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «اجمعوا لي مَن كان هاهنـا من اليهود»، فَجُمِعوا له، فقال لهم رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «إني سـائلكم عن شيء، فهل أنتم صادِقِيَّ عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسـم... فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «هل جعلتم في هذه الشـاة سُـمًّا؟» فقالوا: نعم، فقال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريحُ منك، وإن كنت نبيًّا لم يضُرَّك[1].

وروى الشـيخان في صحيحيهمـا عن أنس بن مالـك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال: إن امرأة يهودية[2] أتت رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بشـاة مسمومة[3]، فأكل منها[4]، فجيء بها إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فسألها عن ذلك؟ فقالت:

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣١٦٩) (٥٧٧٧).

(٢) سماها ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣٦٧): زينب بنت الحارث؛ امرأة سلاَّم بن مِشْكَم.

(٣) في رواية الإمام أحمد في مسنده: أن يهودية جعلت سُمًّا في لحم.

(٤) زاد الإمام أحمد في مسنده: فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «إنها جعلت فيه سُمًّا».
قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٠٣): وقد اختُلف: هل أكل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ منها أو لم يأكل؟ وأكثر الروايات أنه أكل منها.



أردتُ لأقتُلَك، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما كان الله ليُسلِّطَك على ذاك، أو قال: عليَّ»، قالوا: ألا نقتُلُها؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا»، قال: فما زلتُ أعرفها في لَهواتِ[1] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وروى الإمام أحمد في مسـنده بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن امرأة من اليهود أهدت لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شـاة مسـمومة، فأرسـل إليها، فقال: «ما حملـكِ على ما صنعتِ؟» قالـت: أحببتُ -أو أردتُ- إن كنت نبيًّا فإن الله سيُطلِعُك عليه، وإن لم تكن نبيًّا أُريحُ الناس منك، قال: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وَجَدَ من ذلك شيئًا، احتجم، قال: فسافر مرة، فلما أحرَم وَجَدَ من ذلك شيئًا فاحتجم[3].



---

(١) قـال الإمـام النـووي في شـرحه لصحيـح مسـلم (١٤/ ١٥٠): اللَّهَـوات -بفتح اللام والهاء-: جمع لَهَاة -بفتح اللام-، وهي: اللحمة الحمراء المعلَّقة في أصل الحَنَك. وقوله: ما زلتُ أعرفها: أي العلامة، كأنه بقي للسُّم علامة وأثر من سواد أو غيره.

(٢) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦١٧) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٢١٩٠) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٢٨٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٨٤).



انقطاع أَبهَرِ[1] النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكان من أثر هذا السُّـم: انقطاع أبهَـرِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام البخاري عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشـة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهَري من ذلك السُّمِّ!»[2].

وروى الإمـام أحمد وأبو داود والحاكم بسـند صحيح عن أم مُبَشِّـر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخلتُ على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجعه الذي قُبِضَ فيه، فقلت: بأبي أنت يا رسـول الله، ما تتَّهِم بنفسـك؟! فإني لا أتهم بابني إلا الطعـام الذي أكله معك بخيبر، وكان ابنُها بشـر بـن البراء بن معرور رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مـات قبـل النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأنا لا أتَّهِم غيرها، هذا أوان انقطاع أَبْهَري»[3].

وروى الإمام أحمد، والحاكم بسـند صحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لأن أحلف تِسـعًا أن رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُتِلَ قتلا[4]،

(١) الأبهَر: عِرقٌ في الظهر موصول بالقلب، فإذا انقطع لم تبقَ معه حياة. انظر: النهاية (١/ ٢٢).
(٢) أخرجـه البخاري في صحيحه معلَّقـا بصيغة الجزم - رقم الحديث (٤٤٢٨) - ووصله الحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٤٤٤١).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٢٣٩٣٣) - وأبو داود في سـننه - رقم الحديث (٤٥١٣) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٥٠٣٢).
(٤) قال الإمام السـندي في شـرحه للمسـند (٣/ ٢٤٧): ولا يُنافي ذلك قوله تعالى في سورة المائـدة - آيـة (٦٧): ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ إذ يكفـي فيـه العصمة عـن القتل=

أحبُّ إليَّ من أن أحلف واحدة أنه لم يُقتَل؛ وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ اتخذه نبيًّا واتخذه شهيدًا[١].

وقال الإمام ابن القيم: ولما احتجم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتجم في الكاهل[٢]، وهو أقرب المواضع التي يمكن فيها الحجامة إلى القلب، فخرجت المادة السُّمية مع الدم لا خروجًا كليًّا، بل بقي أثرها مع ضعفه؛ لِما يريد الله سبحانه من تكميل مراتب الفضل كلها له، فلما أراد الله إكرامه بالشهادة ظهر تأثير ذلك الأثر الكامن من السُّم؛ ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، وظهر سِرُّ قوله تعالى لأعدائه من اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[٣]، فجاء بلفظ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ بالماضي الذي قد وقع منهم وتحقَّق، وجاء بلفظ: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بالمستقبل الذي يتوقعونه وينتظرونه، والله أعلم[٤].



= على الوجه المعتاد فيه، وقد عُصِمَ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا ريب.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٦١٧) (٣٨٧٣) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٤٤٢).

(٢) الكاهل: هو مُقدَّم أعلى الظهر. انظر: النهاية (٤/ ١٨٥).
وثبت احتجام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كاهله في سنن أبي داود - رقم الحديث (٣٨٦٠)- والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢١٧٦) وإسناده صحيح.

(٣) سورة البقرة - آية (٨٧).

(٤) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٧٧ - ١٧٨).

هل قتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت الحارث؟

قال الإمام النووي: قال القاضي عياض: اختلفت الآثار والعلماء؛ هل قتلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لا؟ فوقع في صحيح مسلم[1]، أنهم قالوا: ألا نقتُلُها؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا»، ومثله عن أبي هريرة، وجابر، وعن جابر من رواية أبي سلمة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتلها، وفي رواية ابن عباس أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفعها إلى أولياء بِشر بن البراء بن معرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان أكل منها فمات بها، فقتلوها، وقال ابن سحنون: أجمع أهل الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتلها.

قال القاضي: وجه الجمع بين هذه الروايات والأقاويل: أنه لم يقتلها أولًا حين اطّلع على سمها، وقيل له: اقتُلْها، فقال: لا فلما مات بشر بن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من ذلك سلَّمها لأوليائه فقتلوها قِصاصًا، فيصح قولهم: لم يقتلها، أي: في الحال، ويصح قولهم: قتلها، أي: بعد ذلك، والله أعلم[2].

قال الإمام السُّهيلي: ووجه الجمع أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صفح عنها؛ لأنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينتقم لنفسه، فلما مات بشر بن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من تلك الأكلة، قتلها؛ وذلك أن بشرًا لم يزل معتلًّا من تلك الأكلة حتى

(١) والبخاري أيضًا، وتقدم تخريج الحديث قبل قليل.
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٥٠).



مات منها بعد حَوْلٍ[١].

وقال الحافظ في الفتح: ويحتمل أن يكون تركها؛ لكونها أسلمت، وإنما أَخَّرَ قتلها حتى مات بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن بموته تحقق وجوب القِصاص بشرطه[٢].



فوائد حادثة الشاة المسمومة

قال الحافظ في الفتح: وفي الحديث:

١- إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغيب.

٢- وتكليم الجماد له.

٣- وفيه معاندة اليهود لاعترافهم بصدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما وقع منهم من دسيسة السم، ومع ذلك فعاندوا واستمروا على تكذيبه.

٤- وفيه قَتْل مَن قَتَلَ بالسُّم قِصاصًا.

٥- وفيه أن الأشياء كالسموم وغيرها لا تُؤثِّر بذواتها، بل بإذن الله تعالى[٣].

---

(١) انظر: الروض الأُنف (٤/ ٨٣) - وذهب البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٦٢) إلى مثل ما ذهب إليه السُّهيلي.
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٨٢).
(٣) انظر: فتح الباري (١١/ ٤١٤).



مصالحة يهود فَدَك

قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فَدَك، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصالحونه على النصف من فَدَك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بالطائف، أو بعد ما قَدِمَ المدينة، فقَبِل ذلك منهم، فكانت فَدَك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالصةً؛ لأنه لم يُوجِفْ عليها بخيل ولا رِكَاب[1].

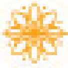
وروى أبو داود في سننه بسند حسن عن مالك بن أوس بن الحَدَثان، قال: كان فيما احتج به[2] عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه، قال: كانت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثُ صفايا: بنو النضير، وخيبر، وفَدَك، فأما بنو النضير فكانت حُبُسًا لنوائبه، وأما فَدَك فكانت حُبُسًا لأبناء السبيل، وأما خيبر فَجَزَّأها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أجزاء: جزأين بين المسلمين، وجُزءًا نفقة لأهله، فما فَضَلَ عن نفقة أهله جعله بين

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٨٤).

(٢) احتج به على العباس وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عندما اختصما في إدارة ما ترك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقصة في ذلك مطوَّلة، أخرجها: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٩٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥٧) (٤٩).

قال أبو داود في سننه (٤/ ٥٨٤): إنما سألاه أن يكون يُصَيِّرُهُ نصفين بينهما، لا أنهما جَهِلا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: لا نُورَثُ، ما تركنا صدقةٌ؛ فإنهما كانا لا يَطلبان إلا الصواب، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا أُوقع عليه اسم القَسْم، أدعُه على ما هو.



فقراء المهاجرين[1].

وروى أبو داود في سننه بسند حسن عن المغيرة، قال: جمع عمر بن عبد العزيز بني مروان حين استُخلف، فقال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت له فَدَك، فكان يُنفق منها، ويعود منها على صغير بني هاشم، ويُزوج منها أَيِّمَهم[2].



حصار وادي القرى، وقصَّة مِدْعَم[3]

انصرف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود، فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي وهم على غير تعبئة، حتى فتحها المسلمون عَنوة، وكان مع رسول الله غلام يُقال له مِدْعَم، غَلَّ[4] شَملةً[5] من المغانم، وقُتِلَ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٩٦٧).

(٢) الأَيِّم: التي لا زوج لها، بكرًا كانت أو ثيِّبًا، مطلقة كانت أو متوفًّى عنها. انظر: النهاية (١/ ٨٦).

والخبر أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٩٧٢).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧١): مِدْعَم: بكسر الميم، وسكون المهملة، وفتح العين المهملة.

(٤) الغُلُول: هو الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. انظر: النهاية (٣/ ٣٤١).

(٥) الشَّملة: كساء يُتغطى به ويُتلفَّف فيه. انظر: النهاية (٢/ ٤٤٨).



والحاكم في المستدرك -واللفظ للحاكم- عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: انصرفنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خيبر إلى وادي القرى[(١)]، ومعه غلام[(٢)] له أهداه له رفاعة بن زيد الجُذَامي، فبينما هو يَضَعُ رَحْلَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع مُغَيرِب الشمس أتاه سهم غَرْب فقتله -وهو السهم الذي لا يُدرى مَن رمى به- فقلنا له: هنيئًا له الجنة[(٣)]! فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلَّا، والذي نفسي محمد بيده، إن شَمْلَتَه الآن لتحترِقُ»[(٤)]

---

(١) في رواية الإمام البخاري - رقم الحديث (٤٢٣٤): افتتحنا خيبر... ثم انصرفنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وادي القرى.
وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٥): خرجنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر... ثم انطلقنا إلى الوادي.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧٠): حكى الدارقطني عن موسى بن هارون أنه قال: وَهِمَ ثور في هذا الحديث؛ لأن أبا هريرة لم يخرج مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، وإنما قَدِم بعد خروجهم، وقدم عليهم بعد أن فُتحت.
قال الحافظ: وكأن محمد بن إسحاق صاحب المغازي استشعر بوهم ثور بن زيد في هذه اللفظة فروى الحديث عنه بدونها، وأخرجه ابن حبان والحاكم وابن منده من طريقه بلفظ: انصرفنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وادي القرى، ورواية أبي إسحاق الفزاري التي في هذا الباب تَسْلَم من هذا الاعتراض بأن يُحمَل قوله: افتتحنا، أي: المسلمون، وقد تقدم نظير ذلك، وروى البيهقي في الدلائل من وجه آخر عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر إلى وادي القرى؛ فلعل هذا أصل الحديث.
(٢) وقع في صحيح البخاري تسميته: مِدْعَمًا.
(٣) في رواية الصحيحين: الشهادة.
(٤) في رواية الإمام البخاري: «لتشتعل».
وفي رواية الإمام مسلم: «لتلتهب».



عليـه في النـار، غَلَّهـا من فيء المسـلمين يـوم خيبر»[1]، فجـاء رجل من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزِعًا حين سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ذلك، فقال: يا رسول الله، أصبتُ شِراكين[2] لنعلينِ لي، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُقَدُّ لك مثلُهما في النار»[3].



عودة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصورًا إلى المدينة

ثم عـاد رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينـة النبوية منصـورًا على يهـود خيبر، وقـد مَكَّنهُ الله جَلَّجَلَالُهُ منها، وفي طريـق عودتهم حدَثَت عدة أحداث؛ منها:



فضل لا حول ولا قوة إلا بالله

روى الشـيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن أبي موسـى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما غزا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر -أو قال: لما توجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أشـرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم

---

(١) زاد الإمام مسلم في صحيحه: ففزع الناس.

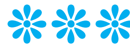
(٢) قـال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧٢): الشِّـرَاكُ -بكسـر المعجمة، وتخفيف الراء-: سَـيرُ النعل على ظهر القَدَم.

(٣) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٣٤) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٥) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٣٩٥).



بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْبَعُوا[١] على أنفسكم؛ إنَّكم لا تَدْعُون أَصَمَّ ولا غائبًا، إنكم تَدْعُون سميعًا قريبًا[٢]، وهو معكم»، وأنا خلف دابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: «يا عبد الله بن قيس»[٣]، قلتُ: لبَّيك رسول الله، قال: «ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله فِداك أبي وأمي! قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[٤].

قال الحافظ في الفتح: هذا السياق يُوهم أن ذلك وقع وهم ذاهبون إلى خيبر، وليس كذلك، بل إنما وقع ذلك حال رجوعهم؛ لأن أبا موسى إنما قَدِم بعد فتح خيبر مع جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلى هذا ففي السياق حذف تقديره: لما توجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر فحاصرها ففتحها، ففرغ فرجع؛ أشرف الناس... إلخ[٥].



---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/ ٢٢): ارْبَعوا -بهمزة وصل، وبفتح الباء الموحَّدة- معناه: ارفُقوا بأنفسكم واخفِضوا أصواتكم.

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٣٨٤): «سميعًا بصيرًا».

(٣) هو اسم أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٠٢) (٦٣٨٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٠٤) (٤٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٤٧).



فضل جبل أُحد والمدينة النبوية

روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعًا وبدا[1] له أُحُدٌ، قال: «هذا جبلٌ يُحبنا ونُحبه، ثم أشار بيده إلى المدينة، وقال: اللهم إني أُحَرِّم ما بين لابَتَيها[2] كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومُدِّنا»[3].

قال الإمام النووي: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا جبل يُحبنا ونحبه»، الصحيح المختار أن معناه: أن أُحُدًا يُحبنا حقيقة، جعل الله تعالى فيه تمييزًا يحب به، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[4]، وكما حَنَّ الجِذع اليابس[5]، ....

(١) بدا: ظهر. انظر: النهاية (١/ ١٠٩).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١١٥): اللاَّبتان: الحَرَّتان، واحدتهما لابَة، وهي الأرض الملبَسة حجارة سوداء، وللمدينة لابتان؛ شرقية وغربية، وهي بينهما.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٨٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٦٥).

(٤) سورة البقرة - آية (٧٤).

(٥) حنين الجذع من الأحاديث المشهورة جدًّا، وقد أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٥٨٣) - وأورد طرقه الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٦٣)، وختمها بقوله: هذه الأحاديث التي ذكرناها في أمر الحنانة كلها صحيحة، وأمر الحنانة من الأمور الظاهرة والأعلام النيرة التي أخذها الخلف عن السلف، ورواية الأحاديث فيه كالتكليف، والحمد لله على الإسلام والسنة، وبه العياذ والعصمة.



وكما سَبَّحَ الحصى[١]، وكما فَرَّ الحَجَرُ بثوب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢]، وكما قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم علي»[٣]، وكما دعا الشجرتين المفترقتين فاجتمعتا[٤]، وكما رجَف حِرَاء، فقال: «اسكُنْ حِراءُ؛ فليس عليك إلا نبي أو صِدِّيق»[٥]، وكما كَلَّمَهُ ذراع الشاة[٦]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٧]، والصحيح في معنى هذه الآية: أن كل شَيء يُسبِّح حقيقة بحسب حاله، ولكن لا نفقهه، وهذا وما أشبهه شواهد لما اخترناه واختاره المحققون في معنى الحديث، وأن أُحُدًا يُحبنا حقيقة[٨].



---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط - رقم الحديث (١٢٤٤) وإسناده ضعيف.
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٩٣): وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٨) (٣٤٠٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٣٩).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٧٧).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٠١٢).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤١٧).

(٦) إخبار ذراع الشاة بأنه مسموم، أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٧٣٣)، وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٧٨١) (٤٥١٠) وإسناده ضعيف، وأخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٧٢٦٧) وفيه نكارة، وقصة الشاة المسمومة تقدم ذكرُها، وأنها ثابتة.

(٧) سورة الإسراء - آية (٤٤).

(٨) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ١١٩).



غزوة ذات الرِّقاع[١] (أو غزوة نَجْد)[٢]

---

(١) اختُلِفَ في سبب تسميها بذلك على النحو التالي:

* قال ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٢٦): وإنما قيل لها غزوة ذات الرِّقاع؛ لأنهم رقعوا فيها راياتهم، ويُقال: ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع، يُقال لها: ذات الرقاع.
* وقال الواقدي في مغازيه (١/ ٣٩٥) وتبعه تلميذه ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٨٠): سُميت ذات الرقاع؛ لأنه جبل فيه بُقع حُمر وسواد وبياض.
* وروى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٢٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨١٦) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خرجنا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غزوة ونحن في ستة نفر، بيننا بعير نَعْتَقبه، فنَقِبَت أقدامُنا ونَقِبَت قدماي، وسقَطَت أظفاري، فكنا نُلُفُّ على أرجلنا الخِرَق؛ فسُميت غزوة ذات الرقاع.
* قال الإمام السُّهلي في الروض الأُنُف (٣/ ٤٠١): وأصح هذه الأقوال كلها ما رواه البخاري، ثم ساق حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
* وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٠٢): الصواب ما قاله أبو موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنه صحابي شاهَدَ الأمر، وفَسَّرَهُ تفسيرًا موافقًا للواقع واللغة، ولم يُخالفه صريح غيره، فلا يُعدَل عنه.

(٢) وقع تسميتها بذلك في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٨٢٦٠)- وعند أبي داود في سننه - رقم الحديث (١٢٤٠) بإسناد صحيح عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هل صليت مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلاة الخوف؟ قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: نعم، فقال مروان: متى؟ قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: عامَ غزوة نجد، ثم ساق الحديث، وكيف صلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهم صلاة الخوف.
وفي لفظ آخر في سنن أبي داود - رقم الحديث (١٢٤١) بسند صحيح، قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى نجد، حتى إذا كنا بذات الرِّقاع من نَخل، لقي جمعًا من غَطَفان. =



اختُلِف في تاريخ هذه الغزوة على النحو التالي:

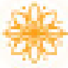
١) ذهب عامة أهل المغازي أنها وقعت قبل غزوة الخندق في السنة الرابعة للهجرة، وتلقاها الناس عنهم.

قال الحافظ ابن كثير: ذات الرِّقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي، وممن نَصَّ على ذلك محمد بن إسحاق[١]، وموسى بن عقبة[٢]، والواقدي[٣]، ومحمد بن سعد[٤] كاتبه، وخليفة بن خياط[٥]، وغيرهم[٦].

---

* وتُسمى غزوة مُحارب خَصَفَة.
قال الإمام البخاري في صحيحه: باب غزوة ذات الرقاع، وهي غزوة مُحارِب خَصَفَةَ من بني ثعلبة من غَطَفَان.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٨١): جمهور أهل المغازي على أن غزوة ذات الرِّقاع هي غزوة مُحارِب، كما جزم ابن إسحاق (٣/ ٢٢٥)، وعند الواقدي أنهما ثنتان، وتبعه القطب الحلبي في شرح السيرة. والله أعلم بالصواب.
قلت: وتردد موسى بن عقبة في تاريخها، فقال -كما في زاد المعاد (٣/ ٢٩٦)-: ولا يُدرى متى كانت هذه الغزوة؛ قبل بدر أو بعدها، أو فيما بين بدر وأُحُد، أو بعد أُحُد.
وتعقبه الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٩٦) بقوله: ولقد أبعد جدًّا؛ إذ جَوَّز أن تكون قبل بدر، وهذا ظاهر الإحالة، ولا قبل أُحُد، ولا قبل الخندق.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٥).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٨٠): وأما موسى بن عقبة فجزم بتقديم وقوع غزوة ذات الرقاع، لكن تردد في وقتها، فقال: لا ندري كانت قبل بدر أو بعدها، أو قبل أُحُد أو بعدها، وهذا التردد لا حاصل له.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٩٦).
(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨٠).
(٥) لم أقف على ذلك في المصنفات التي اطَّلعتُ عليها لخليفة بن خياط - بعد البحث الشديد-.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٩).



٢) وذهــب الإمام البخاري في صحيحه[١]، والحافظ ابن حجر[٢]، والحافظ ابن كثير[٣]، والإمام ابن القيم[٤]؛ إلى أنها وقعت بعد غزوة خيبر، وهو الصحيح.

---

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرقاع.
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ١٨١).
(٣) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (١٤٧) - والبداية والنهاية (٤/ ٤٦٤).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٤).

* قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٨٠): الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة:

(١) لأنه تقدم أن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شُرِعَت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع؛ فدل على تأخرها بعد الخندق.

(٢) ثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، فلزم أنها كانت بعد خيبر.

(٣) كذلك عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذكر أنه صلى مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف بنجد، وقد تقدم أن أول مشاهده الخندق؛ فتكون ذات الرقاع بعد الخندق.

(٤) روى الإمـام البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٢٥) عـن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قـال: إن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى بأصحابه في الخوف في غزوة السـابعة غزوة ذات الرقاع.

قـال الحافظ في الفتـح (٨/ ١٨٢): التنصيص على أنها سـابع غزوة مـن غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأييد لما ذهب إليه البخاري من أنها بعد خيبر؛ فإنه إن كان المراد الغزوات التي خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بنفسه مطلقًا، وإن لم يُقاتل، فإن السابعة منها تقع قبل أُحُد، ولـم يذهب أحد إلى أن ذات الرِّقاع قبل أُحُد إلا ما تقدم من تردد موسى بن عقبة، وفيـه نظر؛ لأنهم متفقون علـى أن صلاة الخوف متأخرة عن غـزوة الخندق، فتعين أن تكون ذات الرقاع بعد بني قريظة، فتعين أن المراد الغزوات التي وقع فيها قتال، والأُولى منهـا: بدر، والثانية: أُحُد، والثالثة: الخندق، والرابعة: قريظة، والخامسـة: المُرَيسـيع، والسادسـة: خيبر، فيلزم من هـذا أن تكون ذات الرقاع بعد خيبـر؛ للتنصيص على أنها السابعة.
=



سبب هذه الغزوة

بلغ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بني محارب وبني ثعلبة من غَطَفان جمعوا له جموعًا عظيمة؛ لقتاله[1].



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم في أربعمائة رجل، وقيل: سبعمائة، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى أتى محالَّهم، فلقي جمعًا عظيمًا من غَطَفان، ولم يكن بينهم قتال، وصلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه صلاة الخوف[2].

وفي رواية ابن سعد في طبقاته: فلم يجد في محالِّهم أحدًا إلا نسوة، فأخذهن وفيهن جارية وضيئة، وهربت الأعراب إلى رؤوس الجبال[3].

---

* قلت: وثبت شهود أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غزوة ذات الرقاع، وهو لم يَقدَم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد فتح خيبر كما تقدم؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٨٢٦٠) بإسناد صحيح عن مروان بن الحاكم أنه سأل أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل صليتَ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم، فقال: متى؟ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عامَ غزوة نجد.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٥) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٦).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨٠).



رجوع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وأحداث جرت في الطريق

ثم رجع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه إلى المدينة النبوية، ولم يلْقَ كيدًا، وفي طريق عودتهم إلى المدينة جرت أحداثٌ؛ منها:



قصة غورث بن الحارث وصلاة الخوف

روى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إنه غزا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ نجدٍ[1]، فلما قفل[2] رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قفل معه، فأدركتْهم القائلةُ في وادٍ كثير العِضاهِ[3]، فنزل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفرق الناس يستظلُّون بالشجر، فنزل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة وعَلَّق بها سيفَه، ونِمنا نومة، فإذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعونا، وإذا عنده أعرابي[4]، فقال: «إن هذا اخترط[5] عليَّ

---

(١) في رواية أخرى في الصحيحين، قال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذات الرقاع.

(٢) قفل: رجع. انظر: النهاية (٤/ ٨٢).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٩٢): العِضَاه -بكسر المهملة، وتخفيف المعجمة-: كل شجر يعظُم، له شَوكٌ.
وقال ابن الأثير في جامع الأصول (٥/ ٧٣٧): فمنه: الطَّلحُ، والسَّمُرُ.

(٤) قال الإمام البخاري في صحيحه: قال مُسَدَّد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث.

(٥) اخترط السيف: سَلَّهُ من غِمْده. انظر: النهاية (٢/ ٢٣).



سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صَلتًا»[١]، فقال: مَن يمنعك مني؟ فقلت: «الله، ثلاثًا»، ولم يُعاقبْه[٢].

زاد الشيخان في صحيحيهما في رواية أخرى عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأُقيمت[٣] الصلاة، فصلَّى بطائفةٍ ركعتين ثم تأخَّروا، وصَلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع، وللقوم ركعتان[٤].

وروى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قاتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحارب خَصَفَةَ بنَخْلٍ[٥]، فرأوا من المسلمين غِرَّة[٦]، فجاء رجل منهم يُقال له: غَوْرث بن الحارث، حتى قام على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيف، فقال: مَن يمنعك مني؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله»،

---

(١) صَلْتًا: أي: مُجَرَّدًا، يُقال: أَصْلَتَ السيفُ: إذا جَرَّده من غِمْدِه. انظر: النهاية (٣/ ٤٢).

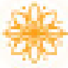
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩١٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٨٤٣) (١٣).

(٣) في رواية الإمام مسلم: فَنُودي.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٣٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٨٤٣) (٣١١).

(٥) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٦٤): بطن نخل: الذي صلى به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف، ونَخْل -بفتح النون، وإسكان الخاء المعجمة-، وهو مكان من نجد من أرض غَطَفَان، هكذا قاله صاحب المطالع والجمهور.

(٦) الغِرَّة: الغفلة. انظر: النهاية (٣/ ٣١٩).



قال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السيف، فقال: «مَن يمنعك؟» قال: كُنْ خيرَ آخِذٍ[١]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يُقاتِلونك، قال: فخَلَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيله، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس، فلما حضرت الصلاة[٢] صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف، وكان الناس طائفتين؛ طائفة بإزاء العدو، وطائفة تُصلي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين، فانصرفوا فكانوا مع أولئك الذين بإزاء عدوهم، وجاء أولئك فصلى بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعتين؛ فكانت للناس ركعتين ركعتين، وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع ركعات[٣].

قال الحافظ في الفتح: وفي الحديث: فرط شجاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه عن الجُهال[٤].



(١) خير آخذ: أي خير آسِر، والأخيذ: الأسير. انظر: النهاية (١/ ٣٢).
(٢) في رواية الإمام أحمد: فلما كان الظهر أو العصر.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٩٢٩) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٤٣٦٨).
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ١٩٣).



عَبَّاد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسورة الكهف

روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه بسند ضعيف -وله شواهد يتقوى بها ويرتقي إلى الحسن- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات الرِّقاع، فأُصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قافلًا، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يُهريق دمًا في أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلًا، فقال: «مَن رجلٌ يكلؤنا[1] ليلتنا هذه؟» فانتَدَب رجلٌ من المهاجرين[2]، ورجل من الأنصار[3]، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «فكونوا[4] بفَمِ الشِّعب[5]»، قال: وكانوا نزلوا إلى شِعب من الوادي.

فلما خرج الرجلان إلى فم الشِّعب، قال الأنصاري للمهاجريِّ: أيُّ الليل أحبُّ إليك أن أكفيكَه؛ أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله، فاضطجع

---

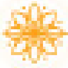
(١) الكِلاءة: الحفظ والحراسة. انظر: النهاية (٤/ ١٦٩).

(٢) سماه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٧٨) - وابن هشام في السيرة (٣/ ٢٣٠): عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) سماه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٧٨) - وابن هشام في السيرة (٣/ ٢٣٠): عَبَّاد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) في رواية أبي داود في سُننه: «كُونا».

(٥) الشِّعب -بكسر الشين-: ما انفرج بين جبلين. انظر: لسان العرب (٧/ ١٢٨).



المهاجري، فنام، وقام الأنصاري يُصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخص[(١)] الرجل عرف أنه رَبيئة[(٢)] القوم، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه وثبت قائمًا، ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أَهَبَّ[(٣)] صاحِبَه، فقال: اجلس، فقد أُتيت[(٤)]، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نَذِروا[(٥)] به، فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله! ألا أَهْبَبْتَني[(٦)]، قال: كنت في سورة أقرؤها[(٧)]، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتى أُنفِذَها، فلما تابع الرمي ركعتُ فأَرَيتُك، وأيمُ الله لولا أن أُضَيِّعَ ثَغرًا أمرني النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطَعَها أو أُنفِذَها[(٨)].

---

(١) الشَّخْص: كل جسم له ارتفاع وظهور. انظر: النهاية (٢/ ٤٠٤).

(٢) الرَّبيئة: هو العين والطليعة الذي ينظر للقوم؛ لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شَرَفٍ ينظر منه. انظر: النهاية (٢/ ١٦٥).

(٣) أَهَبَّه: نَبَّهَه. انظر: لسان العرب (١/ ٢٥٢).

(٤) يُقال: أُتِيَ فلان: إذا أطَلَّ عليه العدو، وأشرف عليه. انظر: لسان العرب (١/ ٦٧).

(٥) نَذِروا به: علموا به. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٠٠).

(٦) في رواية أبي داود: أنبَهْتَني.

(٧) زاد البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٧٩): هي الكهف.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٠٤) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (١٩٨) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٦٤) - وعلقه البخاري في صحيحه مختصرًا بصيغة التمريض - في كتاب الوضوء - قبل حديث رقم (١٧٦)، وحسَّنه الألباني في تحقيقه لسنن أبي داود، وحسَّنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند ولسنن أبي داود.



قصة بيع جمل جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تظهر في هذه القصة رحمة وتواضع ولطف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد روى هذه القصة الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده وغيرهم، وساقها الإمام أحمد في مسنده مَساقًا مُطوَّلًا ومُفصَّلًا؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرجتُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات الرِّقاع[1] مُرتحِلًا على

---

(١) قلت: لم يقع في جميع روايات الصحيحين التصريحُ باسم الغزوة التي وقعت فيها هذه الحادثة، ووقع في مسند الإمام أحمد - رقم الحديث (١٤٩٠٣): غزوة تبوك، وإسناده ضعيف - وعلَّقه الإمام البخاري في صحيحه، عقب حديث رقم (٢٧١٨)، بلفظ: بطريق تَبُوك.

* قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٦٥): جزم ابن إسحاق عن وهب بن كيسان بأن ذلك كان في غزوة ذات الرِّقاع من نَخْل، وكذا أخرجه الواقدي من طريق عطية بن عبدالله بن أُنيس عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي الراجحة في نظري؛ لأن أهل المغازي أضبط لذلك من غيرهم، وأيضًا فقد وقع في رواية الطحاوي - في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٤٤١٥) - وهي رواية الإمام مسلم - رقم الحديث (٧١٥) (١١١): أن ذلك وقع في رجوعهم من طريق مكة إلى المدينة، وليست طريق تبوك ملاقية لطريق مكة، بخلاف طريق غزوة ذات الرقاع، وأيضًا فإن في كثير من طرقه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله في تلك القصة: «هل تزوجتَ؟ قال: نعم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتزوجتَ بكرًا أم ثيبًا؟» الحديث، وفيه اعتذاره بتزوجه الثيب بأن أباه استُشهد بأُحُد، وترك أخواته، فتزوج ثيبًا لتُمَشِّطَهنَّ وتقوم عليهن، فأشعَرَ بأن ذلك كان بالقرب من وفاة أبيه، فيكون وقوع القصة في ذات الرقاع أظهر من وقوعها في تبوك.



جملٍ لي ضعيف[(١)]، فلما قَفَل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جعَلَتِ الرِّفَاقُ تمضي، وجعلتُ أتخلَّف حتى أدركني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «ما لك يا جابر؟!» قال: قلتُ: يا رسول الله، أبطأَ بي جملي هذا، قال: «فَأَنِخْهُ»[(٢)]، وأناخ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «أعطِني هذه العصا من يديك، أو قال: اقطع لي عَصًا من شجرة»، قال: ففعلتُ، فأخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنخسه[(٣)] بها نخَساتٍ، ثم قال: «اركَبْ»، فركبت، فخرج -والذي بعثه بالحق- يُواهِقُ ناقته مُواهَقة[(٤)]! قال: وتَحدَّث معي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أتبيعُني جملك هذا يا جابر؟» قلت: يا رسول الله، بل أهبُه لك، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، ولكن بِعْنِيه»، قال: قلت: فسُمْني[(٥)] به، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أخذته بدرهم»، قلت: لا، إذًا يَغْبِنُني[(٦)] رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فبدرهمين»، قلتُ: لا، قال: فلم يزل يرفع لي

---

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٣٠٩): فكنتُ على جمل ثَفَالٍ. الثَفَال -بفتح الثاء والفاء-: هو البطيء الثقيل. انظر: النهاية (١/ ٢١٠).

(٢) أناخ الإبل: أبركَها فبَركَت. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٢١).

(٣) نَخَسَ: دفعه وحرَّكه. انظر: النهاية (٥/ ٢٧).
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٣٠٩): فضربه.

(٤) يُواهِقُ ناقتَه: أي يُباريها في السير ويُماشيها، ومواهقة الإبل: مدُّ أعناقها في السير. انظر: النهاية (٥/ ٢٠٢).

(٥) المساومة: المجاذبة بين البائع والمشتري على السلعة، وفَصْل ثمنها. انظر: النهاية (٢/ ٣٨٢).

(٦) قال ابن قُرقُول في مطالع الأنوار (٥/ ١٢٥): أصل الغبن: النقص.

رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ الأُوقيَّة[1]، قلت: قد رضيتُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد رَضِيتَ؟» قلت: نعم، قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، قلتُ: هو لك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أخذتُه»[2].

---

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٧١٨) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٧١٥) (١٠٩): وُقية.
قال الإمام النووي في تهذيب الأسـماء واللغات (٣/ ٦٩١): الأُوقِيَّة: بضم الهمزة على المشـهور، وفيها لغة قليلة الاستعمال؛ وُقِيَّة بحذف الألف، وقد ثبتت هذه اللغة القليلة في صحيـح البخـاري من كلام رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من روايـات ذكرها من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيعه الجمل، وذكرها مسلم فيه.
وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٨٠): الأُوقِيَّة: بضم الهمزة وتشديد الياء، وكانت الأُوقية قديمًا عبارة عن أربعين درهمًا.
* قلت: اختُلِف في تحديد ثمن الجمل.
قـال الإمام القرطبي فيمـا نقله عنه الحافظ في الفتح (٥/ ٦٦٥): اختلفوا في ثمن الجمل اختلافًا لا يقبل التلفيق، وتَكَلُّفُ ذلك بعيدٌ عن التحقيق، وهو مبني على أمر لم يستقم ضبطه، مـع أنه لا يتعلق بتحقيق ذلك حُكم، وإنما تَحَصَّلَ من مجموع الروايات أنه باعه البعير بثمن معلوم بينهما، وزاده عند الوفاء زيادة معلومة، ولا يَضُرُّ عدم العلم بتحقيق ذلك.

(٢) زاد الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٦٧) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٧١٥) (١١٠): قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: على أن لي فَقَار ظهرِه حتى أبلُغَ المدينة، قال: فقلت له: يا رسول الله إني عروس فاستأذنته، فأذن لي.
يُقال: أفقر البعير يُفقِره: إذا أعاره. انظر: النهاية (٣/ ٤١٤).
يُقـال للرجل عـروس، كما يُقال للمرأة، وهو اسـم لهما عند دخـول أحدهما بالآخر. انظر: النهاية (٣/ ١٨٧).
وفي لفـظ آخـر في صحيـح البخـاري - رقـم الحديـث (٢٧١٨) قـال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فاستثنيتُ حُمْلانَه إلى أهلي.



قال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ثم قال لي: «يا جابر، هل تزوجت بَعدُ؟»

قال: قلتُ: نعم يا رسول الله، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أثيبًا أم بكرًا؟» قلت: بل ثيبًا، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفلا جارية تُلاعِبُها وتُلاعِبُك؟»[1] قلت: يا رسول الله، إن أبي أُصيب يوم أُحُد، وترك بنات له سبعًا، فنكحتُ امرأة جامعة تجمع رُؤوسهن، وتقوم عليهن، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أصبتَ إن شاء الله»، قال: أمَا إنا لو قد جِئنا صِرارًا[2]، أمَرْنا بجَزورٍ[3] فنُحِرَت، وأقمنا عليها يومنا ذلك، وسَمِعَتْ بنا، فنَفَضت نمارِقَها[4]، قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنها ستكون، فإذا أنت قَدِمْتَ فاعمل عملًا كيِّسًا»[5].

قال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فلما جئنا صِرارًا، أمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجزور فنُحرت، فأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله

---

(١) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٣٨٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٧١٥) (٥٦): أو قال: «تُضاحكها وتُضاحكك».

(٢) صِرار -بكسر الصاد-: موضع على ثلاثة أميال من المدينة. انظر: النهاية (٣/ ٢٢).

(٣) الجَزور: البعير ذكرًا كان أو أنثى. انظر: النهاية (١/ ٢٥٨).

(٤) النمارق: جمع نُمرُقة -بضم النون- هي الوسائد. انظر: النهاية (٥/ ١٠٤).

(٥) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٠٩٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٧١٥) (٥٧): فإذا قَدِمْتَ فالكَيسَ الكَيسَ.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٠/ ٤٧): قال ابن الأعرابي: الكَيْس: الجماع، والكَيْس: العقل، والمراد حثُّه على ابتغاء الولد.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دخل ودخلنا، قال: فأخبرتُ المرأةَ الحديثَ وما قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: فدونَك، فسمعًا وطاعة. قال: فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل، فأقبلتُ به حتى أنختُه على باب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم جلستُ في المسجد قريبًا منه، وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرأى الجمل، فقال: «ما هذا؟» قالوا: يا رسول الله، هذا جمل جاء به جابر، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأين جابر؟» فدُعيتُ له، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعالَ أي ابنَ أخي، خُذ برأس جملك؛ فهو لك»، فدعا بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «اذهب بجابر، فأعطِه أُوقيَّة»، فذهبتُ معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئًا يسيرًا، قال: فوالله ما زال يَنمي عندنا، ونرى مكانه من بيتنا، حتى أُصيبَ أمسِ فيما أُصيبَ الناسُ! يعني يوم الحَرَّةِ[1].

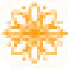
وفي لفظ آخر في المسند بسند صحيح، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلما قدمتُ المدينة، جئتُ به[2]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بلال، زِنْ له وُقيَّة، وزِدْه قيراطًا»[3]، قال: قلتُ: هذا قيراطٌ زادنيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٢٦) (١٤٨٦٤) - وأخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٠٩٧) (٢٣٠٩) (٢٧١٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٧١٥) (١١٠) (١١١).

(٢) يعني: بالبعير.

(٣) القيراط: جزء من أجزاء الدينار. انظر: النهاية (٤/ ٣٧).



لا يُفارقني أبدًا حتى أموتَ، فجعلتُه في كيس، فلم يزل عندي حتى جاء أهلُ الشام يوم الحَرة، فأخذوه فيما أخذوا[1].

وروى ابن ماجه في سننه بسند صحيح عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كنتُ مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غزوة، فقال لي: «أتبيع ناضِحَك هذا بدينار، واللهُ يغفِرُ لك؟»... فما زال يزيدني دينارًا دينارًا، ويقول مكان كل دينار: والله يغفر لك، حتى بلغ عشرين دينارًا[2].

وروى الإمام الترمذي وابن حبان والحاكم عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: استغفَرَ لي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة البعير[3] خمسًا وعشرين مرة[4].



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٣٧٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٢٠٥) - وأخرجه مختصرًا الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٧١٥) (١١٢).
(٣) في رواية الحاكم: ليلة العَقَبة، وهو وَهْم، والصواب: ليلة البعير.
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤١٨٨) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧١٤٢) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٦٥٤٥) - وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.



عمرة القضاء أو القَضِية[١]

هذه العُمرة هي تأويل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[٢].

وقعت عمرة القضاء أو القضية في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة؛ فقد روى الإمام البيهقي في دلائل النبوة بسند حسن عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع[٣].

---

(١) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ١١١): الثانية: عمرة القضية في العام المقبل، دخلها فأقام بها ثلاثًا، ثم خرج بعد إكمال عمرته، واختُلِف: هل كانت قضاءً للعمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عمرة مستأنفة؟

على قولين للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد:

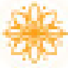
أحدهما: أنها قضاء، وهو مذهب أبي حنيفة.

والثاني: ليست بقضاء، وهو قول مالك.

والذين قالوا: كانت قضاءً احتجوا بأنها سُميت عمرة القضاء، وهذا الاسم تابع للحكم، وقال الآخرون: القضاء هنا من المقاضاة؛ لأنه قاضى أهل مكة عليها، لا أنه من قضى يقضي قضاءً، قالوا: ولهذا سُميت عمرة القضية، قالوا: والذين صُدُّوا عن البيت كانوا ألفًا وأربعمائة، وهؤلاء كلهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاءً لم يتخلف منهم أحدٌ، وهذا القول أصح؛ لأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمر مَن كان معه بالقضاء.

(٢) سورة الفتح - الآية (٢٧).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣١٣) - وعزاه الحافظ في الفتح (٨/ ٢٨٦) إلى يعقوب بن سفيان في تاريخه، وحسَّن إسناده.



وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اعتمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع عُمَرٍ كُلُّهنَّ في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته:

١- عُمرة من الحُديبية في ذي القعدة[١].

٢- وعمرة من العام المقبل[٢] في ذي القعدة.

٣- وعُمرة من الجِعْرَانة[٣] حيث قسم غنائم حُنين في ذي القعدة.

٤- وعمرة مع حجته[٤].

وقال الإمام ابن القيم: والمقصود أن عُمَرَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها كانت في أشهر الحج مخالَفةً لهَدي المشركين؛ فإنهم كانوا يكرهون العُمرة في أشهر الحج، ويقولون: هي من أفجر الفجور[٥]، وهذا دليل على أن

---

(١) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (١٧٧٨): حيث صده المشركون.

(٢) هي عُمرة القضاء أو القضية.

(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٠١): الجِعْرَانة: بكسر الجيم، وإسكان العين، وتخفيف الراء، هكذا صوابها عند إمامنا الشافعي، والأصمعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأهل اللغة ومحققي المحدثين وغيرهم، ومنهم مَن يكسر العين، ويشدِّد الراء، وهو قول عبد الله بن وهب، وأكثر المحدِّثين.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤١٤٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٣).

(٥) ثبت ذلك في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٥٦٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٠) (١٩٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كانوا يرون أن العُمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض!

قال الإمام السندي في شرحه للمسند (٢/ ٤٢٢): قوله: كانوا يرون، أي: أهل الجاهلية.



الاعتمار في أشهر الحج أفضل منه في رجب بلا شك[١].



سبب هذه العُمرة

سبب هذه العمرة المباركة: الاتفاق الذي وقع بين رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسُهَيل بن عمرو؛ رسولِ قريش، في صُلح الحُديبية، بأن يرجع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا العام، ويعتمر العام القادم؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن المِسْوَر بن مَخْرَمة، ومروان بن الحكم، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل بن عمرو: والله لا تتحدث العرب أَنَّا أُخِذنا ضُغْطةً[٢]، ولكن ذلك من العام المقبل[٣].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: صالح النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المشركين يوم الحُديبية على ثلاثة أشياء:

١- على أن مَن أتاه من المشركين رَدَّهُ إليهم.

٢- ومَن أتاهم من المسلمين لم يردوه.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ١١٦).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٦٩٤): ضُغْطة -بضم الضاد، وسكون الغين- أي: قهرًا.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٣١) (٢٧٣٢).



٣- وعلى أن يدخلها[١] مِن قابلٍ، ويُقيمَ بها ثلاثة أيام[٢].

قال الإمام النووي: وأما عُمْرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسمَّاة: عُمرةَ القضاء، وعمرة القضية، فكانت في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحرم بالعمرة في ذي القعدة سنة ست فصده المشركون، ثم صالحوه، وقاضى سُهيل بن عمرو على الهُدنة، ثم اعتمر في السنة السابعة[٣].



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأداء العمرة

خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه المسلمون من المدينة النبوية متوجهين لمكة شرفها الله؛ لأداء العمرة، واستعمل على المدينة عُوَيف[٤] بن الأضبط الديلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلاح والدُّروع والرماح خوفًا من غدر قريش، فلما انتهى إلى ميقات ذي الحُلَيفة[٥] قَدَّمَ الخيل

---

(١) يعني: يدخل مكة لأداء العمرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٠٠).

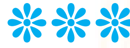
(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٥١١).

(٤) قال الحافظ في الإصابة (٤/ ٦١٩): عُوَيف بمُوحَّدة مُصغَّرًا.

(٥) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٠٣): ذو الحُلَيفة: ميقات أهل المدينة -زادها الله شرفًا- بضم الحاء المهملة، وفتح اللام، وإسكان الياء، وهو على نحو ستة أميال من المدينة.



أمامه عليها محمد بن مَسلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأحرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب المسجد ولَبَّى، والمسلمون معه يُلبُّون[1].



إشاعة أطلقتها قريش

فلما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه مَرَّ الظَّهران[2]، بلغته إشاعةُ قريش، وهي إصابة المسلمين بالحُمَّى؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزل مَرَّ الظهران في عُمرته، بلغ أصحابَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قريشًا تقول: ما يتباعثون[3] من العَجَف[4]، فقال أصحابه: لو انتحَرْنا من ظَهْرِنا[5] فأكَلْنا من لَحمِه وحَسَونا من مَرَقِه، أصبحنا غدًا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامةٌ[6]! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم»، فجمعوا

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٠).

(٢) مَرُّ الظَّهران -بفتح الميم، وتشديد الراء-: موضع بقرب مكة. انظر: النهاية (٤/ ٢٧١).

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ٨١): ما يتباعثون: أي: ما يقومون، أي: الصحابة.

(٤) قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ٨١): العَجَف -بفتحتين- أي: الضعف الحاصل بالجوع والمرض.

(٥) الظَّهر: الإبل التي يُحمَل عليها وتُركَب. انظر: النهاية (٣/ ١٥١).

(٦) الجَمَامة: أي: راحة وشِبَع وريٌّ. انظر: النهاية (١/ ٢٩٠).



له، وبسطوا الأنطاع[1]، فأكلوا حتى تَوَلَّوا[2]، وحثا كل واحد منهم في جِرابه[3].



دخول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكة

وصل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكة، وقد خرج عامة أهل مكة إلى قُعَيقِعان[4]، وبعضهم قريبًا من الحِجر، وبعضهم مكث في بيته خوفًا من العدوى بزعمهم، وعَلِمَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إشاعة قريش التي أطلقتها، فأمر أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ بالرَّمَلِ[5]، وأصحابُه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ

---

(١) زاد ابن حبان في صحيحه: فدعا لهم فيها بالبركة.
النِّطْع: الجِلد. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٨٦).

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ٨١): حتى تولَّوا: أي: انصرفوا عن الأكل بشِبَع.

(٣) الجِراب -بكسر الجيم-: الوِعاء. انظر: لسان العرب (٢/ ٢٢٨).
والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٨٢) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٣٨١٢).

(٤) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٥٤٠): قُعَيْقِعان -هو بضم القاف الأولى، وفتح العين-: جبل مكة المعروف، مقابِلٌ لأبي قُبيس.

(٥) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٢٦): الرَّمَلُ في الطواف -هو بفتح الراء والميم-: وهو إسراع المشي مع تقارب الخُطا دون الوثوب والعَدْوِ.
وقال البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٢٧): وقد بقي الرَّمَلُ مشروعًا في طواف القدوم، وإن كانت عِلَّته زالت؛ فقد حكى جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا في صفة حج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: رَمَل ورَمَلوا في عمرة الجِعْرَانة.
=



مُحدِقون[1] به يُلبُّون معه، ويحفظونه من أذى قريش؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قَدِمَ رسولُ الله وأصحابُه[2]، فقال المشركون: إنه يَقدَم عليكم وَفْدٌ وَهنَتْهم[3] حُمَّى يثرب، فأمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَرمُلوا الأشواطَ الثلاثة[4]، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاءُ[5] عليهم... والمشركون من قِبَلِ قُعَيقعان.

= قلت: هكذا قال البيهقي، ويظهر أنه وَهِمَ؛ فإن حديث جابر في صفة حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مغاير لعُمرة الجِعْرَانة؛ فحديث جابر أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧)، وفيه: حتى إذا أتينا البيت معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، استلم الركن فرَمَل ثلاثًا ومشى أربعًا.

وحديث اعتمار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرة الجِعْرانة رواه أبو داود في سننه - رقم الحديث (١٨٨٤) - وإسناده صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه اعتمروا من الجِعْرانة، فرَمَلوا بالبيت، وجعلوا أردِيَتَهم تحت آباطِهم، ثم قذفوها على عواتقهم اليُسرَى.

وقال الإمام ابن الجوزي في صيد الخاطر - ص (٥٠٥): فرَمَلوا -والرَّمَل: شدة السعي-، وزال ذلك السبب وبقي الحكم؛ ليُتذكَّر السبب فيُفهَم معناه.

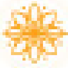
(١) كل شيء استدار بشيء وأحاط به، فقد أحدق به. انظر: لسان العرب (٣/ ٨٧).

(٢) زاد الإمام مسلم: مكة.

(٣) وهنتهم: أضعفتهم. انظر: النهاية (٥/ ٢٠٣).

(٤) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٥٣٦) قال ابن عباس: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: ارْمُلوا بالبيت؛ ليرى المشركون قوَّتكم.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٩٨): قوله: إلا الإبقاء عليهم -بكسر الهمزة، وسكون الموحدة-: أي: الرفق بهم، والإشفاق عليهم.



زاد الإمام مسلم في صحيحه: فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحُمى قد وهَنَتْهم! هؤلاء أجلَدُ من كذا وكذا[(١)].

وفي رواية الإمام أحمد وابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ثم أقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحِجْر، فاضطبع[(٢)] بردائه، ثم قال لأصحابه: «لا يرى القومُ فيكم غَميزةً»[(٣)]، فاستلم الركن، ثم دخل حتى إذا تَغيَّبَ بالركن اليماني[(٤)]، مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: إنهم لَيَنقُزون نَقْزَ الظِّباء[(٥)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اعتمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعتمرنا معه، فلما دخل مكة طاف

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٥٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٦٦) (٢٤٠).

(٢) الاضطباع: هو أن يأخذ الإزار أو البُرْد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن، ويُلقي طرَفيه على كتفه الأيسر من جهتي صدره وظهره. انظر: النهاية (٣/ ٦٨).

(٣) الغَميزة -بفتح الغين- أي: ضَعْف. انظر: لسان العرب (١/ ١٢٠).
وفي رواية ابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٨) قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّةً».

(٤) أي: تغيب به عن قريش الذين كانوا في الحِجر.

(٥) في رواية ابن حبان: الغزلان.
والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٨٢) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٣٨١٢).



وطُفْنا معه، وأتى الصفا والمروة وأتيناها معه، وكنا نستره من أهل مكة أن يرميَه أحد[1].



إنشاد عبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الشِّعر

روى الإمام الترمذي في جامعه وابن حبان في صحيحه -واللفظ للترمذي- بسند صحيح عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بين يديه يمشي، وهو يقول:

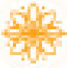
خَلُّوا بني الكُفَّارِ عن سَبيلِهِ
اليومَ نَضْرِبْكُمْ على تنزيله
ضربًا يُزيلُ الهامَ[2] عن مَقِيلِهِ[3]
ويُذهِلُ الخليلَ عن خَليلِهِ

فقال له عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا ابن رواحة، بين يَدَيْ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي حَرَمِ الله تقول الشِّعْر؟!

فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَلِّ عنه يا عُمَر؛ فلَهِيَ أسرَعُ[4] فيهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٩١).
(٢) الهام: جمع هامة، وهي أعلى الرأس. انظر النهاية (٤/ ١١٧).
(٣) مَقيلِه: مَوضِعِه. انظر النهاية (٤/ ١١٧).
(٤) في رواية ابن حبان: «أشد».



من نَضْحِ[1] النَّبْلِ»[2].



نحرُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَدْيَه وتحلُّله

فلما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طوافه وسعيه، نحر هديه وحلق رأسه الشريف، ولم يدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَدَخَل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيت في عمرته؟ قال: لا[3].

قال الإمام النووي: هذا مما اتفقوا عليه؛ قال العلماء: والمراد به عمرة القضاء التي كانت سنة سبع من الهجرة قبل فتح مكة، وسبب عدم دخوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان في البيت من الأصنام والصُّوَر، ولم يكن المشركون يتركونه لتغييرها، فلما فتح الله تعالى عليه مكة دخل البيت وصلى فيه، وأزال الصُّوَر قبل دخوله، والله أعلم[4].

---

(١) نَضَحَ: رمى. انظر: النهاية (٥/ ٦٠).
وفي رواية ابن حبان: «وَقْع».

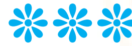
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٠٦١) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٥٧٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٠٠) (١٧٩١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٣٢).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ٧٤).



وقال الحافظ في الفتح: ويحتمل أن يكون دخول البيت لم يقع في الشَّرط، فلو أراد دخوله لمنعوه كما منعوه من الإقامة بمكة زيادة على الثلاث، فلم يقصد دخوله؛ لئلا يمنعوه[1].



خروج النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة

فلما انقضت الأيام الثلاثة المقررة لدخول المسلمين مكة وتأديتهم العمرة -حسب شروط صلح الحُديبيَة- بعَثَت قريش حُويطِبَ بن عبد العُزَّى في نفر من قريش إلى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبروه بانتهاء الأيام الثلاثة لمُكثِهِ في مكة؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: قُلْ لصاحبك: اخرج عنا؛ فقد مضى الأجل، فخرج النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

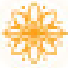
وفي رواية الإمام مسلم، قالوا لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فَأْمُرْه فليخرج، فأخبره بذلك، فقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، فخرج[3].

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦٩٩) (٤٢٥١).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٣) (٩٢).



وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فأتاه حُويطِب بن عبد العُزَّى في نفر من قريش في اليوم الثالث، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلُك؛ فاخرُجْ عنا، فخرج[1].

قال الإمام النووي: فإن قيل: كيف أحوجوهم إلى أن يطلبوا منهم الخروج ويقوموا بالشَّرط؟ فالجواب: أن هذا الطلب كان قبل انقضاء الأيام الثلاثة بيسير، وكان عزم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على الارتحال عند انقضاء الثلاثة، فاحتاط الكفار لأنفسهم وطلبوا الارتحال قبل انقضاء الثلاثة بيسير، فخرجوا عند انقضائها وفاءً بالشرط، لا أنهم كانوا مقيمين لو لم يُطلب ارتحالُهم[2].



قضاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ابنة حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، وتبعتهم ابنة حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأخذها عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه بسند حسن عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما خرجنا من مكة اتبعَتْنا ابنة حمزة، فنادت[3]: يا عَمِّ، يا عَمِّ[4]، فأخذتُ بيدها

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٦٩٦٣).
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٨).
(٣) نادت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٤) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٩٢): كأنها خاطبت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك إجلالاً له، وإلا فهو ابن عمها، أو بالنسبة إلى كون حمزة وإن كان عمه من النسب فهو أخوه من الرضاعة.



فناولتها فاطمة، قلتُ: دونَكِ ابنةُ عمِّك، فلما قدمنا المدينة اختصمنا فيها أنا وزيد وجعفر، فقلت: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتُها عندي[1]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجعفر: «أشبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي»[2]، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»، وقال لي: «أنت مني وأنا منك، ادفعوها إلى خالتها؛ فإن الخالة أمٌّ»[3]، فقلت: ألا تَزوَّجُها يا رسول الله؟

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنها ابنة أخي من الرضاعة»[4].

فوائد الحديث:

قال الحافظ في الفتح: وفي الحديث من الفوائد:

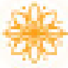
---

(١) يعني: زوجتي.
وفي رواية الإمام البخاري في صحيحه من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وخالتها تحتي.
خالتها هي أسماء بنت عُميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقع التصريح باسمها في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٧٧٠).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٩٤): هي منقبة عظيمة لجعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) في رواية الإمام البخاري في صحيحه من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الخالة بمنزلة الأم».
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٩٤): أي: في هذا الحكم الخاص؛ لأنها تقرب منها في الحنو والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٧٧٠) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٦٦٤).
وأخرجه الإمام البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رقم الحديث (٢٦٩٩) (٤٢٥١).



١- تعظيم صلة الرحم بحيث تقع المخاصمة بين الكبار في التوصل إليها.

٢- وأن الحاكم يُبيِّن دليل الحُكم للخصم.

٣- وأن الخصم يُدْلِي بحُجَّته.

٤- ويُؤخَذ منه أن الخالة في الحضانة مقدَّمة على العمة؛ لأن صفية بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قُدِّمت على العمة مع كونها أقرب العَصَبات من النساء، فهي مُقدَّمة على غيرها[(١)].



زواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

ولما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة تزوج أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي آخر زوجة تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة في عمرة القضاء[(٢)].

وروى الإمام مسلم وابن حبان في صحيحيهما -واللفظ لابن حبان- عن ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تزوَّجَني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَرِف[(٣)]،

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٥٩).

(٣) سَرِف -بكسر الراء-: موضع من مكة على عشرة أميال. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٦).



وهما حلالان[(١)] بعدما رجعنا من مكة[(٢)].

وروى الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن أبي رافع مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال: تزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة وهو حلال، وبَنى[(٣)] بها وهو حلال، وكنتُ أنا الرسولَ فيما بينهما[(٤)].

قال الإمام الترمذي: اختلفوا في تزويج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوجها في طريق مكة، فقال بعضهم: تزوجها حلالًا، وظهر أَمْرُ تزويجها وهو مُحرِم، ثم بنى بها وهو حلال بِسَرِف في طريق مكة، وماتت ميمونةُ بِسَرِف حيث بنى بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودُفِنَت بِسَرِف[(٥)].

وقال الإمام النووي: تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلالًا، هكذا رواه أكثر الصحابة[(٦)].

---

(١) يعني: غيرَ مُحرِمَين.

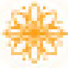
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤١١) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤١٣٨).

(٣) البناء: الدخول بالزوجة. انظر: النهاية (١/ ١٥٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧١٩٧) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٥٧) - وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وصحَّحه الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٤٩).

(٥) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٣٦٦).

(٦) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ١٦٦).



وقـال الإمام ابن القيم: اختُلِفَ عنـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هل تزوج ميمونة حلالًا أم حرامًا؟

فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تزوجها مُحرِمًا[١]، وقال أبو رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تزوجها حلالًا، وكنتُ الرسـولَ بينهمـا، وقول أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرجح؛ لعدة أوجه[٢]: ثم ذكر ابن القيم سبعة أوجه في ترجيح قول أبي رافع على قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال الحافـظ ابن كثير: قَدَّم جمهور العلماء هـذا الحديث [٣] على قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنها صاحبة القصة، فهي أعلم[٤].



---

(١) أخرجـه الإمام البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (١٨٣٧) (٤٢٥٨) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤١٠) (٤٦).

(٢) انظـر: زاد المعـاد (٥/ ١٥٨) - ورجـح الإمام ابن القيم في موضع آخـر من زاد المعاد (٣/ ٤٤٨-٤٥١) زواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهما حلالان.

(٣) هو حديث ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولها: تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حلال.

(٤) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٣١٣).



السنة الثامنة للهجرة

غزوة مُؤْتَة[1]

(١) قال السُّهيلي في الروض الأُنف (٤/ ١٢٠): مُؤْتة: هي مهموزة الواو، وهي قرية من أرض البلقاء من الشام.

وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٥٨): مؤتة -هي بضم الميم، ثم همزة ساكنة، ويجوز ترك الهمزة كما في نظائره-: وهي قرية معروفة في طرَف الشام.

قلت: واختُلِف في تسميتها، هل يُقال لها: غزوة، أم سَرِيَّة؟ والأكثر على تسميتها غزوة.

* أبرز مَن قال: إنها غزوة:

١) قال الإمام البخاري في صحيحه: باب غزوة مؤتة من أرض الشأم.

٢) قال ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٠): ذِكْر غزوة مؤتة.

٣) وعنون لها البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٥٨) بقوله: ما جاء في غزوة مؤتة.

٤) وعنون لها الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٦٠) بقوله: فصل في غزوة مؤتة.

٥) وعنون لها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٦٣٢) بقوله: غزوة مؤتة، لكنه قال بعدها: وهي سَرِيَّة زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ووقع تسميتها بذلك في الأحاديث؛ فمنها:

روى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٦١) عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أَمَّرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة مؤتة زيدَ بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وروى الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥٣) (٤٤) عن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجتُ مع مَن خرج مع زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة مؤتة.

وقال الزرقاني في شرحه للمواهب (٣/ ٣٣٩): وفي بعض الروايات تسميتها غزوة جيش الأمراء؛ وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها، وما لاقَوه من الحرب الشديدة مع الكفار.

قلت: والذي يظهر لي أن سبب تسميتها: غزوة -مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخرج فيها- هو ما كَشَفَ اللهُ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مُجْرَيات أحداث المعركة =



وقعت هذه الغزوة في جُمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: هذه الغزوة كانت إرهاصًا[(٢)] لِما بعدها من غَزْوِ الروم، وإرهابًا لأعداء الله ورسوله[(٣)].

ويُسمَّى جيشها بجيش الأمراء؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند جيد عن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش الأمراء، وقال: «عليكم زيدُ بن حارثة، فإن أُصيب زيد، فجعفر، فإن أُصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة الأنصاري»[(٤)].



=وهو في المدينة؛ فكان يُخبر أصحابه بذلك، فكان يقول: «أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذ الراية جعفر...» إلخ الحديث، فكأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان معهم؛ فلذلك سُميت غزوة. والله أعلم.

* أبرز مَن قال: إنها سَرِيَّة:

١) عنون لها ابن سعد في طبقاته (٢/ ٣١٤) بقوله: سرية مؤتة.

٢) وقال نور الدين الحلبي في سيرته الحلبية (٣/ ١٠١): والحق أنها ليست من الغزوات بل من السرايا الآتي ذكرها؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن فيها، والله أعلم.

(١) هذا تاريخها عند عامة أهل المغازي، لا يختلفون في ذلك، إلا ما كان من الحافظ ابن عبد البر في الدرر - ص (٢٢٢) - والحافظ ابن كثير في الفصول - ص (٢٠١)؛ فإنهما جعلاها في جمادى الآخرة.

(٢) إرهاصًا: أي: مُقَدِّمة. انظر: لسان العرب (٥/ ٣٤٣).

(٣) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٠٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٥٥١).



سبب هذه الغزوة

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحارثَ بن عُمَير الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتابه إلى ملك بُصرى، فلما نزل مُؤْتَة عَرَضَ له شُرَحْبيل بن عمرو الغسَّاني فقتله، ولم يُقتَلْ رسولٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيره[(١)].

وكان قَتْل السفراء والرسل من أشنع الجرائم؛ لأنه جرت العادة والعُرف بعدم قتلهم أو التعرض لهم؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه والحاكم في مستدركه بسند حسن عن نُعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لرسولَيْ[(٢)] مُسيلِمةَ حين قرأ كتابَ مُسيلمة: «ما تقولان أنتما؟» قالا: نقول كما قال، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمَا واللهِ لولا أن الرسل لا تُقتَلُ لضرَبْتُ أعناقَكما»[(٣)].



---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٤).

(٢) هما ابن النواحة، وابن أُثال، كما في رواية أخرى عند الحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٤٤٢٦).

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ١٥٦): أي: لئلا تنقطِعَ الكتب والمراسيل.
والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٩٨٩) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٧٦١) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٢٦٦٤).



تجهُّز جيش الأمراء

فلما بلغ رسـولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرُ قَتْل رسولِه الحارث بن عمير الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نـدب النـاس للخروج لقتـال الروم والغساسِـنة، فتهيَّأ النـاس للخروج، فكان قِوام جيش الأمراء ثلاثـة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش يتجمع للمسلمين إلى ذلك الوقت.

وأَمَّر رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هـذا الجيش مولاه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقـد روى الإمـام البخـاري في صحيحـه عن عبـد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أَمَّرَ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غـزوة مؤتة زيدَ بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن قُتِلَ زيـد، فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر، فعبد الله بن رواحة**»[1].

وفي رواية الإمام أحمد في مسـنده بسـند جيد عـن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش الأمـراء، وقال: عليكم زيد بن حارثـة، فـإن أُصيب[2] زيـد، فجعفر[3]، فـإن أُصيب[4] جعفـر، فعبد الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٦١).

(٢) في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (١٧٥٠): قُتِلَ.

(٣) في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (١٧٥٠) فأميركم جعفر.

(٤) في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (١٧٥٠) قُتِلَ.



ابن رواحة[(١)] الأنصاري[(٢)].



توجُّه جيش الأمراء إلى مؤتة

وعقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم لواءً أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، وخرج معهم في هذه الغزوة العظيمة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي أول مشاهده في الإسلام.

مضى جيش الأمراء إلى عدوهم في الشام، حتى إذا كانوا بمَعَان[(٣)] بلَغَهم أن هرقل ملك الروم قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من نصارى العرب، من لَخْم وجُذام، وقبائل قضاعة، من بَهراء وبَلي، وبلقين، فكان قِوام جيش الروم والغساسنة مائتي ألف مقاتل[(٤)]!

---

(١) في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (١٧٥٠): فأميركم عبد الله بن رواحة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٥٥١).

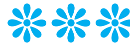
(٣) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان (٨/ ٢٨٥): مَعَان: بالفتح، وآخره نون، والمحَدِّثون يقولونه بالضم، وإياه عَنَى أهل اللغة، قال الأزهري: هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٤).



تشاوُرُ المسلمين في أمر الروم والغساسنة

ولم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، الذي فُوْجئوا به، فأقاموا في معان ليلتين يُفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنُخبره بعدد عدُوِّنا، فإما أن يَمُدَّنا بالرجال، وإما أن يأمُرَنا بأمره، فنمضي له، فقال عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا قوم: والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون؛ الشهادةُ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرَمَنا الله به، فانطَلِقوا؛ فإنما هي إحدى الحُسنيين؛ إما ظهور، وإما شهادة، فوافقه الناس، فنهضوا[(١)].



تحرُّك جيش الأمراء إلى عدوهم

وحينئذ تحرك جيش الأمراء إلى أرض العدو، وذلك بعد أن قضى المسلمون ليلتين في معان، حتى إذا بلغوا تُخوم[(٢)] البلقاء، لقيتهم جموع الروم والغساسنة من نصارى العرب وغيرهم بقرية يُقال لها: مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يُقال لها: مؤتة، فالتقى الناس

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢).

(٢) التُّخوم: الفصل بين الأَرَضين من الحدود والمعالم. انظر: لسان العرب (٢/ ٢١).



عندها، فتعبأ المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم: قُطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم: عباية بن مالك الأنصاري[1].



بدءُ القتال وتناوُبُ القادة

والتقى الجيشان في مؤتة، وبدأ القتال المرير؛ ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون مائتي ألف مقاتل! معركة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب[2]!



الراية بيد زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

أخذ الرايةَ زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ حِبُّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل يُقاتل بضراوة بالغة، وبسالة نادرة، والمسلمون معه يُقاتلون، حتى قُتِلَ طعنًا بالرماح، وخَرَّ شهيدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

روى الحاكم في المستدرك بسند مرسل لا بأس به عن عروة بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بعث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثَهُ إلى مُؤتة، فقاتل زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ براية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جمادى الأولى

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥).

(٢) انظر: الرحيق المختوم - ص (٣٨٩).



سنة ثمانٍ، حتى شاط[1] في رماح القوم[2].



الراية بيد جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فلما سقط زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَمَلَ الرايةَ جعفرُ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطَفِق[3] يُقاتل قتالًا منقطع النظير، حتى إذا ألحمه[4] القتال نزل عن فرسه فعقرها[5] -فكان أول فرس يُعقر في الإسلام-، وهو يقول:

يا حبَّذا الجنَّةُ واقترابُها ... طَيِّبةٌ وباردٌ شرابُها

والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

فقُطِعت يمينه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخذ الراية بشماله، فَقُطِعت شماله، فاحتضن الراية بعضُديه حتى استُشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! فأثابه الله سبحانه بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ولذلك سُمِّي بجعفر الطَّيَّار[6].

---

(١) شاط: هلك. انظر: النهاية (٢/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٠١٨).

(٣) طفق: جعل. انظر: لسان العرب (٨/ ١٧٤).

(٤) يُقال: ألحم الرجل واستلحم: إذا نشب في الحرب فلم يجد له مخلصًا. انظر: النهاية (٤/ ٢٠٦).

(٥) أصل العَقْر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم. انظر: النهاية (٣/ ٢٤٥).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٦).



قال الحافظ ابن كثير: قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ثلاث وثلاثين سنة على الصحيح[(١)].

وروى أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه -واللفظ للحاكم- بسند حسن عن يحيي بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، قال: أخبرني أبي الذي كان أرضعني من بني مُرَّة، قال: كأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم مؤتة نزل[(٢)] عن فرسٍ له فَعَرْقَبَهَا[(٣)]، ثم مضى فقاتل حتى قُتِلَ[(٤)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن نافع، قال: إن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبره: أنه وقف على جعفر يومئذ، وهو قتيلٌ، فعددتُ به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دُبُره، يعني: في ظهره[(٥)]!

وروى الإمام الترمذي والحاكم وابن حبان -واللفظ لابن حبان- بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٠٤).

(٢) في رواية أبي داود: اقتحم.

(٣) عَرْقَبَهَا: أي: قطع عُرقوبها، وهو الوَتَر الذي خلف الكعبين بين مفصل القدم والساق من ذوات الأربع، وهو من الإنسان فُوَيق العَقِب. انظر: النهاية (٣/ ٢٠٠).
وفي رواية أبي داود: فعقرها.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٥٧٣) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٩٩٦) - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ٣٠٠) وحَسَّن إسناده.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٦٠).



«أُريتُ جَعفرًا مَلَكًا يطير بجناحيه في الجنة!»[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عامر الشعبي، قال: إن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا سَلَّم على ابن[2] جعفر، قال: السلام عليك يا ابنَ ذي الجَناحين![3]



الراية بيد عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أخذ عبدُ الله بن رواحة الرايةَ وحملها بعدما استُشهد جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسَه، ويتردَّد بعض التردد، ثم قال:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنزِلَنَّهْ
لَتَنزِلَنَّ أو لَتُكرَهِنَّهْ
إن أجلبَ النَّاسُ[4] وشَدُّوا الرَّنَّهْ[5]
ما لي أراكِ تكرهينَ الجنَّهْ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٠٩٦) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٤٩٩٩) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٤٧) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (١٢٢٦) وقال: حديث صحيح.
(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤١): يعني عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٠٩) (٤٢٦٤).
(٤) أجلب الناس: تجمَّعوا وتألَّبوا. انظر النهاية (١/ ٢٧٣).
(٥) والرنَّة: الصَّيحةُ الشديدة. انظر لسان العرب (٥/ ٣٣٤).



وقال أيضًا:

يا نفسُ إلَّا تُقتَلِي تموتي
هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعطِيتِ
إن تفعلي فِعلَيْهما[1] هُدِيتِ

ثم تقدم فقاتل حتى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

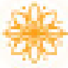


نعي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمراء الثلاثة

وقد أطلع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما وقع في غزوة مؤتة وهو في المدينة النبوية، فنعى لأهل المدينة أمراء الجيش الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل أن يأتيهم خبرهم؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه بسند جيد عن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَعِد المنبر وأمر أن يُنادى: الصلاة جامعة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبِرُكم عن جيشِكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو، فأصيب زيد شهيدًا، فاستغفِروا له، فاستغفر له الناسُ، ثم

(١) يعني: زيدًا وجعفرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرج ذلك ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٦) وإسناده حسن - وأخرجه مختصَرًا ابن ماجه في سننه - رقم الحديث (٢٧٩٣) وإسناده حسن.



أخذ اللواءَ جعفرُ بن أبي طالب، فَشَدَّ على القوم حتى قُتِلَ شهيدًا، أشهدُ له بالشهادة، فاستغفِروا له، ثم أخذ اللواء عبدُ الله بن رواحة، فأثبت قدميه حتى أُصيب شهيدًا، فاستغفِروا له»[(١)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خطب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «أخذ الرايةَ زيدٌ فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأُصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأُصيب، وقال: ما يسرهم أنهم عندنا[(٢)]، وعيناه تَذرِفان»[(٣)].

وروى الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما وأبو داود في سننه -واللفظ لأبي داود- عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: لما قُتِلَ زيد بن حارثة، وجعفر، وعبد الله بن رواحة؛ جلس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المسجد يُعرَف في وجهه الحُزن[(٤)].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٥٥١) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٤٨).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٩٥): أي: لما رأوا من الكرامة بالشهادة.

(٣) ذَرَفَت العين: إذا جرى دمعها. انظر: النهاية (٢/ ١٤٧).
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٩٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٩٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٣٥) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣١٢٢).



الراية إلى سيف الله المسلول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فلما سقطت الراية باستشهاد عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُكلِّف أحدًا بحملها بعده- أخذها ثابت بن أقرم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلِحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه في المدينة: «ثم أخذها[2] خالد بن الوليد عن غير إِمْرة[3] فَفُتِحَ له»[4].

وفي لفظ آخر، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله[5] حتى فتح الله عليهم»[6].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧).

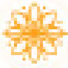
(٢) يعني: أخذ الراية.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٠٢): المراد: نفي كونه كان منصوصًا عليه، وإلا فقد ثبت أنهم اتفقوا عليه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٩٨).
وفي لفظ آخر في صحيحه البخاري - رقم الحديث (٣٠٦٣): عليه.

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١٦١): سَمَّاه بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه ينكأ في أعداء الله.
نكأ العدوَّ: هزمه وغلبه. انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٧٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٦٢).



وفي رواية الإمام أحمد وابن حبان بسند جيد، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثم أخذ اللواء خالدُ بن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أَمَّرَ نفسه، فرفع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُصبعيه، وقال: اللهم هو سيف من سُيُوفك؛ فانصره، فيومئذ سُمِّي خالدٌ سيفَ الله»[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: فأخذ الرايةَ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانحاز بالمسلمين، وتلطَّف، حتى خَلَص المسلمون من العدو، ففتح الله على يديه، كما أخبر بذلك كله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه الذين بالمدينة يومئذ، وهو قائم على المنبر، فنعى إليهم الأمراء واحدًا واحدًا، وعيناه تذرفان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)].



شِدَّة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

واشتد خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجيشه على الكفار، وقاتلهم قتالًا عظيمًا؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لقد انقطعَت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلا صحيفةٌ يمانيَةٌ![(٣)]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٥٥١) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٤٨).

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٠٤).

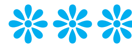
(٣) قال ابن قُرْقُول في مطالع الأنوار (٤/ ٢٦٤): الصَّحيفة: السيف العريض. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٦٥).



وفي لفظ آخر في صحيح البخاري، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد دُقَّ في يدي يوم مؤته تسعة أسياف، وصبَرَت في يدي صحيفة لي يمانيَة![1]

قال الحافظ في الفتح: وهذا الحديث يقتضي أن المسلمين قتلوا من المشركين كثيرًا[2].

وقال الحافظ ابن كثير: وهذا يقتضي أنهم أثخنوا[3] فيهم قتلًا، ولو لم يكن كذلك لما قَدَروا على التخلص منهم، وهذا وحده دليل مستقل. والله أعلم[4].



مَن المنتصر في هذه المعركة العظيمة؟

قال الحافظ في الفتح: واخْتَلَفَ أهل النقل في المراد بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حتى فتح الله عليهم»؛ هل كان هناك قتال فيه هزيمة للمشركين، أو المراد بالفتح انحيازه[5] بالمسلمين حتى رجعوا سالمين؟[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٦٦).

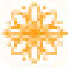
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٦).

(٣) الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه، والمراد به هاهنا: المبالغة في قتل الكفار. انظر: النهاية (١/ ٢٠٣).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٦٤١).

(٥) يعني: انحياز خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٢).



روى ابـن سـعد في طبقاته عن أبي عامر الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قطُّ، حتى لم أرَ اثنين جميعًا.

قلت: وذلك بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخذ خالد اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا[(١)].

وقال ابن إسـحاق: فاصطلح الناس علـى خالد بن الوليد، فلما أخذ الرايـة دافـع القوم، وحاشـى بهم، ثم انحـاز وانحيز عنـه، حتى انصرف الناس[(٢)].

وقـال البيهقـي: اختلـف أهـل المغـازي في فرارهـم وانحيازهـم؛ منهـم مَن ذهـب إلى ذلـك، ومنهم مَن زعـم أن المسـلمين ظهروا على المشركين وانهزم المشركون، وحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثـم أخذها خالد ففُتح عليه يـدل على ظهوره عليهم، والله تعالى أعلم بالصواب[(٣)].

وقـال الإمـام ابن القيم: والصحيـح ما ذكره ابن إسـحاق أن كل فئة انحازت عن الأخرى[(٤)].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٥).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧).
(٣) انظر: دلائل النبوة (٤/ ٣٧٥).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٦٣).

وقال الحافظ ابن كثير: وكَرَّ(١) المسلمون راجعين، ووقى الله شر الكَفَرة، وله الحمد والمنة(٢).



مواساة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآل جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: أمهل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم، ثم أتاهم، فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا إليَّ ابنَيْ أخي»، قال: فجيء بنا كأنَّا أَفْرُخ، فقال: «ادعوا لي الحلاق»، فجيء بالحلاق، فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي، ثم أخذ بيدي، فأشالها(٣) فقال: اللهم اخلُف جعفرًا في أهله، وبارِك لعبد الله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات».

قال: فجاءت أُمُّنا(٤)، فذكرَت له يُتمَنا، وجعلت تُفْرِحُ(٥) له، فقال

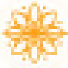
(١) الكَرُّ: الرجوع. انظر: لسان العرب (١٢/ ٦٤).

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٠٥).

(٣) فأشالها: أي: رفعها. انظر: لسان العرب (٧/ ٢٤١).

(٤) هي أسماء بنت عُميس الخثعمية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٥) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٣٨٠): قال أبو موسى: هكذا وجدتُه بالحاء المهملة، وقد أضرب الطبراني عن هذه الكلمة فتركها من الحديث، فإن كان بالحاء فهو من أفرحه: إذا غَمَّهُ وأزال عنه الفرح، وأفرحه الدَّينُ: إذا أثقله، وإن كانت بالجيم فهو من المُفْرَج الذي لا عَشيرة له، فكأنها أرادت أن أباهم تُوفي ولا عشيرة لهم، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتخافين العَيلةَ وأنا وليهم؟!



رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العَيلَـةَ[1] تخافين عليهم، وأنـا وليهم في الدنيا والآخرة؟!»[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي بسند حسن عن عبد الله بـن جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: لما جاء نعي جعفر، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اصنعوا لأهل[3] جعفر طعامًا؛ فإنه قد جاءهم ما[4] يَشغَلُهم»[5].

قال الإمام الترمذي: وقد كان بعض أهل العلم يَستحِبُّ أن يُوَجَّهَ إلى أهل الميت بشيء؛ لشُغلهم بالمصيبة، وهو قول الشافعي[6].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن جعفر بن خالد بن سارة عـن أبيـه، قال: إن عبد الله بـن جعفر، قال: لو رأيتَنـي وقُثَم وعبيد الله بن العباس نلعب، إذ مَرَّ رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علـى دابة، فقال: «احملوا هـذا إليَّ، فجعلني أمامه، ثم قال لقُثَم: احملوا هذا إليَّ، فجعله وراءه»[7]،

---

(١) العَيلة -بفتح العين-: الفقر. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٥٠) - وأخرجه مختصرًا أبو داود في سننه - رقم الحديث (٤١٩٢).

(٣) في رواية الإمام أحمد وأبي داود: «لآل».

(٤) في رواية الإمام أحمد وأبي داود: «أمر».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٥١) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣١٣٢) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٠١٩).

(٦) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٤٨٦).

(٧) زاد الحاكم في رواية أخرى: وكان عبيد الله أحب إلى العباس من قُثَم.



ما استحى من عَمِّه العباس أن حَمَلَ قُثَم وترك عبيد الله، ثم مسح برأسي ثلاثًا، فلما مسح قال: اللهم اخلُفْ جَعفرًا في ولده»[1].

قال الحاكم: قد أتى جعفر بن خالد بسُنتين عزيزتين:

* إحداهما: مَسْحُ رأس اليتيم.
* والأخرى: تفقُّد أهل المصيبة بما يَتقوَّتون ليلتَهم، وفقنا الله لاستعماله عنه[2].



سَرِيَّة ذات السلاسل[3]

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه - رقم الحديث (١٣٩٤) (٦٥٥٣).

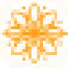
(٢) انظر: المستدرك لأبي عبد الله الحاكم (٢/ ٢٨٧).

(٣) اختُلِف في ضبطها على النحو التالي:

١) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٣٥٠): ذات السُّلاسِل: هو بضم السين الأولى، وكسر الثانية، ماء بأرض جُذام، وبه سُميت الغزوة.

٢) وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٢٥) - وتهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٠٢): ذات السَّلاسِل -بسينين مهملتين، الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة، واللام مخففة-: موضع معروف بناحية الشام في أرض بني عُذرة... وذكر ابن الأثير في كتابه نهاية الغريب: أنها بالضم، وهو اسم ماء يُقال له سُلاسِل، بمعنى سَلْسَال، وهو السهل، وأظن ابن الأثير استنبطه من صحاح الجوهري من غير نقل عنده فيه، ولا دلالة في كلامه.

٣) وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٦٧): فَصْل في غزوة ذات السلاسل، وهي وراء وادي القرى، بضم السين الأولى وفتحها، لغتان.



وقعت هذه السَرِيَّة في جمادى الآخرة سنة ثمانٍ للهجرة[1].

قال الإمام البخاري في صحيحه: باب غزوة ذات السلاسل، وهي غزوة لَخْم وجُذام[2].

قال الحافظ في الفتح: وعند ابن إسحاق[3] أنه ماء لبني جُذام ولَخْم، أما لَخْم -بفتح اللام، وسكون المعجمة-: قبيلة كبيرة شهيرة، وأما جُذام -فبضم الجيم، بعدها معجمة خفيفة-: قبيلة كبيرة شهيرة[4].

وقال الإمام البخاري في صحيحه: وقال ابن إسحاق: عن يزيد عن عروة: هي بلاد بَلِيٍّ وعُذْرَة[5].

قال الحافظ في الفتح: أما يزيد فهو ابن رومان، مدني مشهور، وأما عروة فهو ابن الزُّبَير بن العَوَّام، وأما القبائل التي ذكرها فالثلاثة بطونٌ

---

(١) هذا تاريخها عند ابن سعد في طبقاته (٢/ ٣١٥) - ونقله عنه ابن سيد الناس في عيون الأثر (٢/ ٢١٤) - والإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٦٧) وغيرهما - وذكرها ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٨٠)، لكنه لم يُحدد تاريخها، ونقل الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٢٥) عن الحافظ ابن عساكر قوله: كانت ذات السلاسل بعد مؤتة، فيما ذكره أهل المغازي إلا ابن إسحاق، فقال قبلها.

قلت: ولم أجد ما ذكر في سيرة ابن إسحاق المطبوع.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٨/ ٤٠٢).

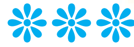
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٠).

(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٣).

(٥) انظر: صحيح البخاري (٨/ ٤٠٢).



من قُضاعة، أما بَلِيٌّ -فبفتح الموحدة، وكسر اللام الخفيفة، بعدها ياء النسب-: قبيلة كبيرة يُنسبون إلى بَلِيِّ بن عمرو بن الحافِ بن قُضاعة، وأما عُذْرة -فبضم العين المهملة، وسكون الذال المعجمة-: قبيلة كبيرة يُنسبون إلى عُذرة بن سعد[1].



سبب هذه السَرِيَّة

قال ابن سعد في طبقاته: بلغ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن جمعًا من قُضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة[2].



تأمير عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأَمَّره على هذه السَرِيَّة؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد بسند صحيح عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بعث إليَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «خُذ عليك ثيابَك وسلاحك، ثم ائتِني، فأتيتُه وهو يتوضأ، فَصَعَّدَ فِيَّ النظر[3] ثم طأطأه[4]، فقال: إني أُريد أن أبعثك على

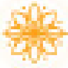
---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٣).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٥).

(٣) أي: نظر إلى أعلاي وأسفلي يتأمَّلُني. انظر: النهاية (٣/ ٢٨).

(٤) طأطأ رأسه: خفض رأسه. انظر: لسان العرب (٨/ ١١٣).



جيش، فيُسلِّمُك الله ويُغْنِمُك، وأَزْعَبُ[١] لك من المال زَعْبَةً صالحة»، فقلت: يا رسول الله، ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا عمرُو، نِعِمَّا بالمال[٢] الصالح للرجل الصالح»[٣].

ثم عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لواءً أبيضَ، وبعثه في ثلاثمائة مقاتل من المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرسًا، فخرج عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسير بالليل ويكمُن بالنهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مَكِيث الجُهني[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمِدُّه[٥].



---

(١) أَزْعَب: أي: أُعطيك دُفعة من المال، وأصل الزَّعْب: الدَّفع والقَسْم. انظر: النهاية (٢/ ٢٧٤).

(٢) في رواية الإمام البخاري: نِعم المال.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٧٦٣) - والبخاري في الأدب المفرد - رقم الحديث (٢٢٩).

(٤) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٣٨٤) - قسم التراجم -: مَكِيث: بفتح الميم، وكسر الكاف، وسكون الياء تحتها نقطتان، وبالثاء المثلثة.
وقال الحافظ في الإصابة (٢/ ٣٧٠): رافع بن مَكِيث بوزن عظيم، آخره مثلثة، الجُهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شهد بيعة الرضوان، وكان أحد من يحمل ألوية جُهينة يوم الفتح، واستعمله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدقات قومه، وشهد الجابية مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٥).



إرسال المدد لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فبعث إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مائتين مقاتل، وعقد له لواءً، وبعث معه سَراة[1] المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا، فخرج أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى إذا قدم عليه قال له عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنما جئتَ مددًا لي، قال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه -وكان أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا ليِّنًا سهلًا، هيِّنًا عليه أمرُ الدنيا- فقال له عمرو: بل أنت مدد لي، فقال له أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لي: «لا تختلفا، وإنك إن عصيتَني أطعتُك»، فقال عمرو: فإني الأمير عليك، وأنت مدد لي، قال أبو عبيدة: فدونَك، فكان عمرو يُصلي بالناس.

سار عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى وطئَ بلاد بَلِيٍّ ودَوَّخها، حتى أتى إلى أقصى بلادهم، وبلاد عُذْرة وبَلقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا، وأقام عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيامًا، ثم رجع إلى المدينة منصورًا[2].



---

(١) سَراة: أشراف. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٧).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٠) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٥).



فقه عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقع في هذه السَّرِيَّة بعض الأحداث التي تجلَّى فيها فقه عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحُسن تعامله معها؛ فمن ذلك:

صلاته بالناس وهو جُنُب:

روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم وابن حبان عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقتُ إن اغتسلت أن أَهْلِك، فتيمَّمتُ[1] ثم صليتُ بأصحابي الصبحَ، فذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا عمرو، صليتَ بأصحابك وأنت جُنُب؟!»، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[2]، فضحك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يَقُل شيئًا[3].

---

(١) في رواية ابن حبان: فغسل مغابِنَه، وتوضأ وضوءه للصلاة.
المغابن: هي بواطن الأفخاذ. انظر: النهاية (٣/ ٣٠٨).
قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٧٠): وكأن هذه الرواية أقوى من رواية التيمم.

(٢) زاد ابن حبان في صحيحه: ولو اغتسلتُ مُتُّ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٨١٢) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٣٣٤) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٦٣٩) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (١٣١٥) - وعلقه الإمام البخاري في صحيحه مختصرًا - قبل الحديث رقم (٣٤٥) - وذكر الحافظ في الفتح (١/ ٦٠٣) مَن وصله والاختلافَ في إسناده، وختم كلامه: إسناده قوي - وأورد طرقه الألباني في تحقيقه لسنن أبي داود (٢/ ١٥٤) =



منعُهم من إشعالِ النار ومتابعةِ العدو

روى ابن حبان في صحيحه بسند صحيح عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه في ذات السلاسل، فسأله أصحابه أن يُوقدوا نارًا، فمنعهم، فكلموا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكَلَّمه في ذلك، فقال: لا يُوقِد أحد منهم نارًا إلا قذفتُه فيها، قال: فلَقُوا العدو فهزموهم، فأرادوا أن يَتْبَعوهم فمنعهم، فلما انصرف ذلك الجيش، ذكروا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشكَوه إليه، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، إني كرهتُ أن آذن لهم أن يوُقِدوا نارًا، فيرى عدوُّهم قلَّتَهم، وكَرِهتُ أن يَتْبَعوهم، فيكون لهم مدد فيعطِفوا[1] عليهم؛ فحَمِدَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمْرَه[2].



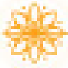
مَن أحبُّ الناس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فلما رأى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ظن أن منزلته عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من منزلة أبي بكر

= وقال: حديث صحيح - وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٢٩/ ٣٤٧) - ولصحيح ابن حبان (٤/ ١٤٣).

(١) عطف عليه: رجع. انظر: لسان العرب (٧/ ٢٦٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٥٤٠).



وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقد روى الشـيخان في صحيحيهما عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: أي الناس أحبُّ إليك؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عائشـة»، قلت: مـن الرجال؟ قـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبوها»، قلـت: ثم مَن؟ قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عمر»، قـال: فَعدَّ رجالًا، فسكتُّ مخافةَ أن يجعلني في آخرهم[1].

زاد ابن حبان في صحيحه بإسـناد صحيـح -بعد ذكر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قلت: ثم مَن؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبو عبيدة بن الجراح»[2].

قـال الحافظ في الفتـح: وهذا[3] يمكن أن يُفسِّـرَ بعضَ الرجال الذي أُبهِموا في حديث الباب[4].

وقـال الإمـام النووي: هـذا تصريح بعظيـم فضائل أبـي بكر وعمر وعائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفيـه دلالة بينة لأهل السـنة في تفضيل أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على جميع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٥٨) (٣٦٦٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٩٩٨).

(٣) يعني: ذِكْرَ أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٧٧).

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٢٥).



الفتح الأعظم؛ فَتحُ مكَّة شرَّفها الله

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: الجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا: فتح مكة[2].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾[3].

قال الحافظ ابن كثير: المراد بالفتح هاهنا: فتح مكة، قولًا واحدًا[4].

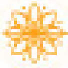


تاريخ الفتح الأعظم

غزا رسول الله ﷺ مكة في رمضان سنة ثمانٍ للهجرة بلا خلاف؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إنَّ رسول الله ﷺ غزا غزوةَ الفتح في رمضان[5].

---

(١) سورة الحديد - آية (١٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ١٢).
(٣) سورة النصر - آية (١).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٣).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٧٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١١٣) (٨٨).



وقال الحافظ في الفتح: والذي اتفق عليه أهل السِّيَر[1] أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج في عاشر رمضان، ودخل مكة لتسعَ عَشرةَ[2] ليلةً خَلَت منه[3].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٤٨) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣١٦) وغيرهما.

(٢) قلت: وقع اختلاف في تاريخ خروج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة، وتاريخ الفتح على النحو التالي:

* روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح - رقم الحديث (١١٨٢٦) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أمرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحيل عام الفتح في ليلتين خلتا من رمضان، فخرجنا صُوَّامًا.

* وروى الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١١٣) (٨٨) عن الزُّهري، قال: صَبَّح رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة لثلاثَ عشرة ليلةً خلت من رمضان.

* قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣١٤): وهذا -يعني قول أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يدفع التردد ويُعيِّن يوم الخروج، وقولُ الزُّهري يُعيِّن يوم الدخول، ويُعطي أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام في الطريق اثني عشر يومًا، وأما ما قال الواقدي: إنه خرج لعشرة خَلَون من رمضان، فليس بقويٍّ؛ لمخالفته ما هو أصح منه، وفي تعيين هذا التاريخ أقوال أخرى؛ منها:

* عند مسلم- رقم الحديث (١١١٦) (٩٣): لِستَّ عشرةَ.

* ولأحمد -في مسنده- رقم الحديث (١١٨٧٠): لثماني عشرة.

* وفي أخرى -في المسند- رقم الحديث (١١٤١٣): لثنتي عشرة.

والجمع بين هاتين بحمل إحداهما على ما مضى، والأخرى على ما بقي، والذي في المغازي: دخل لتسع عشرة مضت، وهو محمول على الاختلاف في أول الشهر، ووقع في أخرى -في المسند- رقم الحديث (١١٦٨٤) بالشك في تسع عشرة أو سبع عشرة، وروى يعقوب بن سفيان من رواية ابن إسحاق عن جماعة من مشايخه أن الفتح كان في عشر بقين من رمضان، فإن ثبت حُمِلَ على أن مراده أنه وقع في العشرة الأواسط، قبل أن تدخل العَشرة الأخيرة.

(٣) انظر: فتح الباري (٤/ ٦٩١).



سبب الفتح الأعظم

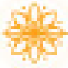
نَقْضُ قُرَيشٍ وبني بكر بندًا من بنود صلح الحُدَيبيَة؛ فقد روى ابن حبان في صحيحه بسند حسن عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: كانت خُزاعةُ حلفاءَ لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكانت بنو بكر -رهط من بني كنانة- حُلفاءَ لأبي سفيان، قال: وكانت بينهم موادعة أيام الحُدَيبيَة، فأغارت بنو بكر على خُزاعة في تلك المدة[1]، فبعثوا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يستمدونه؛ فخرج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ممدًّا لهم في شهر رمضان[2].

وروى ابن إسحاق في السِّيرة والبيهقي في دلائل النبوة بسند حسن عن مروان بن الحكم والمِسوَر بن مَخرَمةَ، قالا: كان في صُلح رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم الحُدَيبيَة بينه وبين قريش أنه مَن شاء يدخُلُ في عَقْد محمد وعَهْده دخل، ومَن شاء أن يدخُلَ في عَقْد قريش وعَهْدهم دخل، فتواثبت خُزاعةُ، فقالوا: نحن ندخل في عقد محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهُدنة نحو السبعة والثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر -الذين كانوا دخلوا في عَقد قريش وعهدهم- وثبوا على خزاعةَ -الذين دخلوا في عَقد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعهده- ليلًا بماءٍ لهم، يُقال له: الوتيرُ، قريبٌ

---

(١) يعني: مدة سريان صُلح الحُديبية.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٥٩٩٦).



من مكـة، فقالت قريشٌ: ما يعلم بنا محمد، وهـذا الليل، وما يرانا أحد، فأعانوهـم عليهم بالكُراع[1] والسِّـلاح، فقاتلوهم معهم؛ للضِّغْنِ[2] على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].



وصول الخبر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فلمـا تظاهـرت بنو بكـر وقريش علـى خزاعـةَ، وأصابـوا منهم ما أصابـوا، ونقضـوا ما كان بينهم وبين رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكان في عقده وعهده؛ خرج عمرو بن سـالم الخُزاعي حتى قدم على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وكان ذلك مما هاج فتحَ مكة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهرانَيِ الناس، فقال:

يَـا رَبِّ إِنِّـي نَـاشِـدٌ مُـحَـمَّـدَا ... حِـلْـفَ أَبِينَا وَأَبِـيـهِ الْأَتْـلَـدَا[4]

قَـدْ كُـنْـتُمْ وُلْـدًا وَكُـنَّـا وَالِـدَا[5] ... ثُـمَّـتَ أَسْلَمْنَا فَـلَـمْ نَـنْـزِعْ يَـدَا

---

(١) الكُراع -بضم الكاف-: اسم لجميع الخيل. انظر: النهاية (٤/ ١٤٣).

(٢) الضِّغْن: الحِقد والعداوة والبغضاء. انظر: النهاية (٣/ ٨٤).

(٣) أخرجه ابن إسـحاق في السـيرة (٤/ ٣٨) - والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٦) - وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ٣١١) وحسَّن إسناده.

(٤) الأتلدا: القديم. انظر: النهاية (١/ ١٨٩).

(٥) قال السُّـهيلي في الروض الأُنُـف (٤/ ١٤٦): يريد أن بني عبد منـاف أُمُّهم من خزاعة، وكذلك قُصَيٌّ، أمُّه فاطمة بنت سعد الخزاعية، والوُلْدُ بمعنى: الوَلَد.



فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا[١] وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نُصِرْتَ يا عمرُو بنَ سالم!»[٢].

ثم أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قريش بأن يتبرؤوا من بني بكر، أو يَدُوا[٣] قتلى خزاعة، أو يَأْذَنهم بحرب؛ فقد روى مُسَدَّد في مسنده بسند مرسل صحيح عن محمد بن عَبَّاد بن جعفر، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قريش: أمَّا بعدُ؛ فإنكم إن تَبْرؤوا من حِلف بني بكر، أو تَدُوا خزاعة، وإلا أُوذِنكم بحرب، فقال قُرظةُ بن عبدِ عمرِو بن نوفَل بن عبد مَنافٍ؛ صهرُ معاوية: إنَّ بني بكر قوم مشائيم، فلا نَدِي ما قَتَلوا؛ لا يبقى لنا سَبَد ولا لَبَد[٤]، ولا نبرأُ من حِلْفِهم؛ فلم يبقَ على ديننا أحد غيرهم، ولكنَّا نؤذِنُه بحربٍ[٥].

(١) أعتدا: أي: حاضِرًا. انظر: لسان العرب (٩/ ٣١).
(٢) أخرج ذلك ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٤٢) - والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٦ - ٧)- وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ٣١١) وحسن إسناده.
(٣) أي: يدفعوا دِيَةَ القتلى من خُزاعة.
(٤) أي: لا قليل ولا كثير.
(٥) ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٣١٧) - وفي المطالب العالية - رقم الحديث (٤٣٠٠)، وعزاه لمسَدَّد في مسنده، وقال: هذا مرسلٌ صحيح الإسناد.



تهيُّؤ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغزو مكة وكتمانه الأمر

شرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجَهَاز[1] بغزو مكة -شرَّفها الله-، وسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعَمِّيَ على قريش الأخبار؛ فاستجاب له ربه عَزَّوَجَلَّ، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالجَهازِ، ولم يذكر لهم الجهةَ التي يريدها، إلا لكبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأرسل إلى القبائل أن يتجهزوا معه؛ فاجتمع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة آلاف مقاتل، كما سيأتي.



كتاب حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل مكة

وكتب حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتابًا إلى أهل مكة يُعلِمُهم فيه بما هَمَّ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العزم على قتالهم؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا والزُّبير والمِقداد[2]، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةَ

---

(١) تجهيز الغازي: إعداد ما يحتاج إليه في غَزْوِهِ. انظر: النهاية (١/ ٣١٠).

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٩٨٣): أبو مَرثَد الغَنَوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدل المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣١٢): يُحتمل أن يكون الثلاثة كانوا معه؛ فذكر أحد الراويين عنه ما لم يذكره الآخر، ولم يذكر ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٤٧) مع علي والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أحدًا، وساق الخبر بالتثنية، قال: فخرجا حتى أدركاها فاستنزلاها... إلخ، فالذي يظهر أنه كان مع كل منهما آخرُ تبعًا له.



خاخٍ[1]؛ فإنَّ بها ظعينةً[2] معها كتاب[3]، فخذوا منها»، قال: فانطلقنا تَعادى بنا خيلُنا حتى أتينا الروضةَ، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أَخرجي الكتابَ، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُلقِيَنَّ[4] الثيابَ، قال: فأخرجَتْه من عِقاصِها[5]، فأتينا به[6] رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا فيه: من

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ٤٦): روضة خاخ: هي بخاءين معجمتين، هذا هو الصواب الذي قاله العلماء كافةً في جميع الطوائف، وفي جميع الروايات والكتب، ووقع في البخاري - رقم الحديث (٦٩٣٩) من رواية أبي عَوانة: حاج: بحاءَ مهملة والجيم، واتفق العلماء على أنه من غلط أبي عَوانة، وإنما اشتبه عليه بذات حاج: بالمهملة والجيم، وهي موضع بين المدينة والشام على طريق الحجيج، وأما روضة خاخ فبين مكَّةَ والمدينة بقرب المدينة.

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٦١): الظعينة في الأصل: المرأة ما دامت في الهودَج، ثم جُعِلَت المرأة إذا سافرت ظعينةً، ثم نُقِلَ إلى المرأة نفسها، سافرت أو أقامت، وظَعَنَ يَظعَن: إذا سافر.

(٣) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٢٥٩) (٦٩٣٩): صحيفة.

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٠٨١) (٦٩٣٩): لَأُجرِّدَنَّك.
قال الحافظ في الفتح (١٤/ ٣١٦): أي: أنزع ثيابك حتى تصيري عريانة.

(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٦١): العِقاص: جمع عَقْصَة أو عقيصة، وهي الضفيرة من الشَّعْر إذا لُوِيَت وجُعِلَت مثل الرمَّانة، أو لم تُلْوَ، والمعنى: أخرَجَت الكتابَ من ضفائِرِها المعقوصة.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٠٨١): حُجزتها.
قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٠٩): الحُجْزَةُ -بضم المهملة، وسكون الجيم، بعدها زاي-: مَعقِد الإزار والسراويل، والجمع بينهما بأن تكون عقيصتها طويلة بحيث تصل إلى حُجْزَتها، فربطته في عقيصتها وغرزته بحُجزتها.

(٦) أي: الكتاب.
وفي لفظ آخر في صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٩٣٩): فأتَوا بها.
قال الحافظ في الفتح (١٤/ ٣١٧): أي: الصحيفة.



حاطـب بن أبي بلتعة إلـى ناس بمكة من المشـركين يخبرهم ببعض أمر رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يـا حاطب ما هذا؟!» قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسـول الله، لا تعجَلْ عليَّ؛ إني كُنتُ امرأً مُلصَقًا في قريـش -يقول: كنـتُ حليفًا ولـم أكن مـن أنفُسِـها- وكان مَن معك مـن المهاجرين مَن لهم بهـا قرابات يحمون أهليهـم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتنـي ذلك من النسـب فيهم أن أتخذَ عندهم يـدًا يحمون قرابتي، ولم أفعلـه ارتـدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسـلام، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمَـا إنه قـد صدَقَكم»، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسـول الله دعنـي أضرب عنق هـذا المنافق! فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه قد شـهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطَّلع على مَن شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم؟!»[(١)]، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٢٦): أي: ذنوبكم تقع مغفورة، لا أن المراد أنه لا يصدر منهم ذنب، وقد شـهد مِسطَح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدرًا، ووقع في حق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكأن الله لكرامتهم عليه بَشَّرهم على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم مغفور لهم ولو وقع منهم ما وقع.

* وقـال الإمام ابن القيم في زاد المعـاد (٣/ ٥١٨): وفيها: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشـرك قد تُكفَّر بالحسـنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجَسُّ من حاطب مكفَّرًا بشهوده بدرًا؛ فإن ما اشـتملت عليه هذه الحسـنة العظيمة من المصلحة، وتضمَّنته من محبة الله لهـا ورضاه بها، وفرحه بها ومباهاته لملائكته بفاعلها: أعظم مما اشـتملت عليه سـيئة الجَسِّ من المفسـدة، وتضمَّنته من بغـض الله لها؛ فغَلَبَ الأقوى على الأضعف، فأزال وأبطل مقتضاه.

إلى قوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: فأطلع الله رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك؛ استجابة لدعائه[(٢)].



خروج النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة وإفطاره

اختلف الرواة في ضبط اليوم الذي خرج فيه رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة -كما تقدم- والذي اتفق عليه أهل السِّيَر أنه خرج لعشر مضين من رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه.

قال الإمام النووي: المشهور في كتب المغازي أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج في غزوة الفتح من المدينة لعشر خلون من رمضان، ودخلها لتسع عشرة خلت منه[(٣)].

خرج رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة النَّبَوية ومعه عشرة آلاف

---

(١) سورة الممتحنة - الآية رقم (١)
قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٣٩٨): السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار.
والحديث أخرجه: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٧٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٩٤) (١٦١).

(٢) وذلك عندما دعا رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى يبغتها. وانظر: كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٨٢).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٠١).



مقاتل، واستخلف رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة أبا رُهْم[١] كلثومَ بن الحُصين الغِفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصام ذلك اليوم، وصام الناس معه، حتى إذا بلغ الكَدِيد[٢] -وهو ماء بين عُسفان وقُديد- أفطر وأفطر الناسُ معه.

روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك وابن إسحاق في السِّيرة بسند حسن -واللفظ للحاكم- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عام الفتح[٣] حتى نزل مَرَّ الظَّهران في عشرة آلاف من المسلمين، فسَبَّعت[٤] سُليم، وأَلَّفت[٥] مُزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب[٦] مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وقد عُمِّيتَ الأخبار على قريش، فلا يأتيهم خبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يدرون ما هو صانع[٧].

---

(١) أبا رُهْم: هو بضم الراء وسكون الهاء.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٧/ ١٩٨): الكَديد -بفتح الكاف، وكسر الدال المهملة-: هي عين جارية، بينها وبين المدينة سبع مراحل أو نحوها.

(٣) زاد ابن إسحاق: واستخلف على المدينة أبا رُهْم؛ كلثوم بن حصين الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) يعني: بلغت السبعمائة.

(٥) يعني: بلغت الألف.

(٦) أوعب القوم: إذا خرجوا كلهم إلى الغزو. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٤٠).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٩٢) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٤٠٧)- وابن إسحاق في السيرة (٤/ ٤٨) - وأورد طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٣٤١) وختم قوله: وبالجملة؛ فالحديث صحيح بهذه الطرق والشواهد، وهو أصح وأتم ما وقفتُ عليه مسندًا في قصة فتح مكة حرسها الله.



وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خرج في رمضان من المدينة، ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمانِ سنين ونصف[١] من مَقْدَمِه المدينة، فسار هو ومَن معه من المسلمين إلى مكة، يصوم ويصومون حتى بلغ الكَدِيد -وهو ماء بين عُسْفانَ[٢] وقُدَيدٍ[٣]- أفطر وأفطروا[٤].

وروى الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود في سُننه -واللفظ لأبي داود- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في رمضان عام الفتح، فكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصوم ونصوم، حتى بلغ منزلًا من المنازل، فقال: «إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم»، فأصبحنا منا الصائم ومنا المفطِر، ثم سِرْنا فنزلنا

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣١٥): هكذا وقع في رواية مَعمَر، وهو وَهْم، والصواب على رأس سبع سنين ونصف، وإنما وقع الوهم من كون غزوة الفتح كانت في سنة ثمانٍ، ومن أثناء ربيع الأول إلى أثناء رمضان نصف سنة سواء؛ فالتحرير أنها سبع سنين ونصف.

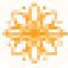
(٢) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٤٤٣): عُسْفَان -بعين مضمومة ثم سين ساكنة مهملتين-: قرية جامعة، وهي بين مكة والمدينة على نحو مرحلتين من مكة.

(٣) قُدَيد: مصغرًا، وهو موضع بين مكة والمدينة. انظر: النهاية (٤/ ٢٠).

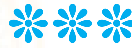
* قلت: اختلفت الروايات في الموضع الذي أفطر فيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وجمع بين ذلك القاضي عياض فيما نقله عنه الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٧/ ١٩٩) قال: وهذا كله في سفر واحد في غزوة الفتح، وسُميت هذه المواضع في هذه الأحاديث لتقاربها، وإن كانت عُسْفَان متباعدةً شيئًا عن هذه المواضع، لكنها كلها مضافة إليها ومن عملها؛ فاشتمل اسم عُسْفَان عليها.

* قال الإمام النووي معلقًا عليه: هذا كلام القاضي، وهو كما قال.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٧٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١١٣) (٨٨).



منزلًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم تُصبِّحون عدوكم والفطر أقوى لكم؛ فأفطروا»، فكانت عزيمةً من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].



إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية

أكمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقه إلى مكة، فلما وصل إلى نِيقِ العُقاب -بين مكة والمدينة- لقيه ابن عمه وأخوه من الرضاعة: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب، وابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، وأخو أم سلمة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبيها: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة؛ مُسلمين؛ فقد روى الحاكم في مستدركه وابن إسحاق في السِّيرة بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة؛ قد لقيا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنِيقِ العُقَاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصِهرك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهَتَك عِرْضي[2]، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي

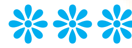
---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٢٠) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (٦٤٠٦).

(٢) قال الحاكم في مستدركه (٥/ ٣٣٥): أبو سفيان بن الحارث أخو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة؛ أرضعتهما حليمة، وابن عمه، ثم عامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعاملات قبيحة، وهجاه غير مرة، حتى أجابه حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقصيدته التي يقول فيها:

هجوتَ محمدًا وأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

بمكة ما قال»[١]، قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُنيٌّ لـه، فقال: والله لَيأذَنَنَّ لي أو لآخذُنَّ بيدي بُنيَّ هذا، ثم لنذهَبَنَّ في الأرض حتى نموتَ عَطَشًـا وجوعًا! فلما بلغ ذلك رسـولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقَّ لهما، ثم أذِن لهما، فدخلا عليه فأسلما[٢].



هجرة العباس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعياله

ولمـا بلـغ رسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجُحفةَ لقيـه عمُّـه العبـاس بـن عبد المطلـب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مهاجـرًا بعياله[٣]، وهـو آخِرُ مَـن هاجر إلى المدينـة؛ لأن بعده تم فتح مكة، ولا هجرة بعد الفتح، كما قال المعصوم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

قـال الإمـام الذهبي: لـم يـزل العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مُشـفقًا علـى النبي

---

(١) قال -كما في سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٥)-: والله لا أُؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيَها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أُصدِّقُك!

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٤٠٧) - وابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٣٥) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٣٤١) وصححه.

(٣) أخرج هجرة العباس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعياله، ولقاءه بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطريق: ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٤٨) بإسناد حسن - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٣٤١) وصححه.

(٤) أخرج حديث: «لا هجرة بعد الفتح»: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٨٣) (٢٨٢٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٣) واللفظ للبخاري.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، محبًّا له، صابـرًا على الأذى، ولَمَّا يُسلِمْ بعدُ، بحيث إنه ليلـةَ العقبة عَرَف، وقام مع ابن أخيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الليل، وتوثَّق له من السبعين، ثم خرج إلى بـدر مع قومه مُكرَهًا، فأُسِـرَ، فأبدى لهم أنه كان أسلم، ثم رجع إلى مكة، فما أدري لماذا أقام بها، ثم لا ذِكْرَ له يوم أُحُد، ولا يـوم الخندق، ولا خرج مع أبي سـفيان، ولا قالـت له قريش في ذلك شـيئًا -فيما علمتُ- ثـم جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهاجـرًا قُبيل فتح مكة، فلم يتحرر لنا قدومُه(١).



تحسُّس(٢) قريش الأخبار وإسلام أبي سفيان

وانقطعت أخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قريش، وقد عَمَّى الله عليهم الخبر، فخرج في تلك الليلة -التي نزل فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجيشه مَرَّ الظهران- أبو سفيان بن حرب سيد مكة، وحكيم بن حِزام، وبُديل بن ورقـاء الخُزاعي، يتحسسـون الأخبار؛ فقد روى إسـحاق بن راهويه في مسنده، وابن إسحاق في السِّيرة؛ بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال العباس بن عبد المطلب لما رأى جيش النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: واصَباحَ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٩٦).

(٢) التحَسُّس: طلب معرفة الأخبار. انظر: النهاية (١/ ٢٦٣).
ومنه قوله تعالى في سورة يوسف - آية (٨٧): ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.



قُرَيشٍ، والله لئن دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عَنوةً ليكونَنَّ هلاكُهم إلى آخر الدهر، فركبتُ بغلةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيضاء حتى جئت الأراك[١]؛ رجاءَ أن ألتمس بعض الحطَّابة، أو صاحِبَ لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيخرجوا إليه، فوالله إني لأسير ألتمس ما جئت له، إذ سمعتُ كلام أبي سفيان وبُدَيل بن ورقاء، وهما يتراجعان، فقال أبو سفيان: والله ما رأيتُ كالليلة نيرانًا ولا عسكرًا! فقال بُديل: هذه -واللهِ- خزاعةُ، قد خمشَتْها[٢] الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعةُ -واللهِ- أقلُّ وأذل من أن تكون هذه نيرانها! فعرف العباس صوت أبي سفيان، فقال: يا أبا حنظلة[٣] فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل[٤]؟

قلت: نعم، قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي! قلت: هذا -والله- رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس، واصباحَ قُرَيشٍ! قال: فما الحيلة، فداك أبي وأمي؟! قلت: والله لئن ظفر بك ليضربَنَّ عنقك، فاركب عَجُزَ[٥] هذه البغلة، فركب ورجع صاحباه[٦]، فخرجت به، فكلما مررتُ بنار من نيران المسلمين، قالوا: ما هذا؟

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٣): الأراك -هو بفتح الهمزة-: وهو شجر معروف من الحَمْض.
(٢) خمشَتْها: ألهبَتْها. انظر: لسان العرب (٣/ ٣٢٥).
(٣) هي كنية أبي سفيان بن حرب سيد مكة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) هي كنية العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٥) العَجُز: مؤخر الشيء. انظر: النهاية (٣/ ١٦٨).
(٦) هما: بُدَيل بن ورقاء، وحكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



فـإذا رأوا بغلة رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: هذه بغلة رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهـا عمـه، حتى مـررتُ بنار عمـر بن الخطـاب، فقال: مَن هـذا؟ وقام إلـيَّ، فلما رآه[1] على عَجُزِ البغلة عرفه، فقـال: والله[2] عَـدُو الله، الحمـد لله الـذي أمكن منك، فخرج يشـتدُّ[3] نحو رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودفعتُ البغلة[4] فسبقته بقَدْرِ ما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطـيء، فاقتحمتُ[5] عن البغلة، فدخلت على رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل عمر، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا عدو الله أبو سـفيان قد أمكن الله منه في غيـر عقـد ولا عهد، فدعني أضـرب عنقه، فقلت: قد أجَرْتُه يا رسـول الله، ثم جلسـتُ إلـى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذتُ برأسـه، فقلت: والله لا يُناجيه الليلةَ رجل دوني، فلما أكثر عمر، قلت: مهلًا يا عمر، فوالله لو كان رجـلًا من بني عَدي[6] ما قلتَ هذا، ولكنه مـن بني عبد مَنافٍ! فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مهلًا يا عباس، لا تقل هذا، فوالله لإسـلامُك حين أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلام أبي الخطَّابِ لو أسلم؛ وذلك أني عرفت أن إسلامك

(١) رأى أبا سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) في رواية ابن إسحاق: أبو سفيان.

(٣) يعني عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) وهـذا من فطنة العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأنه قد يأذن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر بقتل أبي سـفيان قبل أن يُجيره العباس كما سيأتي.

(٥) أي: رمى بنفسه عن البغلة. انظر: لسان العرب (١١/ ٤٨).

(٦) بني عَدي: هم قوم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



أحب إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إسـلام الخطَّابِ! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يـا عبـاس، اذهب به[1] إلـى رَحْلِك، فإذا أصبحـت فأْتِنا بـه»، قـال: فذهبت بـه، فلما أصبحتُ غـدوتُ به[2]، فلما رآه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «يا أبا سـفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنْ لا إله إلا الله؟» فقـال: بأبي وأمي، ما أحلَمَك! وما أكرَمَك وأوصَلَك وأعظَمَ عَفْوَك! لقد كاد أن يقع في نفسـي أنْ لو كان إلهٌ غيره لقد أغنى شـيئًا بعدُ، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ويحك يا أبا سـفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسـول الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك وأعظم عَفْـوَك! أما هذه فإنَّ في النفس منها حتى الآن شـيئًا! فقال العباس: ويلَكَ أسـلِمْ، واشـهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسـول الله قبـل أن يُضرَب عنقك، فشهد أن لا إله الا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقال العباس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسـول الله، إن أبا سفيان رجل يُحب الفخر، فاجعل له شـيئًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق بابه فهو آمن».

ثـم انصـرف أبو سـفيان ليُخبـر أهل مكة مـا رأى، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «احبِسْه[3] بمَضيقٍ من الوادي عند حَطْمِ

(١) أي: بأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أي: بأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أي: أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الخَيـلِ[(١)]؛ حتـى تمر بـه جنود الله»، فحبسـه العباس حيث أمره رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمـرت القبائـل علـى راياتها، فكلما مـرت راية، قال أبو سـفيان: مَن هذه؟ فأقول: بني سُـليم، فيقول: ما لي ولبني سُليم؟ ثم تمر أخـرى، فيقول: مَن هؤلاء؟ فأقول: مُزَينة، فيقـول: ما لي ولـمُزَينة؟ فلم يزل يقول ذلك حتى مرت كتيبة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخضراء، فيهـا المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهـم إلا الحَدَق[(٢)]، فقال: مَن هذا؟ فقلت: هذا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجريـن والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قِبَـل، والله لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم لعظيم، فقلت: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذًا[(٣)].

(١) هكذا وقع في رواية إسحاق بن راهويه في مسنده - وهي رواية الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨٠) - ووقع في سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢): "خَطْم الجبل".
* قـال الإمام ابن الأثير في جامع الأصـول (٨/ ٣٦٥): "خَطْم الجبل": هذه اللفظة قد جاءت في كتاب الحُميدي: خَطْم الجبل، وفسـرها في غريبـه، فقال: الخَطْم والخُطْمة: رَعْـن الجبل، وهو الأنف النادر منه، والذي جاء في كتـاب البخاري -فيما قرأناه- وفي غيـره من النسـخ: حَطْم الخيل: مضبوطـًا هكذا، وذلك بخلاف روايـة الحُمَيدي، فإن صحـت الروايـة ولم تكن خطأ من الكُتَّـاب، فيكون معناه -والله أعلـم- أنه يقف به في الموضع المتضايق الذي تتحطَّم فيه الخيل، أي: يدوس بعضها بعضًا، ويحطِمُ بعضها بعضًـا، فيراها جميعًا، وتكثُـر في عينه، بكونها في ذلك الموضـع الضيق، بخلاف ما إذا كانت في موضع مُتَّسع، وكذلك أراد بوقوفه عند خطم الجبل على ما شرحه الحُميدي؛ فإن الأنف النادر من الجبل يضيق الموضع الذي يخرج فيه، والله أعلم.

(٢) الحَدَق: جمع حَدَقة، وهي العَين. انظر: النهاية (١/ ٣٤١).

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده -كما في المطالب العالية- رقم الحديث (٤٣٠١) -وابن إسحاق في السيرة (٤/ ٥٠-٥٢)- قال الحافظ في المطالب العالية (١٧/ ٤٦٢-٤٦٣):=



وفي صحيـح البخاري عن عروة بن الزبير، قال: حتى أقبلَت كتيبةٌ لم يُـرَ مثلُها، قـال: مَن هذه؟ فقال العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هـؤلاء الأنصار عليهم سـعد بن عبادة معه الراية[١]، فقال سـعد بن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا أبا سفيان، اليـوم يوم الملحمة[٢]، اليوم تُسـتحَلُّ الكعبة، فقال أبو سـفيان: يا عباس حَبَّذا يومُ الذِّمار[٣]، ثم جاءت كتيبة -هي أقل الكتائب[٤]- فيهم رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابـه[٥]، ورايـة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مـع الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فلما مَرَّ رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأبي سـفيان، قال: ألم تعلم ما قال سـعد بن عبادة؟ فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما قال؟». قـال: كذا وكذا، فقال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كذب[٦] سـعد، ولكن هذا يوم يُعَظِّمُ الله فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة»[٧].

= هـذا حديث صحيح، ولم يَسُـقْه أحد من الأئمة السـتة وأحمد بتمامه ... والسـياق الذي هنا حسن جدًّا - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٣٤١) وصححه.

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٠): أي: راية الأنصار.

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٦٦): الملحمة: الحرب والقتال الذي لا مخلص منه.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٠): الذِّمار -بكسر المعجمة وتخفيف الميم- أي: الهلاك.

(٤) قال الحافظ في الفتـح (٨/ ٣٢١): أي: أقلها عددًا، قال القاضي: وقع للجميع بالقاف، ووقع في الجمع للحُميدي: أجَلُّ، بالجيم، وهي أظهر، ولا يبعد صحة الأولى؛ لأن عدد المهاجرين كان أقل من عدد غيرهم من القبائل.

(٥) أي: المهاجرين.

(٦) كذب: أي: أخطأ. انظر: النهاية (٤/ ١٣٨).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨٠).



رجوع أبي سفيان لمكة وأمرُهم بالاستسلام

فلما رأى أبو سفيان قوة المسلمين، علم أنه لا طاقة له بقتالهم، فانطلق إلى مكة، ونصحهم بالاستسلام؛ فقد روى إسحاق بن راهويه في مسنده وابن إسحاق في السِّيرة بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال العباس لأبي سفيان: النَّجاءَ[1] إلى قومك، فخرج حتى أتاهم بمكة، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد أتاكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحَمِيتَ[2] الدَّسم[3] الأحمَس[4]، قُبِّحَ مِن طليعة قوم! فقال: ويلكم! لا تغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تُغني عنا دارك؟! قال: ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[5].

---

(١) النجاء: السرعة. انظر: النهاية (٥/ ٢١).

(٢) الحَمِيت: الزِّق الذي يكون فيه السمن. انظر: النهاية (١/ ٤١٩).

(٣) الدسم: الأسود الدنيء. انظر: النهاية (٢/ ١١٠).

(٤) قال السُّهيلي في الروض الأنف (٤/ ١٥٨): الأحمس: الذي لا خير عنده.

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده -كما في المطالب العالية- رقم الحديث (٤٣٠١)، وابن إسحاق في السيرة (٤/ ٥٣) - وصححه الحافظ - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٣٤١) وصححه.



توزيع النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه لدخول مكة

أمر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يركز رايته بالحَجون[(١)]، وأمر خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدخل من أعلى مكة من كَداء[(٢)]، ودخل النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن كُدًا[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على إحدى المُجَنِّبتينِ[(٤)]، وبعث خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المُجَنِّبة الأخرى[(٥)]، وبعث أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الحُسَّر[(٦)]،

---

(١) الحَجون -بفتح الحاء-: الجبل المشرف مما يلي شِعب الجزارين بمكة. انظر: النهاية (١/ ٣٣٥).

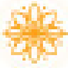
(٢) كَداء -بفتح الكاف-: هي الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر. انظر: النهاية (٤/ ١٣٦).

(٣) كُدًا: بالضم والقَصْر: الثنية السُّفلى مما يلي باب العُمرة. انظر: النهاية (٤/ ١٣٦).
وأخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨٠).

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٧): المُجَنِّبتين -هي بضم الميم، وفتح الجيم، وكسر النون- وهما الميمنة والميسرة.
وفي رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٨٠) (٨٦): وجعل الزبير على المجنِّبة اليُسرى.

(٥) في رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٨٠) (٨٦): فجعل خالد بن الوليد على المجنِّبة اليُمنى.

(٦) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٧): الحُسَّر -هو بضم الحاء وتشديد السين المهملتين- أي: الذين لا دروع عليهم.
وفي رواية أخرى في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٨٠) (٨٦): وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي.
البَيَاذِقة -هو بفتح الباء والياء، وكسر الذال- هم الرَّجَّالة، واللفظة فارسية مُعرَّبة، وقيل: سُمُّوا بذلك لخفة حركتهم، وأنهم ليس معهم ما يُثقِلُهم. انظر: النهاية (١/ ١٦٨).



فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتيبته[1].

وعَهِد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة: أن لا يُقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عَهِدَ في نفر سَمَّاهم أمر بقتلهم وإن وُجدُوا تحت أستار الكعبة؛ فقد روى أبو داود في سُننه والحاكم في مستدركه بسند حسن -واللفظ للحاكم- عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال: لما كان يوم فتح مكة أَمَّنَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»؛ عِكْرِمة بن أبي جهل[2]، وعبد الله بن خَطَل[3]، ....

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٠) (٨٤).

(٢) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٧٣): كان أبو جهل وابنه عكرمة من أشد الناس عداوة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَتَلَ أبا جهل يوم بدر كافرًا، وبقي عكرمة، ثم هداه الله تعالى، فأسلم عكرمة بعد الفتح بقليل.
* وروى الإمام الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (١٥٠٦) بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وأما عكرمة بن أبي جهل فركب البحر، فأصابهم ريح عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا؛ فإن آلهتكم لا تُغني عنكم شيئًا هاهنا، وقال عكرمة: والله لئن يُنجيني في البحر إلا الإخلاص، لا يُنجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا إن أنجيتني مما أنا فيه، أني آتي محمدًا، فأضع يدي في يده، فلأجِدَنَّه عفوًّا كريمًا، فنجا، فأسلم.

(٣) روى الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٨٤٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٧) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عام الفتح وعلى رأسه المِغفَر، فلما نزعه جاء رجل، فقال: إن ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقتلوه».
قال أبو داود في سُننه (٤/ ٣٢٢): ابن خَطَلٍ: اسمه عبد الله، وكان أبو بَرزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتله. =



ومِقْيَس بن صُبابة[١]، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح[٢].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند حسن –واللفظ لأحمد– عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم الفتح، قال رجل لا يُعرف: لا قريشَ بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمِنَ الأسودُ والأبيض إلا فلانًا وفلانًا؛ ناسًا سماهم»[٣].

= وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١١٢): قال العلماء: إنما قتله؛ لأنه كان قد ارتد عن الإسلام، وقتَل مسلمًا كان يخدمُه، وكان يهجو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسبُّه، وكانت له قَينتان تُغنِّيان بهجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين.

وقال الإمام البغوي في شرح السنة (٧/ ٣٠٥): وفي أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل ابن خَطَل دليل على أن الحرم لا يَعصِمُ من إقامة عقوبة وجَبت على إنسان، ولا يُوجِب تأخيرها.

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٧٤): صُبابة: بضم الصاد المهملة.

روى الإمام النسائي في السنن الكبرى – رقم الحديث (٣٥١٦) – والطحاوي في شرح مشكل الآثار – رقم الحديث (١٥٠٦) بسند حسن عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وأما مِقيَس بن صُبابة، فأدركه الناس في السوق فقتلوه.

وقال ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٥٩): وأما مِقْيَس بن صُبابة فقتله نُميلة بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) روى أبو داود في سُننه – رقم الحديث (٢٦٨٣) – والطحاوي في شرح مشكل الآثار – رقم الحديث (١٥٠٦) (٤٥٢١) بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وأما ابن أبي سَرْح، فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلى البَيعة جاء به حتى أوقفه على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا نبي الله، بايعْ عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى عليه، فبايَعه بعد ثلاث.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده – رقم الحديث (٢١٢٢٩) – والترمذي في جامعه – رقم الحديث (٣٣٩٥).



دخول كتائب الإسلام مكة

دخلت كتائب المسلمين كما أمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد وَبَّشت[1] قريشٌ أوباشًا ليقفوا في وجه المسلمين، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصار بقتلهم؛ فقد روى الإمام مسلم والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وَبَّشت قريش أوباشها، فقالوا: نُقدِّم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أُصيبوا أَعْطَينا الذي سُئِلنا، قال: فنظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآني، فقال: «يا أبا هريرة»، فقلت: لبيك رسول الله، قال: «اهتف لي بالأنصار، ولا يأتيني إلا أنصاري»، فهتفت بهم، فجاؤوا فأطافوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم -ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى- احصُدوهم حَصْدًا، حتى توافوني بالصَّفا».

قال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء أحد مِنَّا أن يَقتُل منهم ما شاء، وما أحدٌ يُوَجِّه إلينا منهم شيئًا[2]، فقال أبو سفيان: يا رسول الله أُبيحَت[3]

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٨): وَبَّشت: أي: جمعت جموعًا من قبائلَ شتى، وهو بالباء الموحَّدة المشدَّدة، والشين المعجمة.

(٢) في رواية الإمام مسلم: فما أشرف يومئذ أحد إلا أناموه.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٨): أي ما ظهر لهم أحد إلا قتلوه فوقع إلى الأرض.

(٣) في رواية أخرى في صحيح مسلم: أُبيدت.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٨): وهما متقاربان: أي: استؤصِلَت قريش بالقتل وأُفنِيَت.



خضـراء(١) قريش، لا قريـش بعد اليوم، فقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «مَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فَغَلَّق الناس أبوابهم(٢).



دخول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مكة شرفها الله

ودخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مكة شرفها الله من كَدَاء(٣) التي بأعلى مكة - وكان يومًا عظيمًا مشهودًا- وبين يديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أصحابه من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وهو راكب ناقته وعلى رأسه المِغْفَر(٤)، ورأسُه يكاد يمَسُّ مُقَدِّمةَ الرَّحْلِ؛ من تواضعه لربه عَزَّوَجَلَّ، وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّع بها صوته، فطاف بالبيت طوافَ قدوم، ولم يَسْعَ، ولم يكُنْ معتمرًا.

روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، قالت: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ دخل عام الفتح من كَدَاء؛ أعلى مكة(٥).

---

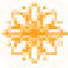
(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٨): خضراؤهم: جماعتهم.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٠) (٨٤) (٨٦) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٠٩٤٨).

(٣) قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (٩/ ٥): قال جمهـور العلماء بهذا الفن: كَدَاء -بفتح الكاف وبالمد-: هي الثَّنِيَّة التي بأعلى مكة.

(٤) المِغفَر: هو ما يلبسه الدارع على رأسه. انظر: النهاية (٣/ ٣٣٦).

(٥) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٧٩) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٨) (٢٢٥).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المِغفَر[(١)].

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء[(٢)].

قال القاضي عياض: وجه الجمع بينهما أن أول دخوله كان على رأسه المِغفَر، ثم بعد ذلك كان على رأسه العمامة بعد إزالة المِغفَر، بدليل قوله: خطب الناسَ[(٣)] وعليه عمامة سوداء؛ لأن الخُطبة إنما كانت عند باب الكعبة بعد تمام فتح مكة[(٤)].

وروى الحاكم في المستدرَك بسند ضعيف -وله شاهد يتقوى به- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة يوم الفتح وذَقَنُه على رَحْلِه متخَشِّعًا[(٥)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مُغَفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٨).

(٣) ستأتي خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل مكة بعد قليل.

(٤) نقله الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١١١) عن القاضي عياض.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٤١٣) - ويشهد له مُرسَل عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عند ابن إسحاق (٤/ ٥٣) - وأورده الإمام الذهبي في السيرة النبوية (٢/ ١٧٦) وقال: حديث صحيح.



رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرجِّعُ[(١)].



تطهير البيت من الأصنام

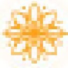
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أقبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أقبل على الحَجَر، فاستلَمَه، ثم طاف بالبيت، فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، وفي يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوسٌ، وهو آخذ بسِيَةِ[(٢)] القوس، فلما أتى على الصنم جعل يَطعُنُه في عينه، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه، حتى نظر إلى البيت، ورفع يديه فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو[(٣)].

قال الإمام النووي: وفي الحديث الابتداء بالطواف في أول دخول مكة، سواء كان محرِمًا بحج أو عمرة، أو غير مُحرِم، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخلها في هذا اليوم -وهو يوم الفتح- غيرَ محرِم بإجماع المسلمين،

(١) الترجيع: ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان. انظر: النهاية (٢/ ١٨٥).
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٧٩٤) (٢٣٨).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١١١): السِّيَة -بكسر السين، وتخفيف الياء المفتوحة- المنعَطِف من طرَفَي القوس.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٠) (٨٤).



وكان على رأسه المِغفَر، والأحاديث متظاهرة على ذلك، والإجماع منعقد عليه(١).

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: دخل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة(٢) نُصُبٍ(٣)، فجعل يَطعُنُها بعُود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾(٤).



دخول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة وتطهيرها من الصُّوَر

ودعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فدخل البيت، وأمر بمحو الصُّوَر فيه، وأَذَّن بلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومئذ على ظهر الكعبة، ثم ردَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المفتاح لعثمان بن طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأقرَّهم على السِّدانة(٥).

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٠).
(٢) في رواية أخرى في الصحيح: ثلاثمائة وستون.
(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٣٠): النُّصُب -بضم النون والمهملة وقد تُسكَّن، بعدها موحَّدة- هي واحدة الأنصاب، وهو ما يُنصَب للعبادة من دون الله تعالى.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٧٨) (٤٢٨٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨١).
(٥) السِّدانة: هي خدمتها وتولِّي أمرِها، وفتح بابها وإغلاقه، والجمع سَدَنة. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٠).

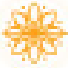


روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: أقبل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عام الفتح، وهو مُردِف أسامة على القصواء، ومعه بلال وعثمان بن طلحة، حتى أناخ[(١)] عند البيت، ثم قال لعثمان: «ائتنا بالمفتاح»، فجاء بالمفتاح، ففتح له الباب، فدخل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأسامة وبلال وعثمان[(٢)]، ثم أغلقوا عليهم الباب[(٣)] فمكث نهارًا طويلًا، ثم خرج وابتدر[(٤)] الناس الدخول، فسبَقْتُهم، فوجدتُ بلالًا قائمًا من وراء الباب، فقلت له: أين صلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ فقال: صلى بين ذَيْنِكَ العمودين المقدَّمين، وكان البيت على ستة أعمدةٍ سطرينِ، صلى بين العمودين من السطر المقدَّم، وجعل باب البيت خلف ظهره، واستقبل بوجهه الذي يستقبلك حين تلج[(٥)] البيت بينه وبين الجدار، قال: ونسيتُ أن اسأله كم صلَّى؟[(٦)]

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: أقبل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عام الفتح، على ناقةٍ لأسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا،

---

(١) أناخ الإبل: أبركها فبركت. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٢١).
(٢) زاد الإمام أحمد في مسنده في رواية أخرى - رقم الحديث (٤٤٦٤): الفضل بن عباس. قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٦٧): لم يثبت أن الفضل كان معهم إلا في رواية شاذة.
(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٧٢): إنما أغلقها عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ليكون أسكَنَ لقلبه، وأجمَعَ لخشوعه، ولئلا يجتمع الناس ويدخلوا ويزدحموا فينالهم ضرر، ويتهوش عليه الحال بسبب لغطهم. والله أعلم.
(٤) تبادر القوم: أسرعوا. انظر: لسان العرب (١/ ٣٤٠).
(٥) ولَجَ: دخل. انظر: النهاية (٥/ ١٩٤).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٠٠).



حتى أناخ بفِناء[(١)] الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة[(٢)]، فقال: «ائتني بالمفتاح»، فذهب إلى أمه، فأبت أن تُعطِيَه، فقال: واللهِ لتُعطينيه أو ليخرُجَنَّ هذا السيفُ من صُلبي، قال: فأعطته إياه، فجاء به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدفعه إليه، ففتح الباب[(٣)].

وروى ابن ماجه في سُننه وأبو داود في سُننه بسند حسن -واللفظ لابن ماجه- عن صفية بنت شيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما اطمأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)] عام الفتح، طاف على بعير يستلم[(٥)] الركنَ بمِحْجَنٍ[(٦)] بيده، ثم دخل الكعبة، فوجد فيها حمامة عَيْدَانٍ، فكسرها، ثم قام على باب الكعبة فرمى بها، وأنا أنظر[(٧)].

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٧٢) الفِناء -بكسر الفاء-: جانِبُها.

(٢) ويقال له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الحَجبي، ووقعت هذه اللفظة في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٥٠٥) ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٢٩) (٣٨٨).

* قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٧١): الحَجَبي -هو بفتح الحاء والجيم-: منسوب إلى حِجابة الكعبة، وهي ولايتها وفتحها وإغلاقها وخدمتها.

* وقال القاضي عياض: قال العلماء: لا يجوز لأحد أن ينزعها منهم، وهي ولاية لهم عليها من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبدًا، ولا يُنازَعون فيها ولا يُشارَكون ما داموا موجودين صالحين لذلك. والله أعلم.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٢٩) (٣٩٠).

(٤) زاد أبو داود: بمكة.

(٥) استلم الحجر: إذا لمسه وتناوله. انظر: النهاية (٢/ ٣٥٦).

(٦) المِحْجَن: عصا مُعقَّفة الرأس. انظر: النهاية (١/ ٣٣٥).

(٧) أخرجه ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٢٩٤٧) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٨٧٨).



وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت، وفيه الآلهة[(١)]، فأمر بها فأُخرِجَت، فأُخرج صورةُ إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلامِ[(٢)]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قط»، ثم دخل البيت[(٣)].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زمن[(٤)] الفتح وهو بالبطحاء أن يأتيَ الكعبة فيمحوَ كل صورة فيها، فلم يدخلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى مُحِيَت كلُّ صورة فيها[(٥)].

قال الحافظ في الفتح: والذي يظهر أنه[(٦)] محا ما كان من الصور مدهونًا مثلًا، وأخرج ما كان مخروطًا، وأما حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٦٨): أي: الأصنام، وأطلق عليها الآلهة باعتبار ما كانوا يزعمون، وفي جواز إطلاق ذلك وقفة، والذي يظهر كراهته.

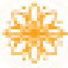
(٢) الزُّلَم والزَّلَم: واحِدةُ الأزلامِ، وهي القِدَاح -بكسر القاف- التي كانت في الجاهلية عليها مكتوب: الأمر والنهي، افعل، ولا تفعَلْ، كان الرجل منهم يضعها في وعاء له، فإذا أراد سفرًا أو زواجًا أو أمرًا مهمًّا، أدخل يده فأخرج منها زلَمًا، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كَفَّ عنه ولم يفعله. انظر: النهاية (٢/ ٢٨١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٨٨).

(٤) في رواية الإمام أحمد: يوم.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥١٠٩) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (٤١٥٦).

(٦) أي: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها[1]، فهو محمول على أنه بَقِيَت بقيَّةٌ خفي على مَن محاها أولا[2].



خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعفوه عن أهل مكة

فلما استقر الأمر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف على دَرَج الكعبة وخطب في أهل مكة؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عمرو بن حُريث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب الناس وعليه عمامة سوداء[3].

وروى أبو داود في سُننه بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب يوم الفتح بمكة، فكبَّر ثلاثًا، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إنَّ كل مَأْثُرة كانت في الجاهلية تُذكر وتُدعى من دم أو مال: تحت قدمي، إلا ما كان من سقاية الحاجِّ، وسِدانة البيت»[4].

---

(١) أخرج هذا الحديث: الطيالسي في مسنده - رقم الحديث (٦٥٧) - وابن أبي شيبة في مصنفه - رقم الحديث (٢٥٧٢٢) - وجوَّد إسناده الحافظ في الفتح (٤/ ٢٦٨).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٣١).

(٣) زاد الحميدي في مسنده - رقم الحديث (٥٧٦): يوم فتح مكة.
والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٩) (٤٥٢).

(٤) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٤٥٤٧).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه سمع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول، وهو بمكة عام الفتح[(١)]: «إن الله ورسوله حرَّم بيعَ الخَمرِ والميتةِ والخنزيرِ والأصنام»، فقيل: يا رسول الله أرأيتَ شُحومَ الميتة، فإنه يُطلى بها السفن، ويُدهن بها الجلود ويَستصبِحُ[(٢)] بها الناس؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا، هو حرام»، ثم قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند ذلك: «قاتل اللهُ اليهود؛ إن الله لما حَرَّم شُحومها جَمَلُوه[(٣)] ثم باعوه فأكلوا ثمنه»[(٤)].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مطيع عن أبيه، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول يوم الفتح: «لا يُقتل قرشي صبرًا[(٥)] بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»[(٦)].

قال الإمام النووي: قال العلماء: معناه الإعلام بأن قريشًا يُسلِمون

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/ ١٧٧): فيه بيان تاريخ ذلك، وكان ذلك في رمضان سنة ثمان من الهجرة، ويُحتمل أن يكون التحريم وقع قبل ذلك، ثم أعاده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليسمعه من لم يكن سمعه.

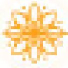
(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٤٤٩): الاستصباح: استفعال من المصباح، وهو السِّراج، أي: يُشعَل بها الضوء.

(٣) جملتُ الشَّحمَ وأجمَلْتُه: إذا أذَبْتَه واستخرَجْتَ دُهنَه. انظر: النهاية (١/ ٢٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٣٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٥٨١).

(٥) كلُّ مَن قُتِلَ في غير معركة ولا حرب ولا خطأ، فإنه مقتول صبرًا. انظر: النهاية (٣/ ٨).

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٢).



كلهم، ولا يرتد أحد منهم كما ارتد غيرهم بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن حورب وقُتِلَ صبرًا، وليس المراد أنهم لا يُقتلون ظلمًا صبرًا؛ فقد جرى على قريش بعد ذلك ما هو معلوم، والله أعلم[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند حسن عن الحارث بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة يقول: «لا تُغزى هذه[2] بعد اليوم إلى يوم القيامة»[3].

وفي لفظ آخر في المسند وفي شرح مشكل الآثار؛ بسند حسن، عن عبد الله بن مطيع عن أبيه، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أمر بقتل هؤلاء الرهط[4] بمكة، يقول: «لا تُغزى مكة بعد هذا العام أبدًا»[5].

قال سفيان بن عُيينة -راوي الحديث كما في رواية الطحاوي-: تفسيره أنهم لا يَكفُرون أبدًا، ولا يُغْزَون على الكُفرِ[6].

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٣).
(٢) يعني: مكة شرفها الله.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٤٠٤) (١٩٠٢٠) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٧٠٣) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٤) هم الذين أهدر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دمهم قُبيل دخوله مكة، وقد تقدم ذِكْرُ ذلك قبل قليل.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٤٠٨) - والطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (١٥٠٩).
(٦) انظر: شرح مشكل الآثار (٤/ ١٦٢ - ١٦٣) - وبمثل ما قال سفيان بن عُيينة لتفسيره الحديث، قاله الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٧٥).



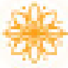
وعفا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أهل مكة، واجتمع الناس إليه ليُبايعوه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام النسائي في السنن الكبرى بسند صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى طاف بالبيت، فجعل يمر بتلك الأصنام، فيطعُنُها بسِيَةِ القوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾، حتى إذا فرغ وصلى، جاء فأخذ بعِضَادتَي[1] الباب، ثم قال: «يا معشر قريش، ما تقولون؟» قالوا: ابنُ أخٍ وابنُ عَمٍّ رحيمٌ كريمٌ، ثم عاد عليهم القول، قالوا مثل ذلك، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ فخرجوا فبايعوه على الإسلام[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه بسند حسن عن محمد بن الأسود بن خلف، قال: إن أباه الأسود حدثه: أنه رأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبايع الناس يوم الفتح، قال: فجلس عند قَرْن دار ابن سَمُرة، فرأيتُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس، فجاء الناس؛ الصغارُ والكبارُ والنساء، فبايعوه على الإسلام والشهادة، فقلت: وما الشهادة؟

قال: على الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله لا الله[3].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٨٤): عِضَادتيه -بكسر العين، وتخفيف المعجمة-: تثنية عِضادة، وهي الخشبة التي على كتف الباب، ولكل باب عِضَادتان.
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (١١٢٣٤).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٤٣١) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٥٣٦٧).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن مُجاشِع بن مسعود السُّلَمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: أتيتُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله جئتُك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقلت: على أي شيء تبايعه؟

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أُبايعه على الإسلام، والإيمان والجهاد»[(١)].

قال الإمام النووي: معناه: أن الهجرة الممدوحة الفاضلة التي لأصحابها المزية الظاهرة إنما كانت قبل الفتح، ولكن أُبايعُك على الإسلام والجهاد وسائر أفعال الخير، وهو من باب ذكر العام بعد الخاص؛ فإن الخير أعم من الجهاد، ومعناه: أُبايعك على أن تفعل هذه الأمور[(٢)].



خطبته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغدَ من يوم الفتح

وخطب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغدَ من يوم الفتح، فبَيَّن حرمة مكة، وأنها لم تحِلَّ لأحد قبله، ولا تحِلُّ لأحد بعده، وقد أُحِلَّت له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ساعة من نهار؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي شُريح أنه قال لعمرو بن سعيد -وهو يبعث البعوث إلى مكة -: ائذن لي -أيها الأمير- أُحَدِّثك قولًا قام به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغدَ من يوم الفتح،

(١) في رواية الإمام مسلم: "على الإسلام والجهاد والخير". والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٠٥) (٤٣٠٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٨٦٣) (٨٤).

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨).



سَمِعَته أُذُناي ووعاه قلبي، وأبصَرَته عيناي حين تكلَّم به: حَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يُحرِّمْها الناس[1]، فلا يحِلُّ لامرئ يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفِكَ بها دمًا، ولا يَعْضِدَ[2] بها شجرة، فإن أحدٌ تَرخَّص لقتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، فقولوا: إنَّ الله قد أذن لرسوله ولم يأذَنْ لكم، وإنما أذِنَ لي فيها ساعة[3] من نهار، ثم عادت حرمتُها اليومَ كحرمتها بالأمس، وليُبَلِّغِ الشاهد الغائب»[4].

---

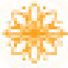
(١) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٤٤): فهذا التحريم شَرعي قَدَري سبق به قَدَرُه يوم خلق هذا العالَم، ثم ظهر به أمْره على لسان خليليه؛ إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

(٢) لا يَعضِد: أي لا يَقطَع. انظر: النهاية (٣/ ٢٢٧).
وفي لفظ آخر: «ولا يُعضَد شَوكُه». رواه البخاري - رقم الحديث (١٥٨٧) (١٨٣٤)- ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٣).
وفي لفظ آخر: «لا يُخبَط شوكها». رواه مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٥) (٤٤٨).

* قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٥٣): لا خلاف بينهم أن الشجر البري الذي لم يُنبِتْه الآدمي على اختلاف أنواعه مرادٌ من هذا اللفظ، واختلفوا فيما أنبته الآدمي من الشجر في الحرم على ثلاثة أقوال، وهي في مذهب أحمد:
أحدها: أن له قَلْعَه ولا ضمان عليه، وهذا اختيار ابن عقيل وأبي الخطاب وغيرهما.
والثاني: أنه ليس له قلعه، وإن فعل ففيه الجزاء بكل حال، وهذا قول الشافعي، وهو الذي ذكره ابن البناء في خصاله.
والثالث: الفرق بين ما أنبته في الحِلِّ ثم غرسه في الحَرَم، وبين ما أنبته في الحَرَم أولًا، فالأول: لا جزاء فيه، والثاني: لا يُقلَع، وفيه الجزاء بكل حال، وهذا قول القاضي.
وفي الحديث دليل على أنه إذا انقلعت الشجرة بنفسها أو انكسر الغصن، جاز الانتفاع به؛ لأنه لم يَعضِدْه هو، وهذا لا نزاع فيه.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٦٨): ساعة: أي مقدارًا من الزمان، والمراد به يوم الفتح.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٠٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٤).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الفتح[1] فتح مكة: «لا هجرة[2]، ولكن جهادٌ ونِيَّة، وإذا استُنفِرْتم فانفروا، إن هذا البلد حَرمَّه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحِلَّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحِلَّ لي إلا ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يَلتَقِطُ[3] إلا مَن عَرَّفَها[4]، ولا يُختلَى خَلاها»[5]، فقال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله إلا الإذْخِرَ[6]، فإنَّه لِقَيْنِهم ولبيوتهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إلا الإذْخِرَ»[7].



---

(١) في رواية البخاري: يوم افتتح مكة.

(٢) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٢٧٨٣): بعد الفتح.

(٣) زاد البخاري: «لُقَطته».
اللقُّطَةَ -بضم اللام، وفتح القاف-: اسم المال الملقوط: أي الموجود، والالتقاط: أن يُعثَرَ على الشيء من غير قصد وطلب. انظر: النهاية (٤/ ٢٢٦).

(٤) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٨٨٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٥) (٤٤٨): «ولا يلتقِطُ ساقِطَتها إلا مُنشِدٌ».

(٥) الخَلا: النبات الرَّطْب الرقيق ما دام رَطبًا، واختلاؤه: قطعه. انظر: النهاية (٢/ ٧١).
قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٥٦): لا خلاف أن المراد من ذلك ما نبت بنفسه دون ما أنبته الآدميون، ولا يدخل اليابس في الحديث، بل هو الرَّطب خاصة.

(٦) الإذْخِر -بكسر الهمزة-: حشيشة طيبة الرائحة تُسقَّف بها البيوت فوق الخشب. انظر: النهاية (١/ ٣٦).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٨٣٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٣).



مدة إقامة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة بعد فتحها

أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة المكرمة -شرفها الله- بعد فتحها تسعة عشر يومًا[١]، **يَقصُر الصلاة**، واستمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُفطِرًا بقية شهر رمضان؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة تسعة عشر يومًا يُصلِّي ركعتين[٢].

وفي لفظ آخر في الصحيح، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة عشر يَقصُر[٣].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: صام رسول الله حتى إذا بلغ الكَدِيدَ -الماء الذي بين قُدَيد وعُسْفانَ- أفطر، فلم يَزَلْ مُفطِرًا حتى انسلخ الشهر[٤].

قال الحافظ ابن كثير: لا خلاف أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أقام بقية شهر رمضان يَقصُر الصلاة ويُفطِر[٥].

---

(١) اختُلِفَ في مدة إقامة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة بعد فتحها، وأرجح الروايات: تسعة عشر. قال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٦٩): واقتضى ذلك أن رواية تسعة عشر أرجح الروايات، وبهذا أخذ إسحاق بن راهويه، ويرجحها أيضًا أنها أكثر ما وردت به الروايات الصحيحة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٩٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٠٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٧٥).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧١٢).



فتح مكة وأثره على العرب

كانت العرب تنتظر نهاية الصراع بين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقريش، فلما فتح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وانتصر على قريش؛ دخلوا في دين الله أفواجًا؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عمرو بن سَلِمَة(١) الجَرْمِي(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كانت العرب تَلَوَّم(٣) بإسلامهم الفَتحَ، فيقولون: اتركوه وقومه؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبَدَرَ أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا(٤).

وقال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تَرَبَّص(٥) بالإسلام أمْرَ هذا الحيِّ من قريش، وأَمْرَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك أن قريشًا كانوا إمامَ الناس وهادِيَهم، وأهلَ البيت الحرام، وصريحَ(٦) ولدِ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وقادةَ العرب، لا يُنكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت(٧) لحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلافه، فلما افتُتِحت

---

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٦١٥) - قسم التراجم - والإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٨): سَلِمَة: بكسر اللام.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٣٨): الجَرْمي: بفتح الجيم وسكون الراء.

(٣) تَلَوَّم -بفتح التاء واللام، وتشديد الواو-: أي: تنتظر. انظر: النهاية (٤/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٠٢).

(٥) التربص: المُكْث والانتظار. انظر: النهاية (٢/ ١٦٩).

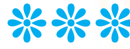
(٦) الصريح: الخالص من كل شيء. انظر: النهاية (٣/ ١٩).

(٧) ناصبه الشَّرَّ والحرب: أظهَرَه له. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٥٦).





مكـةُ، ودانت له قريش، ودَوَّخَها[1] الإسـلام، وعرفت العربُ أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عداوته؛ فدخلوا في دين الله -كما قال عَزَّوَجَلَّ- أفواجًا[2]، يضربون إليه من كل وجهٍ[3].



غزوة حُنَينٍ[4]

وقعت غزوة حُنَينٍ في شوال سنة ثمانٍ من الهجرة[5].

---

(١) دَوَّخها: أذلَّها. انظر: النهاية (٢/ ١٢٩).

(٢) الفوج: الجماعة من الناس. انظر: النهاية (٣/ ٤٢٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٤).

(٤) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٥٣): حُنَيْنٌ: هو وادٍ بين مكة والطائف وراء عرفات، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا، وهو مصروف كما نطق به القرآنُ العزيز.

* وتُسمَّى غزوة أوطاس.

قـال الإمام النووي في تهذيب الأسـماء واللغات (٣/ ٣٢): أَوْطاس -هو بفتح الهمزة، وإسـكان الواو، وبالطاء والسـين المهملتين-: هو وادٍ في بلاد هوازن، وبه كانت غزوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هوازنَ يومَ حُنَين.

* وقـال الحافـظ في الفتـح (٨/ ٣٦٢): والراجـح أن وادي أوطاس غيـر وادي حُنَين، ويُوضِّـح ذلـك ما ذكـر ابن إسـحاق أن الوقعة كانـت في وادي حُنيـن، وأن هوازن لما انهزمـوا صـارت طائفة منهم إلـى الطائف، وطائفة إلـى بجيلة، وطائفـة إلى أوطاس؛ فأرسـل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عسـكرًا مُقدَّمهم أبو عامر الأشـعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى مَن مضى إلى أوطاس، ثم توجه هو وعساكره إلى الطائف.

* وتُسمَّى غزوة هوازن.

قال ابن سعد في طبقاته (٢/ ٣٢٤): ثم غزوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنين، وهي غزوة هوازن. وقـال الإمام ابـن القيم في زاد المعـاد (٣/ ٥٧٥): فصل في غزوة حُنين، وتُسـمى غزوة أوطاس، وهما موضعان بين مكة والطائف، فسُـميت الغزوة باسـم مكانها، وتُسـمى: غزوة هوازن؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٨٧) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٢٤).





قال الحافظ في الفتح: قال أهل المغازي: خرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنَين لِستٍّ خلت من شوال، وقيل لليلتين بَقِيَتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان، وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها في عاشره[1].

وقال الإمام ابن القيم: افتتح الله سبحانه غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزاة حُنَين، فالأولى: خَوَّفتَهم وكسرت مِن حَدِّهم، والثانية: استفرغت قُواهم واستنفدت سهامَهم وأذلَّت جمعَهم، حتى لم يجدوا بُدًّا من الدخول في دين الله[2].



سبب الغزوة

لما سمعت هوازنُ برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه مع هوازِنَ ثقيفٌ كُلُّها، واجتمعت نَصْر وجُشَم كلها، وسعد بن بكر، وناسٌ من بني هلال، وفي بني جُشَم دُرَيد بن الصِّمَّة[3] شيخ كبير ليس فيه شيء

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٣).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٩٤).
(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٤٥١): دُرَيد بن الصِّمَّة: الشاعر الكافر -هو بضم الدال، وفتح الراء- والصِّمَّة: بكسر الصاد وتشديد الميم: من الشعراء المذكورين، قُتِلَ يوم حُنَين كافرًا.



إلا التيمُّـنُ[١] برأيـه، ومعرفتـه بالحـرب، وكان شـيخًا مُجَرِّبًـا، وجماعُ أمـر النـاس إلـى مالك بـن عـوف النصـري، وعزموا علـى قتـال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمـا أجمـع السَّـير إلـى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حـطَّ مع النـاس أموالهم ونسـاءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطـاس اجتمع إليه النـاس[٢].

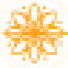


بَعْثُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن أبي حَدْرَد[٣] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

لما سـمع رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم، بعث إليهم عبد الله بن أبي حَدْرَد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليأتيه بخبرهم؛ فقد روى الحاكم في المسـتدرك والبيهقي في دلائل النبوة بسـند حسـن عـن جابر بن عبـد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: جمع مالـك بن عـوف النَّصـري من بنـي نَصْر وجُشَـم، ومن سـعد بني بكر، وأوزاعًـا[٤] مـن بنـي هلال، وناسًـا من بنـي عمرو بن عاصـم بن عوف بـن عامر، وأَوعَبَـت[٥] معهم ثقيفُ الأحلافَ، وبنو مالك، ثم سـار بهم

---

(١) التيمُّن -بتشديد الميم- أي: الابتداء في أخذ رأيه. انظر: لسان العرب (١٥/ ٤٥٧).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٨٧).
(٣) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٥٦٩) - قسم التراجم -: هو أبو محمد عبد الله بن أبي حَدْرَد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أول مشـاهده الحُديبية، ثم خيبر، وما بعدها، وحَدْرَد: بفتح الحاء المهملة، وسكون الدال الأولى المهملة، وفتح الراء.
(٤) أوزاع من الناس: أي: فِرَق وجماعات. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨٧).
(٥) أوعب القوم: إذا خرجوا كلهم إلى الغزو. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٤٠).



إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسار مع الأموال والنساء والأبناء، فلما سمع بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «اذهب فادخل بالقوم حتى تَعلَمَ لنا مِن عِلْمِهم»، فدخل، فمكث فيهم يومًا أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر[١].



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنَين

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة المكرمة -وذلك بعدما فرغ من فتحها، وتمهَّدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم- متوجِّهًا لقتال هوازن ومن معهم، وسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم في العشرة آلاف الذين كانوا معه في الفتح، وألفين من الطُّلَقاء[٢] من أهل مكة -وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، لم يتمكن الإسلام من قلوبهم-، وشهدها معه بعض سادة مكة؛ كصفوان بن أمية، وكان ما زال مُشرِكًا، وسُهَيل بن عمرو، وغيرهم؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم حُنَين أقبلت هوازن وغَطَفان بذراريِّهم ونَعَمِهم[٣]، ومع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ عشرة آلاف،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٤١٧) - والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٢١) - وذكره ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٨٩) بدون إسناد.

(٢) الطُّلَقاء -بضم الطاء، وفتح اللام- هم الذين خَلَّى عنهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة، وأطلقهم فلم يستَرِقَّهم. انظر: النهاية (٣/ ١٢٣).

(٣) النَّعَم: الإبل والشاء. انظر: لسان العرب (١٤/ ٢١٢).



ومعه الطلقاء[1].

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخشى أن يغتر المسلمون بعددهم ويَعجَبوا بكثرتهم، وقد وقع ذلك بالفعل بنص القرآن، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

فأراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبيِّن لهم أن ذلك لا يُغني عنهم من الله شيئًا بضرب مثل وقع لنبي من الأنبياء مع قومه؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن صُهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّك شفتيه أيام حُنَين بشيء[2] لم يكن يفعَلُه قبل ذلك[3]، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن نبيًّا كان فيمن كان قبلكم أعجبته أمَّتُه، فقال: لن يرومَ[4] هؤلاء شيءٌ! فأوحى الله إليه أنْ خَيِّرْهم بين إحدى ثلاث: إما أن أُسلِّطَ عليهم عدوًّا من غيرهم فيستبيحَهم، أو الجوع، أو الموت، فقالوا: أما القتل أو الجوع فلا طاقة لنا به، ولكن الموت، فمات في ثلاثٍ سبعون ألفًا!»، قال: فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأنا أقول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٣٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠٥٩) (١٣٥).
(٢) قال السندي في شرحه للمسند (١١/ ٢٣٢): أي: يقوله خُفيةً.
(٣) زاد الإمام أحمد في مسنده في رواية أخرى: فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَطِنْتُم لي؟»، فقال قائل: نعم.
(٤) لن يروم: لن يَطلُب. انظر: لسان العرب (٥/ ٣٧٧).



الآن: اللَّهُمَّ بك أُحاوِل[1]، وبك أصول[2]، وبك أُقاتِلُ»[3].



شجرةُ ذاتِ أنواطٍ

مـرَّ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهـو في طريقـه إلـى حُنيـن بشـجرة للمشركين، يُقال لها: ذاتُ أنواط؛ فقد روى الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي واقد الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنَين[4]، قال: وكان للكُفَّار سِدْرَة يعكُفون عندها، ويُعلِّقون بها أسـلحتهم، يُقـال لها: ذات أنواط، فمررنا بسـدرةٍ خضراء عظيمة[5]، فقلنا: يا رسـول الله، اجعَلْ لنا ذاتَ أنواط[6]، فقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قلتـم والذي نفسـي بيده كما قال قوم موسـى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، إنهـا السُّـنَن، لتركَبُـنَّ

---

(١) أحاول: أي: أتحرك. انظر: النهاية (١/ ٤٤٤).

(٢) أصول: أي: أسطو وأَقهر. انظر: النهاية (٣/ ٥٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٩٣٣).

(٤) زاد ابن أبي عاصم: ونحن حديثو عهد بكفر، وكانوا أسلموا يوم الفتح.
❋ قلت: تَصحَّفت كلمة: حُنَين في بعض نسخ جامع الإمام الترمذي - ومسند أبي يعلى - رقم الحديث (١٤٤١) إلى: خيبر، وهو خطأ، والصواب: حُنَين.

(٥) هذا دليل على أنهم قالوا ذلك عندما مروا بشـجرة عظيمة أخرى، وليسـت شجرة ذات أنواط.

(٦) ذات أنواط: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين يَنُوطون بها سلاحَهم، أي: يُعلقونه بها، ويعكُفون حولها. انظر: النهاية (٥/ ١١٣).



سَنَنَ[١] مَن كان قبلكم سُنةً سُنةً»[٢].



عيون[٣] النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأتيه بالأخبار

أطنب[٤] رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير، وبينما هو في الطريق جاءه أحد عيونه بأخبار هوازن؛ فقد روى أبو داود في سُننه والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن سهل بن الحنظلية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إنهم ساروا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حُنين، فأطنبوا السَّيرَ حتى كان عشيَّة، فحضرت الصلاة عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله، إني انطلقتُ بين أيديكم حتى طلعتُ جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بَكرةِ آبائهم[٥] بظُعُنهم[٦] ونَعَمهم وشائِهم، اجتمعوا إلى حُنين، فتبسم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «تلك غنيمةُ المسلمين غدًا إن شاء الله!»، ثم قال

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ١٧٩): السَّنَن -بفتح السين والنون-: وهو الطريق.

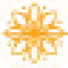
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢١٨٩٧) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢٣٢١) - وأبو يعلى في مسنده - رقم الحديث (١٤٤١) - وابن أبي عاصم في كتابه السنة - رقم الحديث (٧٦) - وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) العيون: الجواسيس. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٩).

(٤) أطنب في السير: إذا أبعد. انظر: لسان العرب (٨/ ٢٠٦).

(٥) في رواية الحاكم: أبيهم.
قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٨٣): يُقال: جاء القوم على بَكرة أبيهم: إذا جاؤوا بأَسْرِهم ولم يتخلَّفْ منهم أحد.

(٦) الظُّعُن -بضم الظاء-: النساء، واحدتها، ظعينة. انظر: النهاية (٣/ ١٤٣).



رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَن يحرُسُنا الليلة؟» فقال أنس بن أبي مَرثَد الغَنَوي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أنا يا رسول الله، قال: «فاركب»، فركب فرسًا له، فجاء إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «استقبِلْ هذا الشِّعْبَ[1] حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ[2] من قِبَلِكَ الليلةَ»، فلما أصبحنا خرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى مُصَلَّاه فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستُم فارسَكم؟» قالوا: يا رسول الله ما أحسَسْناه، فَثُوِّب بالصلاة[3]، فجعل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُصلي وهو يلتفت إلى الشِّعْب[4] حتى إذا قضى صلاته وسَلَّم، قال: «أبشِروا فقد جاءكم فارسُكم»، فجعلنا ننظر إلى خِلال الشجر في الشِّعْب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله فَسَلَّم، فقال: إني انطلقتُ حتى كنتُ في أعلى هذا الشِّعب حيث أمرني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلما أصبحتُ اطَّلعتُ الشِّعبين كليهما، فنظرتُ فلم أرَ أحدًا، فقال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «هل نزلتَ الليلةَ؟» قال: لا،

---

(١) الشِّعْب -بكسر الشين-: ما انفرج بين جبلين. انظر: لسان العرب (٧/ ١٢٨).

(٢) الغِرَّة: الغفلة. انظر: لسان العرب (١٠/ ٤٥).
أي: لا يأتينا العدو من قِبَلِك على غفلةٍ.

(٣) التثويب بالصلاة: هو إقامة الصلاة. انظر: النهاية (١/ ٢٢٠).

(٤) قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٢٨٩): فهذا الالتفات من الاشتغال بالجهاد في الصلاة، وهو يدخل في تداخل العبادات؛ كصلاة الخوف، وقريب منه قول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: إني لأُجهِّزُ جيشي وأنا في الصلاة، فهذا جمع بين الجهاد والصلاة، ونظيره التفكر في معاني القرآن واستخراج كنوز العلم منه في الصلاة، فهذا جمع بين الصلاة والعلم، فهذا لون، والتفات الغافلين اللاهين وأفكارهم لون آخر، وبالله التوفيق.



إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة، فقال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أَوْجَبْتَ[1]، فلا عليك أن لا تعمَلَ بعدها»[2].



تعبئة مالك بن عوف جيشه

عَبَّأ مالك بن عوف النَّصري جيشــه أحسنَ تعبئةٍ، ووضع الكمائن في مُنحَدَرِ وادي حُنَين؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حُنَينًا، فجاء المشـركون بأحسن صفوف رأيتُ، فَصُفَّت الخيل، ثم صُفَّت المقاتِلة، ثم صُفَّت النســاء من وراء ذلك، ثم صُفَّت الغنَم، ثم صُفَّت النَّعَم[3].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان القوم كَمَنوا لنا في شِــعابه[4] وفي أحنائِه[5] ومضايقِه، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدُّوا[6].

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٨٤): يُقال: أوجب فلان: إذا فعل فعلاً وجبت له به الجنة أو النار، والمراد به هاهنا: الجنة.
(٢) أخرجه أبو داود في سُــننه - رقم الحديــث (٢٥٠١) - والحاكم في المســتدرك - رقم الحديث (٢٤٦٤).
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠٥٩) (١٣٦).
(٤) يعني: شِعاب وادي حُنَين.
(٥) أحناء الوادي: مُنعَطفه. انظر: النهاية (١/ ٤٣٧).
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٢٧).



نزول المسلمين وادي حُنين وانهزامهم

عَبَّأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه أحسن تعبئة، ولم يتوقع المسلمون كمائن هوازن في أحناء الوادي، فلما نزلوا الوادي حُنين -وكان منحدَرًا شديدًا- وإذا بهم يُفاجئون بالكتائب قد شَدَّت عليهم؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما استقبلنا وادي حُنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تهامِةَ أجوَفَ[1] حَطُوطٍ[2]، إنما ننحدر منه انحدارًا، قال: وفي عَماية الصبح[3]، وقد كان القوم كمَنوا لنا في شِعابه وفي أحنائه ومضايقِه، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدُّوا، فوالله ما راعنا ونحن مُنحَطُّون إلا الكتائبُ قد شَدَّت علينا شَدَّةَ رجلٍ واحد، وانهزم الناس راجعين، فاستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد[4].

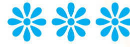
وفي رواية ابن حبان في صحيحه بسند حسن، قال جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فوالله إن الناس ليُتابِعون لا يعلمون بشيء إذ فَجِئَهم الكتائب من كل ناحية، فلم ينتظر الناس أن انهزموا راجعين[5].

---

(١) أجوف: أي: واسع. انظر: لسان العرب (٢/ ٤٢٢).
(٢) حَطُوط -بفتح الحاء-: الأَكَمَة الصَّعبة الانحدار. انظر: لسان العرب (٣/ ٢٢٥).
والأَكَمَة: المكان المرتفع. انظر: لسان العرب (١/ ١٧٣).
(٣) عَماية الصبح: بقيَّة ظلمة الليل. انظر: النهاية (٣/ ٢٧٦).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٢٧).
(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٧٤).



وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلَقُوا قومًا رماة لا يكاد يسقط لهم سَهْم؛ جمعَ هوازِنَ، وبني نَصْر، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يُخطِئون[1].



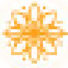
ثبات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ثبت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثباتًا عظيمًا في وجه هوازن، ومعه عدد قليل من أصحابه؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: وانحاز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات اليمين، ثم قال: «إليَّ أيها الناس، هَلُمُّوا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله»، قال: فلا شيء، احتمَلَت الإبلُ بعضُها بعضًا، فانطلق الناس، إلا أن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رهطًا من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، غيرَ كثير، ثبت معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عُبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٣٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٦) (٧٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٢٧).



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: شهدتُ مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم حُنين، فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلم نُفارقْه، ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على بَغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نُفاثة الجُذامي، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مُدبِرين، فطَفِق[1] رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يركُض بغلَتَه قِبَلَ الكفَّار، وأنا آخِذٌ بلجام[2] بغلة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أَكُفُّها إرادة أن لا تُسرِع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أيْ عَبَّاس، نادِ أصحابَ السَّمُرة»[3]، فقال العباس -وكان رجلًا صَيِّتًا[4] - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرة؟ قال: فوالله لكأنَّ عَطفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبَّيك يا لبَّيك، قال: فاقتتلوا والكُفَّارَ. والدعوةُ في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قُصِرَت الدعوة على بني الحارث بنِ الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بنِ الخزرج، يا بني الحارث بنِ الخزرج، فنظر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو على بغلته

---

(١) طَفِق: جعل. انظر: النهاية (٣/ ١١٨).

(٢) اللِّجام: حبل أو عصا تُدخَل في فم الدابة وتُلزَق إلى قفاه. انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٤٢).

(٣) السَّمُرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحُدَيبية. انظر: النهاية (٢/ ٣٥٩).

(٤) صَيِّتًا: شديدَ الصوتِ عاليَه. انظر: النهاية (٣/ ٦٠).



كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا حينَ حَمِـيَ الوطيس»، ثم أخذ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصيـات فرمى بهنَّ وجـوه الكُفَّار، ثم قـال: «انهزموا وربِّ محمد»، قـال: فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحَصَياته، فما زلتُ أرى حَدَّهم كَلِيلًا، وأمْرَهم مُدبِرًا[(١)].

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فلما غَشُوا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نـزل عن البغلـة، ثم قبض قبضةً مـن تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه!»، فما خَلَقَ الله منهم إنسـانًا إلا مَلأَ عينيه تُرابًا بتلـك القبضة، فولَّوا مدبرين، فهزمهم الله عَزَّ وَجَلَّ[(٢)].

وروى أبو داود في سُـننه بسند صحيح عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قـال: لما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشـركين يوم حُنين فانكشـفوا، نزل عن بغلته فترجَّل[(٣)].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن أبي إسحاق، قال: جاء رجل إلى البراء، فقال: أكنتُم ولَّيتم يوم حُنين يا أبا عُمارة؟

فقـال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أشـهد علـى نبـي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما وَلَّـى، ولكنه

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٥) (٧٦).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٧).
(٣) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٢٦٥٨).



انطلق أَخِفَّاءُ[1] من الناس، وحُسَّرٌ[2] إلى هذا الحيِّ من هوازن، وهم قوم رماة، فرموهم برِشْقٍ[3] من نَبْلٍ، كأنها رِجْلٌ[4] من جَرادٍ، فانكشفوا[5]، فأقبل القوم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل، ودعا، واستنصر، وهو يقول:

«أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ اللهم نَزِّلْ نَصْرَكَ»

قال البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كنا والله إذا احْمَرَّ البأسُ[6] نتَّقِي به، وإنَّ الشجاع منا للذي يُحاذِي به[7]!



(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٩٦): الأخِفَّاء: جمع خفيف، وهم المُسرِعون من الناس الذين ليس لهم ما يُعَوِّقهم.

(٢) الحُسَّر: جمع حاسر، وهو الذي لا درع عليه ولا مِغْفَر. انظر: النهاية (١/ ٣٦٩).

(٣) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٩٦): رَشَقَ يَرشُق رَشْقًا -بفتح الراء-: إذا رمى، وبكسر الراء، وهو الاسم من الرَّمي، وهو المراد في الحديث: يُقال: إذا رمى القوم بأَسْرِهم في جهة واحدة: رَمَينا رِشْقًا.

(٤) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٩٧): الرِّجْل من الجراد: القطعة الكبيرة منه.

(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٣٩٧): انكشفوا: أي: انهزموا.

(٦) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٢): كناية عن شدة الحرب، واستُعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة، أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجَمْر.

(٧) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٦) (٧٩).





نزول الملائكة

وأيَّد الله رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بنزول ملائكته، فهزموا هوازن، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾(٨).

قال الإمام ابن جرير الطبري: يخبرهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن النصر بيده ومِن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلِّي الكثير والقليل، فيَهزِمُ الكثيرَ(٩).

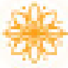
وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: واجتلد الناس، فوالله ما رجَعَت راجعةُ الناس من هزيمتهم(١٠) حتى وجدوا الأسرى مُكتَّفين عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١١).

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: فلما رأى ذلك نبيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل، فهزمهم اللهُ

---

(٨) سورة التوبة - الآيات (٢٥-٢٧).
(٩) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٤٠).
(١٠) يعني: الذين فروا من المسلمين في بداية المعركة.
(١١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٠٢٧).

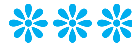




فَوَلَّـوا، فقـام نبـي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيـن رأى الفتح، فجعـل يُجاءُ بهم أُسارى رجلًا رجلا[1].

وروى الإمام أحمد في مسـنده وأبو داود في سـننه بسـند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: فهزم الله المشـركين، ولم يُضرَبْ بسـيف، ولم يُطعَن برمح، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ: «مَن قَتَلَ كافرًا[2]، فله سَلَبُهُ[3]»، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلًا، وأخذ أسلابَهم[4].

قال الإمام البغوي: وفي الحديث دليل على أن كل مسلم قتل مشركًا في القتال يستحِقُّ سَلَبَه من بين سائر الغانمين، وأن السَّلَب لا يُخمَّس، قَلَّ ذلك أم كَثُر[5].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٥٢٩).

(٢) في روايـة أخـرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣١٤٢) (٤٣٢١) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥١) (٤١) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قتيلًا.

(٣) السَّـلَب -بالتحريـك-: هو ما يأخذه أحـد القِرْنَين في الحرب من قِرْنـه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها. انظر: النهاية (٢/ ٣٤٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديـث (١٢١٣١) (١٢٢٣٦) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (٢٧١٨).

قال ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٤٠٧): المشهور أن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن قتل قتيلًا فله سَـلَبُهُ»، إنما كان يوم حُنين، وأما قوله ذلك يوم بدر وأُحُد فأكثرُ ما يُوجد من رواية مَن لا يحتجُّ به.

(٥) انظر: شرح السنة (١١/ ١٠٧).



جمع غنائم حُنَين

تركَـت هوازن النساءَ والصبيان والإبل والغنم في حُنين، وهرب مَن نجا منهم إلى وادي أوطاس، وبعضهم وصل إلى الطائف، ووقعت هذه الغنائم العظيمة للمسلمين، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله»، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغنائم، فجُمِعَت من الإبل والغنم والرقيق، وأمر أن تساق إلى الجِعرَانة، فتُحبَس هناك.

قال ابن إسحاق: ثم جُمعت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبايا حُنين وأموالها، وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغِفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسبايا والأموال إلى الجِعْرَانة، فحُبِسَت بها[1].



انحياز هوازن إلى وادي أوطاس

انحازت طوائف من هوازن -وذلك بعد انهزامهم في حُنين- إلى وادي أوطاس، فبعث إليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عامر[2] الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية، ومعه ابن أخيه أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما فرغ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١١٠).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٦٢): هو عبيد بن سليم بن حضار الأشعري، وهو عم أبي موسى، وقال ابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٠٥): هو ابن عمه، والأول أشهر.



النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من حُنين، بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس، فلقي دُرَيد بن الصِّمَّة، فقُتِلَ دُريد، وهزم الله أصحابه، قال: وبعثني[(١)] مع أبي عامر، فَرُمي أبو عامر في ركبته، رماه رجلٌ من بني جُشَم بسهم، فأثبته في ركبته، فانتهيتُ إليه، فقلتُ: يا عمِّ مَن رماك؟ فأشار أبو عامر إلى أبي موسى، فقال: إنَّ ذاك قاتلي، تراه ذلك الذي رماني، قال أبو موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: فقصدتُ له فاعتمدته فلحقته، فلما رآني ولَّى عني ذاهبًا، فاتبَعْتُه وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألستَ عربيًّا؟ ألا تَثبُتُ؟ فكَفَّ، فالتقيتُ أنا وهو، فاختلفنا أنا وهو ضربتين، فضربته بالسيف فقتلته، ثم رجعتُ إلى أبي عامر، فقلت: إن الله قد قتَلَ صاحبك، فقال: فانزِعْ هذا السهم، فنزعته فنزا[(٢)] منه الماء، فقال: يا ابن أخي انطَلِقْ إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فأقْرِئْه مني السلام، وقل له: يقول لك أبو عامر: استغفِرْ لي. قال: واستعملني أبو عامر على الناس، ومكث يسيرًا، ثم إنه مات، فلما رجعتُ إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ دخلتُ عليه، وهو في بيتٍ على سرير مُرْمَلٍ[(٣)] وعليه فِراشٌ، وقد أَثَّر رِمال السرير بظهر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ

---

(١) يعني: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ٥٠): فنزا -هو بالنون والزاي- أي: ظهر وارتفع وجرى ولم ينقطع.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ٥٠): مُرْمَل: بإسكان الراء وفتح الميم.
وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٦٣): أي: معمول بالرِّمال، وهي حبال الحُصُر التي تُضفر بها الأَسِرَّة.



وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقلت له: قال: قُلْ له يستغفر لي، فدعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماءٍ فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهم اغفِرْ لعُبَيدٍ أبي عامرٍ»، حتى رأيتُ بياض إبْطَيه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير مِن خَلْقِك، أو من الناس»، فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفِرْ، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مُدخلًا كريمًا»[(١)].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حُنين بعث جيشًا إلى أوطاس، فلقُوا عدوًا، فقاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناسًا من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحرَّجوا من غِشْيانهن[(٢)] من أجل أزواجِهن من المشركين، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[(٣)]، أي: فهنَّ لكم حلال إذا انقَضَت عِدَّتُهن[(٤)].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٢٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٩٨).

(٢) غِشْيانهن: أي: جِماعهن. انظر: النهاية (٣/ ٣٣١).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥٦): أي: وحُرِّم عليكم الأجنبيات المحصَنات وهنَّ المزوَّجات، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، يعني: إلا ما ملكتُموهن بالسَّبي؛ فإنه يحل لكم وَطْؤُهنَّ إذا استبرَأتموهنَّ.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٥٦) (٣٣).



غزوة الطائف

قال الإمام البخاري في صحيحه: باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمانٍ، قاله موسى بن عقبة[١].

قال الحافظ في الفتح: كذا ذكره[٢] في مغازيه، وهو قول جمهور أهل المغازي[٣].



سبب الغزوة

قال ابن إسحاق: لما قَدِم فَلُّ[٤] ثقيفٍ[٥] الطائِفَ، أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، وصنعوا الصنائع للقتال[٦].



(١) انظر: صحيح البخاري (٨/ ٣٦٤).
(٢) يعني: موسى بن عقبة.
(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٦٤).
(٤) الفَلُّ -بفتح الفاء-: القوم المنهزمون، وربما قالوا: فُلول وفِلال. انظر: النهاية (٣/ ٤٢٥).
(٥) وذلك بعد انهزامهم يوم حُنين.
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٠).

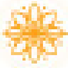
مسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف

سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف حين فرغ من حُنين، وفرض عليهم الحصار؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ثم انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة [(١)].

ولم يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح الطائف، وذلك بعد محاولات من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لفتحها؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر [(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حاصر رسول الله

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠٥٩) (١٣٦).

(٢) في رواية الإمام مسلم: عبد الله بن عمرو.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ١٠٤): هكذا هو في نسخ صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بفتح العين، وهو ابن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وقال الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٥٨٨): حدثنا سفيان، حدثنا عَمرو، عن أبي العباس، عن عبد الله بن عُمر -قيل لسفيان: ابنُ عَمرٍو؟ قال: لا، ابن عُمَر- وذكر الحديث.
* قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ٤٩٥): قوله: قيل لسفيان: ابن عَمرو، أي: الحديث عن ابن عمرو بن العاص؟ قال: لا، ابن عُمَر، أي: ابن الخطاب، كما لا يخفى، وهو الذي صوّبه الدارقطني وغيره. والله تعالى أعلم.
* وقال الشيخ أحمد شاكر: ومن البيِّن الواضح أنهم كلهم لم ينتبهوا إلى رواية الإمام أحمد هنا، وهو من أحفَظِ أصحاب ابن عيينة، إن لم يكن أحفَظَهم، وإثباته بالقبول الصريح الواضح أن ابن عيينة سُئِلَ: ابن عَمرو؟ -يعني ابن العاص-، فقال: لا، ابن عُمر -يعني ابن الخطاب-، فهذا يرفع كل خلاف، ويقطع بأن مَن روى بفتح العين أخطأ جدًّا، سواء أكان ممن روى عن سفيان بن عيينة، أم كان ممن بعدهم، أم كان من أصحاب نُسَخ الصحيحين.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهـل الطائف، فلـم ينَلْ منهم شـيئًا، فقال: «إنـا قافلون[(١)] إن شـاء الله»، فقـال أصحابه: نرجع ولم نفتَتِحْه[(٢)]، فقال لهم رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اغـدُوا على القتال»، فغدوا عليـه فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا قافلون غدًا»، فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

قـال الحافـظ في الفتح: وحاصـل الخبر أنهم لمـا أخبرهم بالرجوع بغيـر فتـح لم يعجبهـم، فلما رأى ذلـك أمرهـم بالقتال، فلـم يُفتَحْ لهم فأُصيبـوا بالجـراح؛ لأنهم رموا عليهم مـن أعلى السـور، فكانوا ينالون منهم بسهامهم ولا تصل السهام إلى مَن على السور، فلما رأوا ذلك تبين لهم تصويب الرجـوع، فلما أعاد عليهم القولَ بالرجوعِ أعجبهم حينئذ؛ ولهذا قال: فضحك[(٤)].



الدعاء لأهل الطائف بالهداية

فلما أراد رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجوعَ عن الطائف، دعا لأهلها

---

(١) قَفَلَ: رجع. انظر: النهاية (٤/ ٨١).

(٢) يعني: حصن الطائف.

(٣) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٢٥) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٨).

(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٦٦).



بالهداية؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اهْدِ ثقيفًا»[(١)].

وفي لفظ آخر في جامع الترمذي عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالوا: يا رسول الله، أحرقَتْنا نبالُ ثقيف، فادع الله عليهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اهْدِ ثقيفًا»[(٢)].



رجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقسيم غنائم حُنين

رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الجِعْرَانة ينتظر ثقيفًا؛ لعلهم يُسلِمون فيُحرِزون ما أُصيب منهم من النساء والذرية، فلما تأخروا عليه أخذ بقسمة غنائم حُنَين بين المسلمين، فبدأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمؤلَّفة قلوبُهم[(٣)]، وهم سادات العرب، يتألف قلوبهم بهذا العطاء إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٠٢).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٢٨٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٥): وأما المؤلَّفة قلوبهم، فأقسام:

* منهم مَن يُعطى ليُسلِم، كما أعطى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوان بن أمية من غنائم حُنين، وقد كان شهدها مشركًا.
* ومنهم مَن يُعطى ليَحسُنَ إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حُنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل.
* ومنهم مَن يُعطى لما يُرجى من إسلام نُظَرائه. =



الإسلام؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن رافع بن خَديج[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سُفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعُيَينة بن حِصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل[٢].

وروى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد والترمذي عن صفوان بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حُنين، وإنه لأبغض الخَلْق إليَّ، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الخَلْقِ إليَّ[٣].

وأعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مائة من الإبل[٤]؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سألتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني[٥]، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خَضِرة حُلوة، فمن

---

* ومنهم مَن يُعطى ليَجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحلُّ تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٤٥٣): رافع بن خَدِيج الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخَدِيج: بفتح الخاء المعجمة، وكسر الدال المهملة، الأنصاري الأوسي، استصغره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر، فردَّه، وأجازه يوم أُحُد، فشهد أُحُدًا والخندق وأكثرَ المشاهدِ.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠٦٠) (١٣٧).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣١٣) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٣٠٤) (٢٧٦٣٨) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٦٧٢).

(٤) قال ابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٤٥): وأعطى حكيمَ بن حزام مائة بعير.

(٥) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٣٢١) بسند صحيح عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سألتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المال فألحفتُ.
ألحفت: بالَغْتُ. انظر: النهاية (٤/ ٢٠٤).



أخذه بسخاوة[1] نفس بُورك له فيه، ومَن أخذه بإشرافِ نفس[2] لم يُبارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليدُ العليا خير من السُّفلى»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزَأُ[3] أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارِقَ الدنيا، فكان أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال: إني أُشهِدُكم معشرَ المسلمين على حكيم أني أَعرِض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزَأْ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ حتى تُوفِّيَ[4].

قال الحافظ في الفتح: وإنما امتنع حكيم من أخْذِ العطاء، مع أنه حقه؛ لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئًا فيعتاد عليه، فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده، ففطمها عن ذلك، وترك ما يَرِيبه إلى ما لا يَريبه[5].

وازدحم على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ضِعافُ الإيمان من مُسلِمة الفتح وغيرهم؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عبدالله

---

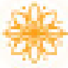
(١) في رواية الإمام مسلم: "بطِيبِ".

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٧/ ١١٢): قال العلماء: إشراف النفس: تطَلُّعُها إليه وتعَرُّضُها له وطَمَعُها فيه.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٩٩): لا أَرْزَأ -بفتح الهمزة، وإسكان الراء، وفتح الزاي، بعدها همزة- أي: لا أَنقُصُ مالَه بالطلب منه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٤٧٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠٣٥).

(٥) انظر: فتح الباري (٤/ ٩٩).



بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قسَّم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنائم حُنَين بالجِعْرَانة، فازدحموا عليه، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عبدًا من عباد الله بعثه الله عَزَّوَجَلَّ إلى قومه، فكَذَّبوه وشَجُّوه، فجعل يمسح الدم عن جبينه، ويقول: رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»، قال عبد الله: فكأني أنظر إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح جبهته، يحكي الرَّجُلَ[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رجلًا سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنمًا بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومَه، فقال: أيْ قومِ، أسلِموا؛ فوالله إن محمدًا ليُعطي عطاءً ما يخاف الفقر.

قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن كان الرجلُ ليُسلِمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلِم حتى يكون الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها![2].

قال الإمام النووي: المراد أنه يُظهر الإسلام أولًا للدنيا لا بقصدٍ صحيحٍ بقلبه، ثم من بركة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونور الإسلام لم يلبث إلا قليلًا حتى ينشرح صدرُه بحقيقة الإيمان، ويتمكَّن من قلبه؛ فيكون حينئذ أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها[3].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٠٥٧).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣١٢) (٥٨).
(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٥٩).



عَتْب الأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ

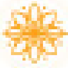
أعطى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قريشًا وقبائل العرب من غنائم حُنين، ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئًا؛ لحِكَمٍ عظيمة بالغة -كما سيأتي- فوجدوا في أنفسهم رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ من ذلك.

قال الحافظ ابن كثير: وعتب بعض الأنصار، فبلغه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فخطبهم وحدهم، وامتنَّ عليهم بما أكرمهم الله من الإيمان به، وبما أغناهم الله به بعد فقرهم، وألَّف بينهم بعد العداوة التامة؛ فَرَضُوا، وطابت أنفسهم رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ وأرضاهم[(١)].

روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن أبي سعيد الخُدْري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: لما أعطى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ؛ وَجَدَ[(٢)] هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كَثُرت فيهم القالةُ[(٣)] حتى قال قائلهم: لقي رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قومَه! فدخل عليه سعد بن عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيَّ قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم؛ لِما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ؛ قسَمْتَ في قومك، وأعطيت عطايا

---

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٤٠).
(٢) وَجَدَ: حَزِن. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٢٠).
(٣) القَالَةُ: كثرة القول. انظر: النهاية (٤/ ١٠٧).



عظامًا في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار شيءٌ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأين أنت من ذلك يا سعدُ؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤٌ من قومي، وما أنا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة[1]»، فخرج سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا أتاه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَمِد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟! ألم آتِكم ضُلَّالًا فهداكم الله؟ وعالةً[2] فأغناكم الله؟ وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بل اللهُ ورسوله أَمَنُّ وأفضل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا تُجيبونني يا معشر الأنصار؟»، قالوا: وبماذا نُجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنُّ والفضل؟! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما واللهِ لو شئتم لقُلتم فَلَصَدَقْتُم وصُدِّقْتُم: أتيْتَنا مُكَذَّبًا فَصَدَّقناك، ومخذولًا فنصَرْناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أَوَجَدْتُم في أنفسكم -يا معشر الأنصار- في لُعَاعةٍ[3] من الدنيا، تألَّفْتُ بها قومًا لِيُسلِموا، ووكَلْتُكم إلى إسلامِكم؟! أفلا ترضَون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجِعون برسول الله في رِحالِكم؟

---

(١) الحظيرة: الموضع الذي يُحاط عليه. انظر: النهاية (١/ ٣٨٩).
والمراد هاهنا: الخيمة.

(٢) العائل: الفقير. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٨).

(٣) اللُّعاعة -بضم اللام-: نبت ناعم في أول ما يَنبُت، يعني: أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء. انظر: النهاية (٤/ ٢١٩).



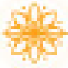
فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرةُ لكنتُ امْرَأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلَكَتِ الأنصارُ شِعْبًا؛ لسلكتُ شِعْب الأنصار، اللهم ارحَم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكى القوم حتى أخْضَلوا لِحاهم[1]، وقالوا: رضينا برسول الله قِسْمًا وحَظًّا، ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتفرقوا[2].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار: «إني أُعطي رجالًا حديثِي عهد بكفر أتألَّفُهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله لَما تنقلبون[3] به خيرٌ مما ينقلبون به»، فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا[4].

وروى ابن إسحاق في السِّيرة بسند مرسل حسن عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمِيِّ، قال: إن قائلًا قال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه: يا رسول الله، أعطيتَ عُيَينةَ بن حِصن، والأقرعَ بن حابِس مئةً مئة، وتركتَ جُعْيل بن سُراقة الضَّمْري[5]، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخضلوا لحاهم: أي بَلُّوها بالدموع. انظر: النهاية (٢/ ٤٢).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١١٧٣٠).
(٣) الانقلاب: الرجوع. انظر: النهاية (٤/ ٧٥).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٣١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠٥٩).
(٥) قال ابن الأثير في أُسد الغابة (١/ ٣٢٤): جُعيل بن سُراقة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من أهل الصُّفَّة وفقراء المسلمين، أسلم قديمًا، وشهد مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُحُدًا، وأُصيبت عينه يوم قُرَيظة، وكان دميمًا قبيح الوجه، أثنى عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووكله إلى إيمانه.



«أما والذي نفس محمد بيده، لجُعْيلُ بنُ سُراقة خيرٌ من طِلاع الأرض[(١)] كُلِّهم مِثلَ عُيينةَ بن حِصن والأقرع بن حابس، ولكنِّي تألَّفتُهما ليُسلِما، ووكلتُ جُعَيْل بن سُراقةَ إلى إسلامِه»[(٢)].



قدوم وفد هوازن مسلمين

قَدِمَ وفدُ هوازِنَ على رسول الله -وهو بالجِعْرَانة- مسلمين، وذلك بعدما قسَّم الغنائم، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتظرهم بعد عودته من الطائف بضع عشرة ليلة؛ لعلهم يأتون مسلمين، فيرد عليهم أبناءهم ونساءهم وأموالهم؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمة، قالا: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يَرُدَّ إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فقال لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «معي مَن ترون، وأَحَبُّ الحديثِ إليَّ أصدَقُه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إمَّا السَّبيَ وإما المال، وقد كنتُ استأنيتُ[(٣)] بكم»، وكان أنظَرَهم رسولُ الله

---

(١) طِلاع الأرض: أي: ما يملؤها حتى يطلُعَ عنها ويسيل. انظر: النهاية (٣/ ١٢١).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٤٩) - وأورده الحافظ في الإصابة (١/ ٥٩٦) وقال: هذا مرسل حسن، لكن له شاهد موصول، روى الروياني في مسنده، وابن عبد الحكم في فتوح مصر، ثم ذكره، وقال: إسناده صحيح.

(٣) استأنيتُ: أي: انتظرتُ. انظر: النهاية (١/ ٧٨).

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٥٢): أي: أَخَّرْتُ قَسْمَ السَّبيِ؛ لتَحضُروا فأبطأتم، =



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبيَّن لهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنَّا نختار سَبْيَنا، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أرُدَّ إليهم سَبْيَهم، فمن أحب منكم أن يُطيِّب ذلك فليفعَلْ، ومَن أحب منكم أن يكون على حَظِّه[١] حتى نُعطيه إياه من أول ما يُفيءُ الله علينا فليفعَلْ»، فقال الناس: قد طَيَّبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا لا ندري مَن أَذِنَ منكم في ذلك ممَّن لم يأذَنْ؛ فارجعوا حتى يَرفع إلينا عُرَفاؤكم أمْرَكم»، فرجع الناس فكلَّمهم عُرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه أنهم قد طيَّبُوا وأَذِنوا[٢].

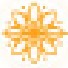
وروى الإمام أحمد في مسنده وابن إسحاق في السِّيرة بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن وفد هوازن[٣] أتوا رسول الله

=وكان تَرَك السَّبيَ بغير قِسمة، وتوجَّه إلى الطائف فحاصرها، ثم رجع عنها إلى الجِعْرانة، ثم قسَّم الغنائم هناك، فجاءه وفد هوازن بعد ذلك؛ فبَيَّن لهم أنه أَخَّرَ القَسْمَ؛ لِيَحضُروا، فأبطَؤوا.

(١) قال السندي في شرحه للمسند (١١/ ٢١٤): أي: نصيبه، بأن يأخذ مني عِوَضَ ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣١٨) (٨٣١٩).

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٤/ ٤٣٢): أي: طائفة من هوازن، وهم الذين حاربوا يوم حُنين، ثم هزمهم الله تعالى؛ فصارت أموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين، فحين جاؤوا مسلمين طلبوا ذلك.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهـو بالجِعْرَانـة، وقد أسـلموا، فقالوا: يا رسـول الله، إنَّا أَصْلٌ وعشيرةٌ، وقد أصابَنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فامْنُنْ علينا، مَنَّ الله عليك[١]، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبناؤكم ونسـاؤكم أحبُّ إليكم، أم أموالُكم؟» قالوا: يا رسول الله، خَيَّرْتنا بين أحسابنا وبين أموالنا، بل تُرَدُّ علينا نسـاؤنا وأبناؤنا؛ فهو أحبُّ إلينـا، فقال لهم: «أَمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا صليتُ للناس الظهر، فقوموا، فقولوا: إنا نستشـفع برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسـلمين، وبالمسلمين إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أبنائنا ونسائنا، فسأُعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم»، فلما صلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس الظهر قاموا، فتكلموا بالـذي أمرهم به، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا مـا كان لي ولبني عبـد المطَّلب فهو لكم»، وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقـال الأقرعُ بن حابس: أَمَّا أنـا وبنو تميم فلا، وقال عُيينة بن حَصن: أَمَّا أنا وبنو فَزَارة فلا، وقال العباس بن مِرْداس: أَمَّا أنا وبنو سُليم فلا، فقالت بنو سُـليم: لا، ما كان لنا فهو لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال العباس بن مِرداس: يا بني سُليم، وَهَّنْتموني! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا مَن

---

(١) زاد ابن إسـحاق في السـيرة: وقام رجل من هوازن، ثم أحد بني سـعد بـن بكر، يُقال له زهير، يكنى أبا صُرَد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتُك وخالاتك وحواضِنُك اللاتي كُنَّ يَكفُلْنك!

قلت: يعني بذلك أنهم قومُ حليمةَ السعدية أمِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرَّضاعة.

تَمَسَّك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسان ستُّ فرائض[(١)] من أول شيء نُصيبُه، فرُدُّوا على الناس أبناءهم ونساءهم»[(٢)].



اعتمار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجِعْرَانة

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قِسمة غنائم حُنين في الجِعْرَانة، أَهَلَّ بالعمرة، وهي عُمرة الجِعْرَانة؛ فقد روى الإمام أحمد والترمذي بسند حسن، عن مُحَرِّش[(٣)] الكعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من الجِعْرَانة ليلًا معتمرًا، فدخل مكة ليلًا، فقضى عمرته، ثم خرج من ليلته، فأصبح بالجِعْرَانة كبائتٍ، فلما زالت الشمس من الغد، خرج في بطن سَرِفَ[(٤)]، حتى جامع الطريقَ؛ طريقَ جَمْعٍ ببَطْنِ سَرِف؛ فمن أجل ذلك خَفِيت عُمرته على الناس[(٥)].

---

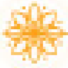
(١) الفرائض: جمع فريضة، وهو البعير المأخوذ من الزكاة، سُمي فريضة؛ لأنه فرض واجب على رب المال، ثم اتُّسِع فيه حتى سُمي البعير فريضةً في غير الزكاة. انظر: النهاية (٣/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٧٠٣٧) - وابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٤١).

(٣) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٨٤١) - قسم التراجم -: مُحَرِّش: بضم الميم، وفتح الحاء المهملة، وتشديد الراء المكسورة.

(٤) سَرِف -بفتح السين، وكسر الراء-: موضع من مكة على عشرة أميال. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٥١٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٩٥٣).



وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه اعتمروا من الجِعْرَانة، فرَمَلوا بالبيت، وجعلوا أردِيَتَهم تحت آباطهم، ثم قذفوها على عواتقهم اليُسرى[1].

قال الحافظ في الفتح: وأما دخول مكة ليلًا فلم يقعْ منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا في عُمرة الجِعْرَانة؛ فإنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أحرم من الجِعْرَانة ودخل مكة ليلًا، فقضى أمر العمرة ثم رجع ليلًا، فأصبح بالجِعْرَانة كبائتٍ، كما رواه أصحاب السنن الثلاثة من حديث مُحَرِّش الكعبي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وترجم عليه النسائي: دخول مكة ليلا[2].



استخلاف عَتَّاب بن أَسِيد[3] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على مكة

استخلف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَتَّاب بن أَسِيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على مكة، وذلك قبل عودته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المدينة؛ فقد روى الإمام البغوي في حديث عيسى بن سالم الشاشي بسند جيد، عن عمرو بن شُعَيب عن أبيه

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٩٢) (٣٥١٢) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٨٨٤).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٢٦).

(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٣٠): عَتَّاب بن أَسِيد -بفتح الهمزة- رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أسلم يوم الفتح، واستعمله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على مكة حين انصرف عنها بعد الفتح، وسِنُّه يومئذ عشرون سنة، وكان خَيِّرًا صالحًا فاضلًا.



عن جده، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عَتَّاب بن أَسيد إلى مكة، فقال: «أتدري إلى أين أبعثُك؟ إلى أهلِ الله، وهم أهلُ مكة»[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير: واعتمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجِعْرَانة، ودخل مكة، فلما قضى عمرته ارتحل إلى المدينة، وأقام للناس الحجَّ عامئذ عَتَّابُ بن أَسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان أول مَن حج بالناس من أُمراء المسلمين[(٢)].

وقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة النَّبَوية لِستٍّ ليال بقين من ذي القعدة سنة ثمانٍ للهجرة[(٣)].



(١) أورد هذا الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (١٢١٢) وقال: أخرجه البغوي في حديث عيسى بن سالم الشاشي (ق١٠٨/ ١)، وجَوَّد إسناده.
(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٤٢).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٥٤).



السنة التاسعة للهجرة

﴿ بَعْثُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَّاله على الصدقات ﴾

لما استهَلَّ هلال المحرَّم من السنة التاسعة للهجرة، بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَّاله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان.

قال ابن سعد في طبقاته: لما رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هلال المحرم سنة تسع من مُهاجَرِه، بعث الـمُصَدِّقين يُصَدِّقون العربَ(١).

وقال ابن إسحاق: بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمراءه وعُمَّاله على الصدقات، إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث:

١- المهاجِر بن أبي أُمَيَّة بن المغيرة(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى صنعاء، فخرج عليه العَنْسي(٣) وهو بها.

٢- وبعث لَبيد بن زياد البياضي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى حضرموت.

٣- وبعث عَدِي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى طيِّئ وبني أسد.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٢٩).

(٢) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٤٧): المهاجر بن أبي أمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هو أخو أم سلمة -أم المؤمنين- لأبويها.

(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦١١): العَنْسي الكَذَّاب الأسود، اسمه عَيْهَلَة، وفي قول: عَبْهَلَة المَذْحِجي ذو الخمار، متنبِّئ مشعوذ من أهل اليمن، أسلم لما أسلمت اليمن، وارتد في أيام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وادعى النبوة، واتسع سلطانه، واغتاله أحد المسلمين قبل وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشهر واحد.



٤- وبعث مالك بن نُوَيرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى بني حنظلة، وفَرَّق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزِّبْرِقان[١] بن بدر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على ناحية منها، وقيس بن عاصم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على ناحية.

٥- وبعث العلاء بن الحضرمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى البحرين.

٦- وبعث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى نجران[٢].

٧- وبعث رافع بن مَكِيث رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣] إلى جُهينة.

٨- وبعث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى بني فزارة.

٩- وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى بني كلاب.

١٠- وبعث عُيينة[٤] بن حِصن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى بني تميم.

١١- وبعث بُرَيدة بن الحُصَيب[٥] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أسلم وغِفار.

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٤٦٥): الزِّبرِقان -بكسر الزاي والراء، بينهما موحدة ساكنة- والزِّبرِقان لقب له، واسمه الحُصين، وإنما قيل له الزِّبْرِقان لحُسنه، والزِّبرِقان في اللغة: القمر، وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرتفع القدر في الجاهلية، ثم كان سيدًا في الإسلام، وكان من الشعراء المحسِنين.

(٢) إلى هذا القدر ذكره ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٣) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٣٨٤) - قسم التراجم -: رافع بن مَكيث رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شهد الحُدَيبيَة، ومَكِيث: بفتح الميم، وكسر الكاف، وسكون الياء تحتها نقطتان، وبالثاء المثلثة.

(٤) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٧٣٣) - قسم التراجم -: عُيينة: تصغير عين.

(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٢٠٩) - قسم التراجم -: بُرَيدة: بضم الباء الموحدة، وفتح الراء، وسكون الياء تحتها نقطتان، وبالدال المهملة. =



١٢- وبعث عَبَّاد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سُليم ومُزينة.

١٣- وبعث ابن اللُّتْبِيَّة[1] الأزدي إلى بني ذُبيان.

١٤- وبعث الوليد بن عُقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني المُصطَلِق[2].

ملاحظة هامة:

تجدر الإشارة إلى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبعث هؤلاء الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم دفعة واحدة في المحرَّم سنة تسع للهجرة، بل تأخر بعضهم إلى وقت اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بُعثوا إليها، ويُؤيد ذلك ما جاء في رواية ابن إسحاق: أن من بين العُمَّال الذين أرسلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدقات قومهم عَدِيَّ بنَ حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان إسلام عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد بعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهَدْم الفُلْسِ[3]، وذلك في ربيع الآخر من السنة التاسعة للهجرة.



= وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٢): الحُصَيب: بضم الحاء المهملة، شهد غزوة خيبر والفتح، وكان معه اللواء، واستعمله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدقة قومه، وكان يحمل لواء الأمير أسامة حين غزا أرض البلقاء إثر وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١٣٧): اللُّتْبِيَّة: بضم اللام، وسكون التاء: من بني لُتْب؛ حيٍّ من الأَزْد، واسمه عبد الله.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٢٩).

(٣) الفُلْس -بضم الفاء، وسكون اللام-: هو صنم لقبيلة طيِّئ. انظر: النهاية (٣/ ٤٢٣).



تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غلول[1] الصدقة

حَذَّر رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من غُلول الصدقة؛

فقـد روى أبـو داود في سُـنـنه بسـند صحيح عـن أبي مسـعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعثني رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعيًا[2]، ثم قال: «انطَلِقْ أبا مسـعود لا أُلفِيَنَّك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعيرٌ من إبل الصدقة لـه رُغاءٌ[3] قد غَلَلْتَه»، قال: إذًا لا أنطلق، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذًا لا أُكرِهُك»[4].



(١) قال السندي في شرحه للمسند (٩/ ٢٠٢): غُلول الصدقة -بضم الغين-: الخيانة فيها.

(٢) السـاعي: يُسـتعمل على الصدقات، ويتولى اسـتخراجها من أربابها، وبه سُـمي عامل الزكاة السَّاعِيَ. انظر: النهاية (٢/ ٣٣٣).

(٣) الرُّغاء: صوت الإبل. انظر: النهاية (٢/ ٢١٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٢٩٤٧).



غزوة تَبُوك[1] أو (العُسْرة)[2]

وقعت غزوة تَبُوك في رجب سنة تسع للهجرة، وهي آخر غزوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه الشريفة.

قال الحافظ في الفتح: غزوة تَبُوك كانت في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع، بلا خلاف[3].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند صحيح، عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لم أتخلف بَعْدُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تَبُوك، وهي آخر غزوة غزاها[4].

وروى الحاكم في المستدرك بسند حسن عن جابر بن عبد الله

---

(١) قال الإمام البخاري في صحيحه: باب غزوة تبوك، وهي غزوة العُسرة.
* وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٧٣): تَبُوك -هي بفتح التاء، وضم الباء- وهي في طرف الشام -صانه الله تعالى- من جهة القبلة، وبينها وبين مدينة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو أربع عشرة مرحلة، وبينها وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٤٩): العُسْـرَة: بمهملتين الأولى مضمومة وبعدها سكون، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.
* وقال الإمام البغوي في تفسيره (٢/ ٣٣٦) لهذه الآية: أي في وقت العُسْـرَة، ولم يُرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمَّى غزوة العُسْرَة، والجيش يُسمى جيش العُسْرَة، والعُسْرَة: الشِّدة، وكانت عليهم غزوةَ عُسْرَةٍ في الظَّهر والزاد والماء.

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٤٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧١٧٥) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٣٥٩).



رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: غزا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إحدى وعشرين غزوة، وشهدتُ معه تسعَ عشرةَ غزوة، وكان آخر غزوة غزاها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تَبُوك[1].

۞ سبب الغزوة

■ **اختُلِفَ في سبب غزوة تَبُوك على النحو التالي:**

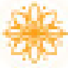
(١) **قال ابن سعد في طبقاته:** بلغ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لَخْم وجُذام وعامِلة وغسَّان، وقدَّموا مُقَدِّماتهم إلى البلقاء؛ فندب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الناس إلى الخروج[2].

* **قلت:** ويُؤيِّد هذا السَّبَبَ ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: وكان مَن حولَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد استقام له، فلم يَبْقَ إلا مَلِكُ غسان بالشام، كنا نتخوَّف أن يأتينا[3].

وفي لفظ آخر في الصحيحين: قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وكنا قد تحدَّثنا أن غَسَّان تُنْعِلُ الخيل لتَغزونا[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٦٥٤٦).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٣٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٨٤٣).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥١٩١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٧٩) (٣٤).



* **قلت**: ولعل سبب غطرسة الروم والغساسنة ضد المسلمين ما آل إليه أمر غزوة مؤتة من انكسار الروم والغساسنة أمام المسلمين، فكأنهم أرادوا بذلك أخذ الثأر من المسلمين، فعاجلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذهب إلى ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره، فقال: غزاها ليقتَصَّ وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم[1].

(٢) إمضاء أمر الجهاد في سبيل الله تعالى:

قال الحافظ ابن كثير: عزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[2]، وزاد في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[3].

خطورة الموقف:

روى الشيخان في صحيحيهما عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ونحن نتخوف مَلِكًا من ملوك غَسَّانَ، ذُكِرَ لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٠١).

(٢) سورة التوبة – آية (١٢٣) – وانظر: البداية والنهاية (٥/ ٥).

(٣) سورة التوبة – آية (٢٩) – وانظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٠١).



امتلأت صدورنا منه[١].

* وهذا يـدل على خطورة الموقـف الذي كان يواجهه المسـلمون بالنسبة مِن الروم والغساسـنة، وزاد الأمرَ شـدةً أن غزوة تَبُوك جاءت في وقت شديد على الناس وجَدْب من البلاد، وقيظ شديد.

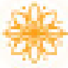
قـال ابن إسـحاق عن شـيوخه: أمر رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عُسرة الناس، وشِدَّة من الحَرِّ، وجَدْب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يُحبون الـمُقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشُّخوص[٢] على الحال من الزمان الذي هم عليه[٣].



الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد

كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إلى هذه الظروف بنظر أدَقّ وأحكَمَ من هذا كله؛ إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الروم والغساسنة في هـذه الظـروف الحاسـمة، وترك الـروم والغساسـنة لِتَجُـوسَ خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة؛ لكان لذلك أسـوأ أثر على الدعوة الإسـلامية، وعلى سـمعة المسـلمين

(١) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٩١٣) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٤٧٩) (٣١).
(٢) الشُّخوص: السير من بلد إلى بلد. انظر: لسان العرب (٧/ ٥١).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٦٩).



العسكرية؛ فالجاهلية التي تلفظ نَفَسَها الأخير بعد ما لَقِيَت من الضربة القاصمة في حُنَين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين تهجم الرومان والغساسنة بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهذا يُضيع كثيراً من الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة، تذهب هذه المكاسب سُدى!

* **كان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرف كل ذلك جيدًا؛** ولذلك قرر القيام -مع ما كان فيه من العسرة والشدة- بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الروم والغساسنة في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى بلاد الإسلام[(١)].



استنفار النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين لغزو الروم

ندب رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومَن حوله من العرب إلى التهيُّؤ لغزو الروم، وكان من عادته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يريد غزوة إلا وَرَّى[(٢)] بغيرها، إلا غزوتين، وهما: غزوة خيبر؛ لأن الله وعده

---

(١) انظر: الرحيق المختوم - ص (٤٣١ - ٤٣٢).
(٢) وَرَّى: أي: ستره وكنَّى عنه، وأوهم أنه يريد غيره. انظر: النهاية (٥/ ١٥٥).



بفتحها بنص القرآن [١]، وغزوة تَبُوك ليتأهبوا؛ لشدة عدُوِّهم وكثرته، ولبُعد المسافة وشدة القيظ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة [٢]، غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا [٣] وعدُوًّا كثيرًا؛ فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد [٤].

وأولُ ما نزل من القرآن في شأن غزوة تَبُوك قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [٥].

قال الحافظ ابن كثير: هذا شروع في عتاب مَن تخلَّف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تَبُوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحَرِّ،

---

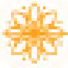
(١) تقدم ذكر ذلك في الكلام على أحداث غزوة خيبر.

(٢) يعني: غزوة تبوك.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/ ٧٢): المفازة: البَرِّية الطويلة القليلة الماء، يُخاف فيها الهلاكُ.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤١٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٦٩) (٥٣).

(٥) سورة التوبة - الآية (٣٨-٣٩).



وحَمَارَّةِ القَيظِ[١].



حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإنفاق لجيش العُسْرة

دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلى النفقة والحُمْلان[٢] لجيش العُسْرة، فتتابع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الإنفاق في سبيل الله لجيش العُسْرة.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّ في سفره، وأمر الناس بالجَهاز والانكماش[٣]، وحَضَّ أهل الغنى على النفقة والحُمْلان في سبيل الله؛ فحمل رجال من أهل الغنى واحتسَبوا[٤].



تنافُسُ الكِبار للإنفاق

تسابَقَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى الإنفاق على جيش العُسْرَة -وكان هذا ديدنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الحرص على أمور الآخرة- وهذه بعض النفقات الكبيرة لبعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

(١) حَمَارَّة القيظ: أي: شدة الحر، وقد تُخفَّف الراء. انظر: النهاية (١/ ٤٢٢).
وانظر: كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٩٢).

(٢) الحُمْلان: مَصْدَر حَمَلَ يحْمِل حُمْلانًا: أي: يطلب منهم شيئًا يركبون عليه. انظر: النهاية (١/ ٤٢٦).

(٣) يُقال: انكمش في هذا الأمر: أي تَشمَّر وَجَدَّ. انظر: النهاية (٤/ ١٧٤).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٧١).



تسابُقُ أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

روى الإمام الترمذي وأبو داود والحاكم بسند حسن عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَمَرَنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليومَ أسبِقُ أبا بكر إن سبقتُه يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أبقيتَ لأهلك؟».

قلتُ: مِثْلَه، قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أبقيت لأهلك؟»

قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا![1].

قال الإمام ابن الجوزي: فإن اعترض جاهل، فقال: جاء أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ماله!!

فالجواب: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب معاشٍ وتجارة، فإذا أخرج الكل، أمكنَه أن يستدين عليه فيتعيَّش، فمن كان على هذه الصفة، لا أَذُمُّ إخراجه لماله[2].



(١) أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٠٠٦) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٦٧٨) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٥٢٤).

(٢) انظر: صيد الخاطر - ص (١١٨).



إنفاق عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال ابن إسحاق: وأنفق عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك نفقةً عظيمة، لم يُنفِقْ أحدٌ مثلها[(١)].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند حسن، عن عبد الرحمن بن سَمُرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّزَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش العُسْرَة، فَصَبَّها[(٢)] في حِجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبها بيده، ويقول: «ما ضَرَّ ابنَ عَفَّان ما عَمِلَ بعد اليوم!»، يرَدِّدها مرارًا[(٣)].



إنفاق عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

واختُلفَ في نفقة عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جيش العُسْرة، وأورد الحافظ في الفتح عدة أخبار بذلك، ثم قال: وهذا اختلاف شديد في القَدْر الذي أحضره عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصح الطُّرُق فيه

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٧١).
(٢) في رواية الإمام الترمذي: فنثرها.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٠٦٣٠) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٤٠٣٤).



ثمانية آلاف درهم[1].



تعدُّد مَن أنفق قَدْر صاع

روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما أُمِرْنا بالصدقة، كنا نتحامل[2]، فجاء أبو عَقِيل[3] بنصف صاع، وجاء إنسان[4] بأكثر منه[5]، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا[6]، وما فعل هذا الآخرُ[7] إلا رياءً! فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ[8] ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾[9].

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/ ٢٣٠).

(٢) في رواية الإمام مسلم -وهي رواية أخرى في صحيح البخاري- رقم الحديث (١٤١٥): نُحامل.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٧/ ٩٣): معناه: نحمل على ظهورنا بالأُجرة ونتصدق من تلك الأجرة، أو نتصدق بها كلها.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٤٢): أبو عَقِيل: بفتح العين.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٢): هو عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

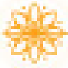
(٥) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٤١٥): فجاء رجل فتصدق بشيء كثير.

(٦) يعني: أبا عقيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) يعني: عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

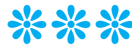
(٨) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/ ٧٥): لمزه: أي: عابوه واحتقروه.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٤١٥) (٤٦٦٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٠١٨).



وفي صحيح مسلم -في قصة توبة كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبينما هو على ذلك[1] رأى رجلًا مُبَيِّضًا[2] يزول به السرابُ[3]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْ أبا خيثمة»[4] فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الذي تصدَّق بصاع التمر حين لمزه المنافقون[5].

قال الحافظ في الفتح: وهذا يدل على تعَدُّد مَن جاء بالصاع، ويُؤيد ذلك أن أكثر الروايات فيها: أنه جاء بصاع، وكذا وقع في الزكاة: فجاء رجل فتصدق بصاع[6]، وفي حديث الباب: فجاء أبو عَقِيل بنصف صاع[7].



توبيخ الله تعالى للأعراب والمنافقين

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التخلف من غير عِلَّة، فأذن لهم، وهم بضعة وثمانون رجلًا، وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذَن لهم، فاعتذروا إليه، فلم يَعذِرهم، وهم

---

(١) يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو في طريقه إلى تَبُوك.

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/ ٧٤): أي: لابِس البياض.

(٣) يزول به السَّراب: أي: يرفعُه ويُظهِرُه. انظر: النهاية (٢/ ٢٨٨).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٣٠): اسم أبي خيثمة هذا: عبد الله بن خيثمة، من بني سالم من الأنصار.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٦٩) (٥٣).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٤١٥).

(٧) انظر: فتح الباري (٩/ ٢٢٩-٢٣٠).



اثنان وثمانون رجلًا[1]؛ فأنزل الله فيهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى موبِّخًا للذين تخلفوا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾[3] ﴿قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، أي: قريبًا، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾، أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾، أي: لكم إذا رجعتم إليهم، ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، أي: لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[4] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[5].

وعاتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاتبة لطيفة، فقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[6].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٣٢).

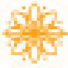
(٢) سورة التوبة - آية (٤٢).

(٣) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٥): العَرَض: ما يَعرِضُ من منافع الدنيا، والمعنى: غنيمة قريبة.

(٤) قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٢٧): أي: بالكذب والنفاق.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٧).

(٦) سورة التوبة - آية (٤٣).



قال الإمام ابن جرير الطبري: هذا عتاب من الله تعالى ذِكْرُه، عاتب به نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تَبُوك لغزو الروم؛ من المنافقين[١].



﴿ تخَلُّفُ عدد من الصحابة الصادقين ﴾

ثم استتبَّ برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سفرُه، وأجمع السَّير، وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى تخلفوا عنه عن غير شكٍّ ولا ارتياب؛ منهم: كعب بن مالك، ومُرَارة[٢] بن الربيع، وهِلال بن أُمَيَّة، وأبو خَيثمة، وأبو لُبابة بشير بن عبد المنذر، وكانوا نَفَرَ صِدقٍ، لا يُتَّهمون في إسلامهم[٣].



﴿ عدد جيش المسلمين ﴾

اجتمع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثون ألف مقاتل؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: والمسلمون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٨٠).

(٢) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٨٤٧) - قسم التراجم -: مُرَارة: بضم الميم، وتخفيف الراء الأولى.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٧٢).



مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ[١].

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم، قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وغزا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناس كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم ديوان حافظ[٢].

قال الحافظ في الفتح: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غزوة تَبُوك، ونحن زيادة على ثلاثين ألفًا[٣]، وبهذه العِدَّة جزم ابن إسحاق[٤]، وأورده الواقدي بسند آخر موصول[٥].



استخلاف محمد بن مَسْلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال ابن سعد في طبقاته: واستخلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة محمد بن مَسْلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أثبت عندنا ممن قال: استخلف غيره[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤١٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٦٩) (٥٣).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٦٩) (٥٥).
(٣) وذكر ذلك الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٥/ ١٥٩).
(٤) كما في دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢١٩).
(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٥٧).
(٦) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٣٢).



خلَّف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أهله

خلَّف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أهله، فلم يشهد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غزوة تَبُوك؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خَلَّفَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة تَبُوك، فقال: يا رسول الله، تُخلِّفني في النساء والصبيان؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غيرَ أنه لا نبي بعدي»[(١)].

وفي لفظ آخر في مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن عليًّا خرج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى جاء ثَنِيَّة الوداع، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي، يقول: تُخلِّفني مع الخوالف؟[(٢)].

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أوَمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا النبوة؟»[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤١٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٠٤) (٣١).

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٢/ ١٠٥): أي: مع النساء التي شأنهن القعود ولزوم البيوت، جمع خالفة، وقيل: الخالفة: ما لا خير فيه.

(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٢/ ١٠٥): قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إلا النبوة» استثناء من منزلة هارون عليه السلام.
والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٦٣).



قال الإمام النـووي: وفي هذا الحديث إثبات فضيلة لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولا تعرُّض فيه لكونه أفضل من غيره أو مثله، وليس فيه دلالة لاستخلافه بعده؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما قال هذا لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين استخلفه في المدينة[(١)] في غـزوة تَبُوك، ويؤيد هذا أن هارون عَلَيْهِٱلسَّلَامُ المشـبَّه به لم يكن خليفة بعد موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، بل تُوفي في حياة موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وقبل وفاة موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بنحو أربعين سنة، على ما هو مشهور عند أهل الأخبار والقَصص[(٢)].

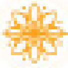


خروج الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومروره بديار ثمود

خرج رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المدينة النَّبوية بجيشه العظيم إلى تَبُوك، وفي طريقهم مروا بديار ثمود، فاستحثَّ[(٣)] رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ راحلتـه، ونـزل قريبًا من ديـار ثمود؛ فقد روى الشـيخان في صحيحيهما عـن عبـد الله بن عمـر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: لمـا مَرَّ رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالحِجْر[(٤)]، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يُصيبكم[(٥)] ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»، ثم قَنَّعَ[(٦)] رأسـه، وأسـرع السَّيْرَ حتى

---

(١) على أهله.
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٤٢).
(٣) الحَثُّ: الاستعجال. انظر: لسان العرب (٣/ ٤٦).
(٤) قال السـندي في شرحه للمسند (١٠/ ٤٥٨): الحِجْر: بكسر المهملة، وسكون الجيم، وثمود: قوم صالح عليه السلام.
(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧): وهذا يتناول مسـاكن ثمود وغيرهم ممن هو كصفتهم، وإن كان السبب ورد فيهم.
(٦) قَنَّعَ: غطَّى. انظر: النهاية (٤/ ١٠٠).



أجاز الوادي[١].

وأمرهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألَّا يشربوا من آبارها ولا يستقوا؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزل الحِجْرَ في غزوة تَبُوك، أمرهم ألَّا يشربوا من بئرها ولا يَستقوا منها، فقالوا: قد عَجَنَّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويُهريقوا ذلك الماء[٢].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فأمرهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُهريقوا ما استقَوا، ويعلفوا الإبِلَ العجينَ[٣].

قال الإمام ابن القيم: ومنها: [٤] أن الماء الذي بآبار ثمود لا يجوز شربه، ولا الطبخ به والعجين به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يُسقى البهائم، إلا ما كان من بئر الناقة[٥]، وكانت معلومة باقية إلى زمن النبي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤١٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٨٠) (٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٣٧٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٨١).

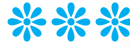
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٣٧٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٨١).

(٤) أي: من الفوائد التي تضمنَّتْها غزوة تبوك.

(٥) لما ثبت في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٣٧٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٩٨١) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: وأمرهم -يعني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يستقوا من البئر التي كانت ترِدُها الناقة.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم استمر عِلْمُ الناس بها قرنًا بعد قرنٍ إلى وقتنا هذا، فلا يَرِد الركوبُ بئرًا غيرها، وهي مطويَّة محكَمة البناء، واسعة الأرجاء، آثار العِتق عليها بادية، لا تشتبه بغيرها[1].



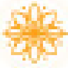
ظهور المعجزات

أكمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقه إلى تبُوك، وقد اشتدت على الناس حاجتهم إلى الماء، فرفع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه إلى السماء؛ فأنزل الله سبحانه عليهم الماء؛ فقد روى الحاكم في مستدركه وابن حبان في صحيحه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قيل لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدِّثْنا عن شأن العُسْرة، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا إلى تَبُوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أنَّ رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل ليذهبُ يَلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحرُ بعيره، فيعصر فَرْثَهُ فيشربه، ويجعل ما بَقِيَ على كبده! فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، قد عَوَّدك الله في الدعاء خيرًا؛ فادع لنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتُحب ذلك؟» قال: نعم، قال: فرفع يديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يَرجِعْهما حتى أظلَّت سحابة، فسكبت[2]، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٧٠٤).

(٢) سكب الماء: صبه. انظر: لسان العرب (٦/ ٣٠٢).



جاوزت العَسْكَرَ[(١)]!

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أو عن أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان غزوة تَبُوك أصاب الناسَ مجاعةٌ[(٢)]، فقالوا: يا رسول الله، لو أذِنْتَ لنا فنحرنا نواضحنا[(٣)] فأكَلْنا وادَّهَنَّا، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افعلوا»، فجاء عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، إن فعَلْتَ قَلَّ الظهر[(٤)]، ولكن ادعُهم بفضل أزوادهم، ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة؛ لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، فدعا بنِطَعٍ[(٥)] فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكفِّ ذُرَة، ويجيء الآخر بكفِّ تمر، ويجيء الآخرة بكِسْرة، حتى اجتمع على النِّطَع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بالبركة، ثم قال: «خُذوا في أوعيتكم»، فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وِعاءً إلا ملؤوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضَلَت فضلة، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٥٧٥) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (١٣٨٣).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١/ ١٩٩): المجاعة -بفتح الميم-: الجوع الشديد.

(٣) النواضح: الإبل التي يُستقى عليها، واحدتها: ناضح. انظر: النهاية (٥/ ٥٩).

(٤) الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركَب. انظر: النهاية (٣/ ١٥١).

(٥) النِّطع -بكسر النون، وكسر الطاء وسكونها-: بِساط من جلد. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٨٦).



بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فيُحجَبَ عن الجنة»[١].



إمامة عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه العظيم منزلًا، وهم في طريقهم إلى تَبُوك، وقُبيل الفجر ذهب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقضاء الحاجة، وتأخر على المسلمين حتى كاد يخرج وقت صلاة الفجر، فقَدَّم المسلمون عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأدرك رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعةً، وفاتته ركعة؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه -واللفظ لأبي داود-، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عَدَلَ[٢] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا معه في غزوة تَبُوك قبل الفجر، فعدلتُ مَعَه، فأناخ[٣] النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتبرَّز، ثم جاء فسكبتُ على يده من الإداوة[٤]، فَغَسَلَ كَفَّيهِ، ثم غسل وجهه، ثم حَسَرَ[٥] عن ذراعيه فضاق كُمَّا جُبَّته[٦]، فأدخل يديه فأخرجهما من تحت الجُبَّة فغسلهما إلى المِرفَق، ومسح برأسه، ثم توضأ على خُفَّيه[٧]، ثم ركب، فأقبلنا نسير

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧) (٤٥).
(٢) عَدَلَ: مال. انظر: النهاية (٣/ ١٧٣).
(٣) أناخ الإبل: أبركها فبَرَكت. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٢١).
(٤) الإداوة -بكسر الهمزة-: إناء صغير من جِلد يُتَّخذ للماء. انظر: النهاية (١/ ٢٦).
(٥) حَسَرَ: كشف. انظر: النهاية (١/ ٣٦٨).
(٦) الجُبَّة -بضم الجيم-: نوع من الثياب تُلبَس. انظر: لسان العرب (٢/ ١٦١).
(٧) في رواية الإمام أحمد: ومسح على خُفَّيه.



حتى نَجِدَ الناس في الصلاة قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فصلى بهم حين كان وقتُ الصلاة، ووجدنا عبد الرحمن وقد رَكَعَ لهم ركعةً من صلاة الفجر، فقام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَفَّ مع المسلمين، فصلى وراء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الركعة الثانية، ثم سَلَّم عبد الرحمن، فقام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاته، ففزع المسلمون، فأكثروا التسبيح؛ لأنهم سبقوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة، فلما سَلَّم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال لهم: «قد أصبتم»، أو: «قد أحسنتم»[(١)].



وصول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تَبُوك

أخبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين قُبيل وصولهم لتَبُوك بأن ماء العين الذي في تَبُوك قليل، فلا يأخذ منه أحد، لكن بعض المنافقين الذين كانوا في جيشه لم يأتمر بالأمر النَّبَوي وسبقوه إلى الماء، واستَقَوا منه؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم غزوة تَبُوك[(٢)]، فبلغه أن

(١) زاد الإمام مسلم: يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها.
والحديث أخرجه الإمام مسلم - رقم الحديث (٤٢١) (١٠٥) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨١٣٤) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٤٩).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١/ ١٩٩): هكذا ضبطناه: يوم غزوة تبوك، والمراد باليوم هنا: الوقت والزمان، لا اليوم الذي هو ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس.



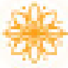
في الماء قِلَّةً الذي يَرِدُهُ[1]، فأمر مناديًا فنادى في الناس: «أنْ لا يسبقني إلى الماء أحد»، فأتى الماءَ، وقد سبقه قوم؛ فلعنهم[2].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام غزوة تَبُوك، فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهرَ والعصرَ جميعًا، والمغربَ والعشاءَ جميعًا، حتى إذا كان يومًا أَخَّرَ الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك، فصلى المغرب والعشاء جميعًا، ثم قال: «إنكم ستأتون غدًا -إن شاء الله- عينَ تَبُوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئًا حتى آتي، فجئناها وقد سبقَنا إليها رجلان[3]، والعين مثل الشِّرَاك تَبِضُّ[4] بشيء من ماء، فسألهما رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل مَسِسْتُما من مائها شيئًا؟».

قالا: نعم، فسبهما النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا، حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت

---

(١) يُقال: وردتُ الماء أرِدُه ورودًا: إذا حضرته لتشرب. انظر: النهاية (١/ ١٥١).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٣٩٥).
(٣) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٨١): فسبقه إليه نفر من المنافقين.
(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ٣٣): هكذا ضبطناه هنا: تَبِضُّ: بفتح التاء، وكسر الموحدة، وتشديد الضاد المعجمة، ونقل القاضي اتفاق الرواة هنا على أنه بالضاد المعجمة، ومعناه تسيل، واختلفوا في ضبطه هناك، فضبطه بعضهم بالمعجمة وبعضهم بالمهملة، أي: تَبرُق، والشِّرَاك -بكسر الشين-: وهو سير النعل ومعناه: ماء قليل جدًّا.



العين بماء منهمر[1] -أو قال غزير- حتى استقى الناس، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد مُلِئ جِنانًا!»[2].



إقامة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَبُوك، وأهم أعماله فيها

أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَبُوك عشرين يومًا؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبُوك عشرين يومًا يقصُر الصلاة[3].

ولم يلقَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدوًّا، وبعث البُعوث والسرايا إلى القبائل حول تبُوك، وصالح رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَنَّةَ[4] بن رُؤْبةَ[5] صاحِبَ أَيْلةَ[6]، وبعث خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سَرِيَّة إلى

---

(١) انهمر الماء: انسكب بقوة. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٩٩٣).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ٣٤): أي: بساتينَ وعُمرانًا، وهو جمع جَنَّة.
والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - بإثر الحديث رقم (٢٢٨١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤١٣٩) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٢٣٥).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١١٠): يُحَنَّة: بضم التحتانية، وفتح المهملة، وتشديد النون.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١١٠): رُؤبة: بضم الراء، وسكون الواو، بعدها موحدة.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١١٠): أَيْلَة -بفتح الهمزة، وسكون التحتانية، بعدها لام مفتوحة- بلدة قديمة بساحل البحر.



أُكيـدِر[1] دُومـةَ، وصالحه؛ فقد روى الشـيخان في صحيحيهما عن أبي حُمَيد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال: غزونا مع النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبُوك، وأهـدى ملكُ أَيْلَةَ للنبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغلةً بيضاءَ[2]، وكسـاه بُرْدًا[3]، وكتب له ببَحْرِهم[4].

وروى أبو داود في سـننه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن عثمان بن أبـي سـليمان: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خالد بـن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى

---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٢٢): أُكَيْدِر: بضم الهمزة، وفتح الكاف.

* وقال ابن الأثير في أُسـد الغابة (١/ ١٣٣): أُكَيْدِر بن عبد الملك، أهدى لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصالحه ولم يُسـلِم، وهذا لا اختلاف بين أهل السِّـيَر فيـه، ومَن قال: إنه أسـلم، فقد أخطأ خطأ ظاهرًا، ثم إن خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسـره لما حصر دومة أيام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقتله مشركًا نصرانيًّا.

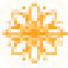
(٢) قـال الحافظ في الفتح (٦/ ١٦٨): ومما يُنبَّـه عليه هنا أن البغلة التي كان عليها في حُنين غير البلغة البيضاء التي أهداها له ملك أَيْلَةَ؛ لأن ذلك كان في تبوك، وغزوة حُنين كانت قبلها، وقد وقع في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٧٥) (٧٦) من حديث العباس أن البغلة التي كانت تحته في حُنين أهداها له فَرْوةُ بن نُفَاثَةَ -بضم النون، بعدها فاء خفيفة، ثم مثلثة- وهذا هو الصحيح.

(٣) البُرْد: نوع من الثياب معروف. انظر: النهاية (١/ ١١٦).

(٤) ببحرهم: أي ببلدهم وأرضهم. انظر: النهاية (١/ ١٠٠).

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ١١١): أو المراد: بأهل بحرهم؛ لأنهم كانوا سكانًا بساحل البحر، أي: أنه أقره عليهم بما التزموه من الجزية.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣١٦١) - ومسلم في صحيحه بإثر الحديث رقم (٢٢٨١).



أُكَيْدِر دُومةَ، فأخذوه، فأتوه به، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن حبان بسند حسن عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشًا إلى أُكَيْدِر دُومة، فأرسل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجُبَّةٍ من دِيباج[2] منسوج فيها الذَّهَب[3]، فلبسها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقام على المنبر، أو جلس، فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يَلمَسون الجُبَّة، وينظرون إليها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتعجبون منها»، قالوا: ما رأينا ثوبًا قطُّ أحسَنَ منه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لمناديلُ سعدِ بن معاذ في الجنة أحسَنُ ممَّا ترون!»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٣٠٣٧) بإسناد رجاله ثقات غيرَ محمد بن إسحاق -صاحب السيرة-، وهو حسن الحديث إذا صرح بالتحديث، ولم يُصرِّح بالتحديث في رواية أبي داود، وصَرَّح بالتحَديث في رواية البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٠) - وأورد طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (٣٣٤٦) وصححه.

(٢) وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٢٦١٥) (٢٦١٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٦٩): سُندس.
والسندس: هو ما رَقَّ من الديباج. انظر: النهاية (٢/ ٣٦٧).
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٨٠٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٦٨): حرير.

(٣) زاد الإمام أحمد في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (١٣٤٥٥): وذلك قبل أن ينهى نبيُّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحرير.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٢٣) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٨٢٠) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٤٠٣٧) - وأخرجه مختصَرًا: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٦١٥) (٢٦١٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٦٩).



رجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة

أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَبُوك عشرين يومًا، ولم يَلْقَ عدوًّا، ثم رجع إلى المدينة؛ فقد روى ابن أبي عاصم في السنة بسند حسن، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام فينا يوم تَبُوك، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله أذن لكم بهذا المسير، وقد أذن لكم بالرجوع»[1].



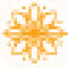
محاولة اغتيال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تآمر عددٌ من المنافقين على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرادوا مزاحمته على العَقَبة ليقتلوه، فحفظ الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أبي الطُّفَيل، قال: لما أقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة تَبُوك أمر مناديًا، فنادى: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ العَقَبة[2]، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة - رقم الحديث (٤١٤).

(٢) العَقَبة: الجبل الطويل. انظر: لسان العرب (٩/ ٣٠٦).
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/ ١٠٥): وهذه العَقَبة ليست العقبة المشهورة بمنًى التي كانت بها بيعة الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإنما هذه عقبة على طريق تَبُوك، اجتمع المنافقون فيها للغدر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك؛ فعصمه الله منهم.



الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوده حُذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويسوق به عمارٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذ أقبل رَهطٌ[(١)] ملثَّمون على الرواحل[(٢)]، غَشُوا عمَّارًا وهو يسوق برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقبل عمارٌ يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحُذيفة: «قَدْ[(٣)]، قَدْ»، حتى هبط رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما هبط رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل ورجع عمَّار، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا عمار، هل عرفتَ القومَ؟» قال: قد عرفتُ عامة الرواحل، والقومُ مُلَثَّمون، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل تدري ما أرادوا؟»، قال: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أرادوا أن يُنفِروا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيطرحوه!». قال: فسأل عمارٌ رجلًا من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: نَشَدْتُك بالله، كم تعلم كان أصحابُ العقَبَة؟ فقال: أربعة عشر، فقال: إن كنتَ فيهم فقد كانوا خمسة عشر، فعذر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم ثلاثة، فقالوا: واللهِ ما سمعنا منادي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أشهد أن الاثني عشر الباقين حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[(٤)].

---

(١) الرهط من الرجال: ما دون العشرة. انظر: النهاية (٢/ ٢٥٧).

(٢) الراحلة من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأحمال، والذكر والأنثى فيه سواء. انظر: النهاية (٢/ ١٩١).

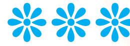
(٣) قَدْ: يعني: حَسْبُك، كَفَى كَفَى.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٧٩٣) - وأخرجه مختصرًا الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٧٩) (١١).



ونزل في ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾[1].

قال الإمام القرطبي في تفسيره: يعني المنافقين، من قَتْلِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة العَقَبَة في غزوة تَبُوك[2].



استعجال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة

فلما وصل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وادي القرى، قال لأصحابه:

---

(١) سورة التوبة - آية (٧٤).

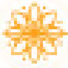
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٣٠٤).

* فائدة جليلة:

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٨): قول مَن قال: كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا في غزوة تبوك الذين هَمُّوا أن يفتِكوا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ظلماء الليل عند عَقَبة هنالك، عزموا على أن يُنفِروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، وأطلع على ذلك حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولعل الكفَّ عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها، والله أعلم.

* فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾. سورة التوبة - آية (١٠١).

وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ - سورة الأحزاب - آية (٦٠-٦١)؛ ففيها دليل على أنه لم يُغْرِ بهم، ولم يدُلَّ على أعيانهم، وإنما كان يُذكَر له صفاتهم، فيتوسمها في بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ - سورة محمد - آية (٣٠).



«إني متعجِّل إلى المدينة، فمن أراد منكم أن يتعجَّل معي فليتعجَّل»[١].

ولما أشرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة، قال: «هذه طابة»، ولما رأى جبل أُحُد، قال: «هذا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحبُّنا ونُحبه»[٢].

قال الإمام النووي: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحبنا ونحبه»: الصحيح أنه على ظاهره، وأن معناه: يُحبنا هو بنفسه، وقد جعل الله فيه تمييزًا[٣].

وذكر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه أجور أهل الأعذار؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجع من غزوة تَبُوك فدنا من المدينة، فقال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سِرتُم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وهم بالمدينة، حبَسَهم العُذر»[٤].

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن مَن نوى الغزو وغيره من الطاعات، فعرض له عُذرٌ منعه، حصل له ثوابُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٤٨١) (١٤٨٢) (٤٤٢٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٩٢).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٤١٨) (١٤٨٢) (٤٤٢٢) - ومسلم في صحيحه رقم الحديث (١٣٩٢).
(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ١٣٨).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٢٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩١١).



نيِّته، وأنه كلما كان أكثر من التأسف على فوات ذلك، وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم، كَثُر ثوابُه، والله أعلم[١].



استقبال أهل المدينة

وتسامع أهلُ المدينة بقدوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرجوا إلى ثنية الوداع يتلقَّونه بحفاوة وفَرَح وسرور؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أذكر أني خرجت مع الصبيان نتلقى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ثنية الوداع مَقْدَمَه من غزوةِ تَبُوك[٢].

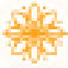
وفي رواية الإمام الترمذي بسند صحيح، قال السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما قدم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تَبُوك خرج الناس يتلقونه إلى ثنية الوداع، قال: فخرجتُ مع الناس وأنا غلام[٣].



تحريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجدَ الضِّرَار

أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبيل دخوله المدينةَ النَّبَوية مالِكَ بن

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٤٩).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٢٧).
(٣) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٨١٥) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.



الدُّخْشُم [(١)]، ومَعْنَ بن عَدِي [(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بتحريق وهدم مسجد الضِّرار، الذي بناه المنافقون؛ للضرر بالإسلام والمسلمين، ففضحهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [(٣)].



---

(١) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٦٩): الدُّخْشُم: بالدال المهملة المضمومة، ثم خاء معجمة ساكنة، ثم شين معجمة مضمومة، ثم ميم، ويُقال: الدُّخَيشِم بالتصغير، ويُقال: الدُّخشُن والدُّخيشِن بالنون، مُكبّرًا ومُصَغّرًا.

* وقال في شرحه لصحيح مسلم (١/ ٢١٤): واعلم أن مالك بن دخشم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا من الأنصار، ذكر أبو عمر بن عبد البر -في الاستيعاب (٣/ ٤٠٦)- اختلافًا بين العلماء في شهوده العَقَبَة، قال: ولم يختلفوا أنه شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد.

وقد نص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إيمانه باطنًا وبراءته من النفاق، بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رواية الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٢٥): «ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجهَ الله؟»

فهذه شهادة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنه قالها مصدقًا بها معتقدًا صِدْقَها متقربًا بها إلى الله تعالى، وشهد له في شهادته لأهل بدر بما هو معروف، فلا ينبغي أن يُشَكَّ في صدق إيمانه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٨): مَعْن: هو بفتح الميم وسكون المهملة.

قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٨٥٨) - قسم التراجم -: معن بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخو عاصم بن عَدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وشهد العقبة، وقُتِلَ يوم اليمامة في خلافة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا.

(٣) سورة التوبة - الآيتان (١٠٧-١٠٨).

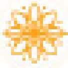


موقف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المُخَلَّفين

كانت غزوة تَبُوك لظروفها الخاصة بها اختبارًا شديدًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مَيَّز بها المؤمنين من غيرهم؛ فقد خرج لهذه الغزوة كل مَن كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلفُ أمارة[1] على نفاق الرجل إذا لم يكن له عذر يَعذِره الله به؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وهو أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا عن هذه الغزوة- قال: فلما قيل: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أظَلَّ قادمًا زاح عني الباطل، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كَذِبٌ، فأجمعتُ صِدْقَه، وأصبح رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخلَّفون، فطَفِقوا[2] يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيتَهم، وبايعَهم واستغفَرَ لهم، ووَكَلَ سرائرهم إلى الله[3].

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تاب على مَن تخلَّف من الصحابة الصادقين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لصِدْقِهم، وعلى رأسهم: كعبُ بن مالك، وهلالُ بن أُمَيَّة،

(١) الأمارة -بفتح الهمزة-: العلامة. انظر: النهاية (١/ ٦٨).
(٢) طَفِق: جعل. انظر: النهاية (٣/ ١١٨).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤١٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٦٩).



ومُـرَارةُ[١] بنُ الرَّبيع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾[٢].

قال الحافظ ابن كثير: فكان عاقبةُ صدقهم خيرًا لهم، وتوبةً عليهم[٣].



ما نزل من القرآن حول غزوة تَبُوك

قال الحافظ ابن كثير: وأنزل اللهُ فيها[٤] عامَّةَ سورة التوبة[٥].

وقال الإمام القرطبي: تُسـمَّى الفاضحةَ، والبَحُوثَ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين[٦].

وروى الشـيخان في صحيحيهما عن سعيد بن جُبير، قال: قلت لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: سورة التوبة؟

قـال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنُّوا أنها لم تُبْقِ أحدًا منهم إلا ذُكِرَ فيها[٧].

---

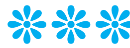
(١) قـال ابن الأثير في جامـع الأصول (٢/ ٨٤٧) - قسـم التراجم -: مُـرَارة: بضم الميم، وتخفيف الراء الأولى.
(٢) سورة التوبة - الآيات (١١٧ - ١١٩).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦٩).
(٤) يعني: في غزوة تبوك.
(٥) انظر: الفصول في سيرة الرسول، ص (٢٤٩).
(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٩٣).
(٧) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٨٨٢) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣١).



وروى ابن أبي شيبة في مصنفه بسند حسن عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: تقولون سورة التوبة، وهي سورة العذاب[١].

وروى الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن جُبير بن نُفَير، قال: قال رجل للمِقْداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو قعدتَ العام عن الغزو! قال: أَبَتْ علينا البَحُوثُ -يعني سورة التوبة-؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[٢]، ولا أجدني إلا خفيفًا[٣].

وقال ابن إسحاق: وكانت براءة تُسمى في زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعده الـمُبعثِرةَ؛ لما كشفت من سرائر الناس، وكانت تَبُوك آخِرَ غزوة غزاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

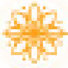


تأمير أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الحج

أَمَّرَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الحج، وذلك في السنة التاسعة للهجرة[٥]؛ ليُقيم للمسلمين حَجَّهم، وبقي رسول

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه - رقم الحديث (٣٠٨٩٨).
(٢) سورة التوبة - آية (٤١).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٣٢١).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٨).
(٥) قال الإمام البخاري في صحيحه: باب حجِّ أبي بكر بالناس في سنة تسع.
قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤١٣): كذا جزم به، ويُؤيده أن ابن إسحاق -في السيرة (٤/ ١٩٧)- صَرَّح بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بعد أن رجع من تبوك رمضان وشوالًا=



الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة النَّبوية يُتابع الدعوة والوفود التي قدمت إليه لتُعلِنَ إسلامها، فخرج أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعشرين بَدَنَة(١) قلَّدها(٢) وأشعَرَها(٣) بيده الشريفة، واستعمل عليها ناجية بن جُندَب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وساق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خمسَ بدنات(٤).

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: فتلتُ(٥) قلائِدَ هَدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيديَّ، ثم قَلَّدها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيديه، ثم بعث بها مع أَبِي(٦)، فلم يَحرُمْ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيءٌ أحله الله له حتى نُحِرَ الهَديُ(٧).

= وذا القَعدة، ثم بعث أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على الحج، فهو ظاهر في أنَّ بَعْثَ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان بعد انسلاخ ذي القَعدة، فيكون حجه في ذي الحجة على هذا. والله أعلم.

(١) البَدَنة: تقع على الجمل والناقة والبقرة، وهي بالإبل أشبه، وسُمِّيت بدنةً؛ لعِظَمِها وسِمَنِها. انظر: النهاية (١/ ١٠٨).

(٢) تقليد الهَدْيِ: أن يُجعَل في عنقها شِعارٌ يُعلَمُ به أنها هَدْيٌ. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٧٦).

(٣) إشعار البُدْن: هو أن يُشقَّق أحد جَنْبي سَنام البَدَنَة حتى يَسيل دمُها، ويُجعَل ذلك لها علامة تُعرَف بها أنها هَدْيٌ. انظر: النهاية (٢/ ٤٢٩).

(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٣٤).

(٥) فتلتُ: لويتُ. انظر: لسان العرب (١٠/ ١٧٧).

(٦) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٦٧): أَبِي -بفتح الهمزة، وكسر الموحَّدة الخفيفة- تريد بذلك أباها أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٠٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٢١) (٣٦٩).



بعث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسورة براءة

فلما خرج أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولُ الآيات من سورة التوبة[1]، فبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليُعلِنَ للناس ما فيها من أحكام.

قال الحافظ في الفتح: قال العلماء: الحكمة في إرسال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عادة العرب جرت بأن لا يَنقُضَ العهد إلا مَن عقده أو مَن هو منه بسبيلٍ من أهل بيته؛ فأجراهم في ذلك على عادتهم[2].

وقال الحافظ ابن كثير: وأول هذه السورة[3] الكريمة نزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع من غزوة تبُوك، وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضُرون عامهم هذا الموسِمَ[4] على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عُراةً؛ فكره مخالطتَهم، وبعث أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمِيرًا على الحج تلك السنة؛ ليُقيم للناس مناسكهم[5].

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢١٠): نزل أول براءة عقِبَ فتح مكة في سنة تسع عام حج أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... لا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) انظر: فتح الباري (٩/ ٢١٦).

(٣) يعني سورة التوبة.

(٤) الموسِم: هو الوقت الذي يجتمع فيه الحاجُّ كل سنة، كأنه وُسِمَ بذلك الوَسْمِ، وهو مَفْعِل منه، اسم للزمان؛ لأنه مَعْلَمٌ لهم. انظر: النهاية (٥/ ١٦٢).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤).



وروى الإمام الترمذي في جامعه والحاكم في مستدركه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعث أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأَمَرَه أن يُنادِيَ بهؤلاء الكلمات[1]، فأتبعه عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فبينا أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ببعض الطريق إذ سمع رُغاءَ[2] ناقة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فخرج أبو بكر فَزِعًا، فظن أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فدفع إليه كتاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد أَمَّرَه[3] على الموسم، وأَمَرَ عليًّا أن يُنادِيَ بهؤلاء الكلمات، فقام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنه في أيام التشريق، فنادى:

١- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾.

٢- لا يحُجَّنَّ بعد العام مُشرِكٌ[4].

٣- ولا يطوفَنَّ بالبيتِ عُريان.

٤- ولا يدخُل الجنَّةَ إلا مؤمن.

---

(١) هي التي نادى بها عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهي التي في آخر الحديث.

(٢) الرُّغاء -بضم الراء-: هو صوت البعير. انظر: النهاية (٢/ ٢١٨).

(٣) يعني تأمير أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على الحج.

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٩٨): موافق لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، والمراد بالمسجد الحرام هاهنا الحرم كله، فلا يُمكَّن مشركٌ من دخول الحرم بحالٍ، حتى لو جاء في رسالة أو أمر مهم لا يُمكَّن من الدخول، بل يُخْرَج إليه مَن يقضي الأمر المتعلِّق به، ولو دخل خُفيةً ومَرِضَ ومات، نُبِش وأُخرِجَ من الحرم.



فكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُنادي بها، فإذا بَحَّ قام أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنادى[1].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعثني أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحجة التي أَمَّرَهُ عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل حَجَّة الوداع في رهط يُؤذِّنون[2] في الناس يوم النحر: لا يحُج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان[3].

قال الحافظ في الفتح: فالحاصل أن مباشرة أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك[4] كانت بأمر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يُنادي بما يُلقيه إليه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مما أُمِرَ بتبليغه[5].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند صحيح عن زيد بن يُثيع، قال: سألنا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأي شيء بُعِثْتَ في الحجة؟ قال: بُعثتُ بأربع: أن لا يطوفَنَّ بالبيت عُريان، ومَن كان بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد، فهو[6] إلى مُدَّتِه[7]، ومَن لم يكن له عهد، فأجَلُه

(١) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٣٣٤٥) - والحاكم في مستدركه - رقم الحديث (٤٤٢٣).

(٢) الأذان: هو الإعلام بالشيء. انظر: النهاية (١/ ٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٤٧).

(٤) أي: بالإعلام.

(٥) انظر: فتح الباري (٩/ ٢١٣).

(٦) في رواية الإمام أحمد، ورواية أخرى في جامع الترمذي: فعَهْدُه.

(٧) قلت: وقع في رواية أخرى في المسند - رقم الحديث (٧٩٧٧) وَهْمٌ، وهو قوله: ومَن كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد، فإنَّ أجَلَه -أو أمَدَه- إلى أربعة أشهر. =

أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا[1].



عام الوفود [2]

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وفرغ من تَبُوك، وأسلمت ثقيفٌ وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تَرَبَّصُ[3] بالإسلام أمْرَ هذا الحيِّ من قريش، وأمْرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك أن قريشًا كانوا إمامَ الناس وهاديَهم، وأهلَ البيت الحرام، وصريحَ ولد إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،

= قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/ ٣٠٦): وأخشى أن يكون هذا الخبر وهمًا من ناقله في الأجَلِ؛ لأن الأخبار متظاهرة في الأجَلِ بخلافه.

* وحكم الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٤٢) على هذه الرواية بالنكارة، فقال: وهذا إسناد جيد، لكن فيه نكارة من جهة قول الراوي: إن مَن كان له عهد فأجَلُه إلى أربعة أشهر، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون، ولكن الصحيح أن مَن كان له عهد فأجَلُه إلى أمَدِه بالغًا ما بلغ، ولو زاد على أربعة أشهر، ومَن ليس له أمدٌ بالكلية فله تأجيل أربعة أشهر، بقي قسم ثالث: وهو مَن له أمد ينتهي إلى أقلَّ من أربعة أشهر من يوم التأجيل، وهذا يُحتَمَل أن يلتحق بالأول، فيكون أجلُه إلى مُدَّتِه وإن قَلَّ، ويُحتمل أن يُقال: إنه يُؤَجَّل إلى أربعة أشهر؛ لأنه أولى ممن ليس له عهد بالكلية. والله أعلم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٥٩٤) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٨٦) (٣٣٤٦) وقال الترمذي في الموضعين: حديث حسن صحيح.

(٢) قال ابن هشام في السيرة (٤/ ٢١٤): حدثني أبو عبيدة: أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تُسمَّى سنة الوفود.

(٣) التربُّص: المُكث والانتظار. انظر: لسان العرب (٥/ ١٠٨).

وقادةَ العرب، لا يُنكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت[1] لحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلافه، فلما افتُتحت مكة، ودانت[2] له قريش، وَدَوَّخها[3] الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عداوته؛ فدخلوا في دين الله -كما قال عَزَّ وَجَلَّ- أفواجًا، يضربون إليه من كل وجه؛ يقول الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[4]، أي: فاحمَدِ الله على ما أظهر من دينك، واستغفِرْه؛ إنه كان توابًا[5].

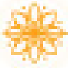
وقال الحافظ ابن كثير: وتواترت الوفود في هذه السنة[6] وما بعدها على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُذعِنةً بالإسلام، داخلين في دين الله أفواجًا[7].

ملاحظة هامة:

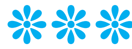
قال الحافظ ابن كثير: قد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ

---

(١) ناصبه الشر والحرب والعداوة: أظهره له. انظر: لسان العرب (١٤/ ١٥٦).
(٢) دانت: خضعت وذلَّت. انظر: لسان العرب (٤/ ٤٢٢).
(٣) دَوَّخها: أذلها وأخضعها. انظر: لسان العرب (٤/ ٤٣٧).
(٤) سورة النصر كاملة.
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٤).
(٦) يعني: سنة تسع للهجرة.
(٧) انظر: الفصول في سورة الرسول - ص (٢٥١).



﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[1]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الفتح: «لا هجرة[2] ولكن جِهادٌ ونية[3]»؛ فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممن يُعَدُّ وفودُه هجرةً، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله خيرًا وحُسنى، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة، والله أعلم[4].



وَفدُ ثقيفٍ

قَدِم وَفدُ ثقيفٍ على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رمضان من السنة التاسعة للهجرة[5]، فأسلموا، وكانوا اشترطوا بعض الأمور؛ فقد روى أبو داود في سننه بسند صحيح عن وهب، قال: سألتُ جابرًا عن شرط ثَقيفٍ إذ بايعت، قال: اشترطَتْ على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنْ لا صَدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك، يقول: «سيتصَدَّقون ويُجاهِدون إذا أسلَموا»[6].

---

(١) سورة الحديد - الآية (١٠).
(٢) زاد البخاري في صحيحه في رواية أخرى: «بعد الفتح».
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٢٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٥٣).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٤).
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٩١).
(٦) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٣٠٢٥).



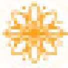
فلما أراد وفد ثقيف الانصراف إلى بلادهم، أَمَّرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم عثمانَ بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مِن أحدَثِهم سِنًّا؛ وذلك أنه كان أحرصهم على التفقُّهِ في الإسلام، وتعلُّمِ القرآنِ [(١)].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عثمان بن أبي العاص الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «أُمَّ قومَك»، قلت: يا رسول الله، إني أجد في نفسي شيئًا [(٢)]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْنُهْ»، فجلَّسني بين يديه، ثم وضع كَفَّهُ في صدري بين ثَدْيَيَّ، ثم قال: «تحوَّلْ»، فوضعها في ظهري بين كتفِيَّ، ثم قال: «أُمَّ قومَك، فمن أَمَّ قومًا فليُخفِّفْ؛ فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدُكم وحده فليُصَلِّ كيف شاء» [(٣)].

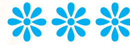
وروى الإمام أحمد في مسنده بسند قوي عن عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن آخر كلام كَلَّمني به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ استعملني على الطائف، فقال: «خَفِّفِ الصلاةَ على الناس»، حتى وَقَّتَ لي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، وأشباهها من القرآن [(٤)].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٤).
(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١٥٥): يُحتمل أنه أراد الخوف من حصول شيء من الكِبر والإعجاب له بتقدُّمِه على الناس، فأذهبه الله تعالى ببركة كف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعائه، ويحتمل أنه أراد الوسوسة في الصلاة؛ فإنه كان مُوَسْوسًا، ولا يَصلُح للإمامة المُوَسْوس.
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٤٦٨).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٧٩١٦).



وهكذا استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دعاء رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلام ثقيف؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند قوي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهمَّ اهْدِ ثقيفًا»[1].



وفد بني تميم

قدم وفد بني تميم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة التاسعة للهجرة، وفيهم: عُطارد بن حاجب، والأقرع بن حابس، والزِّبْرِقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والحبحاب بن يزيد، وعُيَينة بن حِصن، وغيرهم.

قال ابن إسحاق: فلما دخل وفد بني تميم المسجِدَ نادَوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء حُجُراته: أنِ اخرُجْ إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئنا نُفاخِرُك، فَأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أذِنْتُ»، فخطب خطيبهم وهو عُطارد بن حاجب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أجِبْه»، فأجابه، ثم قالوا: يا محمد ائذَنْ لشاعرنا، فأذِنَ له، وهو الزِّبْرِقان بن بدر فأنشد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسان بن ثابت: «أجِبْه»، فأجابه بمثل شِعْرِه، فقالوا: واللهِ لخطيبُه أبلَغُ من خطيبنا، ولشاعِرُه أشعرُ من شاعرنا، ولهم أحلَمُ مِنَّا! ونزل

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٧٠٢).



فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾»[1].

* **واختلف أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في اختيار الأمير لوفد بني تميم؛** فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم ركب من بني تميم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمِّرِ القعقاع بن معبد بن زُرارة، فقال عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أردتَ إلا خلافي! وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أردتَ إلا خلافي! فتماريَا[2] حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[3]، حتى انقضَت[4].

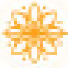
***



وفد بني حنيفة

قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد بني حنيفة، فيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذَّاب؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم مُسَيلِمة الكذَّاب على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل يقول: إن جعل لي مُحمدٌ الأمرَ من بعدِه تبِعْتُه، وقَدِمَها في بشر

(١) سورة الحجرات - الآية (٤) - والخبر في سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٥-٢٢٢).
قلت: اختُلِف في سبب نزول هذه الآية، وذكرتُ ذلك مفصلًا في «اللؤلؤ المكنون»؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.
(٢) المماراة: المجادلة. انظر: النهاية (٤/ ٢٧٥).
(٣) سورة الحجرات - الآية (١).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٦٧).



كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه ثابت بن قيس بن شَـمَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي يد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطعة جريد[1]، حتى وقف على مُسَـيلِمة في أصحابه، فقال: «لو سـألتَني هذه القطعـةَ ما أعطيتُكها، ولـن تعدوَ[2] أمْرَ الله فيك، ولئن أدبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّك[3] الله، وإني لأَراك الذي أُريتُ فيه ما رَأيتُ، وهذا ثابتٌ يُجيبك عني[4]»، ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فسألتُ عن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنك أُرَى الذي أُريتُ فيه ما أُريت»، فأخبرني أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «بينا أنا نائم رأيتُ في يديَّ سوارينِ من ذهب، فأَهَمَّني شـأنُهما، فأُوحي إليَّ في المنـام: أنِ انفُخْهما، فنفختهما فطـارًا، فأوَّلْتُهما كذابينِ يَخرُجان بعدي[5] أحدُهما العَنْسِيُّ، والآخرُ مُسَيلمة[6]».

---

(١) في رواية الإمام مسلم: جريدة.
الجريدة: السَّعَفة، وجمعها جريد. انظر: النهاية (١/ ٢٤٩).

(٢) في رواية الإمام مسلم: «أتعدَّى».

(٣) قـال الإمام ابـن الأثير في جامع الأصول (١١/ ٧٠٣): العَقْـر في الأصل: هو أن تُضرَب قوائم الفرس أو البعير بالسيف فتُقطَع، ثم استُعمِل في القتل والهلاك.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٢٣): أي: لأنه كان خطيب الأنصار، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُعطِيَ جوامع الكلم، فاكتفى بما قاله لمسـيلمة، وأعلمه أنه إن كان يريد الإسـهاب في الخطاب فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك، ويُؤخَذ منه استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك.

(٥) قـال الإمـام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (١٥/ ٢٨): قال العلمـاء: المراد بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يخرجان بعدي»، أي: يُظهِران شوكتهما أو محاربتهما ودعواهما النبوة، وإلا فقد كانا في زمنه.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٧٣) (٤٣٧٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٢٧٣).



قال الإمام النووي: مُسَيلِمة الكذَّاب، عدو الله، جمع جموعًا كثيرة من بني حنيفة وغيرهم من سفهاء العرب وغوغائهم، وقصد قتال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على إثر وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَهَّز إليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجيوش، وأميرهم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة إحدى عشرة من الهجرة، فقاتلوه، فظهروا على مسيلمة، فقتلوه كافرًا[1].

تنبيه هام:

قال الحافظ في الفتح: وسياق هذه القصة[2] يُخالف ما ذكره ابن إسحاق[3] أنه قدم[4] مع وفد قومه، وأنهم تركوه في رحالهم يحفظها لهم، وذكروه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذوا منه جائزته، وأنه قال لهم[5]: إنه ليس بشَرِّكم، وأن مسيلمة لما ادَّعى أنه أُشرِكَ في النبوة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتج بهذه المقالة، وهذا مع شذوذه ضعيف السند؛ لانقطاعه، وأَمْرُ مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك؛ فقد كان يُقال له: رحمان اليمامة؛ لعِظَمِ قَدْرِه فيهم، وكيف يلتئم هذا الخبر الضعيف مع قوله في هذا الحديث الصحيح: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمع به وخاطبه، وصَرَّحَ له بحضرة قومه أنه لو سأله قطعة الجريدة ما أعطاه؟![6].

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٠٠).
(٢) يعني: رواية البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(٣) في السيرة النبوية (٤/ ٢٣٢).
(٤) يعني: مسيلمة الكذاب.
(٥) يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٦) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٢).



وفد نجران

قـدم علـى رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمدينـة النَّبوية وفـد نصارى نجران، ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم، وكان من بينهم العاقِبُ والسَّيِّد، وناقشوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في أمر عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ونـزل فيهم آيات من سـورة آل عمران بذلك، فقـال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾[(١)]، فخافوا من المباهَلة[(٢)] ورفضوها[(٣)].

قال الإمام القرطبي: هـذه الآية من أعلام نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنـه دعاهـم إلى المباهَلـة فأبوا منها، ورَضُـوا بالجزية بعـد أن أعلمهم

(١) سورة آل عمران - الآيات (٥٨-٦١).
قـال الحافظ ابن كثير في تفسـيره (٢/ ٣٥٣): سـبب نزول هذه المباهَلـة وما قبلها من أول السـورة إلى هنا: في وفد نجـران النصارى حين قدموا فجعلوا يُحاجُّون في عيسـى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم.
(٢) المباهَلـة: الملاعَنة، وهـو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شـيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا. انظر: النهاية (١/ ١٦٤).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٥).



كبيرُهم العاقبُ أنهم إن باهَلوه اضطرم[1] عليهم الوادي نارًا؛ فإنَّ محمَّدًا نبـي مرسَـل، ولقد تعلمون أنـه جاءكم بالفصـل في أمر عيسـى، فتركوا المباهَلة، وانصرفوا إلى بلادهم[2].

وروى الإمـام البخاري في صحيحه عن حذيفـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء العاقب والسَّيِّد صاحبا نجران إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُريدان أن يُلاعِناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبيًّا فلاعَنَنا، لا نُفْلِحُ نحن ولا عَقِبُنا مِن بَعْدِنا[3].

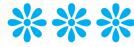
وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لو خرج الذين يُباهِلون رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا[4].

فقبل منهم رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، ثم صالحهم على الجزية؛ فقد روى أبو داود في سـننه بسـند ضعيف -وله شـواهد- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قـال: صالـح رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل نجران علـى ألفَيْ حُلَّة: النِّصْف في صَفَر والنصف في رجب، يُؤدونها إلى المسلمين، وعاريَّةٍ ثلاثيـن درعًا، وثلاثين فرسًـا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين مـن كُلِّ صِنف من

(١) اضطرم: اشتعل. انظر: لسان العرب (٨/ ٥٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٥٩).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٨٠).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٢٥).



أصناف السلاح، يَغْزُون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردُّوها عليهم إن كان باليَمَـنِ كَيْدٌ أو غَدْرَة، على أن لا تُهدَم لهم بِيعةٌ[١]، ولا يُخرجَ لهم قَسٌّ[٢]، ولا يُفتَنوا عن دينهم ما لم يُحدِثوا حَدثًا أو يأكُلوا الرِّبا[٣].



بَعْث أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معهم

فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم، قالوا لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنا نُعطيـك ما سـألْتَنا[٤]، وابعث معنـا رجلًا أمينًا، ولا تبعَـثْ معنا إلا أمينًا، فقـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأبعثَنَّ معكـم رجلًا أمينًا حـقَّ أمينٍ»، فاستشـرف لهـا أصحـاب رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُـمْ يا أبـا عُبَيدة بن الجراح[٥]»، فلما قام قال رسـول الله

(١) البِيعة -بكسـر الباء-: هي كنيسـة اليهود، وقيل: كنيسـة النصارى. انظر: لسان العرب (١/ ٥٥٨).

(٢) القَسُّ -بفتـح القاف-: هو رئيس من رؤسـاء النصارى في الدين والعلم. انظر: لسـان العرب (١١/ ١٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٣٠٤١) - وذكره الحافظ في التلخيص الحَبير (٦/ ٢٩٦٨) وقال: وفي سـماع السُّـدِّي من ابن عباس نظر، لكن له شـواهد - وحسَّنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود.

(٤) قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ٣٥٧): أي: من الجزية.

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٥٥): قال العلماء: الأمانة مشتركة بينـه وبيـن غيره مـن الصحابة، لكن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خص بعضهـم بصفات غلبت عليهم، وكانوا بها أخص.



صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا أمينُ هذه الأمة»[1].

قال الحافظ في الفتح: وفي الحديث منقبة ظاهرة لأبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2].



قدوم ضِمام[3] بن ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بعَثَت بنو سعد بن بكر ضِمامَ بن ثَعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وافدًا عنهم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بينما نحن جلوس مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد دخل رجل على جمل، فأناخه[4] في المسجد[5]، ثم عَقَلَهُ[6]،

---

(١) أخرج ذلك الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٨٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٢٠).

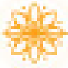
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٩).

(٣) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٥٣٣) - قسم التراجم -: ضِمَام: بكسر الضاد، وتخفيف الميم الأولى.
وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٠٦): الصواب: أن قدوم ضِمام كان في سنة تسع، وبه جزم ابن إسحاق وأبو عبيدة وغيرهما.

(٤) أناخ الإبل: أبركها فبركت. انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٢١).

(٥) في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٨٠) - وأبي داود في سُننه - رقم الحديث (٤٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: فأناخ بعيره على باب المسجد.
قال الحافظ في الفتح(١/ ٢٠٤): فهذا السياق يدل على أنه ما دخل به المسجد، فعلى هذا في رواية أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مجاز حذف، والتقدير: فأناخه في ساحة المسجد، أو نحو ذلك.

(٦) عَقَلَ البعير: ثنى وَظِيفَه مع ذراعه وشَدَّهما جميعًا في وسط الذراع، وذلك الحبل هو العِقال. انظر: لسان العرب (٩/ ٣٢٧).



ثـم قال لهم: أيُّكم محمدٌ؟ -والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُتكئ بين ظهرانَيْهم- فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابنَ عبدالمطَّلِبِ، فقال لـه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «قد أجَبْتُك»، فقـال الرجل للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إني سائلك فَمُشَدِّدٌ عليك في المسألة، فلا تجِدْ عليَّ في نفسك، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «سَـلْ عما بدا لك»، قال: أسـألك بربِّك وربِّ مَن قَبْلَك، آللهُ أرسـلك إلـى الناس كلهم؟ فقال النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللهم نعم»، قال: أَنشُدُك بالله، آللهُ أمرك أن نُصلِّيَ الصلواتِ الخمسَ في اليوم والليلة؟ فقـال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللهم نعم»، قال: أَنشُـدُك بـالله، آللهُ أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللهم نعم»، قال: أَنشُـدُك بالله، آللهُ أمرك أن تأخـذَ هذه الصدقة من أغنيائنا فتَقسِـمَها على فقرائنا؟ فقال النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللهم نعم»، فقال الرجل: آمنتُ بما جئتَ به، وأنا رسـولُ مَن ورائي من قومـي، وأنا ضِمامُ بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر[(١)].

وفي لفـظ آخر في مسـند الإمام أحمد بسـند حسـن، عـن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: بعَثَت بنو سـعد بن بكر ضِمامَ بن ثعلبة وافدًا إلى رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقـدم عليه، وأناخ بعيره على باب المسـجد ثم عَقَلَهُ، ثم دخل المسـجد، ورسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جالس في أصحابه، وكان

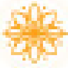
(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٦٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢).

ضِمامٌ رجلًا جَلْدًا[١] أشعَرَ ذا غديرتينِ[٢]، فأقبل حتى وقف على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه، فقال: أيكم ابنُ عبد المطلب؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا ابن عبد المطلب»، قال: يا محمد؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، قال: ابنَ عبد المطلب، إني سائلك ومُغَلِّظٌ في المسألة، فلا تجِدَنَّ في نفسِك، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا أجِدُ في نفسي، فَسَلْ عَمَّا بدا لك»، قال: أَنْشُدُك اللهَ إلهَك، وإلهَ مَن كان قبلك، وإله مَن هو كائن بعدك، آللهُ بعثك إلينا رسولًا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم نعم»، قال: فأنشُدُك اللهَ إلهَك، وإله مَن كان قبلك، وإله مَن هو كائن بعدك، آللهُ أمرك أن تأمرنا أن نعبُدَه وحده، لا نشرِكُ به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم نعم»، قال: فأنشُدُك اللهَ إلهَك، وإله مَن كان قبلك، وإله مَن هو كائن بعدك، آللهُ أمرك أن نُصلِّيَ هذه الصلواتِ الخمسَ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم نعم».

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضةً: الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها، يُناشده عند كل فريضة كما يُناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وسأُؤدِّي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد

(١) جَلْدًا: أي: قويًّا في نفسه وجسمه. انظر: النهاية (١/ ٢٧٥).

(٢) الغدائر: هي الذوائب. انظر: النهاية (٣/ ٣١٠).



ولا أَنقُص، ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين وَلَّى: «إن يَصدُقْ ذو العَقِيصَتَين[1]، يدخُلِ الجنة»، قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلَّم به أن قال: بِئْسَتِ اللاتُ والعُزَّى! قالوا: مَهْ يا ضِمام! اتق البَرَص والجُذام، اتق الجنون! قال: وَيْلَكم! إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله عَزَّوَجَلَّ قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به، ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضِرِه[2] رجل ولا امرأة إلا مسلمًا!

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضَلَ من ضِمامِ بن ثعلبة[3].



(١) العَقيصَتَين: تثنية العَقِيصة، وهي: الشعر المعقوص، وأصل العقْص: اللَّيُّ، وإدخال أطراف الشعر في أصوله. انظر: النهاية (٣/ ٢٤٩).

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٢/ ٤٧٠): حاضِرِه: أي: بَلَدِه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٨٠) - وأخرجه أبو داود في سُننه مختصرًا - رقم الحديث (٤٨٧).



وفد بَجِيلة[١]

قدم جرير بن عبد الله البَجَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه من قومه مائة وخمسون رجلًا، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكره قبل دخوله المسجد؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن جرير بن عبد الله البَجَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما دنوتُ من المدينة أنختُ راحلتي، ثم حَلَلْتُ عَيبتي[٢]، ثم لبستُ حُلَّتي، ثم دخلت، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب، فرماني الناس بالحَدَقِ[٣]، فقلت لجليسي: يا عبد الله، ذكرني رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: نعم، ذكرك آنفًا بأحسَنِ ذِكرٍ! فبينا هو يخطب إذ عَرَض له في خطبته، وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب -أو من هذا الفَجِّ- من خيرِ ذي يمَنٍ، ألَا إن على وجهه مَسْحَةَ مَلَكٍ»، قال جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فحمدتُ الله عَزَّ وَجَلَّ على ما أبلاني[٤].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بايعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع

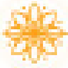
---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٠١): بَجِيلة -بفتح الموحدة، وكسر الجيم- رهط جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبجيلة: امرأة نُسبت إليها القبيلة المشهورة.

(٢) عَيبتي -بفتح العين-: مُستودَع الثياب. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٥).

(٣) الحَدَق: جمع حَدَقة، وهي العين، والتحديق: شدة النظر. انظر: النهاية (١/ ٣٤١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٩١٨٠).



والطاعة، والنصح لكل مسلم[١].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ما حجبني[٢] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضَحِك[٣].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي[٤].

تنبيه هام:

روى الإمام الطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند صحيح عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أسلمتُ قبل وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعين يومًا[٥].

قال الإمام الطحاوي: ففي هذا الحديث أن إسلام جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما كان قبل وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعين إما يومًا وإما ليلة، وهذا عندنا حديث منكَر[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢١٥٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٥٦) (٩٧) (٩٨).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ٢٩): معناه: ما منعني الدخول عليه في وقت من الأوقات.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٢٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٧٥) (١٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٧٥) (١٣٥).

(٥) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦/ ٢٩٩).

(٦) انظر: شرح مشكل الآثار (٦/ ٣٠٠).



وقال الحافظ في الفتح: اختُلِف في إسلامه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والصحيح أنه في سنة الوفود سنة تسع، ووَهِمَ من قال: إنه أسلم قبل موت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعين يومًا؛ لما ثبت في الصحيح: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له في حجة الوداع: «استَنْصِتِ الناسَ»[(١)]، وذلك قبل موته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأكثر من ثمانين يومًا[(٢)].

وقال في الإصابة: جزم الواقدي بأنه وَفَد على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شهر رمضان سنة عشر، وفيه عندي نظر؛ لأن شَريكًا حَدَّث عن الشيباني عن الشعبي عن جرير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أخاكم النجاشي قد مات، فاستغفِروا له»، أخرجه الطبراني[(٣)]، فهذا يدل على أن إسلام جرير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان قبل سنة عشر؛ لأن النجاشي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مات قبل ذلك[(٤)].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٥).
(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٢٢).
(٣) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٩١٨٦) - وحسَّن إسناده الألباني في كتابه أحكام الجنائز - ص (١١٧) - وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٣١/ ٥٢٢): صحيح لغيره.
(٤) انظر: الإصابة (١/ ٥٨٢).



بَعْثُ معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن[١]

بعث رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذَ بن جبل وأبا موسـى الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلـى اليمـن، وأمرهما أن يُعلِّما الناس القـرآن؛ فقد روى الإمام أحمـد في مسـنده والحاكم في مسـتدركه بسـند حسـن عن أبي موسـى الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال: إن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معـاذًا وأبا موسى إلى اليمن، وأمرهما أن يُعلِّما الناس القرآن[٢].

وروى الشـيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال: إن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثـه ومعاذًا إلـى اليمن، فقال: «يَسِّـرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا»[٣].

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث: الأمرُ بالتبشير بفضل الله وعظيم

---

(١) قـال الإمام البخـاري في صحيحه: بـاب بَعْث أبي موسـى ومعاذٍ إلى اليمـن قبل حجة الوداع.

* وقال الحافظ في الفتح (٤/ ١٢٦): كان بَعْثُ معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن سـنة عشر قبل حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكـره المصنِّف -أي البخاري- في أواخر المغازي، وقيل: كان ذلك في أواخر سـنة تسع عند مُنصَرَفِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وأخرجه ابن سعد في طبقاته (٣/ ٢٩٦) عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (١٩٥٤٤) - والحاكم في مسـتدركه - رقم الحديث (٢١١١).

(٣) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٠٣٨) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٣٣).



ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنَّهيُ عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضةً من غير ضمِّها إلى التبشير، وفيه تأليفُ مَن قَرُب إسلامه، وتَرْكُ التشديد عليهم، وكذلك مَن قارب البلوغ من الصبيان، ومَن بلغ ومَن تاب من المعاصي؛ كلُّهم يُتلطَّف بهم، ويُدرَّجون في أنواع الطاعة قليلًا قليلا[١].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئْتَهم فادْعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائمَ[٢] أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[٣].



---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٣٧).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١٢٩): الكرائم: جمع كريمة، أي: نفيسة، ففيه ترك أخذ خيار المال، والنكتة فيه: أن الزكاة لمواساة الفقراء، فلا يُناسِب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء، إلا إن رَضُوا بذلك.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٤٩٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٩) (٢٩).



الوداع الأخير في الدنيا

ثم إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج مع معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لوداعه، وفيه إشعار بأنه لن يلتقيَ بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما بعثه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن خرج معه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمشي تحت راحلته، فلما فرغ، قال: «يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولَعلَّك أن تمرَّ بمسجدي هذا وقبري!»، فبكى معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَشَعًا[1] لفراق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «إنَّ أَولى الناس بي المتقون؛ مَن كانوا وحيث كانوا»[2].

قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث فيه إشارة وظهور وإيماء إلى أن معاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يجتمع بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك وقع؛ فإنه أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع، ثم كانت وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أحد وثمانين يومًا من يوم الحج الأكبر[3].



(١) الجَشَع: الجزع لفراق الإلف. انظر: النهاية (١/ ٢٦٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده – رقم الحديث (٢٢٠٥٢).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٠٦).



حَجَّة الوداع [1]

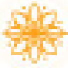
قال الإمام ابن القيم: لا خلاف أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحجَّ بعد هجرته إلى المدينة سوى حجةٍ واحدة، وهي حَجَّة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر [2].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إن

---

(١) سُميت حجة الوداع؛ لأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَّعَ الناس فيها؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه -معلَّقًا بصيغة الجزم- ووصله ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٣٠٥٨) بسند صحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: وقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، وقال: «هذا يوم الحج الأكبر»، فطفق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهم اشهد»، وَوَدَّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع.
* وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم - رقم الحديث (٢/ ٤٩): سُميت بذلك؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَّعَ الناس فيها، وعلَّمهم في خطبته أمر دينهم، وأوصاهم بتبليغ الشرع فيها إلى مَن غاب عنها، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليُبلِّغِ الشاهدُ منكم الغائبَ».
* وتُسمى حجة الإسلام.
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ١١٥): وسُميت حجة الإسلام؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحجَّ من المدينة غيرها.
* وتُسمى حجة البلاغ.
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ١١٥): وسُميت حجة البلاغ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بلَّغ الناس شَرْعَ الله في الحج قولًا وفعلًا، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلما بَيَّن لهم شريعة الحج، ووضحه، وشرحه، أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ عليه وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾.

(٢) انظر: زاد المعاد (٢/ ١٢٢).



النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعدما هاجر حجةً واحدة لم يحجَّ بعدها؛ حَجَّةَ الوداع[١].

قال الإمام النووي: معناه: بعد الهجرة لم يحجَّ إلا حجةً واحدة، وهي حَجَّة الوداع سنة عشر من الهجرة[٢].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن قتادة، قال: سألتُ أنسًا: كم حج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: حجَّةً واحدة[٣].

قال الإمام السندي: قوله: كم حج؟ أي: بعد الهجرة[٤].

قلتُ: وهي حَجَّة الوداعِ.



إعلام الناس بحج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لما عزم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الحج أعلم الناسَ أنه حاج؛ فتجهزوا للخروج معه، وسمع بذلك مَن حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووافاه في الطريق خلائقُ لا يُحصَون،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٠٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٤).
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ١٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٣).
(٤) انظر: شرح السندي للمسند (٧/ ٢١٥).





فكانوا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مَدَّ البصر؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث تسع سنين لم يحُجَّ[1]، ثم أَذَّن في الناس في العاشرة، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجٌّ[2]، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعمل مثل عمله... قال: فنظرتُ إلى مَدِّ بصري بين يديه[3]، من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومِن خَلْفِه مثل ذلك[4].

وفي رواية الإمام النسائي في السنن الكبرى بسند صحيح، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلم يَبْقَ أحد يقدر على أن يأتي راكبًا أو راجِلًا إلا قَدِم[5].

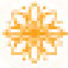


خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة النَّبَوية متوجهًا إلى مكة

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٣٩): يعني: مكث بالمدينة بعد الهجرة.
(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٣٩): معناه: أعلمهم بذلك وأشاعه بينهم؛ ليتأهَّبوا للحج معه.
(٣) يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨).
(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - رقم الحديث (٣٧٢٧).





-شرفها الله- يوم السبت[1] لخمسٍ ليالٍ بَقِين من ذي القَعدة، وذلك بعدما صلى الظهر بالمدينة أربعًا؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخمسٍ بَقِين من ذي القَعدة لا نُرَى[2] إلا الحجَّ[3].

واعتمد ابن إسحاق[4] قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في تاريخ خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة، ولم يتعدَّه.

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: انطلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة بعدما تَرَجَّلَ[5] وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه، فلم يَنْهَ عن شيء من الأردية والأُزُر تُلبَس إلَّا المُزعْفَرةَ التي تَرْدَعُ[6] على الجِلد، فأصبح بذي الحُلَيفة[7]، ركب

(١) هذا ما ذكره ابن سعد في طبقاته (٢/ ٢٣٦) في تحديد يوم خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة، وجزم بذلك الحافظ في الفتح (٦/ ٢١٦) (٨/ ٤٤١)، والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ١١٨)، والإمام ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ١٢٤ - ١٢٧).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٧٣): لا نُرَى -بضم النون- أي: لا نَظُن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٠٩) (١٧٢٠) (٢٩٥٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١١) (١٢٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٧).

(٥) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١٧٦): ترجَّل: أي: سَرَّحَ شعره.

(٦) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٣/ ٤٧٧): ثوب رَديع: أي: صَبيغ، وقد ردَعْتُه بالزعفران، والمراد: الذي يُؤَثِّر صَبْغُه في الجسد، فيصبغه مِن لَونه.

(٧) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٠٣): ذو الحُلَيفة: ميقات أهل المدينة -زادها الله شرفًا- بضم الحاء المهملة، وفتح اللام، وإسكان الياء.



راحلته حتى استوى على البيداء؛ أَهَلَّ هو وأصحابه، وقَلَّدَ[1] بدَنَته[2]، وذلك لخمسٍ بَقِين من ذي القَعدة[3].

---

(١) تقليد الهَدْي: أن يُجعَل في عنقها شعارٌ يُعلَمُ به أنها هَدْيٌ. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٧٦).

(٢) البَدَنة: تقع على الجمل والناقة والبقرة، وهي بالإبل أشبه، وسُميت بدنة لعِظَمِها وسِمَنِها. انظر: النهاية (١/ ١٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٤٥).
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ١١٧): قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وذلك لخمس بَقِين من ذي القعدة؛ إن أراد به صبيحة يومه بذي الحُليفة، صح قول ابن حزم في دعواه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من المدينة يوم الخميس، وبات بذي الحُليفة ليلة الجمعة، وأصبح بها يوم الجمعة، وهو اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة، وإن أراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: وذلك لخمس من ذي القعدة، يومَ انطلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة بعدما ترجَّل وادَّهَن، ولَبِسَ إزاره ورداءه، كما قالت عائشة وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنهم خرجوا من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة؛ بَعُدَ قولُ ابن حزم، وتعذر المصير إليه، وتعين القول بغيره، ولم ينطبق ذلك إلا على يوم الجمعة إن كان شهر ذي القعدة كاملًا، ولا يجوز أن يكون خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة يوم الجمعة؛ لما روى البخاري - رقم الحديث (١٥٤٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٩٠) (١٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن معه الظهر بالمدينة أربعًا، والعصر بذي الحُليفة ركعتين، وفي لفظ آخر في مسند الإمام أحمد - رقم الحديث (١٣٤٨٨): قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر في مسجده بالمدينة أربع ركعات، ثم صلى بنا العصر بذي الحُليفة ركعتين آمنًا لا يخاف، في حجة الوداع، تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط الصحيح، وهذا ينفي كون خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الجمعة قطعًا، ولا يجوز على هذا أن يكون خروجه يوم الخميس، كما قال ابن حزم؛ لأنه كان يوم الرابع والعشرين من ذي القعدة؛ لأنه لا خلاف أن أول ذي الحجة كان يوم الخميس؛ لما ثبت بالتواتر والإجماع من أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف بعرفة يوم الجمعة، وهو تاسع ذي الحجة بلا نزاع، فلو كان خروجه يوم الخميس =



خروج نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه

وخرج رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجميع نسائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنسائه عام حجة الوداع: «هذه[1]، ثُمَّ ظُهُورُ الحُصُرِ»[2]، قال: فكُنَّ كُلُّهن يَحْجُجْنَ إلَّا زينبَ بنت جحش، وسودة بنت زَمعة، وكانتا تقولان: واللهِ لا تُحركُنا دابةٌ بعد أن سمعنا ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

=الرابع والعشرين من ذي القعدة، لبقي في الشهر ست ليال قطعًا: ليلة الجمعة، والسبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء؛ فهذه ست ليال، وقد قال ابن عباس، وعائشة، وجابر: إنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة، وتعذر أنه يوم الجمعة؛ لحديث أنس، فتعين على هذا أنه عليه السلام خرج من المدينة يوم السبت، وظن الراوي أن الشهر يكون تامًّا، فاتفق في تلك السنة نقصانه، فانسلخ يوم الأربعاء، واستهلَّ شهر ذي الحجة ليلة الخميس، ويؤيده ما وقع في رواية جابر: لخَمسٍ بقين أو أربعٍ، وهذا التقرير على هذا التقدير لا محيد عنه، ولا بد منه، والله أعلم.

(١) قال السندي في شرحه للمسند (١٣/ ٤٥): أي: حَجَّتُكُنَّ هذه.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ٣٨٠): أي: أنَّكُنَّ لا تَعُدْنَ تَخرُجن من بيوتكن، وتلزَمْنَ الحُصُر، وهي جمع حصير: الذي يُبسَط في البيوت.
وقال السندي في شرحه للمسند (١٣/ ٤٥ - ٤٦): لعل المراد به: تطييبُ أنفسهن بترك الحج بَعْدُ وإن لم يتيسَّرْ، أو جواز الترك لهن، لا النهي عن الحج؛ فقد ثبت حجُّهن بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
قلت: وأَذِنَ لهنَّ في الحج عُمَرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته في آخرِ حَجَّةٍ حَجَّها، كما في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٨٦٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٧٥١) - وأورده الحافظ في الفتح (٤/ ٥٥٤) وصحح إسناده.



طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ميقات ذي الحُليفة وإحرامه

سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ميقاتِ ذي الحُليفة سالكًا طريق الشجرة حتى بلغها قبل أن يُصلي العصر، فصلاها ركعتين، ثم بات هناك حتى أصبح، وصلى بها المغرب، والعشاء، والصبح، والظهر، فصلى بذي الحُليفة خمس صلوات.

روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخرج من طريق الشجرة[(١)]، ويدخل من طريق المُعَرَّسِ[(٢)].

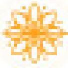
وروى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن معه بالمدينة الظهر أربعًا، والعصر بذي الحُليفة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح[(٣)].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١٦٩): أي: إلى ذي الحُليفة، فيبيتُ بها، وإذا رجع بات بها أيضًا، ودخل على طريق المُعرَّس -بفتح الراء المثقلة، وبالمهملتين- وهو مكان معروف أيضًا، وكل من الشجرة والمُعَرَّس على ستة أميال من المدينة، لكن المُعَرَّس أقرب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٣٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٥١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٦٩٠).



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: صلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الظهر بذي الحُليفة[1].

وطاف[2] رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تلك الليلة على نسائه التسع رضي الله عنهن؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قالت: طيبتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم طاف في نسائه، ثم أصبح محرِمًا[3].

وأتى رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تلك الليلة آتٍ[4] من ربه سبحانه في ذلك الموضع -وهو وادي العقيق- يأمره عن ربه سبحانه أن يقول في حجته هذه: عمرةٌ في حَجَّةٍ[5]؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بوادي العقيق، يقول: «أتاني الليلة آتٍ من ربي، فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارَك، وقل: عُمرةٌ في حَجَّةٍ»[6].

قال الحافظ ابن كثير: الظاهر أنَّ أمْرَه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالصلاة في وادي العقيق، هو أمر بالإقامة به إلى أن يُصلي صلاة الظهر؛ لأن الأمر إنما جاءه في الليل، وأخبرهم بعد صلاة الصبح، فلم يبق إلا صلاة الظهر، فأُمِرَ أن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٣).
(٢) قال الحافظ في الفتح (١/ ٥٠٢): طاف: كناية عن الجماع.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٩٢) (٤٩).
(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١٧١): هو جبريل عليه السلام.
(٥) قال الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٥٥): ومعنى هذا: أن الله أمره أن يقرن الحج مع العمرة.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٣٤).



يُصلِّيَها هنالك، وأن يُوقِعَ الإحرام بعدها[(١)].



اغتسال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإحرامه

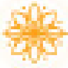
فلما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإحرام، اغتسل غسلًا ثانيًا لإحرامه غيرَ غُسل الجماع الأول، ثم طيَّبَتْه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيدها بذَرِيرةٍ[(٢)] وبطيبٍ فيه مِسْك، في بدنه ورأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى كان وَبِيصُ[(٣)] الطِّيبِ يُرى في مَفرِقِ رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام الترمذي في جامعه بسند حسن عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إنه رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَجرَّدَ لإهلاله واغتسل[(٤)].

قال الإمام الترمذي في جامعه: وقد استحب بعض أهل العلم الاغتسال عند الإحرام، وهو قول الشافعي[(٥)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: طيبتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيدي بذَرِيرة في حجة الوداع للحِلِّ والإحرامِ[(٦)].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٢٠ - ١٢١).
(٢) الذَّريرة: نوع من الطيب مجموع في أخلاط. انظر: النهاية (٢/ ١٤٦).
(٣) الوَبِيص: البريق. انظر: النهاية (٥/ ١٢٨).
(٤) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٤٥).
(٥) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٣٥٦).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٩٣٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٨٩) (٣٥).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كأني أنظر إلى وَبِيص الطِّيبِ في مَفرِق[1] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُحرِمٌ[2].

ثم لَبَّدَ[3] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَعْرَ رأسه حتى لا يَشْعَثَ[4]، ثم تجرد في إزاره وردائه، ثم دعا بهَدْيِه، ثلاث وستون بَدَنَة، فأشعره وقَلَّده، وجعل عليه ناجية بن جندب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم صلى الظهر في مسجد ذي الحُليفة، وذلك قبل إحرامه.

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُهِلُّ مُلَبِّدًا[5].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان

---

(١) في رواية أخرى: مفارق.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ٨٢): المَفْرِق: بفتح الميم، وكسر الراء.
وقال الحافظ في الفتح (٤/ ١٧٨): مفارق: جمع مَفْرِق: وهو المكان الذي يفترق فيه الشعر في وسط الرأس.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧١) (١٥٣٨) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٩٠) (٣٩).

(٣) تَلبيد الشعر: أن يُجعَل فيه شيء من صَمْغ عند الإحرام؛ لئلا يَشعَثَ ويَقْمَلَ، إبقاءً على الشعر، وإنما يُلَبِّد مَن يطول مكثُه في الإحرام. انظر: النهاية (٤/ ١٩٤).

(٤) لا يَشعَث: أي: لا يتفرَّق. انظر: النهاية (٢/ ٤٢٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٤٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٨٤) (٢١).



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركع بذي الحُليفة ركعتين[١]، ثم إذا استوت به الناقة قائمةً عند مسجد الحُليفة؛ أهلَّ بهؤلاء الكلمات[٢].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر بذي الحُليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سَنامها الأيمن، وسَلَتَ الدم، وقَلَّدها نعلين، ثم ركب راحلته[٣]، فلما استوت به على البيداء، أهلَّ بالحجِّ[٤].

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يدل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعاطى هذا الإشعار والتقليد بيده الكريمة في هذه البَدَنة، وتولى إشعارَ بقية الهَدْيِ وتقليدَه غيرُه؛ فإنه قد كان هَدْيٌ كثير إما مائة بدنة أو أقل منها بقليل[٥].

---

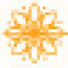
(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ٧٥): فيه استحباب صلاة الركعتين عند إرادة الإحرام، ويُصليهما قبل الإحرام، ويكونان نافلة، هذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة، إلا ما حكاه القاضي وغيره عن الحسن البصري أنه استحب كونهما بعد صلاة فرض، قال: لأنه رُوي أن هاتين الركعتين كانتا صلاة الصبح، والصواب ما قاله الجمهور، وهو ظاهر الحديث.

(٢) يعني: التلبية.
والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٨٤) (٢١).

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٨٦): هي راحلة غير التي أشعرها.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٤٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٣).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٢٣).



ثـم أهلَّ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحج والعمـرة في مصلاه، وقرن بينهما، ثم خرج فركب ناقته القصواء، فَأَهَلَّ أيضًا، ثم أَهَلَّ لما استقلَّت[1] به على البيداء[2].

روى الإمـام البخـاري في صحيحه عن عمر بـن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سـمعتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوادي العَقيـق، يقول: «أتاني الليلةَ آتٍ من ربي، فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عُمرةٌ في حجة»[3].

وروى الإمـام مسـلم في صحيحـه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سـمعتُ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهَلَّ بهمـا جميعًا: «لبيك عمـرةً وحجًّا، لبيك عمرةً وحجًّا»[4].

قال الحافظ ابن كثير: هذا الذي رواه بلفظه ومعناه[5] عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـتة عشـر صحابيًّا؛ منهم: خادمه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سـتة عشـر تابعيًّا، وهو صريح لا يحتمل التأويـل، إلا أن يكون بعيـدًا، وما عدا ذلك مما جاء من الأحاديث الموهِمـةِ التمَتُّعَ، أو ما يدل على الإفراد: فلها محلٌّ غيرُ هذا تُذكَرُ فيه[6].

---

(١) استقلَّت: قامت. انظر: النهاية (٤/ ٩١).

(٢) قـال الحافظ ابن كثير في البداية والنهايـة (٥/ ١٢٦): البيداء: يعني الأرض، وذلك قبل أن يصِلَ إلى المكان المعروف بالبيداء.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٣٤).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥١).

(٥) في كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجَّ قارنًا.

(٦) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٥٥).



ورجَّـح الإمام ابن القيم كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حـجَّ قارنًا، فقال: وإنما قلنـا: إنـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحـرم قارنًـا؛ لاثنين وعشـرين حديثًـا صريحة صحيحة في ذلك[١].

وروى ابن ماجه في سُـننه بسـند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال: إني عند ثَفِنَات[٢] ناقة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الشـجرة، فلما استوت به قائمةً، قال: «لبيك بعُمرةٍ وحجة معًا»، وذلك في حَجَّة الوداع[٣].

وروى الشـيخان في صحيحيهمـا عن ابن عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أَهَلَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استوت به راحلتُه قائمةً[٤].

وروى أبو داود والحاكم بسـند حسـن إن شـاء الله، عـن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قـال: وأيمُ الله، لقد أوجب في مصَلَّاه، وأَهَلَّ حين اسـتقلَّت به ناقته، وأَهَلَّ حين عَلَا شَرَف البيداء.

ولم يتكلَّف رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحرامه ودابته، بل كان متواضعًا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ١٣٠).
قلـت: ممن رَجَّح كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قارنًا في حجة الوداع: الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (٨/١٧٣) - والحافظ ابن حجر في الفتح (٤/٢١٥) - ونصره الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٥٦).

(٢) ثَفِنَـات -جمـع ثَفِنَة، بكسـر الفـاء-: ما وَلِـيَ الأرضَ مـن كل ذات أربـع إذا بركَتْ، كالركبتين وغيرهما. انظر: النهاية (١/ ٢١٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٢٩١٧).

(٤) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٥٢) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٨٧) (٢٨).



في ذلـك؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ثُمامةَ بن عبد الله، قال: حـجَّ أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على رَحْلٍ، ولم يكن شـحيحًا[1]، وحَدَّث أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَجَّ على رَحْلٍ وكانت زامِلَتَه[2].



تلبية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه

ثم لبَّى رســولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُهِلُّ مُلَبِّدًا، يقـول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شـريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والـمُلْك، لا شريك لك»، لا يزيد عن هؤلاء الكلمات[3].

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه في سُننه بسند صحيح، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال في تلبيته: «لبيك إلهَ الحقِّ لبيك»[4].

---

(١) قـال الحافظ في الفتح (٤/ ١٥٦): إشـارة إلى أنه فعل ذلـك تواضعًا واتباعًا، لا عن قلة وبخل.

(٢) قـال الحافظ في الفتح (٤/ ١٥٦): الزاملة: البعير الذي يُحمَل عليه الطعام والمتاع، من الزَّمل: وهو الحَمْل، والمراد: أنه لم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه، بل كان ذلك محمولًا معه على راحلته، وكانت هي الراحلة والزاملة.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥١٧).

(٣) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٩١٥) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٨٤) (٢١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٨٤٩٧) - وابن ماجه في سُـننه - رقم الحديث (٢٩٢٠).



والناس مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزيدون في التلبية ويَنقُصون، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقِرُّهم على ذلك؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، أهلَّ بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، ولبَّى الناس، والناس يزيدون: ذا المعارج، ونحوَه من الكلام، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسمع، فلم يَقُلْ لهم شيئًا[(١)].

وأتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمره أن يأمر أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ برفع أصواتهم بالتلبية؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي بسند صحيح عن خَلَّاد بن السائب عن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتاني جبريل، فأمرني أن آمُرَ أصحابي أن يرفعوا أصواتَهم بالإهلال والتلبية»[(٢)].

وروى الإمام الترمذي في جامعه وابن ماجه في سُننه بسند حسن في الشواهد عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أي الأعمال[(٣)] أفضل؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٤٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٥٥٧) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٤٤).

(٣) في رواية الإمام الترمذي: الحج.



فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العَجُّ[1] والثَّجُّ»[2].



أمْرُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بفسخ الحج إلى العمرة

فلما وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سَرِف[3] نزل بها، وخَيَّرَ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة، ثم ندبهم عند دنوِّهم من مكة إلى فسخ الحج، والقِران إلى العمرة لمن لم يكن معه هَدي[4]؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشهر الحج[5]، وليالي الحج، وحُرُم[6]

---

(١) العَجُّ -بفتح العين-: رفع الصوت بالتلبية. انظر: النهاية (٣/ ١٦٧).

(٢) الثَّج -بفتح الثاء-: سَيَلان دماء الهَدي والأضاحي. انظر: النهاية (١/ ٢٠٢). والحديث أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٤١) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٢٩٢٤).

(٣) سَرِف -بفتح السين، وكسر الراء-: موضِعٌ على عشرة أميال من مكة. انظر: النهاية (٢/ ٣٢٦).

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١١٢): يُقال: هَدْي -بإسكان الدال وتخفيف الياء، وهَدِيٌّ -بكسر الدال وتشديد الياء-: لغتان مشهورتان، والأُولى أفصح وأشهر، وهو اسمٌ لِما يُهدى إلى الحرم من الأنعام، وسَوْق الهَدْي سُنَّة لمن أراد أن يُحرِم بحج أو عمرة.

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٢١): اختلف العلماء في المراد بأشهر الحج في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، فقال الشافعي وجماهير العلماء من الصحابة والتابعين، فمَن بَعْدَهم: هي شوال، وذو القَعدة، وعشرُ ليال من ذي الحجة تمتد إلى الفجر ليلة النحر.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٠٧): حُرُم الحج -بضم الحاء المهملة والراء- أي: أزمِنَتُه وأمكِنَته وحالاتُه، ورُوي بفتح الراء، وهو جمعُ حُرْمة، أي: ممنوعات الحج.



الحجِّ، فنزلنا سَرِفَ، فخرج[(١)] إلى أصحابه، فقال: «مَن لم يكن منكم معه هَدْيٌ فأحَبَّ أن يجعلها عمرة، فليفعل، ومَن كان معه هَدْيٌ فلا»، قالت: فالآخذ بها والتارك لها من أصحابه، فأما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجال من أصحابه فكانوا أهل قُوة، وكان معهم الهَدْي، فلم يَقدِروا على العمرة[(٢)].

ثم نهض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن نزل بذي طُوًى[(٣)]، فبات بها ليلة الأحد لأربع ليال مضين من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة، فدخلها نهارًا من أعلاها من الثنية العليا التي تُشرِف على الحَجُون[(٤)]، ثم سار حتى دخل المسجد الحرام، وذلك ضُحًى.

روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذي طُوًى حتى أصبح، ثم دخل مكة[(٥)].

وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن ابن عباس

---

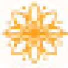
(١) يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٦٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١١) (١٢٣).

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٦): طُوًى: موضع معروف بقرب مكة، يُقال: بفتح الطاء وضمها وكسرها، والفتح أفصح وأشهر.

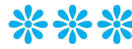
(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ١٨٩): الحَجُون -بفتح المهملة، بعدها جيم مضمومة-: هو الجبل المطلُّ على المسجد بأعلى مكة.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٧٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٩) (٢٢٦).



رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: صلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الصبح بذي طُوًى، وقدم لأربع مضين من ذي الحجة[١].

وروى الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد -واللفظ لأحمد- عن نافع، قال: كان ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا إذا دخل أدنى الحرم، أمسك عن التلبية، فإذا انتهى إلى ذي طُوًى بات به حتى يُصبح، ثم يُصلِّي الغداة[٢]، ويغتسل، ويُحدِّثُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يفعله، ثم يدخل مكة ضحًى[٣].



دخولُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المسجد الحرام وطوافُه وسَعْيُه

قال جابر[٤] رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: حتى إذا أتينا البيت[٥] معه[٦]، استلم[٧]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٦٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٠) (٢٠٢).

(٢) هي صلاة الفجر.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٧٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٩) (٢٢٨) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٤٦٢٨).

(٤) هو ابن عبد الله الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أحسنُ مَن ساق حَجة الوداع.
قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١١٠): فأما جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فهو أحسن الصحابة سياقةً لرواية حديث حجة الوداع؛ فإنه ذكرها من حين خروج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من المدينة إلى آخرها، فهو أضبط لها من غيره.

(٥) في رواية الإمام أحمد في مسنده: الكعبة.

(٦) يعني: مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(٧) قال الجوهري فيما نقله عنه الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٦٧): استلم الحجر: لمسه إما بالقُبلة أو باليد.



الركن[1] فرَمَلَ[2] ثلاثًا ومشى أربعًا[3]، ثم نفذ[4] إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[5]، فجعل المقام بينه وبين البيت -قال جعفر[6]: فكان أبي يقول: ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾، ثم رجع إلى الركنِ، فاستلمه[7]، ثم خرج من الباب

(١) المراد بالركن هنا: الحجر الأسود؛ ففي رواية الإمام أحمد، قال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: حتى أتينا الكعبة، فاستلم نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحجر الأسود، ثم رَمَلَ ثلاثة ومشى أربعة.
* وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٢٧٥): ثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَبَّلَ الحجر الأسود، وثبت عنه أنه استلمه بيده فوضع يده عليه ثم قَبَّلها، وثبت عنه أنه استلمه بمِحْجَن.
المِحْجَن: عصا مُعَقَّفة الرأس. انظر: النهاية (١/ ٣٣٥).

(٢) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٢٦): الرَّمَلُ في الطواف: هو بفتح الراء والميم، وهو إسراع المشي مع تقارب الخُطا دون الوثوب والعَدْو.
* وقال الإمام الترمذي في جامعه (٢/ ٣٧٦): والعمل على هذا عند أهل العلم، قال الشافعي: إذا ترك الرَّمَلَ عمدًا، فقد أساء، ولا شيء عليه، وإذا لم يَرْمُلْ في الأشواط الثلاثة، لم يَرْمُلْ فيما بقي.

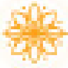
(٣) قال الإمام ابن القيم في زاد الميعاد (٢/ ٢٧٤): ولم يَدْعُ عند الباب بدعاء، ولا تحت الميزاب، ولا عند ظهر الكعبة وأركانها، ولا وَقَّتَ للطواف ذكرًا مُعينًا، لا بفعله ولا بتعليمه، بل حُفِظَ عنه بين الركنين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾.

(٤) في رواية الإمام أحمد في مسنده: عَمَدَ.
عَمَدَ إلى الشيء: قصده. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٦٢٦).

(٥) سورة البقرة - الآية (١٢٥).
زاد الإمام الترمذي في جامعه: فصلى ركعتين.

(٦) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٤٣): هو جعفر بن محمد، روى هذا الحديث عن أبيه عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٧) في رواية الإمام الترمذي في جامعه: ثم أتى الحَجَرَ بعد الركعتين، فاستلمه.



إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[(١)]، ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به»، فبدأ بالصفا[(٢)]، فرَقِيَ[(٣)] عليه، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة، فَوَحَّدَ الله وكبره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبَّت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صَعِدَتا مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا[(٤)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: طاف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين قدم مكة، فاستلم الركن أول شيء، ثم خَبَّ[(٥)] ثلاثة أطواف من السبع، ومشى أربعة أطواف[(٦)]، ثم ركع حين

---

(١) سورة البقرة - الآية (١٥٨).

(٢) قال الإمام الترمذي في جامعه (٢/ ٣٧٩): والعمل على هذا عند أهل العلم؛ أنه يبدأ بالصفا قبل المروة، فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يَجْزِه، وبدأ بالصفا.

(٣) رَقِيَ: صعد. انظر: النهاية (٢/ ٢٣٢).

(٤) أخرج ذلك إلى هذا القدر: الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧)، والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٤٠) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٧٢).

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٧): الخَبُّ هو الرَّمَل -بفتح الراء والميم- فالرَّمَل والخَبُّ بمعنى واحد، وهو إسراع المشي مع تقارب الخُطا ولا يَثِبُ وثبًا.
وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣١١): الخَبُّ: بفتح المعجمة وتشديد الموحدة.

(٦) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ١٦٧): حجة الوداع كان فيها ثلاثة أطواف=



قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين، ثم سَلَّمَ فانصرف، فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف[(١)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لم أَرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلم[(٢)] من البيت إلا الرُّكنين اليمانِيَيْنِ[(٣)].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه -واللفظ لأحمد- بسند حسن، عن عبد الله بن السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بين الركن اليماني والأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾[(٤)].

= الأول: طواف القدوم.

والثاني: طواف الإفاضة، وهو طواف الفرض، وكان يوم النحر.

والثالث: طواف الوداع، فلعل ركوبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في أحد الآخرين أو في كليهما، فأما الأول وهو طواف القدوم، فكان ماشيًا فيه، وقد نص الشافعي على هذا كله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٩١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٢٧).

(٢) في رواية الإمام مسلم: يَمسح.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١٣): الركنان اليمانيَان: هما الركن الأسود، والركن اليماني، وإنما قيل لهما اليمانيان للتغليب، كما قيل في الأب والأم: الأبوان، وفي الشمس والقمر: القمران، وفي أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: العُمَران، وفي الماء والتمر: الأسودان، ونظائره مشهورة.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٠٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٦٧) (٢٤٢).

(٤) سورة البقرة - الآية (٢٠١)، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٣٩٩) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٨٩٢).



أمْرُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالتحلل

فلما أكمل رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعيه عند المروة أمر كُلَّ مَن لا هَـدِيَ معه أن يَحِـلَّ حتمًا ولا بُدَّ، قارنًا كان أو مُفـرِدًا، وأمرهم أن يَحِلُّوا الحِلَّ كُلَّهُ؛ مِن وطءِ النسـاء، والطِّيبِ، والمخيـط، وأن يبقوا كذلك إلى يـوم الترويـة، ولـم يَحِلَّ هو مـن أجل هَدْيِـه؛ فقد روى الإمام مسـلم في صحيحـه والإمام أحمد في مسـنده عن جابر بن عبـد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حتى إذا كان آخر طوافه[(١)] على المروة[(٢)]، قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أني اسـتقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أَسُقِ الهَدْيَ، وجعَلْتُها عُمرةً، فمن كان منكم ليس معه هَدي فلْيَحِلَّ، وليجعَلْها عُمرة»[(٣)].

وفي رواية أخرى في الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أمرهم النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعلوها عمرة، قالوا: يا رسـول الله، أيُّ الحِلِّ؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحِلُّ كُلُّه»[(٤)].

قـال جابر بن عبـد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فواقَعْنا النسـاء، وتطيَّبْنـا بالطِّيب،

---

(١) يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) في رواية الإمام أحمد: فلما كان السابع عند المروة.

(٣) أخرجه الإمام مسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٤٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٦٤) (٣٨٣٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٠) (١٩٨).



ولَبِسْنا ثيابنا، وليس بيننا وبين عرفة إلا أربع ليال[(١)]، فقام سُراقة بن مالك بن جُعْشُم[(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في أسفل المروة، فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبَّك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: «دخلت العمرةُ في الحج» -مرَّتين- «لا بل لأبد الأبد»[(٣)].

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن العمرة قد دخلت في الحج إلى يوم القيامة»[(٤)].

وحَلَّ نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **إلا عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإنها لم تَحِلَّ من أجل تَعذُّر الحِلِّ عليها بحيضتها؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: فَحلَّ مَن لم يكن ساق الهَدي ونساؤه لم يَسُقْنَ فأحلَلْنَ، قالت: فَحِضْتُ، فلم أطُفْ بالبيت[(٥)].



---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٣) (١٣٧).
(٢) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٥٠٣): جُعْشُم: بضم الجيم والشين المعجمة، هذا قول الجمهور من الطوائف، وحكى الجوهري: ضم الشين وفتحها، وسُراقة: من مشهوري الصحابة، أسلم عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجِعْرَانة حين انصرف من حُنَين والطائف.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٠٥) (٢٥٠٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٤٠).
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤١).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٦١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١١) (١٢٨).



سبب تردُّد الصحابة في التحلل

روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كانوا يَرَون[1] أن العمرة في أشهر الحج من أفجَرِ الفجور في الأرض![2].

قال الإمام الترمذي في جامعه: ومعنى هذا الحديث: أن أهل الجاهلية كانوا لا يعتمرون في أشهر الحج، فلما جاء الإسلام رَخَّصَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك، فقال: «دخلت العمرةُ في الحج إلى يوم القيامة»، يعني: لا بأس بالعمرة في أشهر الحج، وأشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، لا ينبغي للرجل أن يُهِلَّ بالحج إلا في أشهر الحج[3].



إقامة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمكة

ثم سار رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد فراغه من طوافه بين الصفا والمروة -وأَمْرِه بفسخ العمرة عن الحج لمن لم يَسُقِ الهَدي- والناس معه حتى نزل بالأبطح شرقيَّ مكة، فأقام هناك بقية يوم الأحد، والاثنين،

(١) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢١٣): يَرون -بفتح أوله- أي: يعتقدون، والمراد أهل الجاهلية.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٦٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤٠) (١٩٨).
(٣) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٤٣٣).



والثلاثاء، والأربعاء، حتى صلى الصبح من يوم الخميس، كل ذلك يُصلي بأصحابه هنالك، ولم يَعُدْ إلى الكعبة من تلك الأيام كلها؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، فطاف وسعى بين الصفا والمروة، ولم يَقرَبِ الكعبة بعد طوافه بها حتى رجع من عرفة[1].

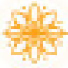
قال الحافظ في الفتح: فلعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك الطواف تطوعًا خشية أن يظن أحد أنه واجب، وكان يُحب التخفيف على أمته، واجتزأ عن ذلك بما أخبرهم به من فضل الطواف بالبيت، ونُقِلَ عن مالك أن الطواف بالبيت أفضل من صلاة النافلة لمن كان من أهل البلاد البعيدة، وهو المعتَمَد[2].



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى منًى

فلما كان ضحى يوم الخميس الثامن من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة -وهو يوم التروية[3]- توجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمن معه

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٢٥).
(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٩٠).
(٣) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٣٠): يوم التروية -بفتح التاء، وإسكان الراء-: هو اليوم الثامن من ذي الحجة، سُمي يومَ التروية؛ لأنهم كانوا يَرْتَوون فيه الماء، ويحملونه معهم في ذهابهم من مكة إلى عرفات، يُقال: رويتُ القوم أرويهم: أي: استقيتُ لهم.



من المسلمين إلى منًى، فأحرم بالحج مَن كان أَحلَّ منهم، فلما وصل إلى منًى نزل بها، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء قصرًا، وبات بمنًى تلك الليلة[(١)]، وكانت ليلةَ الجمعة، وصلى بها الصبح من يوم الجمعة، ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلما كان يومُ التروية توجهوا إلى منًى، فأَهَلُّوا بالحج، وركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس[(٢)].

وروى الإمام الترمذي وأبو داود بسند صحيح، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهرَ يومَ الترويةِ والفَجرَ يومَ عرفةَ بمنًى[(٣)].



خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى عرفات

فلما طلعت الشمس من يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة، سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عرفة، والناس معه منهم الملَبِّي، ومنهم

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٤٧): وهذا المَبِيتُ سُنَّةٌ ليس بركن ولا واجب، فلو تركه فلا دَمَ عليه بالإجماع.
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).
(٣) أخرجه أبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٩١١) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٩٥).



المكَبِّر، وهو يسمع ذلك ولا يُنكر على هؤلاء ولا على هؤلاء؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن محمد بن أبي بكر الثقفي، قال: سألت أنسًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -ونحن غاديان من مِنًى إلى عرفات- عن التلبية: كيف كنتم تصنعون مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ فقال: كان يُلبي الملبي لا يُنكَر عليه، ويُكبِّر المكبِّر فلا يُنكَر عليه[1].

وفي لفظ آخر في مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كنا مع رسول الله غداة عرفة، منا المكبِّر، ومنا الـمُهِلُّ، لا يُعاب على المكَبِّرِ تكبيرُه، ولا على الـمُهِلِّ إهلالُه[2].

وقد كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر أن تُضرَبَ له قُبَّةٌ بِنَمِرة[3]، فوجد القبة قد ضُرِبت له، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرُحِلَت له، ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عُرَنةَ[4]، فخطب الناس وهو على راحلته[5] خطبة عظيمة جامعة، قرر فيها قواعد

---

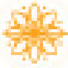
(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٩٧٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٨٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٤٩٣).

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٤٧): نَمِرَة: هي بفتح النون، وكسر الميم، هذا أصلها، ويجوز فيها ما يجوز في نظيرها، وهو إسكان الميم مع فتح النون وكسرها، وهي موضع بجنب عرفات وليست من عرفات.

(٤) عُرَنة: هو بضم العين وفتح الراء، موضع عند الموقف بعرفات. انظر: النهاية (٣/ ٢٠٢).

(٥) وروى الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٠٣٣٥) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٩١٧) بسند صحيح عن خالد بن العدَّاء بن هوذةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: رأيت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخطب الناس يوم عرفة على بعير.



الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقَرَّر فيها تحريم المحرَّمات التـي اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض؛ فقد روى الإمـام مسـلم في صحيحه عن جابر بن عبـد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أمر رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقُبَّة من شَـعَر تُضرب له بنَمِرة، فسار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تشُـكُّ قريـش إلا أنه واقف عند المشْـعَر الحرام[1] كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى عرفاتٍ، فوجد القبة قد ضُرِبت له بنَمِرة، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمـر بالقصواء فرُحِلَت لـه، فأتى بطن الوادي فخطب النـاسَ، فقال: «إن دماءكـم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا، في شـهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شـيء من أمر الجاهلية تحـت قدَمَيَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسـترضَعًا في بني سـعد فقتلَتْه هُذيل، ورِبا الجاهلية موضوع، وأول ربًـا أضع رِبانا؛ ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النسـاء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واسـتحللتم فروجهن بكلمة الله[2]، ولكـم عليهـن أن لا يُوطِئْن فُرُشَـكم أحدًا تكرهونه، فـإن فعَلْنَ ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهنَّ عليكم رزقُهن وكسوتُهن بالمعروف، وقـد تركـتُ فيكم ما لـن تضلوا بعـده إن اعتصمتم به: كتـابَ الله، وأنتم

(١) المشعر الحرام: هو مُزدَلِفة. انظر: النهاية (٢/ ٢٨٠).
(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٥٠): المراد بإباحة الله والكلمة، قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، هذا هو الصحيح.

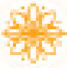


تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلَّغْتَ وأدَّيتَ ونصَحْتَ، فقال بإصبعه السَّبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها[(١)] إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»، ثلاث مرات[(٢)].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن إسحاق في السِّيرة -واللفظ لابن إسحاق- بسند حسن عن عمرو بن خارجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعثني عَتَّاب بن أَسِيد إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حاجة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقف بعرفة، فبلَغْتُه، ثم وقفتُ تحت ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن لُعابَها ليقع على رأسي، فسمعته وهو يقول: «أيها الناس، إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقَّه، وإنه لا تجوز وصيةٌ لوارث، والولَدُ للفِراش[(٣)]، وللعاهر[(٤)] الحَجَر[(٥)]، ومَن ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مَواليه؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يَقبَل الله منه صَرْفًا ولا عدلًا»[(٦)].

---

(١) هكذا وقع في صحيح مسلم: ينكتها بالتاء، ووقع في سنن أبي داود - رقم الحديث (١٩٠٥) بلفظ: ويَنْكُبُها بالباء.
قال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٩٨): أي: يُميلها إليهم، يريد بذلك أن يُشهِد الله عليهم.
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).
(٣) الولد للفراش: أي: لمالِك الفراش، وهو الزوج والمَولى، والمرأة تُسمَّى فِراشًا، لأن الرجل يفترشها. انظر: النهاية (٣/ ٣٨٥).
(٤) العاهر: الزاني. انظر: النهاية (٣/ ٢٩٤).
(٥) الحَجَر: أي الخيبة، يعني أن الولد لصاحب الفراش من الزوج أو السيد، وللزاني الخيبة والحرمان، وذهب قوم إلى أنه كنَّى بالحجر عن الرجم، وليس كذلك، لأنه ليس كل زان يُرجَم. انظر: النهاية (١/ ٣٣١).
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٨٠٨٢) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢٢٥٤) - وابن إسحاق في السيرة (٤/ ٢٦١)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.



جَمْعُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهر والعصر ووقوفُه بعرفة

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم أَذَّن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يُصلِّ بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حَبْلَ[(١)] المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصُّفرة قليلًا حتى غاب القُرص[(٢)].

وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس أن يرتفعوا عن بطن عُرَنة، وأنَّ عرفة لا تختص بموقفه ذلك؛ فقد روى الطحاوي في شرح مشكل الآثار بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عرفة كلها موقف، وارفعوا عن بطن عُرَنَة»[(٣)].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وقفت ههنا، وعرفة كلها موقف»[(٤)].

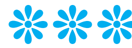
وروى الإمام الترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن يزيد بن شيبان، قال: أتانا ابن مِرْبَع الأنصاري[(٥)] ونحن وقوف بالموقف -مكانًا يُباعده

(١) الحَبْل: المستطيل من الرَّمْل، وقيل: الضخم منه. انظر: النهاية (١/ ٣٢١).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).
(٣) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (١١٩٤).
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٩).
(٥) قال ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٤١٢) - قسم التراجم -: هو زيد بن مِرْبَع الأنصاري=



عمرو- فقال: إني رسولُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليكم، يقول: «كونوا على مشاعركم[1]؛ فإنكم على إرث من إرث إبراهيم»[2].

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشتغلًا في عرفة بالدعاء، وكان في دعائه رافعًا يديه؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كنتُ رديف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرفات، فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته، فسقط خِطامها[3]، فتناول الخطام بإحدى يديه، وهو رافع يده الأخرى[4].



نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

وأنزل الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف بعرفة قَولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

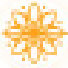
= رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني حارثة، روى عنه يزيد بن شيبان، عِداده في أهل الحجاز، حديثه في الوقوف بعرفة، ومِربَع: بكسر الميم، وسكون الراء، وفتح الباء الموحدة، وبالعين المهملة.

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٣/ ٢٣٦): مشاعركم: جمع مَشْعَر، وهو المعْلَم، والمراد به: معالم الحج.

(٢) إرث إبراهيم: يريد به ميراثَهم مِلَّتَه. انظر: النهاية (١/ ٤٠).
والحديث أخرجه الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٨٩٨) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٣٠١١).

(٣) الخِطام -بكسر الخاء-: هو الحبل الذي يُقاد به البعير. انظر: النهاية (٢/ ٤٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢١٨٢١).



﴿دِينًا﴾[1]؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلا[2] من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها لو علينا -معشَرَ اليهود- نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة[3].

قال الحافظ ابن كثير: هذه أكبر نِعَمِ الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث أكمل لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[4]، أي: في الأخبار،

---

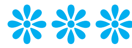
(١) سورة المائدة - آية (٣).

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/ ١٤٥): هذا الرجل هو كعب الأحبار.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٤٤٠٧): أن أُناسًا من اليهود.
قال الحافظ في الفتح (١/ ١٤٥): يُحمَل على أنهم كانوا حين سؤال كعب عن ذلك جماعةً، وتكلم كعب على لسانهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٥) (٤٤٠٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٣٠١٧).

(٤) سورة الأنعام - آية (١١٥).

وعـدلًا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهـم الدين تمَّت عليهم النعمة؛ ولهذا قـال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، أي: فارضَـوه أنتـم لأنفسـكم؛ فإنه الدين الـذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه[1].



إفاضة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من عرفة إلى مزدلفة

فلمـا غربت الشـمس واسـتحكم غروبهـا، بحيث ذهبـت الصُّفرة، أفاض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من عرفة إلى مزدلفة، وهو يُلبي في مسيره، وقد أردف أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا خلفه، وأفاض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالسَّـكينة[2]، وجعل رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يسـير العَنَـقَ[3]، فإذا وجد فَجْوَةً[4] سـار النَّصَّ[5]، وهـو فوق العَنَق، وكلما أتى حَبْـلًا[6] من الحِبَال أرخى لناقته زِمامَها قليلًا حتى تصعد، فلما كان في الطريق عند الشِّعْب[7] نزل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فبال وتوضأ وُضُوءًا خفيفًا[8]، فقال له أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤).
(٢) السكينة: أي: الوقار والتأني في الحركة والسير. انظر: النهاية (٢/ ٣٤٦).
(٣) قـال الحافـظ في الفتـح (٤/ ٣٣٠): العَنَقَ -بفتح العيـن والنون- هو السـير الذي بين الإبطاء والإسراع.
(٤) الفجوة: المتسع. انظر: النهاية (٣/ ٣٧١).
(٥) النَّصُّ: نوع من السير سريع. انظر: النهاية (٥/ ٥٥).
(٦) الحَبْل: القطعة من الرمل ضخمة ممتدة. انظر: النهاية (١/ ٣٢١).
(٧) الشِّعْب -بكسر الشين-: هو ما انفرج بين جبلين. انظر: لسان العرب (٧/ ١٢٨).
(٨) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٣٤): أي: خَفَّفه بأن توضَّأ مرة مرة.



الصلاةَ يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصلاةُ أمامك».

وروى الشـيخان في صحيحيهما -واللفظ للبخاري- عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان رِدْفَ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عرفة إلـى المزدلفة، ثم أردف الفضـل من المزدلفة إلى مِنًى، فكلاهما قال: لم يزل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلبِّي حتى رمى جمرة العقبة[(١)].

وروى الإمـام مسـلم في صحيحـه عن عبد الله بن مسـعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: ونحن بجَمْع سمعتُ الذي أُنزِلَت عليه سورة البقرة [(٢)] يقول في هذا المقام: «لبيك اللهم لبيك»[(٣)].

وروى الإمام مسـلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلم يـزل[(٤)] واقفًـا[(٥)] حتى غربت الشـمس، وذهبت الصُّفـرة قليلًا حتى غاب القُرْصُ، وأردف أسـامة خلفه، ودفع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد شَنَقَ[(٦)] للقصواء الزمامَ، حتى إن رأسَها ليُصيبُ مَورِكَ رَحْلِه، ويقول بيده

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٤٣) (١٥٤٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٨١).

(٢) قال الإمام النووي في شـرحه لصحيح مسـلم (٩/ ٢٦): وإنما خص البقرة؛ لأن معظم أحكام المناسك فيها، فكأنه قال: هذا مقام مَن أُنزِلت عليه المناسك، وأُخِذ عنه الشرع، وبيَّـن الأحـكام؛ فاعتَمِدوه، وأراد بذلك الـرد على مَن يقول بقطـع التلبية من الوقوف بعرفات.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٨٣).

(٤) يعني: رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥) يعني: بعرفة.

(٦) يُقال: شَنَقتُ البعيرَ أشنقُه شَنْقًا: إذا كفَفْتَه بزمامِه وأنت راكبُه. انظر: النهاية (٢/ ٤٥٢).



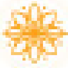
اليُمنى: «أيها الناس، السكينةَ السكينةَ»، كلما أتى حَبْلًا من الحبال أرخى لها قليلًا حتى تصعد، حتى أتى مزدلفة[(١)].

وروى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه بسند صحيح، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أفاض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عرفة وعليه السكينة، ورديفه أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: «أيها الناس، عليكم بالسكينةِ؛ فإن البر[(٢)] ليس بإيجاف[(٣)] الخيل والإبل»[(٤)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه سُئِلَ: كيف كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير في حجة الوداع حين دفع؟ قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كان يسير العَنَقَ، فإذا وجد فجوةً نَصَّ[(٥)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رَدِفْتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عرفات، فلما بلغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشِّعب الأيسر الذي دون المزدلفة، أناخ[(٦)] فبال، ثم جاء

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٣٦): البر -بكسر الباء-: اسم لكل ما يُتقرَّب به إلى الله من العمل.
(٣) الإيجاف: سرعة السير. انظر: النهاية (٥/ ١٣٧).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٤٢٧) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٩٢٠) - وأخرجه بنحوه: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧١).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٦٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٨٦) (٢٨٣).
(٦) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٣٩): نزل.



فصببتُ عليه الوَضُوءَ[(١)] فتوضأ وضوءًا خفيفًا، فقلت: الصلاةَ يا رسول الله، قال: «الصلاةُ أمامك»[(٢)].

فلما وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مزدلفة -وهي المشعر الحرام- توضأ فأسبغ الوضوء، وصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُصَلِّ بينهما شيئًا، ثم اضطجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى طلع الفجر؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فصلى بها[(٣)] المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئًا[(٤)]، ثم اضطجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى طلع الفجر[(٥)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ، فأسبغ الوضوء، ثم أُقيمت الصلاة، فصلى

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٢٣): الوَضوء هنا -بفتح الواو-: وهو الماء الذي يُتوضأ به.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٦٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٨٠).

(٣) يعني: بمزدلفة.

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٥٤): معناه: لم يُصَلِّ بينهما نافلةً، والنافلة تُسمى سُبحةً؛ لاشتمالها على التسبيح.

* وقال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٩٩): يُقال لصلاة النافلة: سُبْحَة، والسُّبْحَة من التسبيح، وإنما خُصَّت النافلة بالسُّبْحَة وإن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح؛ لأن التسبيحات في الفرائض نوافل، فقيل لصلاة النافلة سُبْحَة؛ لأنها نافلة كالتسبيحات والأذكار في أنها غير واجبة.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).



المغرب، ثم أناخ كلُّ إنسان بعيرَه في منزله، ثم أُقيمت العشاء فصلَّاها، ولم يُصَلِّ بينهما شيئًا[١].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جَمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المغرب والعشاء بجَمعٍ[٢]، كلُّ واحدة منهما بإقامة، ولم يُسَبِّح بينهما، ولا على إثر كل واحدة منهما[٣].



وقوف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمشعر الحرام[٤]، ثم دَفْعُه إلى منًى

فلما طلع الفجر قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى بالناس الصبح في أول وقتها بأذان وإقامة، وذلك يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك، وكان يومَ السبت؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: صلى[٥] الفجر حين تبيَّن له الصبح، بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه وكبَّره وهَلَّله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٨٥) (٢٧٦).

(٢) قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٩٥): يُقال للمزدلفة: جَمْعٌ -بفتح الجيم، وإسكان الميم- سميت به؛ لاجتماع الناس بها.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧٣).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٤٢): المَشعَر -بفتح الميم والعين- سُمي مَشعرًا؛ لأنه مَعلَم للعبادة، والحرام؛ لأنه من الحَرَم أو لحُرمتِه.

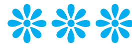
(٥) يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



ووحَّده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا، فدفع قبل أن تطلُعَ الشمس[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أفاض[2] من مزدلفة قبل طلوع الشمس[3].

وأخبر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الناس أن المزدلفة كلها موقف؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وقفتُ هاهنا، والمزدلفة كلها موقف»[4].



جَمْعُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الجمار

أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الفضل بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا غداة يوم النحر أن يلتقطَ له حصى الجِمار، فالتقط له سبع حَصَيات من حصى الخَذْفِ[5]؛ فقد روى ابن ماجه في سُننه بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال:

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).
(٢) الإفاضة: الزحف والدفع في السَّير بكثرة. انظر: النهاية (٣/ ٤٣٦).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٠٥١) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٩١٠)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٤٠).
(٥) الخَذْف: الصِّغار. انظر: النهاية (١/ ٣٤٣).



قال لي[1] رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غداة العَقَبة وهو على ناقته: «الْقُطْ لي حَصًى»، فلقطتُ له سبع حصَيات، هُنَّ حصى الخَذْفِ، فجعل ينفُضُهنَّ في كفه، ويقول: «أمثالَ هؤلاء فارمُوا»، ثم قال: «أيها الناس، إياكم والغُلُوَّ في الدين؛ فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغُلُوُّ في الدين»[2].



رَمْيُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمرة العقبة يوم النحر

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ثم سلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطريق الوسطى التي تَخرُجُ على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يُكبِّرُ مع كل حصاة منها[3].

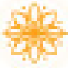
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: رمى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجمرة يوم النحر ضُحًى[4].

(١) قلت: كونُ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا صاحِبَ هذه القصة يحتاج مزيد تأمل؛ لأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدَّمه مع ضَعَفة أهله؛ ولذلك وقع في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٢٤٨) قال يحيى القطان: لا يَدري عوف: عبد الله، أو الفضل؟
وأخرجه الطبراني -كما في التلخيص الحبير- عن ابن عباس، قال: حدثني الفضل بن عباس، قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وساق الحديث، وصَوَّب الحافظ في التلخيص الحبير (٤/ ١٦٣٠) هذه الرواية، فقال: هي الصواب؛ فإن الفضل هو الذي كان مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٣٠٢٩).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٩) (٣١٤).



وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: رأيت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخُذوا مناسِكَكم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحجُّ بعد حَجَّتي هذه»(١).

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أم الحُصَين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: حججتُ مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حجَّة الوداع، فرأيتُه حين رمى جمرة العقبة وانصرف، وهو على راحلته ومعه بلال وأسامة، أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافعٌ ثوبَه على رأس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الشمس، قالت: فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قولًا كثيرًا، ثم سمعته يقول: «إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ مُجدَّعٌ أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى؛ فاسمعوا له وأطيعوا»(٢).



انصراف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المَنحَر بمِنًى

ثم انصرف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المنحر بمنًى، فنحر بُدْنَه بيده الشريفة؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين(٣) بيده، ثم أعطى عليًّا

(١) أخرجه الإمام مسلم - رقم الحديث (١٢٩٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٩٨) (٣١١).

(٣) قال ابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٥٢): العِلة في نحر المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثلاثًا وستين بدنة بيده دون ما وراء هذا العدد: أن له في ذلك اليوم كانت ثلاثًا وستين سنة، ونحر لكل سنة من سنيه بدنةً بيده.



رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فنحر ما غبَرَ[(١)]، وأشركه في هَدْيِه، ثم أمر من كل بَدَنَة ببَضْعةٍ[(٢)]، فَجُعِلَت في قِدرٍ فَطُبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مَرَقِها[(٣)].

وكانت تُقرَّب لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ البُدْنُ أرسالًا؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه بسند صحيح عن عبد الله بن قُرْط رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قال: قُرِّب لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بَدَناتٌ خمسٌ أو سِتٌّ، فطَفِقْنَ[(٤)] يَزدَلِفْنَ[(٥)] إليه بأيتهِنَّ يبدأُ[(٦)]!

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قال: أهدى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مائة بَدَنَة، فأمرني بلحومها فقَسَمْتُها، ثم أمرني بجِلالها[(٧)] فقسمتها، ثم بجلودها فقسمتها[(٨)].

---

(١) ما غبَرَ: أي: ما بَقِيَ. انظر: النهاية (٣/ ٣٠٤).
وبقي منها خمس وثلاثون بَدَنة؛ لأن مجموع هَدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وما جاء به علي رَضِيَٱللَّهُعَنهُ مائة بَدَنة، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا، قال: كان جماعة الهَدي الذي قدم به علي رَضِيَٱللَّهُعَنهُ من اليمن، والذي أتى به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مائة.

(٢) البَضْعة: القطعة من اللحم، وهي بفتح الباء، وقد تُكسر. انظر: النهاية (١/ ١٣٣).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).

(٤) طَفِق: جعل. انظر: النهاية (٣/ ١١٨).

(٥) يزدلفن: أي يَقرَبن منه. انظر: النهاية (٢/ ٢٨٠).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٩٠٧٥) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (١٧٦٥).

(٧) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٧١): الجِلاَل -بكسر الجيم وتخفيف اللام- جمع: جُلٍّ -بضم الجيم- وهو ما يُطرح على ظهر البعير من كساء ونحوه.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧١٨).



وروى الشيخان في صحيحيهما -واللفظ لمسلم- عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أقوم على بُدْنِه، وأن أتصدق بلحمها وجلودها وأجِلَّتِها، وأن لا أُعطي الجزار منها، قال: «نحن نُعطيه من عندنا»(١).



خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر

خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا اليوم الشريف خطبة عظيمة تواترت بها الأحاديث؛ فمن ذلك:

* روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب الناس يوم النحر، فقال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟» قالوا: يومٌ حرام، فقال: «فأي بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام، فقال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام، فقال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا»، فأعادها مِرارًا، ثم رفع رأسه، فقال: «اللهم هل بلغتُ؟ اللهم هل بلغتُ؟».

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧١٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣١٧) (٣٤٨).



فليُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

* وروى الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده، عن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ في حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجبُ مُضَرَ[2] الذي بين جُمادى وشعبان»، ثم قال: «ألا أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سَيُسميه بغير اسمه، قال: «أليس يومَ النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظَنَنَّا أنه سَيُسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سَيُسميه بغير اسمه، فقال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم -قال: وأحسبه قال:- وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستَلْقَون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلَّالًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغتُ؟ ألا لِيُبلِّغ الشاهد الغائب منكم، فلعل مَن يُبَلَّغُه يكون أوعى له من بعض مَن يسمعُه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٣٩).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٢١): أضافه إليهم؛ لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه، بخلاف غيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٤١) (٤٤٠٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٧٩) (٢٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٠٣٨٦).



حَلْقُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسه الشريف

فلما فرغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نحر هديه وخطبته يوم النحر، دعا الحلاق، فحلق رأسه الشريف، حَلَقه مَعْمَرُ بن عبد الله العدوي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الإمام النووي: اختلفوا في اسم هذا الرجل الذي حلق رأس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع، فالصحيح المشهور أنه مَعْمَر بن عبد الله العَدَوي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(١).

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى مِنًى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنًى ونحر، ثم قال للحلاق: «خُذ»، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يُعطيه الناس(٢).

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حلق رأسه(٣) كان أبو طلحة أول مَن أخذ من شَعْرِه(٤).

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ٤٦).
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٠٥) (٣٢٣).
(٣) قال الحافظ في الفتح (١/ ٣٦٧): كان ذلك في حجة الوداع.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧١).





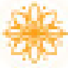
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لقد رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحلاق يحلِقُه، وأطاف به أصحابُه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[١].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن محمد بن عبد الله بن زيد عن أبيه: أنه شهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند المنحر، هو ورجل من الأنصار، فقسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضحايا، فلم يُصِبْه ولا صاحِبَه شيءٌ، فحلق رأسه في ثوبه، فأعطاه، وقسم منه على رجال، وَقَلَّمَ أظفاره، فأعطاه صاحبه[٢].

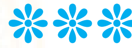
وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نحر[٣] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم حَلَقَ وجلس للناس، فما سُئِلَ عن شيء إلا قال: «لا حرج، لا حرج»، حتى جاءه رجل[٤]، فقال: حَلقتُ قبل أن أنحر، قال: «لا حرج»، ثم جاء آخر، فقال: يا رسول الله، حلقتُ قبل أن أرميَ، قال: «لا حرج»[٥]، ثم قال رسول الله

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٢٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٤٧٥).
(٣) قال السندي في شرحه للمسند (٨/ ٨٢): نَحَرَ: أي: بمنًى في حجة الوداع.
(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٩٧): لم أقف على اسمه بعد البحث الشديد، ولا على اسم أحد ممن سأل في هذه القصة، وسأُبين أنهم كانوا جماعة، لكن في حديث أسامة بن شريك عند الطحاوي وغيره: كان الأعراب يسألونه، وكأن هذا هو السبب في عدم ضبط أسمائهم.
(٥) قال السندي في شرحه للمسند (٨/ ٨٢): قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا حرج»، يدل على عدم وجوب الترتيب.





صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عرفةُ كلها موقف، والمزدلفة كلها مَوقِف، ومنًى كلها مَنحَر، وكلُّ فِجاج مكة طريقٌ ومَنحَر»[1].



﴿ لُبسُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثيابه وتَطيُّبُه ﴾

ثم لبس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثيابه، وتطيَّب بعدما رمى جمرة العقبة ونحر هَدْيَه، وقبل أن يطوف بالبيت طواف الإفاضة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما والترمذي -واللفظ للترمذي- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: طيبتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يُحرِمَ، ويومَ النَّحْرِ قبل أن يطوف بالبيت، بطيبٍ فيه مِسكٌ[2].

قال الإمام الترمذي في جامعه: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم؛ يَرون أن الـمُحرِمَ إذا رمى جَمرة العقبة يوم النحر، وذبح، وحَلَقَ أو قَصَّرَ؛ فقد حَلَّ له كل شيء حَرُم عليه، إلا النساء، وهو قول الشافعي، وأحمد، وإسحاق[3].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٤٩٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٣٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١١٨٩) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٩٣٤).
(٣) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٤٢٢).



طوافه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإفاضةَ وإقامته بمنًى

ثم طاف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طواف الإفاضة على ناقته؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ثم ركب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأفاض إلى البيت(١)، فصلى بمكة الظهر(٢).

وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: طاف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمِحْجَنِه(٣).

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: طاف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبيت في حجة الوداع على راحلته، يستلم الحَجَر بمِحْجَنِه(٤)؛ لأن يراه الناس، وليُشرِفَ ولِيسألوه؛ فإن الناس غَشُوه(٥).

---

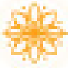
(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١٥٧): هذا الطواف هو طواف الإفاضة، وهو ركن من أركان الحج بإجماع المسلمين.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١٨) (١٤٧).

(٣) المحْجَن: عصا مُعَقَّفة الرأس. انظر: النهاية (١/ ٣٣٥).
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٦٠٧) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٧٢).

(٤) زاد الإمام مسلم في رواية أخرى - رقم الحديث (١٢٧٥) عن أبي الطفيل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ويُقبِّل المحْجَن.

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١٧): غَشُوه: أي ازدحموا عليه.
والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٧٣).



ثم صلى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهـر بمكة، ورجع من يومه إلى منًـى، وفي رواية أخـرى أنه صلى الظهر بمنى؛ فقد روى الإمام مسـلم في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنًى[(١)].

قال الإمام النـووي: والجمع بينهما أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاف للإفاضة قبـل الزوال، ثم صلى الظهر بمكة في أول وقتها، ثم رجع إلى منًى فصلى بهـا الظهر مرة أخرى بأصحابه حين سـألوه ذلك، فيكـون متنفِّلًا بالظهر الثانية التي بمنًى[(٢)].

وكان رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي الجِمار في أيام التشـريق الثلاثة بعد زوال الشـمس، ماشـيًا، فيرمي كل جمرة بسـبع حصَيات؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: رجع رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مِنًى[(٣)]، فمكـث بها لياليَ أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يُكبِّرُ مع كل حصاة، ويقف عند الأولى والثانية، فيُطيل القيام ويتضرع، ويرمي الثالثة ولا يقف عندها[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٧٣).
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ١٥٨).
(٣) وذلك بعد إفاضته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديث (٢٤٥٩٢) - وأبو داود في سُـننه - رقم الحديث (١٩٧٣).

وروى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رمى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجمرة الأولى يوم النحر ضُحًى، ورماها بعد ذلك عند زوال الشمس[١].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رمى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجمار[٢] حين زالت الشمس[٣].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه كان يرمي الجمرة الدنيا[٤] بسبع حصيات يُكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم حتى يُسْهِل[٥]، فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلًا، ويدعو ويرفع يديه، ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذاتَ الشِّمال، فيُسْهِل ويقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلًا ويدعو، ويرفع يديه ويقوم طويلًا، ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف، فيقول: هكذا رأيتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعله[٦].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٩٩) (٣١٤) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٣٥٤).

(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٣/ ١٣٣): أي: في غير يوم النحر.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٣٥).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٤١٣): الدنيا -بضم الدال وبكسرها- أي القريبة إلى جهة مسجد الخَيف، وهي أول الجمرات التي تُرمى من ثاني يوم النحر.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٤١٣): يُسْهِل -بضم أوله، وسكون المهملة- أي: يقصد السَّهلَ من الأرض، وهو المكان المصطحب الذي لا ارتفاع فيه.

(٦) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥١).



﴿ نزول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُحَصَّب[1] وطوافُه الوداعَ ﴾

ثم نهض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من منًى في آخر يوم من أيام التشريق، فأفاض إلى الـمُحَصَّب، وهو الأَبْطَح، وهو خَيفُ[2] بني كِنانة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما وأبو داود -واللفظ لأبي داود- عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: إنما نزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـمُحَصَّبَ؛ ليكون أسمح لخروجه، وليس بسُنَّة، فمن شاء نزله، ومَن شاء لم ينزله[3].

وكان أبو رافع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على ثَقَل[4] النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضرب قبة، فنزل بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي رافع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لم يأمرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أنزل الأبطح حين خرج من منى، ولكني جئت فضربت فيه قبة، فجاء فنزل[5].

---

(١) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٥٠٠): المُحَصَّب: بفتح الحاء والصاد.
وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٣٧٩): المُحَصَّب: هو الشِّعب الذي مخرجه إلى الأبطح بين مكة ومنًى.

(٢) الخَيْف -بفتح الخاء وسكون الياء-: هو ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل، ومسجد منى يُسمى مسجد الخَيْف؛ لأنه في سفح الجبل. انظر: النهاية (٢/ ٨٨).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣١١) (٣٣٩) - وأبو داود في سننه - رقم الحديث (٢٠٠٨).

(٤) الثَّقَل -بفتح الثاء والقاف-: متاع المسافر. انظر: النهاية (١/ ٢١١).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣١٣).



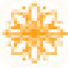
فأقام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمُحَصَّب بقية يومه ذلك وليلته، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رَقدةً هناك؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رَقدةً بالمُحَصَّب، ثم ركب إلى البيت فطاف به[1].

وروى الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده وأبو داود -واللفظ لأحمد- عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمُحَصَّب[2]، ثم هجع[3] هَجعةً، ثم دخل فطاف بالبيت[4].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: نفرنا من مِنى فنزلنا المُحَصَّب، فدعا[5] عبدَ الرَّحمنِ[6]، فقال: «اخرُجْ بأختك فلتُهِلَّ بِعُمرة، ثم افْرُغا من طوافكما، أنتَظِرُكما هاهنا»، قالت: فأتينا في جوف الليل، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فرغتُما؟» قلت: نعم،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥٦).
(٢) في رواية أبي داود، ورواية أخرى في المسند: بالبَطحاء.
(٣) الهَجع والهَجْعة والهَجِيع: طائفة من الليل، والهُجوع: النوم ليلاً. انظر: النهاية (٥/ ٢١٤).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٦٨) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٥٧٥٦) (٥٨٩٢) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (٢٠١٣).
(٥) يعني: رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٦) هو ابن أبي بكر الصديق، أخو عائشة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.



فنادى بالرحيل في أصحابه، فارتحل الناس ومَن طاف بالبيت قبل صلاة الصبح، ثم خرج متوجهًا إلى المدينة[١].

وفي لفظ آخر في الصحيحين، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: فلما قضينا الحج[٢] أرسلني رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلى التنعيم[٣]، فاعتمرت، فقال: «هذه مكانُ عمرتك»[٤]، قالت: فطاف الذين أهلُّوا بالعمرة بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم حلُّوا، ثم طافوا طوافًا آخر بعد أن رجعوا من مِنًى، وأما الذين جمعوا الحج والعمرة فإنما طافوا طوافًا واحدًا[٥].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٨٨).

(٢) في رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (١٦٣٨): حَجَّنَا.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٤٤٤): التَّنْعِيم -بفتح المثناة، وسكون النون، وكسر المهملة-: مكان معروف خارج مكة، وهو على أربعة أميال من مكة.

(٤) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٨/ ١١٤): معناه: أنها أرادت أن يكون لها عمرة منفردة عن الحج كما حصل لسائر أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابة الذين فسخوا الحج إلى العمرة وأتموا العمرة وتحللوا منها قبل يوم التروية، ثم أحرموا بالحج من مكة يوم التروية، فحصل لهم عمرة منفردة وحجة منفردة، وأما عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فإنما حصل لها عمرة مندرجة في حجة بالقِران، فقال لها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم النفر: «يَسَعُك طوافُك لحجك وعمرتك»، أي: وقد تمَّا وحُسِبا لكِ جميعًا، فأبت وأرادت عمرة منفردة كما حصل لباقي الناس، فلما اعتمرت عمرة منفردة قال لها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هذه مكان عمرتك»، أي التي كنت تريدين حصولها منفردة غير مندرجة فمَنَعَكِ الحيضُ من ذلك.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٣٩٥) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢١١) (١١١).



الرخصة للحائض في ترك طواف الوداع

ورخص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحائض في ترك طواف الوداع؛ فقد روى الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: حاضت صفية بنت حُيَيٍّ بعدما أفاضت، فذكرتُ حيضتها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحابِسَتُنا هي؟!» قلت: يا رسول الله، إنها قد كانت أفاضت وطافت بالبيت، ثم حاضت بعد الإفاضة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فلتَنفِرْ»[(١)].

قال الإمام الترمذي في جامعه: والعمل على هذا عند أهل العلم؛ أن المرأة إذا طافت طواف الزيارة[(٢)]، ثم حاضت؛ فإنها تنفِرُ، وليس عليها شيء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق[(٣)].

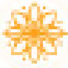


رجوعُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة واستصحابُه ماء زمزم

ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسفل مكة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٥٧) (٤٤٠١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٢٨) (٣٨٢).
(٢) ويُسمى طوافَ الإفاضة، وطواف الصَّدَر.
(٣) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٤٤).



مكة دخل من أعلاها وخرج من أسفلها[1].

وقال ابن سـيد الناس: فكانت مدةُ إقامته عليه الصلاة والسلام بمكة منـذ دخلها إلى أن خرج منها إلى مِنًى إلـى عرفة إلى مزدلفة إلى مِنًى إلى الـمُحَصَّب إلى أن وَجَّه راجعًا: عشرةَ أيام[2].

وروى الشـيخان في صحيحيهمـا عـن ابـن عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا قفل[3] من غزو أو حَجٍّ أو عمرةٍ يُكبِّرُ على كل شَـرَفٍ[4] من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شـريك لـه، له الملك وله الحمد وهو على كل شـيء قديـر، آيبون[5] تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[6].

وروى الإمام الترمذي في جامعه والحاكم في مسـتدركه بسـند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها كانت تحمِلُ من ماء زمزم، وتُخبر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحمِلُه[7].

---

(١) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (١٥٧٧) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٢٥٨) (٢٢٤).

(٢) انظر: عيون الأثر (٢/ ٣٦٨).

(٣) قفل: رجع. انظر: النهاية (٤/ ٨٢).

(٤) الشَّرَف: العلو. انظر: النهاية (٢/ ٤١٤).

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ٩٥): آيبون: أي: راجعون.

(٦) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديث (١٧٩٧) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (١٣٤٤).

(٧) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (٩٨٤) - والحاكم في مستدركه - =

بَعْثُ جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أُبْنَى[(١)]

قال الإمام البخاري في صحيحه: باب بَعْث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مرضه الذي تُوفي فيه[(٢)].

وقال ابن هشام: هو آخر بَعْثٍ بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

نَدَب[(٤)] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لغزو الشام، وذلك في يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة[(٥)]، وأَمَّرَ على هذا البعث أسامةَ بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثماني عشرة سنة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثًا، وأَمَّرَ عليهم أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(٦)].

قال ابن إسحاق: ثم قَفَلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٧)]، فأقام بالمدينة

= رقم الحديث (١٨٠٣).

(١) قال الإمام السُّهيلي في الروض الأنف (٤/ ٣٨٥): أُبْنَى: هي القرية التي عند مؤتة حيث قُتِلَ أبوه زيد؛ ولذلك أَمَّرَهُ على حداثة سنه ليُدرِكَ ثأرَه.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٨/ ٥٠١).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٨).

(٤) يُقال: نَدَبْتُه فانتَدَب: أي: بعَثْتُه ودعوتُه فأجاب. انظر: النهاية (٥/ ٢٩).

(٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٤٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٣٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٢٦).

(٧) أي: رجع من حجة الوداع.



بقيـة ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وضرب على الناس بعثًا إلى الشـام، وأَمَّرَ عليهم أسـامة مولاه بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأمره أن يُوطِئَ الخيل تخومَ البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهَّز الناس، وأوعب[1] مع أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا المهاجرون الأولون[2].

وقد تكلم الناس في إمرة أسـامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بسـبب حَداثة سنه، فلما بلغ ذلك رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قام في الناس خطيبًا كما سيأتي.

قـال الحافـظ ابـن كثيـر: والصِّدِّيـق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُصلي بالنـاس بنصه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليـه، واسـتثنائه له من جيش أسـامة الـذي كان قد جهَّزه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى الشام لغزو الروم[3].

مضى أسـامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بجيشه وعسـكر بالجُرْف[4]، ولكنه لم يمض إلى الشام بسبب ابتداء مرض النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قـال ابـن إسـحاق: فبينـا النـاس علـى ذلـك[5] ابتُـدئ رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشَـكْوه الـذي قبضـه الله فيـه، إلى مـا أراد به مـن كرامته ورحمته[6].

---

(١) أوعب: أي: لم يتخلف منهم أحد عنه. انظر: النهاية (٥/ ١٧٩).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٦٢) (٤/ ٢٩٨).
(٣) انظر: الفصول في سيرة الرسول، ص (٢٥٩).
(٤) الجُرْف -بضم الجيم-: موضع قريب من المدينة. انظر: النهاية (١/ ٢٥٤).
(٥) أي: من التجهُّز والاستعداد للخروج في بعث أسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٩).



وقال الإمام الذهبي: أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، استعمله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جيش لغزو الشام، وفي الجيش عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والكِبار، فلم يَسِرْ حتى تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبادر الصِّدِّيقُ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببعثهم، فأغاروا على أُبْنَى من ناحية البلقاء[2].

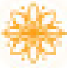


ابتداء مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال الحافظ ابن كثير: سنة إحدى عشرة من الهجرة، استهلَّت هذه السنة وقد استقر الرِّكاب الشريف النَّبَوي بالمدينة النَّبَوية المُطهَّرة مَرجِعَه من حجة الوداع، وقد وقعت في هذه السنة أمور عظام؛ من أعظمها خطبًا: وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ نقله الله عَزَّ وَجَلَّ من هذه الدار الفانية إلى النعيم الأبدي في محلَّةٍ عالية رفيعة، ودرجةٍ في الجنة لا أعلى منها ولا أسنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾[3].



(١) وذلك في خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٩٧).
(٣) سورة الضحى - الآيتان (٤-٥) - وانظر: كلام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٢٦).



تاريخ ابتداء شكوى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال ابن إسـحاق: ابتدئ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشَكْوِه الذي قبضه الله فيـه، إلـى ما أراد به من كرامته ورحمته، في ليـال بقين من صفر، أو في شهر ربيع الأول[1].

وقال الحافظ في الفتح: اختُلِفَ في مدة مرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يومًا[2].

ابتَدَأ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَعُه في بيت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان وجعًا في رأسه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسـنده والبيهقي في دلائل النبوة -واللفظ للبيهقي- بسند حسـن عن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل عليَّ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهـو يُصَـدَّعُ، وأنا أشـتكي رأسـي، فقلت: وارأسـاه! فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل أنا والله -يا عائشـة- وارأسـاه!»، ثم قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومـا عليكِ لو مُتِّ قبلي فوَلِيتُ أمـرَكِ، وصليتُ عليك، ووارَيتُكِ؟!»[3]، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: والله إني لأحسَبُ أنه لو كان ذلك، لقد

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٧٣).

(٣) واريْتُ الشَّيءَ: أخفَيتُه. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨٣).
قلت: والمعنى: دفَنْتُكِ. =



خلوتَ ببعض نسائك في بيتي آخِرَ النهار، فأعرَسْتَ بها! فضحك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثـم تمادى برسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه، فاسـتقر برسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يدور على نسائه في بيت ميمونة، فاجتمع إليه أهله[1].



تمريض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

قالت عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وتتامَّ برسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه، وهو يدور على نسـائه، حتى اسـتعزَّ به[2]، وهو في بيت ميمونة، فدعا نسـاءه، فاستأذنهن في أن يُمرَّض في بيتي، فأذِنَّ له[3].

وروى الشـيخان في صحيحيهمـا -واللفـظ لمسـلم- عـن عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: أول ما اشتكى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت ميمونة، فاسـتأذن[4] أزواجَه أن يُمرَّضَ في بيتها[5]، وأَذِنَّ له، قالت: فخرج وَيَدٌ له

= وفي رواية الإمام أحمد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ضَرَّكِ لو متِّ قبلي، فغسَّلْتُك وكفَّنتُك، ثم صليتُ عليكِ، ودفنْتُكِ؟!».

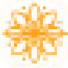
(١) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده - رقم الحديـث (٢٥٩٠٨) - والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٦٩).

(٢) استعَزَّ به: أي اشتدَّ به المرض. انظر: النهاية (٣/ ٢٠٦).

(٣) أخرج ذلك عنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٣٠٠) وإسناده حسن.

(٤) يعني: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١١٧): يعني: بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.



علـى الفضل بن عباس[(١)]، وَيَدٌ له على رجـل آخر[(٢)]، وهو يَخُطُّ برجليه في الأرض[(٣)].

وفي لفظ آخر في المسـند بسـند حسـن، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مَـرَّ ببابي ممَّـا يُلقي الكلمـةَ ينفع الله عَزَّ وَجَلَّ بهـا، فَمَرَّ ذات يوم، فلم يَقُلْ شـيئًا، ثم مَرَّ أيضًا فلم يقل شـيئًا -مرتين أو ثلاثًـا- قلتُ: يا جارية، ضعي لي وسـادة على الباب، وعَصبتُ رأسـي، فَمَرَّ بي، فقال: «يا عائشـةُ ما شـأْنُكِ؟» فقلتُ: أشتكي رأسي، فقال: «أنا وارأسـاه!»، فذهب، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جيء به محمولًا في كساء، فدخل عليَّ وبعث إلى النسـاء، فقال: «إني قد اشـتكيتُ، وإني لا أستطيع

---

(١) في رواية الإمام البخاري في صحيحه - ورواية أخرى في صحيح مسـلم - رقم الحديث (٤١٨) (٩٢): العباس بن عبد المطلب.

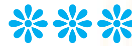
* قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١١٧): وجاء في غير مسلم بين رجلين أحدهما: أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطريق الجمع بين هذا كله: أنهم كانوا يتناولون الأخذ بيـده الكريمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تارة هذا، وتارة ذاك وذاك، ويتنافسـون في ذلك، وهؤلاء هم خواص أهل بيته الرجال الكبار، وكان العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثرهم ملازمة للأخذ بيده الكريمة المباركة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أنه أدام الأخذ، وإنما يتناوب الباقون في اليد الأخرى، وأكرموا العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باختصاصه بيده، واستمرارًا لما له من السِّنِّ والعمومة وغيرهما؛ ولهذا ذكرته عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مسمًّى وأبهمت الآخر؛ إذ لم يكن أحد الثلاثة الباقين ملازمًا في جميع الطريق، ولا معظمه بخلاف العباس، والله أعلم.

(٢) هو علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١١٨): قولها: يخطُّ برجليه في الأرض: أي لا يستطيع أن يرفعهما ويضمهما ويعتمد عليهما.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٩٨) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٤١٨) (٩١).

أن أدور بينكن، فائذَنَّ لي فلأَكُنْ عند عائشة»[1].

زاد أبو داود في سننه: فأَذِنَّ له.



شدة الوجع على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

اشتدت الحُمَّى على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إن حرارتها لتوجد من فوق الثياب!

فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: دخلتُ على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2] وهو يُوعَكُ[3]، فمَسِسْتُه بيدي، فقلتُ: يا رسول الله إنك تُوعَكُ وَعْكًا شديدًا، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجَلْ، إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلان منكم»، فقلتُ: ذلك أنَّ لك أجرينِ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجل»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مسلم يُصيبه أذًى مِن مرضٍ فما سواه، إلا حَطَّ الله به سيئاته، كما تَحطُّ الشجرةُ ورقها»[4].

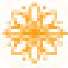
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٨٤١) - وأخرجه مختصرًا جدًا: أبو داود في سُننه - رقم الحديث (٢١٣٧).

(٢) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٥٦٤٧): في مرضه.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥٠): الوَعْك -بفتح الواو، وسكون العين المهملة-: الحُمَّى.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٦٦٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٧١).



وروى ابن ماجه والحاكم بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلتُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُوعَك[(١)]، فوضعتُ يدي عليه، فوجدتُ حَرَّهُ بين يديَّ فوق اللحاف! فقلت: يا رسول الله، ما أشدَّها عليك! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا كذلك[(٢)]؛ يُضعَّف لنا البلاء ويُضعَّفُ لنا الأجر»، قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشد بلاءً؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأنبياء»، قلت: يا رسول الله، ثم مَن؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليُبتلَى بالفقر، حتى ما يجِدُ أحدهم إلا العباءة يَجُوبُها[(٣)]، وإن كان أحدهم ليَفرَحُ بالبلاء كما يَفرح أحدكم بالرخاء!»[(٤)].

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: ما رأيتُ أحدًا أشد عليه الوجع[(٥)] من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)].

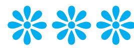


---

(١) في رواية الحاكم: محموم.
(٢) زاد الحاكم: «مَعْشَرَ الأنبياءِ».
(٣) يَجُوبها: يلبَسُها. انظر: النهاية (١/ ٢٩٩).
(٤) أخرجه ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٤٠٢٤) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (١٢٠) (٨٠٤٥) - وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم الحديث (١٤٤) وصححه.
(٥) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٤٩): المراد بالوجع: المرض، والعرب تُسمي كل وجع مرضًا.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٥٦٤٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٥٧٠).

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هريقوا عليَّ سبع قِرَب»

ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم أن يصبُّوا عليه الماء ليعهد إلى الناس؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دخل بيتي واشتدَّ به وجعه، قال: «هريقوا عليَّ من سَبعِ قِرَبٍ[1] لم تُحْلَلْ أوكِيَتُهنَّ[2]؛ لعلِّي أعهد إلى الناس»، فأجلسناه في مِخضَبٍ[3] لحفصة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم طَفِقْنا نَصُبُّ عليه من تلك القِرَب، حتى طفق[4] يُشير إلينا بيده أن قد فعَلْتُنَّ، قالت: ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم[5].



ذِكْرُ فضل أبي بكر والأنصار وأسامة

ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته فضل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأسامة بن زيد وأبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفضل الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن

---

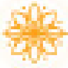
(١) القِرَب: جمع قِرْبة؛ وعاءٌ من جِلد، يستعمل لحفظ الماء واللبن ونحوهما. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٧٢٣).

(٢) الوِكاء -بكسر الواو- هو الخيط الذي يشَدُّ به رأس القربة. انظر: النهاية (٥/ ١٩٣).

(٣) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٠٢): المِخْضَبُ -بكسر الميم، وسكون الخاء المعجمة، وفتح الضاد المعجمة-: الإناء الذي يُغسَل فيه الثياب.

(٤) طَفِق: جعل. انظر: النهاية (٣/ ١١٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيح - رقم الحديث (١٩٨) (٤٤٤٢).



رســول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس علــى المنبر[١]، فقال: «إن عبـدًا خَيَّره الله بين أن يُؤتيه من زهرة الدنيا ما شــاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، فبكى أبــو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: فديناك بآبائنـا وأمهاتنا، فعجبنا له! وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يُخبر رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد خَيَّرهُ الله بين أن يُؤتيــه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رســولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الـمُخَيَّرَ، وكان أبــو بكر هو أعلَمَنا به، فقال رســول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن مِن أَمَنِّ النـاس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلا[٢] من أُمتي لاتخذتُ أبا بكر[٣]، إلا خُلَّةَ[٤] الإسلام، لا يبقينَّ في المسجد خَوخةٌ[٥] إلا خَوخةُ أبي بكر»[٦].

---

(١) في رواية أخرى عنه في مســند الإمام أحمد - رقم الحديث (١١٨٦٣) بســند صحيح - قال: خرج علينا رســول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي مات فيه، وهو عاصب رأســه، فاتَّبعتُه حتى صَعِد على المنبر.
قال الســندي في شــرحه للمســند (٧/ ٦٢): قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فاتَّبعْتُــه: صيغة المتكلم من اتَّبع - بالتشديد- كأنه ذكره للتنبيه على تحقُّق سماعه على أحسن وجه.

(٢) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٣٦٥٤): «غَيْرَ رَبِّي».

(٣) قال الإمام النووي في شــرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٢٣): معنى الحديث: أن حُبَّ الله تعالى لم يُبْقِ في قلبه موضعًا لغيره.

(٤) الخُلَّة -بضم الخاء-: الصداقة. انظر: النهاية (٢/ ٦٨).
وفي رواية الإمام مســلم - ورواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦٥٤): «ولكن أُخُوَّة».

(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٢٤): الخَوْخَةُ -بفتح الخاء-: هي الباب الصغير بين البيتين أو الدارين ونحوه.
وفي رواية أخرى في صحيح البخاري - رقم الحديث (٣٦٥٤): «باب».

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٨٢) (٢).

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي مات فيه عاصبًا رأسه بخرقة، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنه ليس من الناس أحد أَمَنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قُحافة، ولو كنتُ متخذًا من الناس خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكِنْ خُلَّةُ الإسلام[1] أفضل، سُدُّوا عني كُلَّ خَوخةٍ في هذا المسجد غيرَ خوخة أبي بكر»[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي مات فيه بمِلْحَفةٍ[3] قد عَصَّبَ بِعصابة[4] دسماء[5]، حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد[6]؛ فإن الناس يَكثُرون ويَقل الأنصار حتى يكونوا في الناس بمنزلة المِلْح في الطعام، فمن وَلِيَ منكم شيئًا[7] يَضُرُّ فيه قومًا[8] وينفع آخرين، فلْيقبَلْ من محسِنهم ويتجاوَزْ عن مسيئِهم»، فكان آخِرَ

---

(١) قال السندي في شرحه للمسند (٢/ ٤٨٨): أي: الاقتصار عليها أفضل من التجاوز إلى خُلَّةٍ لا تليق له إلا مع الله تعالى.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٦٧).

(٣) زاد البخاري في رواية أخرى: مُتعطِّفًا بها على منكبيه.

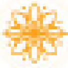
(٤) العصابة: هي كل ما عَصَبْتَ به رأسَك من عمامة أو مِنديل أو خِرقة. انظر: النهاية (٣/ ٢٢٠).

(٥) دسماء: سوداء. انظر: النهاية (٢/ ١١٠).

(٦) زاد البخاري في رواية أخرى - رقم الحديث (٣٨٠٠): «أيها الناس».

(٧) في رواية أخرى في صحيح البخاري: «أَمْرًا».

(٨) في رواية أخرى في صحيح البخاري: «أحدًا».



مجلس جلس فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام يومئذ خطيبًا[٢]، فحمد الله وأثنى عليه، واستغفر للشهداء الذين قُتِلُوا يوم أُحُد، ثم قال: «إنكم -يا معشر المهاجرين- تزيدون، وإن الأنصار لا يزيدون، وإن الأنصار عَيْبتي[٣] التي أويتُ إليها، أكرِموا[٤] كريمهم، وتجاوَزوا عن مسيئِهم[٥]؛ فإنهم قد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم»[٦].

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، وغيره من العلماء: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استبطأ الناسَ في بعث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في وجعه، فخرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أَمَّر غلامًا حَدَثًا على جِلَّة المهاجرين والأنصار! فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أيها الناس، أنفِذُوا بَعْثَ أسامة؛ فلعَمْرِي لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبلُ، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٢٨) (٣٨٠٠).
(٢) زاد الإمام أحمد في رواية أخرى: عاصبًا رأسه.
(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٩٨): أي: بِطانتي وخاصَّتي.
(٤) في رواية أخرى في المسند: «فأكرِموا».
(٥) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٦/ ٥٧): المراد بذلك فيما سوى الحدود.
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٦٠٧٥) (٢١٩٥١).
(٧) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٧).



وروى الشيخان في صحيحيهما، والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الناس، فقال: «ألا إنكم تَعيبون أسامة، وتطعنون في إمارته، وقد فعلتم ذلك بأبيه من قبل، وإن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لأَحَبَّ الناس كلهم إليَّ، وإن ابنه هذا من بعده لأَحَبُّ الناس إليَّ؛ فاستوصوا به خيرًا؛ فإنه من خياركم»[١].

❊❊❊



إمامة أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الناس

ولم يزل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حريصًا على إمامة الناس بالصلاة مع ما به من شدة الوجع، حتى غلبه الوجع وأعجزه عن الخروج؛ فعند ذلك أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أبا بكر الصديق بإمامة الناس في الصلاة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلتُ على عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فقلتُ: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قالت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: بلى، ثَقُل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «أصلى الناسُ؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: «ضعوا لي ماءً في المِخْضَب»، قالت: ففعلنا، فاغتسل فذهب لِيَنُوءَ[٢] فأُغمِيَ عليه، ثم أفاق، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أصلى الناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك

---

(١) في رواية الإمام مسلم: «صالحيكم».
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٧٣٠) (٤٤٦٩) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٢٦) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٥٨٤٨).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٠١): لِيَنُوءَ -بضم النون- أي: لِيَنهَضَ بجَهدٍ.



يا رسول الله، فقال: «ضعوا لي ماءً في المِخْضَب»، قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لِيَنُوءَ فأُغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلى الناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: «ضعوا لي ماء في المِخْضَب»، فقعد فاغتسل ثم ذهب لِيَنُوء فأُغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلى الناس؟» فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يُصلي بالناس، فأتاه الرسول[1]، فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرك أن تُصلي بالناس، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان رجلًا رقيقًا- يا عُمَرُ صَلِّ بالناس، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنت أحقُّ بذلك، فصلى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك الأيام، ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ من نفسه خِفَّةً، فخرج بين رجلين -أحدهما العباس-[2] لصلاة الظهر،

(١) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٣٧٤): أي: بلال؛ لأنه هو الذي أعلم بحضور الصلاة.

(٢) والآخر هو علي بن أبي طالب.
وفي رواية ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (١٢٣٤) بسند صحيح عن سالم بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فجاءت بَريرة ورجل آخر، فاتكأ عليهما.
وفي صحيح ابن حبان - رقم الحديث (٢١١٨) بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: فخرج بين بَريرة ونُوبة.
قال الحافظ في الفتح (٢/ ٣٧٥): ويُجمع كما قال النووي: بأنه خرج من البيت إلى المسجد بين هذين، ومَن ثم إلى مقام الصلاة بين العباس وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أو يُحمَل على التعدُّد.
* فائدة: قال الحافظ في الفتح (٢/ ٣٧٥): نُوبة: بضم النون.
وقال في الإصابة (٦/ ٣٧٧): نُوبة الأسود، مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأبـو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذهب ليتأخر، فأومـأ إليـه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـأن لا يتأخر، وقـال لهما: «أجلِسَـاني إلى جنبه»، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يُصلي وهو قائم بصلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس بصلاة أبي بكر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعد[1].



عدد الصلوات التي صلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قـال الإمام البيهقي: الذي يدل عليه حديث أم الفضل بنت الحارث، ثم حديث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة وابن عباس، ثم حديث عبـد العزيز بـن صُهيب، عن أنس بـن مالك: أن أبـا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلى بالناس صلاة العشـاء الآخرة ليلة الجمعة، ثم صلى بهم خمس صلوات يـوم الجمعة، ثـم خمس صلوات يوم السـبت، ثم خمـس صلوات يوم الأحـد، ثم صلى بهم الصبح يوم الاثنيـن، وتُوفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك اليوم، وكان قد خرج فيما بين ذلك حين وَجَدَ من نفسه خفة لصلاة الظهـر إما يوم السـبت، وإما يوم الأحـد، بعدما افتتـح أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاته بهـم، فافتتح صلاتـه، وعلقوا صلاتهم بصلاتـه، وهو قاعد وهم قيـام، وصلى مـرةً أُخرى خلف أبـي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في روايـة نُعيم بن أبي هند ومَن تابعه، فيكون جملةُ ما صلى بهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حياة النبي

---

(١) أخرجـه البخـاري في صحيحه - رقم الحديـث (٦٨٧) - ومسـلم في صحيحه - رقم الحديث (٤١٨) (٩٠).



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ما افتتحها قبل خروجه: سَبْعَ عشرةَ صلاةً»[1].



الوصايا الأخيرة

أوصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته وصاياه الأخيرة قبل وفاته بأبي هو وأمي؛ فمن ذلك:

الركوع والسجود:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كشف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «أيها الناس، إنه لم يَبْقَ من مُبَشِّرات النبوة إلا الرُّؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له، ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعَظِّموا فيه الرب عَزَّ وَجَلَّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء؛ فَقَمِنٌ[2] أن يُستجاب لكم»[3].

إحسان الظن بالله:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «لا يموتنَّ

---

(١) انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي (٧/ ١٩٧).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١٦٥): قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقَمِنٌ»: هو بفتح القاف، وفتح الميم وكسرها: لغتان مشهورتان، ومعناه: حقيقٌ وجديرٌ.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٤٧٩).





أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ»[١].

قال الإمام النووي: قال العلماء: هذا تحذير من القنوط، وحثٌّ على الرجاء عند الخاتمة، ومعنى: حسن الظن بالله تعالى: أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه[٢].

الوصية بالصلاة:

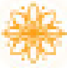
روى الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: كانت عامة وصية رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين حضره الموت: «الصلاةَ وما ملكت أيمانكم، الصلاةَ وما ملكت أيمانكم»، حتى جعل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُغَرْغِرُ بها صَدْرُه، وما يكاد يَفِيضُ[٣] بها لسانُه[٤].

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه بسند حسن عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: كان آخر كلام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[٥].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٨٧٧) (٨٢).
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٧٢).
(٣) قال الإمام البغوي في شرح السنة (٩/ ٣٥٠): يَفيضُ: هو بالصاد غير المعجمة، يعني: ما يُبِين كلامَه، يُقال: فلان ما يَفيضُ بكلمة: إذا لم يقدِرْ على أن يتكلم ببيان، وفلان ذو إفاضة: أي ذو بيان.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢١٦٩) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٢٦٩٧).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٥٨٥) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (٢٦٩٨).





النظرة الأخيرة

بات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الاثنين دَنِفًا[١]، فلما طلع الفجر أصبح مُفيقًا، فكشف ستر الحُجرة، ونظر إلى الناس وهم صفوف خلف أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فتبسم وفرح بذلك؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده -واللفظ لأحمد- عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يومُ الاثنين، كشف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتر الحُجرة، فرأى أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو يُصلي بالناس، قال: فنظرتُ إلى وجهه كأنه ورقةُ مُصحَف[٢]، وهو يتبسم، وكدنا أن نُفتَتَن في صلاتنا فرحًا لرؤية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأراد أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يَنكِصَ[٣]، فأشار إليه: أنْ كما أنت، ثم أرخى السِّتر، فقُبِضَ من يومه ذلك[٤]!



---

(١) رجل دَنِف: اشتد مرضُه حتى أشفى على الموت. انظر: لسان العرب (٤/ ٤١٧).

(٢) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١١٨): أي: عبارة عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء الوجه واستنارته.

(٣) النكوص: الرجوع إلى وراء. انظر: النهاية (٥/ ١٠١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٦٨٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٠٢٨).



استئذان أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

استبشر الناس لما رأوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصبح مفيقًا، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنه خرج من عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في وجعه الذي تُوفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارِئًا[(١)].

واستَأْذن أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الذَّهاب إلى أهله بالسُّنْحِ[(٢)]، فأَذِنَ له، وذلك بعد صلاة الصبح من يوم الاثنين الذي قُبِضَ فيه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال ابن إسحاق: قال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا نبي الله، إني أراك وقد أصبحت بنعمة من الله كما نُحبُّ، واليومُ يومُ بنت خارجة[(٣)]، أفآتيها؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نعم»، ثم دخل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخرج أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أهله بالسُّنْحِ[(٤)].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٤٧).
(٢) السُّنْح -بضم السين، وسكون النون-: موضع بعوالي المدينة فيه منازل بني الحارث بن الخزرج. انظر: النهاية (٢/ ٣٦٦).
(٣) هي حبيبة بنت خارجة الأنصارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٣١١).



اشتداد الوجع على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

اشتد الوجع على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رجع إلى الحجرة أشدَّ ما يكون، فاضطجع في حِجْرِ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وجعل يتغشَّاه الكَرْبُ الشديد، حتى تأذَّت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما ثَقُلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ: واكَرْبَ أباه! فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم!»[(١)].

زاد الإمام أحمد وابن ماجه بسند حسن قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتاركٍ منه أحدًا، الموافاةُ يوم القيامة»[(٢)].

وبينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعالج سَكَرات الموت، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مسنِدَتُه إلى صدرها، دخل عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي يده سواك رَطْب يَستَنُّ[(٣)] به، فكأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد السواك؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواكٌ رَطْبٌ يَستَنُّ به،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٦٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٤٣٤) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (١٦٢٩).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٨٥): يَستَنُّ: أي: يستاك.



فَأَبَدَّهُ[1] رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَه، فأخذتُ السواكَ فقضَمْتُه ونفَضْتُه وطَيَّبْتُه، ثم دفعتُه إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستنَّ به، فما رأيتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استنَّ استنانًا قطُّ أحسَنَ منه[2].

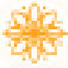


وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وبين يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكوةٌ[3] أو عُلْبَةٌ[4] فيها ماء، فجعل يُدخِلُ يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سَكَرات»، ثم نَصَبَ يديه فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى»، حتى قُبِضَ ومالت يده[5]!

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول وهو صحيح: «إنه لم يُقبَض نَبي حتى يرى مَقعَدَه من الجنة، ثم يُخَيَّرُ»، فلما نزل برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأسُه على فَخِذي، غُشِيَ عليه، ثم أفاق، فأشخص[6] بَصَرَه إلى سقف

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٨٥): فَأَبَدَّه -بتشديد الدال- أي: مَدَّ نظَرَه إليه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٣٨).
(٣) الرَّكوة -بفتح الراء-: إناء صغير من جِلد يُشرَب فيه الماء. انظر: النهاية (٢/ ٢٣٧).
(٤) قال الحافظ في الفتح (١٣/ ١٦٨): العُلْبَة: بضم المهملة، وسكون اللام، بعدها موحَّدة.
وقال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٢٥٨): العُلْبَة: قَدَح من خشب.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٤٩) (٦٥١٠).
(٦) قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٥/ ١٧٠): فأشخَصَ: هو بفتح الخاء، أي: رَفَعَه إلى السماء.



البيت، ثم قال: «اللهم الرفيقَ الأعلى»، فقلت: إذًا لا يختارُنا، وعرفتُ أنه الحديث الذي كان يُحَدِّثُنا به وهو صحيح، فكان آخر كلمة تكلم بها: «اللهم الرفيقَ الأعلى»[1]!

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كنتُ مُسنِدَتَه إلى صدري -أو قالت: حَجْري- فدعا بطَسْتٍ، فلقد انخَنَث[2] في حَجْري، فما شعَرْتُ أنه قد مات[3]!

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: فبينما رأسه على منكبي إذ مال رأسه نحو رأسي، فظننتُ أنه يريد من رأسي حاجةً، فخرَجَت من فيه نُطفةٌ باردةٌ، فوقَعَت على ثُغْرة[4] نحري[5]، فاقشعَرَّ لها جلدي، فظننتُ أنه غُشِيَ عليه، فسَجَّيتُه[6] ثوبًا[7]!

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُبِضَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأسه بين سَحْري ونَحْري، فلما خرَجَت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٣٧) (٤٤٦٣) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٤٤٤) (٨٧).

(٢) انخنث: مال وانثنى لاسترخاء أعضائه عند الموت. انظر: النهاية (٢/ ٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٢٧٤١) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٦٣٦).

(٤) الثُّغْرة: نُقْرة النحر فوق الصدر. انظر: النهاية (١/ ٢٠٨).

(٥) النَّحر: أعلى الصدر. انظر: النهاية (٥/ ٢٣).

(٦) سَجَّيْتُه: غَطَّيتُه. انظر: النهاية (٢/ ٣١٠).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٨٤١).



نفسُه لم أجِدْ ريحًا قطُّ أطيبَ منها[(١)].

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت: إن من نِعَمِ الله عليَّ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تُوفي في بيتي وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته[(٢)]!



الوقتُ الذي تُوفي فيه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعُمُرُه

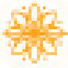
تُوفِّي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرةَ للهجرة.

قال الحافظ في الفتح: كانت وفاته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعًا، وعند ابن إسحاق والجمهور أنها في الثاني عشر[(٣)] منه[(٤)].

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه في سُننه بسند صحيح، عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: آخِرُ نظرة نظرتُها إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كَشَف السِّتارة يوم الاثنين، فنظرتُ إلى وجهه كأنه ورقة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٤٩٠٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٤٩).
(٣) قال الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٦٠): المشهور أنه الثاني عشر.
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٧٣).



مصحف، والناس خلف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصلاة[١]، فأراد أن يتحرك فأشار إليه: أنِ اثبُتْ، وألقى السِّجْفَ[٢]، ومات من آخر ذلك اليوم[٣]!

وقال ابن إسحاق: تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اشتد الضَّحَاءُ من ذلك اليوم[٤].

قال الحافظ في الفتح: ويُجمع بينهما بأن إطلاق الآخر بمعنى ابتداء الدخول في أول النصف الثاني من النهار، وذلك عند الزوال، واشتداد الضُّحى يقع قبل الزوال، ويستمر حتى يتحقق زوال الشمس، وقد جزم موسى بن عقبة عن ابن شهاب بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات حين زاغت الشمس، وكذا لأبي الأسود عن عروة؛ فهذا يُؤيد الجمع الذي أشرتُ إليه[٥].

وكان عمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم توفي ثلاثًا وستين سنة؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوفي وهو ابن ثلاث وستين[٦].

---

(١) هي صلاة الفجر كما وقع ذلك مصرَّحًا به في رواية الإمام البخاري - رقم الحديث (٧٥٤).
(٢) قال السندي في شرحه للمسند (٧/ ١٢٩): السِّجْف -بكسر السين، وسكون الجيم-: هو السِّتر.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٠٧٢) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (١٦٢٤) - وأخرجه بنحوه: الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٧٥٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٤١٩) (٩٨).
(٤) يعني: من يوم الاثنين. وانظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٢).
(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٩١).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٥٣٦) (٤٤٦٦) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٤٩).



وروى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: بُعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عشر سنين[1]، ومات وهو ابن ثلاث وستين[2].

قال الإمام البيهقي: ورواية الجماعة عن ابن عباس في ثلاث وستين: أصحُّ؛ فهم أوثق وأكثر، وروايتهم توافق الرواية الصحيحة عن عروة، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وإحدى الروايتين عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والرواية الصحيحة عن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو قول سعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وأبي جعفر محمد بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[3].

وقال الإمام النووي: ثلاث وستون هي أصحُّها وأشهرها، رواه مسلم هنا في رواية عائشة، وأنس، وابن عباس -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ- واتفق العلماء على أن أصحها ثلاث وستون[4].

وقال الحافظ ابن كثير: أما إقامته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالمدينة عشرًا، فهذا مما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة، فالمشهور ثلاث عشرة

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٣٦): أي: أقام مهاجرًا عشر سنين، وهو كقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٩٠٢) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٢٣٥١).

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٢٤١).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٨١).

سنة؛ لأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أوحِيَ إليه وهو ابن أربعين سنة، وتُوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح[1].



هَوْل الفاجعة

قال الحافظ ابن كثير: فاشتدت الرَّزِيَّة[2] بموته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَظُمَ الخَطْب وجَلَّ الأمر، وأُصيب المسلمون في نبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]!

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: جاء عمر والمغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فاستأذنا، فأذنتُ لهما، وجَذَبتُ إليَّ الحجاب، فنظر عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إليه، فقال: واغَشْياه، ما أشد غَشْيَ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! ثم قاما، فلما دَنَوَا من الباب، قال المغيرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا عمر، مات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قال: كذَبْتَ، بل أنت رجل تَحُوسُك[4] فتنة! إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يموت حتى يُفني اللهُ عَزَّوَجَلَّ المنافقين[5]!

وفي لفظ آخر في صحيح البخاري، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فقام

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٠).
(٢) الرَّزِيَّة: المُصيبة. انظر: لسان العرب (٥/ ٢٠٠).
(٣) انظر: الفصول في سيرة الرسول - ص (٢٦١).
(٤) تحوسُك: أي: تخالِطُك وتحَثُّك على ركوبها. انظر: النهاية (١/ ٤٤٢).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٥٨٤١).

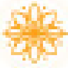
عمـر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: والله ما مات رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليبعثنَّه الله فليَقْطَعَنَّ أيديَ رجالٍ وأرجُلَهم[1]!



قدومُ أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

ثـم أقبـل أبو بكـر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المؤيَّـد المنصـور أولًا وآخرًا، وظاهـرًا وباطنًا، فأقام الأَوَد، وصدع بالحق؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: أقبل أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على فرسـه من مسـكنه بالسُّنْحِ حتى نزل، فدخل المسـجد، فلم يُكَلِّـم الناس حتى دخل على عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فتيمَّم[2] النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُسجًّى[3] بِبُرْدٍ[4] حِبَرَةٍ[5]، فكشـف عن وجهه، ثم أَكبَّ عليه فقبَّلَهُ، ثم بكى، فقال: بأبـي أنت وأمي يا نبـي الله! والله لا يجمع الله عليك موتتين[6]، أما الموتةُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٦٧).
(٢) أَمَّه: قَصَدَه. انظر: النهاية (١/ ٧٠).
(٣) مُسَجًّى: مُغَطًّى. انظر: النهاية (٢/ ٣١٠).
(٤) البُردة: نوع من الثياب معروف. انظر: النهاية (١/ ١١٦).
(٥) قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٥١): حِبَرَة -بكسر الحاء، وفتح الباء، بوزن عِنَبَة- نوع من برود اليمن مخطَّطة.
(٦) قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٥٠): هو على حقيقته، وأشار بذلك إلى الرد على مَن زعم أنه سيحيا، فيقطع أيديَ رجال؛ لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى، فأخبر أنه أكـرمُ علـى الله من أن يجمع عليه موتتين كما جمعهما علـى غيره: كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وكالذي مر على قرية، وهذا أوضح الأجوبة وأسلمها.



التي كُتِبت عليك فقد مُتَّها[1].



خطبة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الناس

ثم خرج أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الناس، وأخبرهم بموت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكلِّم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أمَّا بعدُ؛ مَن كان منكم يعبد محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت! قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[2].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فنَشَجَ النَّاسُ يَبكون[3]!

قال: واللهِ لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! فتلقاها الناس منه كلُّهم، فما أسمعُ بشرًا من الناس

(١) في رواية ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٣١٣): ذُقْتَها.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤١) (١٢٤٢) (٤٤٥٢) (٤٤٥٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤١) (١٢٤٢) (٤٤٥٢) (٤٤٥٣).
(٣) أخرج ذلك البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٦٨).



إلا يتلوها، وقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها، فعَقِرْتُ[1] حتى ما تُقِلُّني[2] رجلاي، وحتى أهويتُ[3] إلى الأرض حين سمعتُه تلاها عَلِمْتُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد مات[4].

وروى الإمام البخاري في صحيحه -مُعَلَّقًا- عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: فما كانت من خُطبتِهما من خُطبةٍ إلا نفع الله بها؛ لقد خَوَّف عمرُ الناسَ وإن فيهم لنفاقًا، فرَدَّهم الله بذلك، ثم لقد بَصَّرَ أبو بكر الناسَ الهُدَى، وعَرَّفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يَتْلون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[5].



جهاز النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وغسله وتكفينه

فلما بُويع أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالخلافة، أقبل آلُ بيت النبي

---

(١) العَقَر -بفتحتين-: هو أن يفجَأه الرَّوْعُ فيَدهَش ولا يستطيعَ أن يتقدَّمَ أو يتأخَّرَ. انظر: النهاية (٣/ ٢٤٧).

(٢) تُقِلُّني: تحمِلُني. انظر: النهاية (٤/ ٩١).

(٣) هَوَى: سقط. انظر: لسان العرب (١٥/ ١٦٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٤١) (١٢٤٢) (٤٤٥٢) (٤٤٥٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٦٦٩) (٣٦٧٠).
قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٨٥): وهذه الطريق لم يوردها البخاري إلا معلَّقةً، ولم يَسُقْها بتمامها، وقد وصلها الطبراني في مسند الشاميِّين.



صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جهازه وغسله، واختلفوا في ذلك؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سُننه بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما أرادوا غَسْلَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري كيف نصنع، أنُجَرِّدُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما نُجَرِّدُ موتانا، أم نُغَسِّلُه وعليه ثيابُه؟

قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السِّنَةَ[(١)] حتى والله ما مِن القوم من رَجُلٍ إلا ذَقَنُه في صدره نائمًا! قالت: ثم كلمهم من ناحية البيت، لا يدرون مَن هو، فقال: اغسِلوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليه ثيابه، قالت: فثاروا إليه، فغسلوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في قميصه، يُفاضُ عليه الماء والسِّدر، ويَدلُكُه الرجال بالقميص[(٢)].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن لغيره عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما اجتمع القوم لِغَسْل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس في البيت إلا أهله: عمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقُثَمُ[(٣)] بن العباس، وأسامة بن زيد بن حارثة، وصالح مولاه[(٤)]، فلما أجمعوا الغَسْلَ نادى من وراء الباب أوسُ بن

---

(١) السِّنة: النعاس من غير نوم. انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٦٣٠٦) - وأبو داود في سُننه - رقم الحديث (٣١٤١).

(٣) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٧٨٧) - قسم التراجم -: قُثَم: بضم القاف وفتح الثاء.

(٤) يعني: مولى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٥٧٧): شُقْران -بضم الشين المعجمة-=



خولي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أحد بني عوف بن الخزرج -وكان بدريًّا- عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: يا عليُّ نَشَدْتُك الله وحَظَّنا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له علي: ادخُلْ، فدخل فحضر غَسْلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَلِ من غَسْلِه شيئًا، قال: فأسنده إلى صدره وعليه قميصُه، وكان العباس والفضل وقُثَمُ يُقلِّبونه مع علي بن أبي طالب، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاهما يَصُبان الماء، وجعل عليٌّ يَغسِلُه، ولم يُرَ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء مما يُرَاهُ من الميتِ، وهو يقول: بأبي وأمي، ما أطيَبَك حيًّا وميتًا! حتى إذا فرغوا من غَسْلِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يُغسَل بالماء والسِّدر، جَفَّفُوه، ثم أُدرج في ثلاثة أثواب(١).

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كُفِّنَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة أثواب بِيضٍ سَحُوليةٍ(٢)، من كُرْسُفٍ(٣)، ليس فيها قميص ولا عِمامة(٤).

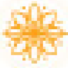
= مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشهور بهذا اللقب، واسمه صالح، وكان عبدًا حبشيًّا لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أهداه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: بل اشتراه، فأعتقه بعد بدر، وكان فيمن حضر غَسْلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومات في المدينة.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٥٧).

(٢) سَحُوليَّة -بفتح السين-: نسبة إلى قرية باليمن تُنسب إليها الثياب، ورُوِيَ بضم السين، وهو جمع سَحْل، وهو الثوب الأبيض النقي. انظر: النهاية (٢/ ٣١٣) - جامع الأصول (١١/ ٧٨).

(٣) الكُرسُف: القطن. انظر: النهاية (٤/ ١٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (١٢٦٤) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٤١) (٤٥).



قال الإمام الترمذي في جامعه: وقد رُوي في كفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روايات مختلفة، وحديث عائشة أصحُّ الروايات التي رُويت في كفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعمل على حديث عائشة عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم[1].



الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فلما كُفِّنَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُذِن للناس بالصلاة عليه فُرادى، لا يَؤُمُّهم أحد؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أبي عَسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه شهد الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: كيف نُصلي عليه؟ قال: ادخلوا أرسالا[2] أرسالًا، قال: فكانوا يدخلون من هذا الباب، فيُصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر[3].

قال الحافظ ابن كثير: وهذا الصنيع، وهو صلاتهم عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فُرادى لم يَؤُمَّهم أحد عليه: أمر مجمع عليه لا خلاف فيه[4].



(١) انظر: جامع الإمام الترمذي (٢/ ٤٨٥).
(٢) أرسالاً: أي: أفواجًا وفِرَقًا متقطِّعة، يَتْبَع بعضهم بعضًا. انظر: النهاية (٢/ ٢٠٢).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٠٧٦٦).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٧٨).

دفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دُفِنَ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الموضع الذي قُبِضَ فيه؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه بسند صحيح بطرقه وشواهده، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما قُبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلفوا في دفنه؛ فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا ما نسيتُه، قال: «ما قَبَضَ الله نبيًّا إلا في الموضع الذي يُحِبُّ أن يُدفَنَ فيه»، ادفنوه في موضع فراشه[1].

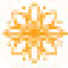
وروى الإمام الترمذي في الشمائل بسند صحيح عن سالم بن عُبيد الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالوا لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أيُدفَنُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: نعم. قالوا: أين؟ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في المكان الذي قَبَضَ الله فيه رُوحَه؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيِّبٍ[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه في سُننه بسند حسن عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بالمدينة رجل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٠٣٩).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في الشمائل - رقم الحديث (٣٩٦) - وأورده الحافظ في الفتح (٢/ ٩٦) وصحح إسناده.



يَلحَدُ وآخَرُ يَضرَحُ، فقالوا: نستخير ربنا ونبعث إليهما، فأيُّهما سَبَقَ تركناه، فأُرْسِلَ إليهما، فَسَبَقَ صاحِبُ اللَّحدِ؛ فلَحَدوا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وروى ابن حبان في صحيحه بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دخل قَبْرَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباسُ وعليٌّ والفضلُ، وَسَوَّى لَحْدَه رجل من الأنصار[2]، وهو الذي سَوَّى لحود الشهداء يوم بدر[3].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جُعِلَ في قبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطيفةٌ[4] حمراءُ[5].

وروى الإمام الترمذي في جامعه بسند حسن عن شُقران رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أنا -واللهِ- طَرَحْتُ[6] القطيفة تحت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبر[7].

وروى ابن ماجه بسند حسن لغيره عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان شُقران مولاه أخذ قطيفة كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلبَسُها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٤١٥) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (١٥٥٧).

(٢) هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما في رواية الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٣٥٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٦٣٣).

(٤) القطيفة: كساءٌ له خَمْل. انظر: النهاية (٤/ ٧٥).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٩٦٧).

(٦) طَرَحْتُ: رَمَيتُ. انظر: لسان العرب (٨/ ١٣٧).

(٧) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه - رقم الحديث (١٠٦٨).



فدفنها في القبر، وقال: والله لا يَلبسـها أحد بعدك أبدًا؛ فدُفِنَت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وكان دفـنُ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأربعـاء؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: توفي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين، ودُفِن ليلة الأربعاء[2].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: ما عَلِمْنا بدفن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى سَمِعْنا صوتَ المساحي[3] من آخر الليل ليلة الأربعاء[4]!

قال الحافظ ابن كثير: الصحيح أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث بقية يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء بكماله، ودُفِنَ ليلة الأربعاء[5].

وقال الإمام السندي: وسبب تأخير دفنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب اشتغال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالأمور العظام؛ كالبَيعة التي خافوا الفِتَن بتأخيرها[6].



---

(١) أخرجه ابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (١٦٢٨).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٤٧٩٠).
(٣) المساحي: جمع مِسحاة، وهي المِجْرَفة من الحديد. انظر: النهاية (٤/ ٢٨٠).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٤٣٣٣).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٨٤).
(٦) انظر: شرح السندي للمسند (١٤/ ٢٧٣).



من خصائص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كفنه وقبره

قال الإمام الذهبي: وأما دَفْنُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة -صلواتُ الله عليه وسلامُه- فمُختصٌّ به، كما خُصَّ ببسط قطيفة تحته في لحده، وكما خُصَّ بأن صَلَّوا عليه فُرادى بلا إمام، فكان هو إمامَهم حيًّا وميتًا في الدنيا والآخرة، وكما خُصَّ بتأخير دفنه يومين، ويُكرَه تأخير أمَّته؛ لأنه هو أُمِنَ عليه التغير بخلافنا، ثم إنهم أخَّروه حتى صَلَّوا كُلُّهم عليه داخل بيته؛ فطال لذلك الأمر، ولأنهم تردَّدوا شطر اليوم الأول في موته حتى قدم أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السُّنْح، فهذا كان سبب التأخير[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ما رأيتُ يومًا قطُّ أنورَ ولا أحسَنَ من يوم دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر المدينة[2]، وشهدتُ وفاتَه، فما رأيتُ يومًا قطُّ أظلَمَ ولا أقبحَ من اليوم الذي تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه[3]!

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه في سُننه بسند صحيح، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان اليومُ الذي دخل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، أضاء منها كلُّ شيء، فلما كان اليومُ الذي مات

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٠).
(٢) يعني: بعد الهجرة.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٢٣٤).



فيه، أظلم منها كلُّ شيء، وما نفضنا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأيدي حتى أنكرنا قلوبَنا[1]!

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قالت فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما مات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه جنةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[2]!

قلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ونُشهِدُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّ رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح للأمة، وتركَنا على المحجَّةِ البيضاء ليلُها كنهارها، وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمَّ بفضلِ الله تعالى المختَصَرُ في السِّيرة

في ليلة الاثنين - الساعة ١١:٤٠

٤ جمادى الثانية ١٤٤٢هـ

١٧ يناير ٢٠٢١م

والحمدُ لله رَبِّ العالَمين



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٨٣٠) - وابن ماجه في سُننه - رقم الحديث (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٤٤٦٢).



الفهرس



